

الحروب الصليبية

لأبي

وليم المصور

رسم

د. حسن حشني

طبعة الأولى



تاريخ المصريين ٤٥

الحروب الصليبية

تأليف

وليم الصوري

ترجمة

د. حسن حبشي

الجزء الأول





رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:
عبد العظيم الشبلي

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ - ١١٨٤ م)

الجزء الأول

تأليف

وليم الصوري

ترجمة وتقديم

د. حسن حبشي



١٩٩١

هذه ترجمة لكتاب :

A
*HISTORY OF DEEDS DONE
BEYOND THE SEA*

BY
WILLIAM OF TYRE
TRANSLATED BY
EMILY ATWATER BABCOK
&
A C. KREY

Columbia University Press
1943

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ هذا العمل العلمي العظيم ، مؤلف عظيم ، ومترجم عظيم . أما العمل فهو تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ، الذي يعرفه طلاب الدراسات التاريخية كأحد أعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب الخالدة ، وكأقدمها أيضا ، فقد رأى النور في صورته الأصلية في القرن السادس عشر الميلادي . وهو يعالج الفترة التي امتدت من عام ١٠٩٤ الى عام ١١٨٤ ، أي على مدى تسعين عاما من عمر مصر والشام ، فضلا عن بعض أقاليم أعالي العراق وآسيا الصغرى . وهذه العنزة والتي نلها على مدى قرن ونصف آخر من الزمان ، هي التي أخذت سدق فيهما من عرب أوروبا تلك الهجرات الشعبية المسلحة المتسربة بمسوح الدين والمتمسحة بالصلبب وهي التي عرفت باسم الحملات الصليبية .

أما مؤلف الكتاب فهو وليم الصوري ، الذي ولد في ١١٣٠ م ، والذي بعده بعض المؤرخين الأوروبيين واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى قاطبة . وقد توفرت له من أدوات الكتابة التاريخية ما لم يتوفر لغره ، فإلى جانب إتقانه للغة اللاتينية والفرنسية واليونانية ، والمأه بالعبرية ، فقد كان تحت يده من الوثائق ما يجعله مبرزاً في الكتابة التاريخية وحجة في عصره . وقد سغل من المناصب ما جعله جزءاً من الأحداث التي يورخ لها ، فقد كان مشرفاً على ديوان الإرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس ،

وسميراً للملك عموري في بلاط امانويل امبراطور بيزنطة ، الى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى بلغ الذروة في سلك الكهنوت ، وصار رئيس أساقفة صور . ومعنى ذلك أنه وصل الى أسمى المناصب غير الحربية في الدولة بعد الملك .

أما المرحم فهو الأستاذ الدكتور حسن حبشي ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ، الذي حصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن . واخيراً للتدريس في كلية « ساوث ايلنج » بلندن ، ودرج في سلك التدريس الجامعي في جامعة عين شمس ، مدرسا فأسنادا مساعدا ، فأسنادا لكرسى التاريخ بكلية الآداب ، ولعروفه باللغة اللاتينية والفرنسية القديمة ، فقد ترجم العديد من الكتب الى اللغة العربية ، فترجم عن اللاتينية أول وثيقة عن الحروب الصليبية ، التي سماها بالعربية « تاريخ الفرنجة وحجاج بيت المقدس » ، ثم أتبعها بترجمة حياة الملك لويس التاسع وحملاته على مصر والشام للمؤرخ الفرنسى جوفانيل ، كما ترجم عن الفرنسية القديمة كتاب « فتح القسطنطينية » على يد الصليبيين لروبرت كلارى . كما نشر مخطوطه « مضمار الحقائق وسر الخلائق » لنقى الدين الحموى ، ابن أحي صلاح الدين الأيوبي ، وفيه جزء يتعلق بمعركته في سبيل اسروداد بيت المقدس . ثم ترجم مذكرا « حودفرى فلهاردوان » الفرنسى عن الحملة الصليبية الرابعة

ونعد ترجمة الأستاذ الدكتور حسن حبشى لكتاب « الحروب الصليبية » لوليم الصوري ، التي سوف نصدرها في أربعة مجلدات ، من أهم الأعمال العلمية التي ينبت بها الأستاذ الدكتور حسن حبشى مكانته العلمية الرفيعة في بلدنا وفي العالم العربى ، وهى دليل على عظمة هذا الأستاذ الكبير الذى كرس حياته لخدمة علم التاريخ ، وتفرد الى حد كبير بقدر عظيم من الدقة العلمية التى

ترسم للجيل الجديد من مؤرخينا الشبان الطرق السليم والوحيد
للاصول الى الأستاذة بمعناها الصحيح .

لذلك لا يسعى الا أن أعرب عن شرف هذه السلسلة من
« تاريخ المصريين » بشرف هذا العمل العلمي العظيم ، الذي يهم
المتق والمعلم المخصص ويضعه في أكرم مكان من المكتبة العربية .

والله الموفق ،

رئيس التحرير

١٩٥٠ . عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

يتعلق هذا الكتاب الذى بين يدي القارىء بحفبه من الزمن امتدت من ١٠٩٤ حتى ١١٨٤ أى على طول تسعين عاما من عمر مركزى التفل فى الشرق الاسلامى وهما مصر والشام ، وينسحب ذلك - الى حد ما - على بعض أقاليم أعالي العراق وآسيا الصغرى ، وقد شهدت هذه الفترة والتي نليها - لمدة قرن آخر ونصف قرن من الزمان - جموعا كثيفة وجيوشا حاراة هى فى الواقع هجرات شعوبية أخذت تتدفق - على وجه الخصوص - من غرب أوروبا ، متسرلة بمسوح الدين ، ومتخذة لها شعارا زائفا هو « انقاذ بيت المقدس من أبدي المارقين » ، ولو صدقت لقاتل امتلاكه لنفسها واحتلالها منطقة الشرق الأدنى ناكملها بعد نربعها من أصحابها الحققة من أبا كان دينهم ومذهبهم .

والواقع أنه كانت هناك دوافع أعمق من هذه السعارات الخادعة ، ذات الرنين الدينى المحرك للسعور الغربى لا سببا بين العامة ، وكانت هذه الدوافع بكم من وراء الزخوف النى عرفت بالحملات الصليبية .

أما مؤلف هذا الكتاب فيعرفه المؤرخون منذ عصره حتى اليوم باسم « وليم » ، فإن رادوا في التعريف به قالوا « الصوري » ، وإذا رحنا سألناه من يكون أبوه فلا نحظى منه ولا ممن ترجموا له وكتبوا عنه - وهم كثيرون - بإجابة ما ، إذ يمسكون عن الرد ولو بسىء يكون مثار حوار وجدل ، وما نعه بالصوري إلا نسبه إلى المدينة المعروفة باسم صور بالساحل الشامى والتي لها تاريخ - وأى تاريخ - فى العصور المحلفة قدمها وحديثها ، فقد صار مؤرخا « وليم » رئيس أساقفتها سنة ١١٧٥ أى بعد دخول الصليبيين بلاد الشام بأكثر من ثلاثة أرباع القرن وبعد بضع سنوات فلائى من فتح الصليبين للمدينة .



أصله ونسأته :

إذا كان الناس لم يعرفوا سلسلة نسب « وليم » فابهم لم يعرفوا أيضا سنة مولده بل اختلفوا فيها اخلافا بسا ، فمنهم من عدوها سنة ١١٢٧ وعلى رأس هؤلاء المؤرخ الانجليزى « بيورى » وذلك حين قام بسر كتاب « ادوارد جيبون » عن « ندهور وسقوط الامراطورية الرومانية » ، وهو الكتاب العظيم المعداد من عمون التراث الكلاسيكى فى الأدب والتاريخ على السواء .

وأخر غيرهم سنة مولده فجعلوها سنة ١١٣٠ دون أن يجزموا جزما باتا بتلك السنة ، وذلك أنهم حين يشيرون إليها يرددون فى كلامهم عنها ويسبقونها بقولهم « حوالى سنة ١١٣٠ » ، وأيا كان عام مولده فالمتتبع لأحداث عمره التى نعرف جزءا كبيرا منها لا سسما منذ أن قارب سن التتباب يرى أنه عاش فى هذه الدنيا أكثر من نصف قرن من الزمان صرف الشطر الأخير منه طالبا للعلم سواء فى

مملكه بيت المقدس اللاتينييه أو فى هرسا وايطاليا . ومكبا على الدراسات الدينيه ومسرفا على ديوان الرسائل فى بلاط مملكة بيت المقدس اللاتينييه وسفيرا للملك عمورى الى بلاط « اماويل » امبراطور بزنطة ، الى جانب شغله لمراكز دينية ندرج فيها حتى بلغ الذروه فى سلك الكهنوت المسيحى اذ صار رئيس أساقفة صور ومات وهو يطلع فى حصره لأن يكون بطرك بيت المقدس ، ولكن ما كل ما يتمى المرء يدركه . فاذا عرفنا ذلك كله عنه نملكن العجب من جهل التاريخ لأسره جهلا حمل بعض المؤرخين المحدثين على القول بأنه كان من أسرة من عامة الناس فى القدس ، ويريد هذا الفريق أن يقول أنها لبسب من الفرسان ولا النبلاء ولا الأسراف ، بيد أن ذلك كله لم يمنعه أن يكون فى القمة من المؤرخين اد كسب ما كسب ، وأن يشغل أسمى المناصب غير الحربية فى الدولة اللاتينية بعد الملك . وأن يسبق أقرانه فى العلم والذكاء والمعرفة وسعه الاطلاع ودراسة أعماق النفس الانسانية سيفا لم يجاره فيه أحد من أئداده ومعاصريه .

على أية حال فقد أدى جهل المؤرخين بأسره الى التضارب البين فى أين كان مسوؤه والاختلاف الكبير فيه فقال بعضهم أنه ولد بالقدس بعد أن صارت مملكة ضلبيية ، ودرج على ثراها فأحبها حبا تمثل فى أن جعلها مركز كتابانه التاريخية التى اتسعت مساحتها القلمية ولكنها كانت تصدر عن تلك المدينة المبجلة فى التاريخ والموقرة عند جميع الأديان السماوية ، والتى هى عنده واسطة العقد ، لذلك نراه يطيل فى دراستها ويجعلها مسنهل كتابته التاريخية منذ أن فنحها المسلمون زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وان كان قد أوحز ايجازا شديدا فى عرضه للفترة الممتدة منذ الفتح العربى لها عام ٦١٤ م حتى اغتصبها الصليبيون سنة ١٠٩٩ م .

فاذا أخذنا بالرأى الفائل بمولده في المملكة جار لنا أن نقول أنه كان من أبناء فلسطين بعد الغزو الصليبي ، وهو فول غير بعدد عن الصحة ، لكن هذا يدفعنا للسؤال : آكان أبوه هو أيضا من أهلها ؟ ، أم أنه كان وافدا عليها ؟ ٠٠ فان كان وافدا فمتى كان ذلك ؟ وكيف كانت هيئة حضوره ؟ وهل كان مجيؤه إليها صحبة الجماعات الطارئة عليها من بلاد العرب الأوربي ؟ ٠

وفد ثارت هذه السساؤلات في أذهان كثيرين ممن برجموا له وذهبوا في ذلك الموضوع مذاهب شتى ، فمنهم من رد أباه الى أصل فرسي ، ومنهم من قال انه ايطالى ، وزعم آخرون أنه انجليزى ، وقال غير هؤلاء وهؤلاء أنه ألماني ، دون أن يبين أى واحد من هؤلاء علام كان اعماده في تقرير نسبه الى هذا القطر أو ذاك ٠

هذا النصارب الكبير في تحديد مسقط رأس الأب يرجع الى سكوت الابن « ولیم » عن هذا الجانب سكوتا مطلقا ، مما حمل مؤرخيه على أن يخلفوا في أصله حيث لم يشر هو اليه من قريب أو بعيد ، هذا على الرغم من أنه هو نفسه كان شديد الحرص على أن يورد أكثر القادة والزعماء ورجال الدين وأصحاب الأمر الذين وودت الإشارة اليهم في كتابه الى مواطنهم الأولى حتى ولو كانوا شرقيين ، مع ذكر أنسابهم في معظم الأحوال ، لكنه لم يفعل ذلك بأصله هو دانه ، مما فصح باب الاجتهاد والكهس واسعا أمام من نسبوا عنه فكان اجتهدهم أقرب الى الحدس والتخمين منه لأن يصل الى أمر مقرر ، وصار هؤلاء المجهدون شيعا وإحزابا يذهب كل منها في هذا الموضوع مذهبا يخالف ما يذهب اليه الآخرون ، وردته كل طائفة الى بلد أوربي غير البلد الذى ردنه اليه الأخرى ، هذا الى جانب من جعلوا القدس مهبط رأسه ٠

فاذا استعرضنا آراء هؤلاء الذين يردونه الى اصل أوربى عجربا معهم عن تحديد ذلك الأصل تماما ، وأول من نطالعهم هم من قالوا أنه المانى الأصل ، غير أن المطالعة الدفيعه لكاتب « وليم » الباريجى هذا تحملنا على استبعاد هذا الرأى ، لأنه حين يعرض لبعض من اشركوا فى التجريدات الصليبية من السونون « الألمان » نراه يندد بهم سديدا بالعا بسبب سوء مسلكهم وهمجبتهم الى يميظ عنها اللثام دون تحرج من جانبه أو رعايه لهم وهم على دينه ومذهبه ، كما أنه يشير الى أن بعضهم كانوا لا يسورعون عن الافساد فى بلاد « احوانهم » المسيحيين الأوربيين ، مدمرين للأرص وهاتكين للعرص وهم فى طريقهم لانقاذ احوانهم « المسيحيين الشرقيين » ٠٠٠ فلو كان وليم جرمانى السبعة لما ساولهم هذا الناول المر ولأعصى عن بعض مخازيهم أو قل من حدته عليهم .

ومما يؤكد عدم سريان الدم الألمانى فى عروقه أنه حين يعرض لمن ساهموا من الألمان فى الحملة البانيه فانه يقدم الدبل - عن عبر قصد - على جهله بأكسر المقدمين من وجوههم .



اذا كما قد استبعدنا أن يكون المأبى فهل يمكن أن يكون انجليزيا ؟

هناك لفيف من الناس يعتقدون أنه من هذه الجريره ، وهم معذورون فى اعتقادهم هذا اذ خلطوا بينه وبين شخص آخر انجليزى كان يحمل نفس الاسم ، كما أنه صار رئيس أساقفه صور ويعب أيضا لذلك « بوليم » الصورى ، ولكنه كان غير صاحب مؤلف هذا الكتاب ، ويحق لنا - بناء على ما سنقدمه حالا- أن نسميه « بوليم » الصورى « الأول » على حن نسمى مؤلف كتابنا هذا بوليم الصورى

« الباني » ، ولقد كان هذا الوليم الصوري الأول انجليزيا فجا وكان يستغل وظيفه حارس القبر المقدس في بيت المقدس والقيم عليه ، وكان مؤلفنا يعرفه ويكتب عنه في تاريخه (١) ويسى على أخلاقه ومهجه في الحياة ثناء عاطرا ، ويقول عنه بصريح العبارة أنه « انجليزى المولد » ، ثم يابح بعد قليل كلامه عنه فيسعه « بسلفنا وسلف جميعا نحن الدين جئنا من بعده » ، أى في رئاسة أسقفية صور التى كان وليم الأول رئيس أساقفتها سنه ١١٧٠ ، لذلك يؤرخ له مؤرخا ويعتبه « بسلفنا العظيم صاحب الذكر المجند » ، ثم يشير الى ذهابه الى روما لبسليم عصا الرعويه من البابا بعد أن مسح بطرك القدس بالزيت .

هذا هو بعض الجبر عن وليم الأول الصورى .

ثم ان مؤلفنا وليم الصورى الباني (صاحب الكتاب الذى بين يدى القارئ ترجمته العربية الآن) يتابع كلامه عنه مع ايراده لكامل الوثيقة التى كتبها أدریان بابا روما حينذاك لتأييد وليم الصورى الأول والتى يقول فيها الجالس على كرسى بطرس برومة موجهها الخطاب الى بطاركة المشرق وأساقفته ومطاربه : « ٠٠٠ ابا نؤمن ايماننا جازما بأن كنيسةكم الأم فى صور ستجنى منه (أى من وليم الانجليزى) أحسن الثمار ٠٠٠٠ » .

ويكتب نفس البابا خطابا الى « جورموند » بطرك القدس يقول له فيه شأن هذا الأسقف « ٠٠٠ ايماء الى خطاب محبتكم الأخوية فقد رجبا بأحيا وليم (الأول) الذى اخترتموه رئيسا لأساقفة الكنيسة فى صور » (٢) .

(١) الكتاب ١٣ ، الفصل ٢٣ .

(٢) نفس الكتاب والفصل .

لقد كان هذا الاسم « وليم » ، ونعته « برئيس أساقفة صور »
ثم تاريخ هذا الحدث ووقوعه في السبعينات من القرن الثاني عشر
دافعا الكثيرين على أن يرلوا زلة تاريخية كبرى ، ادخلوا بين الاسين
حلطا يدحسه المنتبج لتاريخ كل منهما ، ولقد رعموا ان وليم الأول
، الانجلبرى « هو نفسه وليم مؤلف تاريخنا هذا ، فقالوا أن الباني
« انجلبرى » الأصل وما هو بانجلبرىه .

وبناء على هذا التصحيح الذى سقناه فان هذه النسبة سقطت
عن صاحبنا وليم ، كما أن هذا النصحيح يحملنا على أن نقول مع
القائلين بنفى هذا الأصل الانجلبرى ، كما أنه يؤيدا فى هذا النفى
ما نراه فى كتابه هذا الذى بين يدي القارئ الآن من سديده بالانجلبرى
ممثلين فى شخص البابا أدريان الرابع - وهو انجلبرى - حيث
يصفه وليم بالمرشئ ويتهمه بالمحاباة فى الانتخابات الكنسية
مما يلم كرامنه كرجل دين يفترض فيه أن يكون الحق منهجه (٣)،
وكان هذا الهجوم العنصف من صاحبنا وليم حين آثر هذا البابا
« الانجلبرى » الأصل أحد مواطنيه وهو الكاهن « رالف » بمصعب
ليس من حقه فيقره سنة ١١٥٦ أسقف لبيت لحم ، ويرى وليم أن
بجاح رالف هذا فى « تولى شئون هذه الكنيسة العظيمة راجع الى
عطف مواطنه البابا أدريان الرابع (الانجلبرى) » (٤) .

ولا بعضا هنا قول وليم فى رالف « الأسقف » ولكن يهما
بهجمه على رالف « الانجلبرى » ، وهذا ما نسبته أيضا من ثسايا
كلامه عن هنرى الأول ملك انجلبرا ، ووصفه اياه « بمغصب العرش
المستحوذ عليه بالخديعة » ويشير الى أنه فى سبيل الاحتفاظ بهذا

(٣) ك ١٨ ، ف ٨ .

(٤) ك ، ف ١٧ .

العرس حسن كل قوى المملكة لدفع أخيه صاحب الحق اسرعى (٥)

بحلص من هذا ومن كثير غيره مما ورد في الكتاب الذي بس
أيدينا الى بهجم مؤلعه على الانجلر أو على الأقل بقده اللاذع لهم
مما يباعد بينه وبين أن يكون له عرق فيهم ، والا كان أخف نقدا
في محومه عليهم .



ودهب آخرون للقول بأنه « فرسى » الأصل ، معمدين في
ذلك على أنه فلما يرد ذكر فرنسا الا ويكون لسان ثناء عليها ومحمد
لها (٦) ، وسرى المطالع لهذه الترجمة العربية ذلك المديح في مواضع
متعددة منها . وفي رأينا أن هذا المديح هو الذي حمل دائره المعارف
الأمريكية (٧) لأن نذكر في نبذة قصيرة أنه من أبوين فرنسيين ،
على أنه يبدو أن هذا الأصل الفرنسي لم يجد استجابة من دائره
المعارف البريطانية (٨) فلم نقل به وآثرت السكوت عنه تماما ،
ولعلنا خافت ان سزلق في هوة لبس لها فرار ، ان هي ذكرت
بالنحديد ما يمكن أن يكون موطنه الأصلي ، ومن قال لا أدرى فقد
أفتى ، كما أن الدائرة لم تعتبر فرنسا الا موطن ثقافته له ، وهو
قول حق .



(٥) ك ، ٥ ، ف ١٣ ، واطر .

Private Orton . The Shorter Cambridge Medieval History vol 1,
pp 591 et Seq.

(٦) وسرى في مقدماته أنه هذا كان موقعه أيضا اراء اطالما .

American Ency Art William of Tyre (٧)

Ency Brit. Art William of Tyre (٨)

على أن ذهابه الى فرنسا كان - كما نعرف - لمنابعه دراسه للعابون ، غير أن هذا لا يهص دليلا على أنه ذو عرق فرسي والا صح أن نقول أنه ايطالى ، اذ المعروف أنه ذهب الى ايطاليا هى الأخرى أكثر من مرة ، ولكن كان ذهابه إليها هى الأخرى من أجل دراسه العابون أيضا ، كذلك ذهب الى رومة لحضور مجمع كان منعقدا بها فى أكتوبر ١١٧٨ على رأس وفد كهنوتى يضم طائفه من كبار رجال الدين منهم هرقل رئيس أساقفة قيصريه ، الى جانب أساقفة بيت لحم وسميساط وعكا وطرابلس وغيرهم (٩) .

حقيقة أن مطالعة ما كنبه وليم عن ايطاليا يبين معرفه العميقه بها ويرسم لها صورة طيبة فى ذهن القارىء ، ثم أنه كان لا يدع فرصة تمر الا وينسب اليها حتى لو لم يكن الموضع موضع حديث مباشر عنها ، ونستدل على ذلك مما قاله حين عرض لهجوم المسلمين على أحد موانئ صقلية ، اذ وجد الفرصة مناسبة للإشارة الى ايطاليا وذكر أنها ملجأ الأمان (١٠) لقوات روجر كونت صقلية ، كما أنه كان كثير النساء على الجالبات الايطالية ومساعى المدن التجارية الايطالية الحمدة فى خدمة الصالح المسحى ، فبذكر أن طائفة منهم وهم الأمالمسون كانوا قد قدموا النمسا للخليفة العاطمى بسألونه السماح لهم بقطعة من الأرض فى القدس - وقت أن كانت القدس تابعة لمصر - ليعموا لهم كنيسة فيها ، ولما كان هؤلاء الأمالقيون « أصدقاء لمصر ويحملون اليها المواد المفيدة » فقد أجابهم الخليفة لما سألوه وكان عطفه عليهم جملا تمثل فى ضخامة ما منحهم اياه ، فشبهوا ديرا عرف بدير مريم المجدلية مما جعل مؤرخنا وليم بنى

(٩) ك ٢١ ، ف ٢٦ .

(١٠) ك ١٣ ، ف ٢٢ .

على الأماثلين ثناء مستطابا ، وانسحب هذا البناء بالنالى عنده على
إيطاليا (١١) .

لكن هذا كله لا يمكن أن يحملنا على نسبه عائله الى إيطاليا -

★★★

إذا كنا قد رفضنا أن يكون فرنسيا ، ونعينا عنه أن يكون
ألمانيا ، وإنكرنا عليه أصلا انجليزيا ودحضنا الرأى القائل بأنه كان
إيطاليا ، فلا يسعنا الا أن نقول - على الترجيح - أنه كان من مواطني
مملكة بيت المقدس بل ومن مواليد القدس ، بل ونضيف الى ذلك
أن أباه كان واحدا من اثنين اما أنه ولد هو الآخر بفلسطين ونسأ
بها فكانت القدس وطننا له ولولده ولیم ، واما أنه كان من آلاف
الناس من طبقة العامة الذين وفدوا مع الجيوش الصليبية وسباهم
في حروب الفنج ثم شاء القدر أن يتخطاه القتل فيمن قتلوا في
معاركها فصار مواطنا عاديا ثم تزوج فأنجب - فيمن أنجب - مؤرخا
ولیم في سنة ١١٣٠ ، وإن قال البعض أنه ولد سنة ١١٢٧ .

وسواء أكان مولد ولیم الصورى في هذه السنة أو تلك - وإن
كما نرجح سنة ١١٣٠ - فقد تفتحت عيناه على القدس التي كانت
أول أرض مس حمله ترابها ، حتى انه لينعنها في كثير من المواضع
« بوطنى » وقل أن يسير إليها الا في اجلال وحب .

وحجب أوطان الرجال اليهمو مآرب قضاها الشباب هنالكا

وحسبنا أن نقرأ في تمهيدته لتاريخه في هذا الجزء الأول لنرى
كيف سيطر عليه حب القدس ، كما يعزو تأليفه كتابه هذا الى ذلك

الحب » وأنه استجابة لارادة هذا الوطن ونداءه شرع فى مهمة يابى الشرف التنحى عنها « (١٢) ويقصد بها وضع تاريخه .

اذا لم يكن قد وصلنا الى رأى فاطح فى أبيه : هل كان وافدا على القدس أم انه من أهلها فان رأينا حىال الابن أنه كان من مواليد القدس ، لان سنة ١١٣٠ (وحتى ١١٢٧) متأخرة نسبيا فى تاريخ الجريديات الصليبية ، اد كان قد انسلخ من عمر الزمان منذ مقدم أولاهها ثلث قرن ، تضاءلت فيه أعداد الجماعات الأوربية الوافدة ، كما أن المسيحى الأوربى الذى عاش فى فلسطين منذ أول الحملات الصليبية عد نفسه فلسطينيا ، وكان يرفض فى سريرته فى يادى الأمر بقاء الوافدين الأوربيين ولا يعتبرهم الا حجاجا ، فأما من أقاموا واحدوها سكنا لهم بدلا من ديارهم فى أوربا فقد عدتهم دخلاء مطلقين ، لسس لهم حق فى الاقامة الدائمة بها ، وأن واجبهم - اذا فرعوا من حجهم - العوده من حيب حاءوا ، لأنهم لم يجيئوا الا حجاجا وزوارا ، فاذا اننھوا من أداء سعائهم ومناسكهم وحب عليهم العودة الى ديارهم .

ان ذلك الحب الذى فى نفس مؤرخنا ولهم لهذا البلد يجعلنا نرجح أن القدس كانت مهبط رأسه فى أحد عامى ١١٢٧ أو ١١٣٠ ، أو فيما بينهما وان نشأته بالقدس جعلته يعرف كل نواحيها الطوبوغرافية والتاريخية ، فهو يذكر وقوعها فى منطقة جذباء شحبة بالماء (١٣) كما يعرف أماكنها الأثرية وما ننضح به من

(١٢) نظر التمهيد الذى قدمه وليم بين يدى كتابه هذا .

(١٣) ك ٨ ، ف ١ ، ٤ ، ٧ .

ذكر يات قديمه قد يرجع الى زمن السبي يوح (١٤) ، كما أنه قل ان يسير الى القدس - كما قلنا - الا بكلمة « وطني » ، ثم انه يحصى مواضع كثيره من صفحات كتابه هذا لذكر بطاركتها وما أحاط بكل واحد منهم من ظروف كانت تؤيده أو يعارضه (١٥) .

هذا هو مجمل القول في وليم من حيث نسبه الى القدس .

★ ★ ★

أظهر وليم مد نعوته أطفاره ميلا كبيرا للدرس والحصل ، ولابد أنه الحق ببعض مدارس عصره التي كانت ملحفة بالأديرة والكنايس ، وبعضها بقصر الملك ، وكان بلاميزتها بطبيعته الحال وفي الغالب من أبناء الطبقة العليا في المجتمع اللاتيني الغربي في المشرق ، ثم سنى له أن يتم تعليمه في فرنسا .

ويبدو أنه أظهر ولعا متزايدا بدراسة الفقه المسيحي مما جذب اليه أنظار الكيريين من رجال الكنيسة ورجال الدين ، الذين كان أكثرهم اهتماما به بطرس من أهل برشلونة باسبانيا وسنسمبه ها بطرس الاسباني أو البرسلوني وكان فيما على الآثار المسيحية والعمر كنيسة السامه ، ثم انتهى المطاف أخيرا به ليكون رئيس أساقفه صور (١٦) وكان بطرس هذا حفا بوليم راعما له ، محيطا اناه مند وقت مبكر برعايته ، مسبغا عليه عطفه ، كما أنه فربه الله ادراكا منه يمكن أن تكون لهذا الساب من عد مرموى ان وجد من

(١٤) ك ٨ ، ف ١ .

(١٥) ك ٩ ، ف ، ١٥ ، ك ١١ ، ف ٤ ، ١٥ ، ك ١٢ ، ف ٦ ، ك ١٣ ،

ف ٢٦ ، ك ١٦ ، ف ١٧ .

(١٦) الكتاب ١٦ ، ف ١٧ .

بأخذ بنده . وبدلنا هذه العبادة من حبيب بطرس الاسبانى على أنه رأى فيه يسوعا - فى حفل الدراسات الدنسه - لم يلحظه بمثل هذه الصور عند عبده ، لذلك اعزم أن يكون هو راعبه والآخذ سده فى طريق التقدم ، فكان له ما اعزم ، وحفظ ولهم له هذه اليد النضاء عنه وأشاد بلك المكرمة التى اخصه بها ، ومن هنا تعددت اشاراته اله بالاجلال فى صفحات عنه من تاريخه ، ثم ان ولم كان يرى نفسه اله فى ميدان العمل الكنسى شرفا كبيرا له ، وراد من قدره - بعد حبس - أنه كان أحد من بولوا قبله أسقفية صور ولذلك كان كبيرا ما يسر اله بقوله « سلفنا » ويرى فى ذلك مفخرة له .

وهكذا وجد ولهم فى بطرس الرجل العالم الذى يساعده على زيادة حظه من العلم والبروز فى مجال اللاهوت ، هذا الى جانب أنه كان عونا له فى الاطلاع على أمور كانت من خبايا السياسة فى المملكة .

★★★

كذلك وجد ولهم - منذ فجر شبابه - حديبا من رجل آخر من رجال الدين اعقت نظرتة اليه مع نظرة بطرس الاسبانى ، ذلك هو « فولشرز » بطرك القدس ورئيس أساقفة صور أيضا الذى يكثر مؤرخنا من الاشارة اليه والاشادة بفضلته عليه (١٧) وقد ساعده فولشرز هذا على أن يكون من بين رجال الكهنوت الذين بعث بهم الى ايطاليا لبنهلوا مزيدا من الثقافة الدينية ، فذهب الى بعض معاهدها الكبرى فى بعثة طالمت مدتها حتى بلغت عامين وذلك من عهد فصيح ١١٦١ حتى سنة ١١٦٣ ، حيث انكب مؤرخنا فى هذين العامين على

(١٧) انظر على سبيل المثال الكتاب ، ١٦ الفصول ١٧ و ١٨ و ١٩ ، والكتاب ١٨ ، الفصل الثالث .

دراسه القابون والآداب ، ثم رجع الى المملكة ليعاود سباطه فى
أسقية صور « رئيس شماسة لها » (١٨) .

ولقد انسح مجال ثقافته بفضل اتصاله المباشر بأماكن بعد من
مصادر العافه ، رادت من اطلاعه الشخصى ، ذلك أنه نسنى له
الدهاب الى بيرطه ١١٦٧ موفدا من الملك عمورى سفيراً له لدى
الامبراطور « ماويل » حتى يضمن انضمام القسطنطينية اليه فى
عسروعه الضخم لهاجمة مصر ، وعهد اليه بأن يغريه بنويع اتعافيه
بين بيرطه وبين بيب المقدس ، وانطلق ولم الى وجهه (١٩) ليجد
امبراطورها مستغولا فى الصرب من نواحي البلقان ، ولكنه أاجر
ما عهد به اليه على أحسن صورة ، وعاد فى خريف ١١٦٨ بمعاهده
بين المملكة اللاتسيه والامبراطورية الاغريقية حسب نسمية أهل ذلك
الوقت لها (٢٠) ، وقد وقع وليم من نفس الامبراطور مانويل
موفا كريماً بجلى فبما أبداه له من ود وما أعدوه عليه من
البدايا .

لم يكن لرحل مل وليم أن يمضى وقته فى برنطه دون عمل
لا سيما أن هذه الاقامة طالت حتى بلغف — كما يقال — ستة أشهر
ففضى جزءاً منها فى الاتصال برجال الكنيسة اليونانية وان كانوا
على غير مذهبه وزاده هذا الاتصال انقانا للغة البونانية .

ومن هذا نستطيع القول بأنه كان واحداً ممن يمكن أن يهال

(١٨) الكتاب العشرون الفصل الثانى .

(١٩) وليام الكتاب الثانى عشر .

(٢٠) الكتاب ٢٠ ، ف ٤ .

فيهم أنهم من علماء عصره وأعرفهم بالسياسة المحلية والدولية .
كما يمكن أن يقال ان ذهابه الى القسطنطينية كان كسبا علميا الى
جانب نجاحه الدبلوماسي .

ويتجلى لنا ما كان عليه من علم ومعرفة وثقافة من أنه استطاع
ان يبرىء ساحته عند البابا مما رماه به فردريك رئيس الاساقفة
من بهم ظالمة ، كما استطاع بعونه حخته ودلافة لسانه ، ووضوح
بيانه أن يعود من عند حليفه بطرس منصورا مرءا من كل مذمة
ونقيصة .



وأدرك من حول وليم كفاءته التي لم نغب عن عموري فعهد اليه
سنة ١١٦٩ بأن يؤلف كتابا عنه يساؤل عنه حكمه ، فقبل ذلك
عن طبيب خاطر ، وحين سرع في تدوين هذا التاريخ الذي سماه
Gesta Amalrici regis رأى فجوة لا يعرف عنها سثا الا البافه
البسير والنادر الذي تلقفه سماعا من أفواه الناس دون أن يكون
واثقا منه تمام الثقة ، أما هذه الفجوة فكانت خلال عيبه هو دانه
في بيزنطة ثم انشغال الملك في حملته على مصر التي بادر الى القيام
بها غير منظر عودة سفيره من القسطنطينية (٢١) لذلك رأى وليم
أن الأمانة التاريخية تفرض عليه أن يقف على أخسار هذه القصة
متلقعا اياها من مصادرها الأولى وفي مقدمها عموري كساهد العيان
لها وهو الذي شارك في رسمها على حين غاب هو عنها ، فلم يخل
عليه مولاة بما أراده لا سيما وقد توثقت بينهما مودة عميقة رفعت

(٢١) لم يخف على مؤرخي القصة المسلمين الدواعي والصعوبات التي كان يعرض
لها عموري حتى تعجل الرحف على مصر ، فساو لها ابن الأثير في كتابه الكامل
وأمانة الموصل ، وأبو شامة في الروصتين .

سهما كل حجاب وحملت عمورى على أن يصرح له فى ذات مرة عن
مسألة خطيرة جدا كزعيم للنصرانية وحام للصليبية ألا وهى
ما بضطرب فى صدره من حاله السكك فى أمر أجمع عليه
جميع الأديان السماوية ويكون أساسا من أسس الايمان ، ألا وهو
البعث والنسور بعد الموت .

وكاتب نه الملك فى مؤرخا عظيمه حى أنه عهد البه - حى
كلفه بوضع كتاب عن حكمه - أن يقوم على تربيته ولده وولى عهده
بولدوبن الرابع الذى لم يجاوز حينذاك التاسعة من عمره ، فاقبل
ولم على هذه المهمة بنفس راضية وظل يرعى الغلام فكريا وخلفا
وحماشا أربع سنوا مساليب لم بعصر فيها على بدل ما ينبغي عليه
بذله لصبح الغلام مؤهلا لحكم المملكة ، بل راد فكان من بين
ما درسه له الآداب الكلاسيكه القديمة ، وعلمه هو وعلمان فى مثل
عمره من أولاد النبلاء والأشراف ما ينبغي أن يتعلمه هؤلاء من
الفروسية وركوب الجمل وألعاب القوى التى تقوى فيهم الصبر على
احمال الآلام ، وأنه ليعول عن هذه الفسره « لقد كرسب نفسى طول
مدة اشرافى على تليمذى الملكى على رعايته وبذلت من أحله عانه
جهدى وحاولت تربيته خلقيا وأديبا » ثم يصف حادثا نجم للصبي
ذات يوم وهو بلعب مع أنرابه تكشف له عن اصابه بمرض خطير
استلزم من أبه علاحه بسنى الأدوية والمراهم فما أحدثت نعا
ثم بعث فى كل ناحية فى طلب أحسن المطبيين لكنهم لم يسعفوه
فى وقف هذا الداء الذى كان قد استشرى ببليدوين الصغير ، « فقد
عرفنا بعدئذ أنه سسكو من ذلك الداء الخطر الذى لا رحاء مه » (٢٢)
على حد قوله ويعنى بذلك الجذام .

هكذا نولى ولم تربية الصبي بلدوين .

على أن الذى يهمنا من فصره فيامه بسيف الغلام أنها أناحب
له الفرصة لأن يكون أكثر اتصالا بالعديد من رجال البلاط وبلاء
المملكة ، وساعده هذا الاتصال على زيادة الوقوف على ما بطلع اليه
من المعلومات التى ساعده فى تأليفه التى سيعرض لها حالا وكان
الجزء الهام من بعضها يتعلق بأحداث وقته لذلك كان عمله يتطلب
منه الاطلاع على الوثائق والمعاهدات والمراسم التى صدرت ابان تلك
الحبة ، وكذلك المراسلات التى وردت الى المملكة أو صدرت عنها
وكان عند هؤلاء الرجال الذبن أتسح له زياده الاتصال بهم ما يساعده
على أداء مهمته على أكمل وجه .



وشغل وليم وظيفة المستشار الملكى التى كان يشغلها قبله
« رالف » رئيس أساقفة بست لحم الذى كانت وفاته فى ابريل
١١٧٤ (٢٣) ، واد ذاك وقع الاحسار على مؤرخنا لحمل مكانه ، وأنه
لبقول فى ذلك « ولكى يكون هناك من يحل موضعه فى وظيفة
المراسلات الملكية ، فقد استجاب عمورى لمسورة ناروناه وعينى
فى هذا المكان وخلع على وظفه المسنار » (٢٤) .



(٢٣) الكتاب ٢٠ ، ف ٣٠ و ٣١ .

(٣٤) الكتاب ٢١ . ف ٥ .

مؤلفاته

لقد خلدت وليم مؤلفاته الى فهد مهها ما فهد وبقي منها ما بقي ، ولولا كسابه الحالى لما عرفناه الا واحدا من كبار رجال الدين لا بذكرهم الا حين نقرأ عنهم فى ثابا الكتب ، أما هو فقد بقي اسمه على ألسنة طلاب الدراسات التاريخية لا سيما فى تاريخ الحروب الصليبية بفصل هذا الكتاب الذى نترجمه الآن الى العربية ، والذى رأى النور لأول مرة فى صورته الأصلية فى القرن السادس عشر أى بعد أكثر من ثلاثة فرون من وفاة مؤلفه .

ولقد نوفرث أدوات التأليف عند وليم من سعة اطلاعه على ما وصل الى يده من كتب نعدنا اليوم المصدر الأول للحروب الصليبية خاصة باللغة اللاتينية وما بوفر لديه من الوثائق مما هباً له الفرصه لأن يكون بارزا فى الكتابة التاريخية وحجة موبوا به فيما ألف ، حتى لقد عداه العالم رسما « واحدا من أعظم مؤرخى العصور الوسطى » على الاطلاق (٢٥) . هذا الى جانب ابقاه لكبير من اللغات الغربية والشرقية وفى مقدمتها اللاتينية وفرنسية العصور الوسطى واليونانية كذلك المامه باللغة العربية الماما ساعده على الاطلاع على بعض ما كتب فيها ، كما بذكر هو وكما سنسر اله فى موضعه ، ولن نقول مع بعض القائلين بأنه كان عارفا بالعبرية والفارسية فذلك قول لا نستطيع أن نؤكداه ، وزيادة على ذلك كله فقد كان

كثير النظر فى الآداب والمؤلفات القديمة لا سيما اللاتينية و على كتابات كبار رجالها أمثال « أوفيد » و « شيشرون » الذى يسميه أحيانا بصاحبنا مما ساعد على أن يكون له فلم سيال ولغه مطوعة وقدرة على التعبير فى غير عسر على ما يريد أن يوصله الى قارئه .

والمعروف أن وليم وضع ثلاثة كتب تاريخية ذات سمه معيه ، حصل اسان منها عن حرب بالحروب الصليبية ، هذا اثنى جانب كتاب آخر سجل فيه أعمال المجمع الكنى المنعقد فى روما فى نهايه سنة ١١٧٨ ، وحضره مؤرخنا على رأس وفد من كبار الأساقفه والمطاربه ، الى حاسب ممثل لبطرك ببب المقدس الذى حال مرضه اد ذاك بيته وبين حضوره هذا المجمع الذى يعبر أكبر المجمع الى شهدتها المسيحية الغربية ، وشارك وليم فيما دار فيه من مناقشات خطيرة ، وقدم نقربرا عن وضع الكنيسة والدولة فى مملكة بيب المقدس اللاتسه ، وقال البعض من مؤرخى هذا المجمع - وهم صادقون فيما قالوا - ان المجمع أعجبوا بوليم وعرفوا فيه رجلا فقها ، وحجه فى الملله ، وملما بما ينغى أن يلم به من يهمن بدراسة أحوال اللاتين فى الشرق دينا ووضعنا ، كما رأوا فيه محدثا لبقا ومجادلا يحسن الحدل ويفهم معارضيه ان احتاج الموقف الى الافحام .

وعاد وليم من هذا المؤتمر الدينى وقد سبقته أخباره ، فسأله رفاقه كما سأله رجال من البلاط البابوى والكنائس اللاتينية أن يضع كتابا عن أعمال المجمع ، فنهض بما التمسوه منه ، وجمع فى ذلك سفرا قبل انه أودع نسخه منه فى أرشيفات صور لكن الباحثين فى تاريخه وأعماله أجمعوا على ضياع هذه النسخة للأسف ، كما ضاع اثنان من مؤلفاته الأخرى .

وعلى الرغم من عدم وجود نسخه من هذا التقرير فى الأيدى
الا أن الأمر الذى لا يرمى اليه السك هو أن « بعض » جلسات
المؤتمر نصمت بعض ما فى تقرير وليم ، والعكس صحيح ، خصوصا
وأن وليم كان أحد مقررى المؤتمر (٢٦) .

★★★

إذا كان رفاى وليم قد التمسوا منه وضع هذا التقرير الذى
صار كتابا من كتب تاريخ المجامع الكنسية فإن الفضل فيما ألفه من
كتب أخرى فى ميدان التاريخ يرجع الى الملك عمورى الذى كان
حريصا على أن ينفى اسمه حيا على السنة الملائمة من أهل عصره والأجبال
التي بلهم ، لذلك فإنه سأل صاحبنا وليم أن يوضح كتابا عنه هو
ذاته حاكما لمملكة بيت المقدس اللاتينية ، وترك سطم هذا الكتاب
لمؤرخنا واثقا من أنه بفضل كفاءته وألمعته - سوف يطالع على الناس
بكتاب يرضبه .

واسعجاب ولم لرغبة الملك لما رأى فى تحقيق هذه الرغبة من
حفظ لتاريخ مملكه بيت المقدس فى قسره كان هو نفسه ساهدها
وعرض لما قد يقوم به عمورى من حروب برفع رايه المسححة اذ كان
الأمل معفودا على أن ينصر الملك على القوة الاسلامة ممثلة فى مصر
فتخلص له سعوطنها وحه السرى الاسلامى بأجمعه .

وأقبل وليم يخطط للكتاب الذى كلف بوضعه والذى سماه
« انجازات الملك عمورى » Gesta Amalrici regis ، ثم جاء يوم
بدا للملك أن يمهده لعهدده بعرض شامل لتاريخ ملوك مملكة بيت

(٢٦) ادين بالفصل فى معظم هذه المعلومات الى مقدمه الترجمة الانجليزية لهذا
الكتاب الذى اشتمل الى جانب مادته التى كتبها ولم ما أضافه المرحمان من حواش
وتعليقات لو رحمت لكات وحدها كتابا كبيرا فى حد ذاته .

المقدس مند « جودفروى دى بويون » الذى رأى عاية معاحره أن يعال له حامى القبر المقدس فكان له وحده ما أراد ولم يساركة فى هذا اللقب غيره ، اد نعت الذين جاءوا من بعده بالملوك حتى يسم لهم بطسق النظام الافطاعى على الصورة المعروف بها فى أوروبا العربيه .

صارج عمورى مؤرخه برأيه فيما سنكون عليه صوره الكتاب الذى يريده .

وفى رأينا أن عمورى كان يعتقد اعتقادا جازما - ويساركة ولیم الى حد ما - بأن مصر لابد واقعة فى يده - بعد العهد أو قرب - وكن يرى أن فححه اباهها واستلاء عليها سيكونان بقطه اسقال كبرى فى ناريج القوى الصليبيه وأنه يعادل فسخ اللابن لبنت المقدس ان لم يرد عنه ، وبذلك تكتمل حلقات الحصار حول العالم الاسلامى ، ولعله كان يرى أن استلاءه على مصر ييسر له الطريق الى مكه والمدينة ، ولعل هذا كان فى سريره الامر الصليبيى . « رينو دى شاتيون » الذى نعرفه المراجع الاسلاميه باسم « أرناط » ، والذى كانت نهايته وبأديه على يد صلاح الدين بعد قليل .

★★★

ويعرف أن شروع ولم فى وصح ناريج الملك عمورى كان سه ١١٦٧ ، ونمملت الخطوة الأولى منه فى اتصال مؤلفه بالقادة وكبار الشخصيات التى ساهمت فى الحملة على مصر ، وأما الخطوة الثانية فكانت جمعه كل ما سر له أن يجمعه ممن صحبوا الحملة وشاهدوا أحداثها وكان لهم نصيب فيها ، ولم يقصر اهتمامه على الأحداث السياسيه والحربييه بل حاورها الى وصف الحكومه فى مصر والبلات الفاطمى ويعرض لأولى الأمر من مخططى السياسه المصريه اد داك ، وبلاحظ أيضا أن نساط الاسكندريه الحجارى استلفت انتباهه .

على أنه اذا كان هذا الكتاب أصبح الآن فى عداد الكتب
المفقودة فلا بد أن بعضه لا سيما ما يتعلق بمصر وارد فى الأقسام
الأخيرة من تاريخه الكبير الذى توجد الآن ترجمته العربية بين يدي
فارئى هذه الصفحات .

★★★

ثم افرح عمورى على وليم أن يكتب تاريخا للمملكة منذ قيامها
على أيدي اللاتين ، وصادف هذا الاقتراح قبولا عند المؤرخ ، وصفق
له قلبه اذ ليس أحب الى نفسه من تأليف كتاب عن القدس ، يخلد
اسمه هو ويسرف قدره ويكون تاريخا لأحب بلد الى فؤاده .

وهكذا نلاحظ ما لعمورى من فضل على طلاب التاريخ
والناظرين فيه حتى الآن اذ فكر فى أن يكون هناك كتاب عن
المملكة ، وأن يقوم بوضعه الرجل الذى رأى فيه الملك كل ما يجب
اليه سمنا وخلقا ودينا وكفاءة وقدرة تساعد على انجاز هذا العمل
الذى أدرك عمورى انه يجمع بن ثلاثة أمور كبره ، أولها روعه
الموضوع اذ هو عن بيت المقدس ، وثانيها سان عظمة عمورى ذاته ،
وثالثها دقة جامعته وليم .

على أن قبول وليم اقتراح مولاه كان معناه ارجاء ما سُرِع فيه
وما أنجزه منه عن عهد الملك عمورى ، كذلك كان لابد له من أن
ينصرف الى تدوين ما قبل هذا العهد جاعلا نقطة الابتداء هى قيام
بطرس الناسك بالحج الى الأحرام المسيحية فى بيت المقدس ثم رجوعه
الى أوروبا حاثا أمراءها وشعوبها والبابا اربان الثانى لمساعدة مسيحيي
الشرق وارسال الحملات الى أرض فلسطين وبلاد الشام .

كان عمورى هو الدافع لوليم لكتابة كل ما كتب من كتب فى
التاريخ ، فقد اقترح عليه القسام بوضع تاريخ لعهد ثم زاد فطلب
اله أن يكتب له محلدا عن تاريخ ملوك المسرون ، ولكى يسر عليه

المهمة وفقد روده نكتاب في هذا الموضوع لأسخف مسرى ، يعرف العربيه هو أوبوسوس سعيد بن بطريق اسعرص فيه العالم الاسلامى مند ظهور النبي عليه الصلاه والسلام حتى السنة الحامسه من خلافة الراصى العباسى ، وهى سنة ٣٢٦ هـ (= ٩٣٧ م) (١) واستجاب وليم لطلب مولاه ووصع كتابه الذى سماه كما قال - أو قال من وقفوا عليه اذ ذاك - « بأعمال أمراء المسرى » "Gesta Orientalium Principum" ولنا أن سوفع أن جزءا كبيرا منه لم يكن سوى ترجمه لكتاب ابن بطريق ، وان لم نستطع الجزء بما نصصه كتاب وليم هذا لعدم وصول نسخة منه الينا ٠٠٠ لكن ٠٠ أين يوجد هذا الكتاب الآن ؟ ٠٠٠ ذلك ما لا نعرفه مما يدفعنا لاعتباره في عداد الكتب المفقودة بناء على خلو فهرس دور الكتب العامة من أية اشارة اليه أو الى صفحات يرجع أبها منه (٢٧)، هذا على الرغم من أن مقدمة الترجمة الأمريكية لتاريخ وليم نسير الى أن « ماتيو بارى » ذكر فى «مختصره التاريخى» وجود كتابى ولم : التاريخ الكبير وتاريخ أمراء المشرق فى مكتبة سانب البانز التى حاو بها ما حاو بمعظم المكسبات الديريه فى القرن السادس عشر ، وتمضى هذه الاشارة فنبين أن نسخة من تاريخه الكبير وحده - التى نترجمها الآن - هى التى قدر لها النجاة فانتقلت الى مكتبة المتحف البريطانى ولا تزال محفوظة به حتى اليوم ، أما مخطوطة أمراء المشرق فقد فقدت ولم يوقف لها على أثر حتى . وما هذا .

★★★

(٢٧) ولم نشر ولم الى عنوان كتاب سعيد بن بطريق الذى هو التاريخ المجموع على التحقيق والمعروف بنظم الجوهر ، وكان فى مكتبة الملك وهو الكتاب الذى نشره المستشرق الانجليزى « ادوارد بوكوك » فى اكسفورد سنة ١٦٥٩ وأرفقه بترجمة لاتينية ، كما طبع مرتين بعد ذلك بقرنين ونصف قرن من الزمان فى مطبعة الآباء السوعيين بروت الأولى منها سنة ١٩٠٥ والثانية سنة ١٩٠٩ .

تاريخه الكبير

على أنه بدا للملك في سنه ١١٧٠ - أى قبل وفاته بأربع سنوات - أن يمهّد لحكمه بكتاب يؤرخ للمملكة اللاتينية منذ بدء الدعوة الصليبية حتى مسهل حكمه سنة ١١٦٢ .

وان اسفراء ما حرى - وما بين أيدينا - ليفصح في حلاء عن أن هذا الافسراح قد وقع موقع الرضا من نفس وليم الصورى لأنه رأى أنه حين يرغب من هذا الكتاب فإنه يكون قد أرخ - كرجل دى أولا - لما يعتبره جهادا دينيا مسجيا من وجهة نظره ، فيرى بذلك مهوله ودراساته التى بوأنه مكانة كبيرة فى عالم الكنيسة فى القرن الثانى عشر ، كما أنه يكون قد أرخ لخمسة من حكام وملوك المملكة اللاليبية فل عمورى (٢٨) ، كما يكون قد أرخ للنشباط الصليبيى بعد استقرار اللاتين فى الشرق ، وما كان بينهم وبين الجماعات المسحنة الأخرى من غير مذهبه كالأرمن والسريان والبعاقة والأرثوذكس ، ثم ما بين هؤلاء جمعا وبين المسلمين من صلات سلسلة أحيانا وعدوانية أحيانا أخرى .

لذلك فل وليم ما افترحه عليه عمورى مما أسفر عن نألبفه لتاريخه الكبير "Gesta Hierosolymitorum regus" الذى لم يقف به عند سنة ١١٦٢ (وهى بداية حكم عمورى) بل حاوزها

(٢٨) وحى بهم حودورى دى تودون وان لم تلعب بالملك ، ثم بولدوس الاول فالتانى ، ثم فولك داجو فولدوين الثالث .

فسمّل كل عهده ، ثم طالّت حتى وقفت عند سنة ١١٨٤ ، أي بعد موت الملك بعسر سنوات تناول فيها حكم ولده بولموين الرابع

والواقع أنه اعتمد في القسم الأول الذي يمدّ حتى سنة ١١٢٧ على مصادر لابينة عاصر أصحابها أحداث الفترة من ١٠٩٥ حتى ذلك التاريخ ، ويمكن أن نقول أنهم كانوا ثلاثة أو أربعة ، في مقدمتهم من نسميه بالمؤرخ المجهول الذي كان من غير شك من أهل إيطاليا ، والذي رافق حملة بوهمند بن روبرت حسكراد وكان بوهمند هذا مؤسس أول امارّة صليبية هي انطاكية منتزعا إياها من أيدي المسلمين .

وقد نعثرت أوراق كتاب هذا المؤرخ المجهول ولم يبق منها الا القليل الذي جمعه الباحثون وسموه باسم "Gesta Francorum Hierosolymitanorum" وقد ترجمناه الى العربية بعنوان « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » (٢٩) .

والى جانب هذا فقد نظر وليم فيما كتبه روبرت داجيل الذي ترجمه الدكتور حسين محمد عطية باسم « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » (٣٠) .

كذلك نرى وليم يعتمد على ما سبقه اليه فولسر دى شاردر ويعرف كتابه باسم 'Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana' (1095-1127) ، وهو آخر ما لدينا من تاريخ ساهد عمان لفترة

(٢٩) فيما يتعلق بصاحب هذه المذكرات فانا نحيل القارئ الى ما قلناه عنه والى دراسنا لمذكراته في مقدمنا للترجمة العربية المشار اليها وقد شرناها دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٢ .

(٣٠) نشره دار المعرفة بالاسكندرية سنة ١٩٨٩ .

امندت ما يقرب من ثلاث وثلاثين سنة تقريبا منذ أن حطب البابا
ايربان الثاني حطبه الباريجية المسهورة في كلبز مونت بجنوب
فرنسا فأشعل نيران حروب استمرت عدة قرون .

ويتبين لنا - من سرد هؤلاء المؤلفين - ان المادة التي نضممها
مذكراتهم أو أوراقيهم وقعت عند سنة ١١٢٧ م ، وكانت مائة وفيرة
راج يقارن بعضها ببعض ، فما صح منها في بقية أبعاء ، وما أنكره
بحل عنه ولم يأخذ به .



ولعل السمة البارزة في كتابات ولسم عن هذه الفترة بالذات
هي أحدهم بوجهه النظر الغربيه في سرده وبعلقه على الأحداث ،
وذلك راجع كما قلنا الى وجهة نظره في الأصول التي خلفها كتاب
مسيحيون وقساوسة ورهبان صحبوا الجيوش الصليبية المبكرة على
اختلاف حنسيات زعمائها وقوادها ، ونرى هذا الطابع واضحا في
نقده المر للامبراطورية البيزنطية ولا سيما امبراطورها الكسوس
كومنين (٣٥) ، وهو نقد أميل للهجو المقذع أكثر فيه من نعتها
« بالحيانة » حتى فضل عليها المسلمين في بعض الأحيان وقد ترسبت
هذه النهمة القطعة في نفوس الأوربيين حلا بعد حبل لمدة قرن
من الزمان حتى انفجرت في سنة ١٢٠٢ م فيما عرف بالحملة
الصليبية الرابعة التي توجّهت الى القسطنطينية وأزالت امبراطوريتها

(٣٥) يشير هنا الى اعترافنا بادن الله شر ترحمتنا العربية لكتاب « ألكسياد »
للمؤرخة آنا كوميني Anna Comnena بعد فراغنا من شر كتاب ولسم الصوري
هذا .

لسعود - رعم أنف الصليبيين العربيين - للوجود بعد ما يييف على
نصف قرن (٣٦) .

وقد غيرت هذه الحملة الصليبية الرابعة المفهوم الصليبي
وبدلت معالم الوضع عامة والخريطة الجغرافية لبلاد اليونان وحاولت
بديل الناحية الديموجرافية بصورة ملحوظة .

كانت هذه في الواقع هي صفه المرحلة الأولى من تاريخ ولم
الكبير أما المرحلة البسيطة فبدأت من تكوين مملكة بيت المقدس
واسكنمال البسه اللاتينية بأسيس الرها وأطاكه وطراباس
كامارات لاتينية استبعدت كلها القاعدة الأساسية التي كان يجب أن
ترتكز عليها لتضمن بقاءها لأننا نراها أهملت تماما أهل البلاد
الأصليين حتى من كان منهم مسيحيا ، اذ عدهم المحلون طبقه
ثانيه في المجتمع الجديد وربما وضعوهم في مرتبة أدنى من هذه
أبضا فلم يطوروا الهم الا كعملاء أو فعلة أو صناع يبدلون الجهد
لتحقيق مآرب السادة الوافدين الذين لم يسمحوا لأهل هذه الطبقة
الثانية بأن يكون لهم رأى في توجيه السياسة بل صيروها أوروبية
افطعته ، وظنوا أنهم قادرون بذلك على الاحتفاظ بها الى الأبد ،
ناسين أن هناك أجمالا - من بين اللاتين - سنظهر على مر السنين
ويخمد في نفسها الكراهية لأهل البلاد ، كما يملئ عليها الزمن
والطور أن تبعد الرابطة بينها وبين اللاتين ، على حين تزداد هذه
الرابطة بين هذه الأحيال وبين الأهالي الأصليين .

على أن ولیم يشير في أكثر من موضع من تاريخه الكبير الى
اطلاعه على وثائق ومراجع عربية دون أن يذكر موضعها وسكت عن

(٣٦) انظر فتح القسطنطينية لروبرت كلاري ، ترجمة حسن حشوي ونشر مكتبة
الشرق الأوسط ، وانظر أيضا مذكرات فلهااردوان ترجمة حسن حشوي ، وقد نشرته
حامية الملك عبد العزيز بحدثة سنة ١٤٠٥هـ .

سُميها كما هو شأنه في مراجعته بعير هذه اللغة لا سيما اللاتينية .
وما بحسب هذه الوثائق الا أنها كانت موجودة في أرشيفات القصر
الملكي بالقدس وكذلك ربما اسعان بما في مكتبة الملك عموري التي
لا بد وأنها كانت حافلة - الى حد ما - بكتب عربية وقد أشار أحد
المؤرخين (٣٧) الى أن سفينه كانت تحمل فيما تحمل كتباً لاسامة
ابن منقذ جنب قرب صور فاستولى عليها بولدوين الثالث وأضافها
الى مكتبة القصر .



أما الفترة الثالثة من كتابه فهي التي تميزت بظهور المنازعات
بين الصليبيين أنفسهم وبفكرهم تفكيراً بوسعيًا لم يقف عند حدود
بلاد الشام وشمال العراق بل جاوز هذه الحدود الى ما وراءها من
قوى اسلامية صاعدة ، وبلعت هذه العكرة دروبها عند الملك عموري
في تخطيطه لتوسع رقعة مملكة بيت المقدس الى خارج حدودها
الحدودية حسب مصر الفاطمية فالأيوبيية بل ان بعض هؤلاء الأمراء
اللابس كانوا من المحاطرين الذين ذهب أحدهم مذهبا حروبيا بعددا
مطلع الى ملكه والمديبه .

وكان رجال هذه الفترة الثالثة يرون أن فتح القدس والاسلام
عليها سنة ١١٠١ هو الخطوة الأولى على طريق دعم الصليبية في
السوق الاسلامي وأن هذا الفتح قد أدى مهمته وأنجز عايبه بالاسلام
على بعض الامارات في الشام ، وأن الخطوة البانية لهذا الدعم
الصليبي هي فتح مصر ، وساروا في هذا الطريق خطوة عملة
ملحوظة في هجوم عموري أكثر من مرة على مصر ، وهو هجوم أطال

(٣٧) راجع A Syrian Gentleman, p 61, Hitti , حيث أشارت اليه
مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب ولم .

ولم فى عرضه وان عاد مه الغزاة مفلما الأظفار ، مهوكى القوى ،
وفدر لولم أن بشاهد أولبات هذا الانهاك ممسلا فى ظهور
صلاح الدين الأيوبى بعد أن استقر فى مصر وحمل راية الجهاد النبى
ورثها عن نور (٣٨) الدين محمود بن زنكى صاحب حلب والموصل
وتمررت هذه الأحداث بعكس ما كان يرحوه دعاة الغزو اذ أدب الى
نفكك الهبكل الصللى ، ولعد واكب وليم فى أحرىات أيامه هذه
الفترة بل وكان فى ركب بولدوين الرابع فى محاربته لصلاح ببلاد
النسام ولم يفته الاشارة الى ذلك كله مما يشكل الجزء الأكبر من
الكتب الثلاثة التى ختم بها مؤلفه حتى رحرحت ما عداها ، مما يخل
الى قارئه أنه يكتب تاريخ مصر - من وجهة نظره - أكثر مما يكتب
تاريخ القدس .

ان مباحة الكلام عن هذا التاريخ الكبير الذى سرجمه الآن الى
العربية هى فى الوقت ذاته كلام عن سيرة مؤلفه الذى لو كان قد
وقف فبه عند سنة ١١٧٤ التى مات فيها عمورى وهو فى الثامنة
والثلاثين من عمره لما لامه أحد ، اذ يكون بما كنه حتى ذلك العام
قد أوفى بعهده للملك الراحل فى ادراج عهده عى هذا الكتاب
التاريخى وألقه بتاريخ المملكة منذ تأسيسها .

لكن كانت هناك ثلاثة أمور تحمله على متابعة الكتابة عن الملك
الصغير أولها أنه هو ابن مولاة الراحل ، وثانها الوفاء لذكرى أبه ،
وثالثها أنه هو نفسه كان ولا يزال معلم الملك الجديد ومثقفه ، وهكذا
كان وليم يعيش فى جو يعبق بكل ما يذكره بعمورى ، وهل هناك

(٣٨) اطر حسن حشى . نور الدين والصلبيون او حركة الافاقة الاسلامة
فى القرن السادس الهجرى .

أكثر من أن يكون ولده بولدوين الصبي قد حل مكانه يوم ١٥ يوليو
١١٧٤ (٣٩) .

وعاش وليم بعد موت عموري ليكنب عن بولدوين الرابع ثلاثة
أيواب أو « كنب » كما يسميها (٢٠) ، ولا يحسبن القارىء أنه أطال
فى الكتابه عن عهد تلميذه الملك ، بل لقد خالف كل ظن اد أوجز
حين كان الاسهاب موفعا منه ، وكان ظن الدين لا يدرون شيئا عن
بواطن الأمور ولا يعرفون منها غير ظاهرها أن له دالة على بولدوين
لغربه منه ، وأنها تبيح له فرصة أكبر مما قد ساج لعيره فى الوقوف
على كل أسرار الدولة ، لكن الوضع الجديد فى المملكة كان مهينا
الفرصة لعموم حاولوا جهدهم إبعاده عن الملك أو قرص رقابة عليه
حتى لا يعتمد الى تكوين حزب موال لبولدوين يفسد بطلعات الطامعين
فى الوصاية على الملك .

ورأى وليم سماء المملكة تتلبذ بالغيوم والعواصف السياسيه .
كما هاله استعجال القوة المصرية استفحالا شجع أهل دمشق على أن
يسلموا بلدهم وما حوله الى صلاح الدين مما جعل المملكة بوشك أن
نقع بين سفى الرضى من الشمال والجنوب ، ورأى من الخير أن
يتسلل نفسه بالاهتمام بالأمور الكنسية والانصراف الى معاودة الاهتمام
بكتابة تاريخه الكبير وكان يجد بين هذا وذاك ساعات يعاود فيها
هوايه القدمة ، ونعى بها مطالعه كتب السراب القديم الغربى .

وقد أحس وليم بالحزن الشديد يسيطر عليه وزاد ألمه أن
يضيع أمله فى أن يصبح بطركا لبيت المقدس فى أعقاب وفاه بطركها

(٣٩) الكتاب ٢١ . الفصل الثانى .

(٤٠) فى الكتب ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

أمالريك فقد يمكن منافسه هرقل يوم ٦ أكتوبر ١١٨٠ من أن
سلبها منه بفصل الملكة الأم « أحنس » وحربها . ومما يطهر أمله
الشديد لصياح أمله هذا أنه سكن سكونا سبه مطبق عن ابداء رأيه
في هذا الانتخاب لما برره في نفسه من آلام وأحزان فكل ما قاله
في هذا الصدد « ٠٠٠ ماب أمالريك بطرك بيت المقدس بعد عشرين
سنة من توليه بطركه القدس ، واد ذاك أخير مكانه هرقل رئيس
أساقفة قيسرية » (٤١) .



منهجه :

سار ولجم على نهج القدامى في تقسيمه لمؤلفه هذا الى ما سماه
ب « الكتب » الى هي في مصطلحنا اليوم «الفصول» أو «الأبواب» ،
كما قسم كل كتاب الى ما سماه «بالفصول» ، ويعنى بها «الفقرات»
التي تضمنها هذا « الكتاب » .

وقسم ولجم تاريخه الكبير هذا الى ثلاثة وعشرين « كتابا »
تكاد تكون منسوبة في الطول الا الآخر منها ، كما يبدو أنه خص كل
ملك من ملوكها « بكتابين » لم يستثن من ذلك سوى « جودفروي »
فقد أفرد له كتابا واحدا ، وطسعى أن يكون ما خصه به قاصرا على
كتاب واحد لأن فترة حكمه لم تتجاوز سنة واحدة ولم يكن معدودا
بين من تولوا حكم مملكة بيت المقدس وسمى كل واحد منهم بالملك ،
اذ انفرد هو عنهم جميعا بلقب حامى القصر المقدس .

كذلك خص بولدوين الرابع بثلاثة كتب ، أما الفصول التي
يشتمل عليها كل كتاب فكانت فقرات بسيطة قد لا تتجاوز الفصل

مها - حسب سميحه - صفحة واحدة فان راد كان صفحتين ، وكان كل كتاب يشمل على ما يقرب من ثلاثين « فصلا » الا الأخير فلم يشمل على أى فصل بل كان ملخصا شاملا ترجم فيه عما يشعر به من احباط .



وود مهد لذلك كله بمائية كنب قبل أن يبدأ بكتابه عن جودفروى أسار فى أولها الى ما أسماه بصحوة المسيحية لتخليص القدس وبين فيه نساط بطرس الناسك وطلائع الحملة الأولى غير البطاميه ثم ثنى سحجاب الصليبى فى القسطنطينيه بالاسنيلاء على بيقية والزحف على آسيا الصغرى ، فاذا كان الكتاب الرابع قد تناول احياح الصليبيين لسمال الشام وبدء حصار أنطاكية التى استغرق حصارها عنده والاسنيلاء عليها الكتاب الخامس أما السادس فيتعلق بما لاقاه الصليبيون من حصار وانصارهم الذى مهد للاسحاق فى صفوفهم لولا أنهم تابعوا زحفهم الى بيت المقدس وهو ما استغرق تأميمه الفصل السابع . أما الثامن فهو بهانة رحلة الحج والاسنيلاء على القدس ثم يلى ذلك ما كتبه عن جودفروى فالملك بولدوين الأول ويوسع المملكة فى عهده واتساع رقعة أنطاكية ثم بولدوين الثانى والاضطرابات فى سمال الشام وهذه اسغرف منه أربعة كنب هى التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر وهما يسنهى الجزء الأول من هذا التاريخ كما ربه ولم لبدأ الجزء الثانى بالاسنيلاء على صور وامداد النفوذ الملكى على الامارات اللابينية أما الكتاب الثانى لذلك وهو الرابع عشر فمن عهد فولك دانجو ويلده الخامس عشر عن محالوت الامبراطور البزنطى حنا لىسط نعوده على الامارات الصليبية ثم ييجى عهد بولدوين الثالث والملكة الأم « مليريد » وحبر الحملة الصليبية الثانية ويرتبط بذلك مباشره الاسنيلاء على عسقلان وفسل الحملة المذكورة

حالا لم يطلع الى مصر وكل ذلك بضمه الكتب . السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فاذا كان الكتابان التاسع عشر والعشرون فهما امتداد لترجمة هذا التطلع الصليبي الى صراع مع مصر حول مصر ومحاولة عهد بحالف صليبي بيزنطي لفتحها وذلك في عهد الملك عموري ، ثم يبدأ الكتاب الحادي والعشرون ببولسوين الرابع الأبرص وننازع المصالح الشخصية بين الجماعات الصليبية ثم ختام ذلك كله في الكتاب الثالث والعشرين وفيه نرى ولم ينسأئ : أمن الممكن أن يتم انقاذ القدس على يد ريموند صاحب طرابلس ؟ وبذل هذا الاستفهام من جانبه على أنه كنبه في أثناء الصراع بين الأمراء الصليبيين في محاولة كل منهم السيطرة على بيت المقدس ، وكانت الأحوال لا سيما ظهور القوة المصرية الصلاحية يمثل خطرا على الصليبيين أدركه ولم وصرح به ثم أثبت سير الأحداث صحة توقعاته .

★★★

وبعد فهذا تعريف عاجل بولم الصوري وكتابه الذي كان الحافز لي على رحلته هو فامي بتدريس الحروب الصليبية في كلية الآداب (جامعة عين شمس) بعد عودتي من إنجلترا ، ثم شاعت الظروف أن أقوم بالمحاضرة في نفس المادة في قسمي الكالوريوس والدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، واعتبرت هذا الكتاب - وهو وثيقة تاريخية معاصرة لبعض الأحداث والتجديدات الحربية على العالم الاسلامي - من متطلبات محاضراتي هناك ، ثم طرأت فكرة تقديمه للنشر بالكلية بجدة ، فرأى زميلي وصديقي الدكتور حمد محمد العرينان أن تكون « مذكرات فلهااردوان » عن الحرب الصليبية الرابعة هي ناكورة ما تنشره لجنة البحث العلمي بها ، وحظي الكتاب بموافقه المجلس العلمي للجامعة هناك .

وان كتاب ولم الصوري هذا لهو واحد من مجمعة الكتب
والوثائق المتعلقة بیده الحروب والمکتوبة نافلام معاصرین لها من غیر
العرب والمسلمین ، وحمد الله ان مکسى من نسر خمسة مصادر منها
حتى الآن ، وفي الطريق - ان شاء الله - اثنان ، أحدهما هو
« الاسنيلاء على دمياط » لبادر بورن ، والآخر هو « ألكسياد »
أو نارينخ الامراطور البزنطي ألكسيوس كومين بفلم ابسه
« أنا كومنبي » .

ولقد اعتمد في ترجمتي العربية هذه على النسخة الانجليزية
التي اضطلع بترجمتها والعلق عليها المؤرخان السند املى اتوانر
بانكوك ، و أ . كراى سنة ١٩٤٣ وهى فى مجلدين ضخمين ، وقد
بفصلت مکتبة جامعة القاهرة فأدنت لى بتصويرها .

ولقد عشت من جانبى بالمحافظة على مفهوم النص وروحه بقدر
الامکان ، مع مراعاة الجانب العربى من حسب اللغة والأسلوب ، غير
أننى أبحت لنفسى أن أستعمل لفظ « الصليبين » فى مواضع خاصة
حيث رأيت سباق الموضوع يتطلب ذلك حتى لا يخلط الأمر على
القارئ ، فلا يعرف أى الجماعات المسيحية يقصدها المؤلف .

أما ما أضفنه الى الترجمة العربية - وهو قليل - فقد وضعته
بين حاصرين على هذه الصورة [٠٠٠] ، لكن حذفت من الترجمة
العربية بضعة أسطر أملتها على المؤلف طبيعة العصر والأحداث
ومركزه الدينى ، وهى سطور قد تكون لجمتها العصب وسداها
الحيل بالاسلام وعدم إدراك كنهه ، ولم يؤد هذا الحذف الى فراغ فى
سباق الموضوع أو اخلال به .

وسيصدر هذه الرحمة باذن الله في أربعة أجزاء بدلاً من
اثنى كما في الانجليزية وأرحم من الله التوفيق والهداية .

القاهره في :

د. حسن حبشي

الناصح من المحرم سنة ١٤١١ هـ

الحادي والثلاثين من يوليو ١٩٩٠ م

كلمة شكر

أرى لراما على أن أعدم بالسكر الحاصل للصدوق الكريم
الأسناد المذكور بعد العظم رمضان اد بفضل فجعل هذه الترجمة
من سلسله مطبوعات « تاريخ المصريين » التي يشرف على إصدارها .

كما أشكر الصديق العالم الأب جورج قنواي بدير الآباء
الدومنيكان بالعباسيه وقد أعاسى بكثير مما يعرفه هو وأجهله أنا من
ارسادات العهدين القديم والحديد وأدنى لي في الرجوع الى مكتبه
الدرس .

والله في عنى لمكتبه جامعه القاهرة اد أدنى لي بصـ
الرحمه الانجليزية كامله وبذلك يسر لي العكوف على نفسه الى
العربية أنى كس ، وشكرا للقوامين على مكتب جامعات القاهرة
واسكندريه وعين سمس والملك عبد العزيز بجده ، ولزملائى وتلاميذى
وأصدقائى في مصر والخارج ، وللميذى القديم نركى هزاع
الركانى من السعوديه فقد طالع معى مخطوطه هذه الترجمة
وبفضل نسخها ثم كتابتها على الآلة الكاسه .

حـ حـ

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ - ١١٨٤)

التمهيد

من وليم - الذى لولا رحمة الرب ما استحق أن
يكون خادما للكنيسة المقدسة فى صور - الى الاخوة
المسيحيين الموفرين الذين قد يصلهم هذا الكتاب ٠٠٠٠
لكم الخلاص الأبدى من أجل السيد •

لا يشك اسنان عاقل فى أن تدوين أعمال الملوك مهمة محفوفة
بالصعاب والمخاطر ، واذا نحينا جانبا ذكر الجهد الذى لا يسهى
والمعاناة التى لا تنفذى ، وما يتطلبه عمل من هذا النوع من النحلى
بالبغظة الدائمة ، فان هوة سحيقة تفتح فاهها أمام كاتب التاريخ
الذى يلقي المشقة العظمى فى محاولته تجنب هذا الأمر أو ذاك ،
ذلك لأنه فى الوقت الذى يحاول فيه النجاة من « خاربيديس » ،
فالأرجح أنه سوف يقع فى براثن « سكيلا » التى تعرف كيف تدمره
الدمار الشامل وهى محاطة بكلاهما ، ذلك لأن الكاتب اما أن يؤحج
غضب الكثيرين ضده وأثناء جريه وراء حقيقة ما وقع ، واما أن يلتزم
الصمت ازاء مسيرة الأحداث آملا منه فى أن يقلل ما أمكن من

الامعاص منه ، حتى يبدو بلا أخطاء ، وذلك لأن بعدم مجاوزة الصدق وإخفاء الحقائق عن قصد يعبر أمرا مخالفا تمام المخالفة للواجب الملزم على عانى المؤرخ ، ومما لا شك فيه أن فصل الفرد في أداء الواجب المفروض عليه إنما هو خطأ ، إذا كان مفهوم الواجب في الواقع هو « مطابقة سلوك كل فرد لما يفيق وعادات بلده ونظمه » .

ومن ناحية أخرى فإن أخرى وراء سلسلة من الأحداث دون ادخال تعبير عليها أو بحرفها عن محجة الصدق إنما هو مسلك يثير الغضب على الدوام ، إذ يقول المل العديم « ان النفاضي عن الحق يكسب المرء الأصدقاء ، أما التصريح به فبورث الكراهية » وينرتب على ذلك أمران :

أما أن يتراخي المؤرخون في أداء الواجب الذي تقتضيه مهمتهم فيبالغون في اظهار النوقير الذي يجاوز كل حد ، وأما أنهم في بحهم الجاد عن حقيقة مسألة من المسائل يجلبون على أنفسهم الكراهية التي بنجم عن قول الصدق ، ومن ثم فإن السائد هو أن من سمة هذين السبيلين أن يخالف كل منهما الآخر ، وأن يصبح مصدر تعب لما يفرصانه من مسنلرمات لا ماص منها .

لقد قال كاتبنا شيشيرون « لئن كان الحق مضميا لما ينجم عنه في الواقع من كراهية مطبعة للصدوق فإن الاسنسلام أشد رزية » ، وذلك لأن تعامل المرء بلين مع الصديق يحمله على الاندفاع في التهور المؤدى للخراب ، وهذا احساس ينعكس على المرء الذي يجور على مقتضيات الواجب فيكتم الحقائق الثابتة رجاء أن يكون أريحا .

ان الكتاب الذين ندفعهم الرغبة في المداهنة الى أن يُضَمَّنوا عن قصد في ثايا مؤلفاتهم التاريخية ما ليس بحق إنما يسلكون مسلكا شائنا ، والأحرى أن لا يُدرجوا في عداد المؤرخين ، وإذا كان

إخفاء الحقائق النابتة المتعلقة بأمر من الأمور يعتبر أمرا شبيعا ينافى مهمة الكاتب سام المناقصة ، فالأشد سبعا منه هو أن يحلط الحق بما ليس بحق ، فيقدم للأجيال القادمة السى نعلمه منا قول الحق ما هو كذب صراح على أنه حقيقة ثابتة .

وزيادته على هذه المحاطر فان كاتب التاريخ كثيرا ما يغالل مثل هذه الصعوبة - بل وما هو أشد منها - مما يحتم عليه أن يبدل قصارى جهده لتجنبها بقدر الامكان ، وأعنى بذلك أن كرامته الأحداث التاريخية الشامخة قد تنهار بسبب ضعف العرض ونقصان البلاغة ، لذلك ينبغي أن يكون أسلوب الكاتب فى عرضه للأحداث على نفس المستوى العالى للأخبار السى يروها ، ولا يسعى أن تكون لعه الكاتب وطريقة عرضه للموضوع دون المستوى الرائع الذى يجب أن ينوفر للموضوع ، ومن ثم فان أكبر ما يخساره المرء هو أن يؤدى العرض السقيم الى افساد عظيمة الفكرة ، فتبدو الأعمال الجوهرية وكأنها نافية عديمة القيمة بسبب الضعف الذى بعثور سردها ، وفديما لاحظ الخطب المصقع (شيسرون) فى القسم الأول من كتابه « الحوار التوسكاني » أن تدوين المرء لأفكاره - بدون أن تكون عنده القدرة على حسن ترتيبها أو إبرازها فى جلاء تام ، أو جعلها شسقة تجذب القارئ اليها انما هو عمل رجل يسئ الى الأدب بجهالة وبسدد وقته هباء » .



ويبدو أننا فى كتابنا الحالى هذا قد وقعنا فى محاذير متعددة وشبهات حمة ، ذلك لأن سرد الأحداث بطلب مما أن ندرج فى هذه الدراسة السى نعوم بكتابتها الآن كثيرا من التفاصيل عن أخلاق الملوك السخصبة وحياتهم وطباعهم الذاتية ، غير ملقين بالا عما اذا كانت هذه الحقائق حييدة فى حد ذاتها ، أم أنها خليفة بالنقد الذى

تستحقه ، ومن المحتمل أن نجد الأجيال التالية لهؤلاء الملوك - حين
مابيعهم هذا الكتاب - صعوبة في قبول ما احبوا بين دفتيه ، أو
قد نغصب هذه الأجيال من المؤلف غصبا لا يستحقه • وحيداً
سوف يعبروه أحد رجلين : اما أنه كذاب أشر ، أو حاسد كفور •

ويعلم الله أننا بذلنا جهدنا كي نسجنب النهمين نجنب المرء
للطاعون •

أما ما سوى ذلك فمما لا شك فيه أنه كان اندفاعاً منا أن
نحاول القيام بعمل هو فرق طافساً • كانت فيه لعنا لا برقى بحال
من الأحوال الى روعة الموصوع وحلالة قدره ، ومع ذلك فقد نسنى لنا
أن نجز شيئاً ما ، شأننا في ذلك شأن الذين لا دراية لهم بالرسم
ولم يقعوا على أسرار هذا الفن حين يسمح لهم في العادة برسم
الخطوط الأولى لصوره ما فبضعون الألوان غير المناسبة ، ثم نجىء
بعد ذلك يد الفنان الصانع العارف بالألوان فبضيف لمسات جمالية
أحسن من هذه اللمسات ، ولذلك فنحن - مع شدة تمسكنا بالصدق
الدى لم نجد عنه قط - قد قمنا بمحاولات كبيرة لوضع الأسس
التى يمكن للباني الذى يبرزنا بمقدرته الرائعة - أن يقيم عليها
صراحة متكاملة •

وربما كان الأحدى أن أنوذ بالصمت بسبب القصور الخطير
والعثرات الجمة التى تنتظر هذا المجهود ، وكان الأخرى بى أن أصمت
وأرغم فلمى على الكف عن الكتابة ، غير أن ما تملكنى من حب دائم
لوطنى قد دفعنى لولوج هذا السبيل ، اذ كانت احباجات الوقت
تطلب رجلاً مطبوعاً على الاخلاص ، مستعداً لبذل حياته فى هذا
السبيل •

وأعود فأكرر أنه من حق الوطن ألا تظل تلك الأعمال التى
أنجزها هذا الوطن مطمورة فى زوايا الجهل وطيات الاهمال على مدى

قرن من الزمان ، وأن يسمح للسسيان أن يسحب عليها ذيلوله من غير حق بل ان هذا الوطن بأمرى بعكس ذلك اد يأمرنى بالحفاظ عليها عن طريق فلمى من أجل نفع الأجيال القادمة •

لذلك فقد استنجبت لارادته ، وشرعت فى مهمه يأبى الشرف التحى عنها ، ونهضت غير عابىء بمقد الأجيال الناليه ، ولا مكترت بأى حكم بحكم به على أسلوبى الصعيف فى معرض تناول مثل هذا الموضوع الجليل •

وليس من شك فى أننى لبيت بداء الوطن بنفس الحماسة التى بذلها هذا الوطن ، عسى أن يكون العمل جديرا بالثناء الذى يتفق مع الاخلاص •

لقد انجذبنا بروعة تراب وطننا ، ولم نعبأ بضالة امكانياتنا ، ولا الجهد الذى يبذل ، من غير اتكال على مساعدة ما ، ولكننا قمنا بهذا العمل مدفوعين بالود الصادق والحب الخالص •

يضاف الى هذه الخوافز ما أمر به الملك عمورى الأول قدس الله روحه وصاحب السجل الباهر فى الجهاد من أجل السيد •

ولقد حفزنى هذا الأمر - وأسباب هامة أخرى - على أن آخذ على عاتقى القيام بهذا العمل ، أضف الى ذلك أننى فمت بوضع تاريخ آخر غير هذا التاريخ استجابة لأمر الملك الذى أمدنى بالوائى العربية الضرورية ، وكان المصدر الرئيسى الذى اتخذناه لذلك هو استعمالنا كتاب تاريخ بطرك اسكندرية الموقر سعيد بن البطريق الذى يبدأ من زمن [النبى] محمد [صلعم] متضمنا أحداث خمسمائة وسبعين سنة ، أى حتى عامنا الحالى هذا الذى هو عام ١١٨٤ من مولد المسيح ، ومع ذلك فلبس بين أيدينا لهذا الكتاب الحالى مصادر مكتوبة سواء فى اليونانية أو العربية للاسترشاد بها .

وانما كان اعتمادنا على الرواية السفهيه وحدها ، الا فى ايراد دليل
من الاحداث التى ساهداها بنفسها ، وسبعنا سير الحوادث ، فيبدأ
الكتاب بسفر أولئك الرجال والرعماء المعاير الدين أحبههم الله
وخرجوا استنجا به لبدء السيد من ممالك الغرب ، واسنولوا - بيد
فويه - على أرض الميعاد ومعظم بلاد السام ، ولقد تابعنا باخلاص
عظيم التاريخ ابتداء من هذه النقطة لفترة تجاوزت أربعة وثمانين
عاما ، انتهت بعهد بلدوين الرابع - وهو السابع فى ثبت الملوك ،
ادا أدرجا معهم لورد جودفروى الذى كان أول حاكم هناك ، ورغبه
منا فى أن يرداد ويكمل علم أى راغب فى مزيد من التفاصيل . بأحوال
البلاد السرفه وعد وصفا أولا - فى ايجار واحصار - مى كان
احلال هذه البلاد وكم كانت المآسى التى نحملتها كثيرة ، كما ألمنا
أيضا بوصف حال المؤمنين من أهل تلك الحفة الوسطى الذين كانوا
يعيشون بين مارقى هذه الأرض .

ثم ذكرنا كيف نهض أمراء ممالك الغرب لتحمل مسئولية الحج
بهدف تحرير احوانهم بعد طول الأسر الذى عانوه .

★★★

فادا قدر الفارئ المهام المعددة المتباينة التى تقع على كاهلنا
فانه سوف يكون على يقين من أننا قد قاسينا مشقة كبرى ازاء نوع
هذه المهام ، التى كان أولها المسئولية الضخمة المتعلقة بأمر نتصل
بأسقفية صور الشهيرة الداخلة تحت حماية الرب ، والتى تم اختارنا
لنوليها ، لا لميزة خصصنا بها دون سوانا ، ولكن فضلا من الله وحده .

وأما ثانيها فقد وكل الى القيام بأعمال خاصة بجلالة الملك حيث
نيطت بى - فى قصره الشريف - وظيفة المستشار ، هذا بالإضافة
الى ما كان هناك بين آونة وأخرى من شتى الأمور التى تتطلب

اهتمامنا ، فاذا أخذ القارئ هذه الأمور بعين الاعتبار فانه سوف يكون أكثر تسامحا معنا ان هو وجد في الكتاب الذى هو الآن بين يديه شيئا لا يعقله ، ذلك لأنه حين يكون المرء مسعولا بمساعل مביاة فانه من المستحيل على الذاكرة أن ننسب على الوجه الأكمل ، كما يشق عليها أن تولي كل موضوع ما هو ممين به من العناية ، كما أنه من المستحيل على الانسان أن يصرف عنايته الكلبه الى شىء المواضع، وأن يوزع اهتمامه عليها جميعا ، ثم يطلب منه أن يكون له من النشاط الذهني مثل الذى يفرض أن يكون له لو أنه كان قد صرف همه الى أمر واحد فقط .

ومن ثم فان المرء اراء هذه الظروف يكون أهلا لتسامح أكبر .
ان هذا العمل فى مجموعه يحتوى على ثلاثة وعشرين كتابا ، ويفسب كل منها الى عدد معين من الفصول حتى ييسر للقارئ أن يجد ما يبح عنه فى الأجزاء المختلفة من الرواية واني أعترزم - ان مدت لى الحياة - أن أضيف من وقت لآخر الى ما كتب أحداثا وفنا التى قد تتمخص عنها نظورات المستقبل وأن أزيد عدد الكتب بغير ما يسمح به الموضوع .

★★★

واننى أعتقد ولست مخطئا فى هذا الاعتقاد - أن هذا الكتاب يقدم بنة واضحة عن تجربتنا ، كما أننا وقد كتبناه استجابة لتجربتنا - قد أمطنا اللثام عن سلبيات كان لابد لها أن تطل مخفية لو أننا لذنا بالصمت ، غير أننا نؤثر أن لا نجد ما يذهينا على أن نكون فى حاجة الى ما يهذب النفس (١) .

(١) أشار وليم فى البص ها الى قصة لا يدرك معناها الا من يقرأ لإصحاح الثانى والعشرين من اسجل متى (١ - ١٤) من أن ملكا صنع عرسا لابنه وأرسل =

وأدعو الرب القاسد وحده على كل ذلك أن يكلأنا برحمته
فلا يحيق بنا هذا المصير ، كما نعرف معرفة تامة أن للخطأ في العادة
العاظا كثره « وأن يخفى البعض فسفاه كادبان ومسبغ المذمة
جاهل وكثرة الكلام لا يخلو من معصية » .

ومن ثم فإننا بروح من المحبة الأخوية ندعو مطالع هذا الكتاب
في الله ، اذا وجد ما يسحق النقد ألا يتردد في نبيه في رحمة
صادقة وأن يعوم ما اعوج منا فيكسب لنفسه نعمة الحناء الأبدية .

كذلك نرجو مطالع هذا الكتاب أن يذكرنا في صلواته فكسب
عطف الرب علينا ، فان وقعنا في ثايا هذا الكتاب في خطأ فنرجوه
ألا يتمنى لنا الموت ، عسى أن ينفضل مخلص العالم – بفضل طيبته
الوفيرة ورحمته التي لا تفشل أبدا فيتغمدنا بغفرانه ، ذلك لاننا
نحن التمساء والخدم الذين لا جدوى منهم في بيته مخطئون كل
الخطأ أمام ضميرنا ، وبحسب يوم الدنونة خسة عظمى .

هنا ينتهي التمهيد

= عيده ليدعو المدعوين الى العرس فلم يريدوا أن يأتوا ، فأرسل عيرهم الى آخرين
يدعوهم للوليمة « لكنهم تهاوبوا » فقد مضى منهم الى حقله من مضى ، والى بحاره
من كان يتاجر ، أما الذين بقوا فقد « أمسكوا عيده وشتموه وقتلوه » ، فلما
سمع الملك غضب وأرسل حوذه وأهلك أولئك القاتلين ، وأحرق مدينتهم ، ثم
قال لعبيده « أما العرس فمستحق ، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين » ثم
أرسلهم أمرا اياهم ليدعوا كل من وحدوه الى العرس ، فجمعوا له « كل من
وحدهم » . أشرارا وصالحين ، فامتلا العرس من المتكئين ، فلما دخل الملك ليحضر
راى هناك اسنانا لم يكن لاسا لباس العرس فقال له « يا صاحبي كيف
دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس ؟ » ، ثم يكمل وليم الصورة بالاشارة الى
ما جاء في الاصحاح العاشر من سفر الأمثال (١٩) في « أن من يحيى المعصية فشغته
كاذبتان ، ومشبع المذمة جاهل وكثره الكلام لا يخلو من معصية » . كما جاء في
البص . وقد ساق وليم هذا كله في استشهاد قصير ليبرر موقفه ، وكان قصر
الاستشهاد حاملا ايانا على هذه الحاشية في هذه الترجمة العربية .

الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت المقدس ، وبطرس
الناسك يبدأ فى الزحف مع جماعات أخرى •

فصول الكتاب الأول :

- ١ - ذكر قيام عمر بن الخطاب ثانى خلفاء محمد
(صلعم) بالاسبلاء على بيت المقدس زمن
الامبراطور هرقل •
- ٢ - الظروف التى مكنت عمر بن الخطاب من
الاستيلاء على الشرق ولم تكن فى الحسبان ،
وكيف أنه لما جاء الى بيت المقدس أمر باعادة بناء
هيكل السيد •
- ٣ - كيف نحملت سورية طويلا أسر الرق تحت
حكم الولاة المختلفين ، وكيف أحدث صداقة
الامبراطور شارلمان العظيم مع هرون الرشيد ملك

فارس(*) على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في
كف المسلمين .

٤ - كيف انتعلب المدينة المقدسة الى نفوذ خليفة
مصر ، وكيف أن نير عبودية المؤمنين صار غير
محتمل زمن الخليفة الحاكم [بأمر الله) ، كذلك
ما يتعلق بهدم كنيسة القيامة بالقدس .

٥ - عرض للطروف التي كانت ساندده حينذاك بين
الصادقين الذين كانوا يعيشون بين غير المتألهين .

٦ - الخليفة الطاهر يخلف أباه الكريه كحاكم لمملكة
مصر ويعيد تشييد الكنيسة بناء على النماس
رومانوس امبراطور القسطنطينية وبجهود
« جون كارينين » و « فسطين مونيماحوس »
ويمدهما بالمواد اللازمة .

٧ - القول في أصل الجبس الركي وباريخه القديم .

٨ - ذكر أنواع الأهوال الكيرة التي خضع لها العالم
يومذاك .

٩ - كيف تمكن الفرس من احتلال كل البلاد .

١٠ - ذكر ذهاب كل جيوش المؤمنين معا الى المدينة
المقدسة ، وما لقيته من المعاملة داخل القدس
وخارجها ، وكيف وقعت المدينة مرة ثانية في
أيدي الترك .

(*) هكذا يعبته مؤرخا ، والمقصود حليقة المسلمين وبعدها .

- ١١ - ذكر مجيء رحل الرب بطرس الناسك واللقاء
بينه وبين سمون الموقر بطرك بيب المقدس .
- ١٢ - الوحي الذي جاء لبطرس الناسك هذا في كبسة
القيامة المباركة .
- ١٣ - السفاف بين الامبراطور هنرى والبابا جريجورى
السابع ، وكيف كان استقبال اربان البانى
- خليفة جريجورى - لبطرس العائد من القدس
استقبالا كريما .
- ١٤ - مجيء البابا اربان الى مناطق ما وراء الجبال وعقده
المؤتمر فى كلرمونت .
- ١٥ - عظة البابا [أيربان الثانى] للناس بشأن الحج
الى بستان المقدس .
- ١٦ - الزعماء الذين خرجوا للحج وكانوا حاضري
الاجتماع ، وذكر علامة الصليب التى وضعها من
أزمعوا السعر - على ملابسهم - رمزا لايمانهم
وحجهم المقبل .
- ١٧ - أسماء أمراء مملكتى الفرنجة والتبويون الذين
قاموا بالحج .
- ١٨ - وولتر المفلس يصل الى القسطنطينة .
- ١٩ - مجيء بطرس الناسك بعددثد ، ومعرفة -
أثناء اجتيازه المجر - بخيانة أهلها .
- ٢٠ - نشوب شغب خطير بين الحجاج والبلغار فى
« نيش » احدى مدن بلغاريا .

٢١ - بطرس الباسك يسندعى قواه الهاربة ويحاول الوصول من جديد الى نفاهم سلمى مع البلغار ، ولكن يحدث شعب جديد - أنكى من سالفه - ويفرق كئائب بطرس .

٢٢ - بطرس يجمع سرادم جيشه المهروم ويمضى الى القسطنطينية ، ثم يعبر البسفور ويعسكر فى سسسا .

٢٣ - جيش بطرس يسنولى فى غيابه على الماشية من الاقليم الواقع حول مدينة نيقبة ويحل احدى القلاع القريبة منها .

٢٤ - فلح أرسلان - أحد أمراء الترك - يسرد المكان المذكور آنفا ويقتل بالسيف كل من وجده فيه .

٢٥ - الجيش الصليبي يحرك بكافة عساكره ضد قلج أرسلان لقتله اخوانهم الثوثون ، ولكنه يلقى الهزيمة وهو يحاربه .

٢٦ - فلج أرسلان المنصر على شعبا يدمر المعسكر ويأخذ من وجده فيه ما بين قنبل وأسير ، ثم يمضى لمحاصرة مدينة سيفسوت ، غير أنه يرنده على أعقابها حين يسمع برسالة الامبراطور .

٢٧ - القسيس السيونى حوتسوك يصل الى المجر وهو يقود جبنا ثانيا ولا يردد فى ارتكاب أعمال فاضحة فى حق المجريين يعف اللسان عن روايتها .

٢٨ - رساله ملك المجر الى المدعو جوتشوك وجيشه والقضاء على هذا الجبس قضاء مبرما .

٢٩ - كف أن جمعا كبيرا من العوم المفونين الذين
خرجوا في أعقاب الجماعات الأولى راحوا يفلون
اليهود ويسرون فى غير نظام .

٣٠ - فلعة فيزنبرج ومصرع سبعمائة محرى ، ثم
بيان كيف هلكوا أخيرا بارادة الهية وفتلوا جميعا
تقريبا على يد العدو .

هنا يبدأ الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت
المقدس وبطرس الناسك يبدأ
الزحف مع جماعات أخرى

- ١ -

تذهب التواريخ القديمة والرواية السرفبة للقول بأنه فى زمن
الامبراطور الرومانى هرقل بدأت بعالم محمد [صلعم] تسبت
أقدامها بببيتا قويا فى السرفى .

ولما عاد هرقل من فارس متوجا بأكاليل النصر عاد أيضا
بصليب المسيح ، وأقام فترة من الزمن فى بلاد الشام رسم خلالها
« موديستوس » المبجل أسقفا لمدينة القدس التى كان خسرو - كسرى
فارس الطاغية - قد خرب كنائسها ، فعهد الامبراطور الى
« موديسنوس » هذا باعادة ترميمها ، آخذا العهد على نفسه أن ينفق
من ماله الخاص كل ما يتكلفه هذا الترميم .

فى هذا الوقت بالذات كان عمر بن الخطاب - ثانى خلفاء محمد
[صلعم] فى مملكته وملنه - فد اسولى على عزه - احدى مدن فلسطين
الشهيرة - بجيش لجب من العرب لا يحصيه العد ، ثم ما لبث أن

تمكن بما يحب يده ، من الكنائس والجسود التي جمعها أثناء زحفه
أن يفتح بلاد الدماشقة ويستولى على دمشق ، كل ذلك والامبراطور
هرقل في فيليقية « لا يعمل شيئاً سوى مراقبة الأحداث في بطورها ،
فلما جاءه الخبر بأن العرب قد دفعهم اعسادهم الكبير بجموعهم
الضخمة الى عرو الأراضى الرومانية ولم يترددوا في ضم مدنها اليهم
أدرك أن فوه ليست كافية لصد مثل هذا الجبش وقمع غلوائه ،
فآثر السلامة بالرجوع الى بلده ، بدلا من أن يقاتل قوالب لا تكافئها
قوالبه ، وألا يغامر صدها في حرب لا يعرف ما سمحض عنه ، وكان
الأهالى المغلوبون لا يطعمون الا في حمايته اياهم ، لكنه غادرهم
قازداد بأس العرب شدة مما ساعدهم في رمى وجير على الاسيلاء
على جميع البلاد الممتدة من اللادقية بالسام حتى مصر .

ولقد شرحنا في كتاب آخر ، وفي دفة بالعة ، ما كان من شأن
محمد [صلعم] ومسى كان طهوره ، كما المصا بالأحداث التي اسهب
الى أن يعلن أنه النبى المرسل من الله ، كما وصفنا هناك أسلوب
حياته ودعونه والأراضى التي بسط عليها سلطانه ، وكم عاش من
السين وذكرنا حلعاءه وكف ابغوا طربعه في شر هذه المبادئ
في أرجاء الدنيا .

- ٢ -

لقد كانت هناك ظروف حاصه سهلت فتح الشرق ، ذلك أنه
قبل سنوات قلائل من هذا الفتح قام خسرو - الذي أشرنا اليه حالا -
بغزو بلاد الشام بالسيف ، فدمر المدن ، وأحرق ما حولها من البقاع ،
وهدم الكنائس ، وزج بالناس في السجون ، ثم استولى على المدينة

المقدسة ، وقبل يجد السيف سنه ويلابن الفا من اهييا ، لم
رجع الى فارس حاملا معه الصليب الأعظم ، هذا الى جانب استصحابه
ايضا « روبرت » اسقف بيت المقدس اسرا وكذلك من بقي على قيد
الحية من سكانها ومن اهالى السواحي المجاورة .

كان هذا الحاكم الفارسي الجبار قد تزوج من ماريه احدى
بنات الامبراطور [البيزنطي] موريس الذي كانت تربطه روابط
الصداقة القوية بالبابا المبارك جريجورى [العظيم] الذى عمّد أحد
أطفال الامبراطور عند حوض المعمودية ، كما أن خسروا عمّد هو
الآخر ارضاء لحاطر روحه وطل محفظا على ما ببسه وبير، الروم
من العلاقات الودية طيله حياه موريس الذى مات فحلّقه على العرس
الغيسر فوكاس بعد أن غدر بموريس فاعتاله ، واد داك أعار الملك
حسرو على الامبراطوربه ورحف عليها بجس حرب الاراضى السابعة
لها ، وذلك بسبب تفززه من خيانه أولئك الذين ارضوا أن يولوا
أمورهم رجلا دينيا قد لطخب يدها بدم مولاه ، فعدهم خسرو شركاء
لفوكاس فى اتفاق سرى واعبرهم حلفاء فى الجرم ذاته ، كما أن
زوجه ماريه راحب هى الأخرى نزيد ما بصدرة من غضب من أجل
النار لأبها ، فلما فرغ كسرى من فتح بقية الأراضى النى كانت تحت
الحكم الرومانى كانت بلاد النمام هى آخر ما استولى عليه كما فلما ،
فقتل من أهلها من قتل ؛ وأسر منهم من أسر وساقهم معه الى فارس .

لذلك لما دخل العرب بلاد [النمام] وجدوها خالية قد غادرها
أهلها ، فبادروا لاغسام الفرصة النى لم يكونوا سوفعوها
لبسط سلطانهم ، وفرضوا نفس المصير على مدينة القدس الحبيبه
الى الرب وان منوا بالحياة على سكانها القلائل ممن لا زالوا مقيمين
بها عساهم ينفعونهم فى جمع الجزية التى فرضوها عليهم ، غير أنهم
سمحوا للمغلوبين أن يعدوا ترميم ما دمر من الكنائس ، وأداء

سعائرهم الدينية ، كما أبقوا لهم أسقفهم ، وأذنوا لهم بممارسته
الديانة المسيحية بلا قيد .

★★★

وفي أثناء اقامة عمر [بن الخطاب] ببيت المقدس راح يستقصي
في دفعة عن موضع هيكل (١) السد ويسأل عنه الأهالي لا سيما
الأسقف الموفر « سفرونوس » حليفه « موديسسوس » الطيب
الذكر ، ويقال ان الأمير الروماني « تبتس » هو الذي دمر هذا
الهيكل أثناء تخريبه المدينة ذاتها ، فدل القوم [عمر] على موضعه
وأشاروا الى ما سقى من أطلال ضئيلة نسير الى هذا الأثر القديم ،
واذ ذاك أمر [عمر] بإعادة بنائه ، ورصد فدرا كبيرا من المال
للدقة على ذلك الغرض ، كما حلب لبائنه العمال ، وحمل اليه
— عن طيب خاطر — شتى مواد البناء اللازمة له من الرخام والخشب ،
فما لبث الهيكل أن كمل في زمن قصير ، واستوى على الصورة التي
رسمها عمر له في ذهنه ، والني يراها اليوم زائر القدس .

ثم أوقف [الخليفة] على الهيكل كثيرا من الأملاك الفسيحة
الغنية التي كان دخلها كافيا للحفاظ عليه سليما ، وللصرف على
تجديد أجزائه القديمة ، وزوده بمصاييح لا نطفى أنوارها أبدا
بفصل أولئك الذين يقومون بالخدمة فيه .

لكن لما كان كل واحد يعرف تمام المعرفة شكل هذا البناء
ونفاة صنعه فان تفصيل ذلك ليس من شأن هذا الكتاب الحالي .

على أنه توجد داخل هذا البناء وخارجه آثار قديمة قيمة ،
ونقوش عربية محلاة بالفسيفساء التي يعتقد أنها راجعة الى هذا
العهد ، وهي توضح اسم بانيه ، وما أنفق عليه وتوارين ذلك كله
منذ البداية حتى كمل البناء .

(١) يقصد بذلك كنيسة القيامة .

- ٣ -

لقد دانت المدينة المقدسه - حبيبه الرب - لحكم الأعداء بسبب خطايانا وحملت على مدى أربعمائيه وسعين سنه فيدا لا سنحقه وعانت المشقة على الدوام رغم اخلاف ظروف هذا الأسر بعضها عن بعض ، وكان تغير الأحداث المستمر يتمثل في بديل ولائها وحكامها الواحد بعد الآخر ، كما مرت عليها مرار وضاء وأخرى كالحه بعا لطبيعة كل حاكم نؤول اليه معاليد الأمور بها ، وكان حالها أشبه بحال مريض نتحسن صحنه تارة ، وسوء أخرى بغير الأيام ، ولكن السفاء كان أمرا مستحيلا ما دامت فى قبضة حكام طغاة وشعب لا يدين بدينها ، بيد أن السلام رفرف بجناحيه على شعب الله اباان عهد ذلك الحاكم الجدير بكل ساء ، وأعى به هرون الملفب بالرشد الذى دان له الشرق ، والذى لا زال تسامحه وعطفه النادرى المنال وطبيعته الرائعة محل تقدير عميق وثناء لا ينقطع فى السرو حتى اليوم .

ولقد قامت العلاقات الطيبة بين هرون وبين المسيحيين على أساس من التفاهم الرائع الذى أرسى دعائمه الامبراطور الورد الخالد الذكر « شارلمان » عن طريق السفراء المستمرين جيئة وذهابا ، وكان الود العظيم من جانب ذلك الخليفة مصدر راحة كبرى للمؤمنين ، حتى لكأنهم يعيشون فى ظل حكم الامبراطور شارل وليس نحت حكم هرون ، ونطالع فى سيرة ذلك الخليفة الشهير قول القائل « ان علاقات شارلمان مع ملك الفارسيين (١) هرون صاحب السلطان على كافة أنحاء العالم - باسنثناء الهند - كانت علاقات كريمة حتى ان الأمير [شارلمان] كان يؤثره بمودته على سائر ملوك الدنيا وحكامها ، وكان يرى أنه لا ينبغى أن يكون التعظيم والاحلال الا له وحده دونهم جميعا ، ولما وفد على هرون الرسل الذين بعثهم شارلمان لزيارة القصر

(١) مصد بذلك المسلمين .

المقدس وكنيسة القيامة ودخلوا عليه بالهدايا والصحف ، واعلموه
بما جاءوا من اجله ، وافصحوا له عن رغبة مولاهم لم يندف هرون
باجابهم الى كل ما سألوه اياه بل راد فمكتهم من ملكيه هذا المدن
واعبأه من امرك سارلمان ، فلما حن موعد اوبه الرسل الى مولاهم
أوفد الرشيد سفراء من قبله الى سارلمان ، حاملين اليه هداياه البسيه
من الباب الحريري والوابل وغير ذلك من منسجبات الافطار السرفيه ،
كما كان قد أرسل قبل بضع سواب من ذلك انباريح الى سارلمان
- بناء على رجائه - فيلا كان الوحيد عنده اد داك :

وكان سارلمان يمد يد العون السحي على الدوام لمن يعبس في
القدس من المؤمنين الموجودين تحت حكم الماريين ، كما سمل بره من
كان منهم يسكن مصر وافريقيا التي يحكمها السرفيون المعصبون ،
ونفرا في ترجمه حياته « انه لما كان شديد القوى فقد جرب عادته
على بسط يده بالمال للفقراء في سحاء بالبحر ، سماه الاعريق بالركاه ،
أحدا نفسه بهذا العمل عطفا منه عليهم لئلا حاجتهم ، ولم يقصر
فعله هذا على من هم في مملكته ، بل تعداهم الى كافه المسيحيين
الذين يعسسون في مربة حتى ولو كانوا وراء البحار في بلاد السام
ودصر وبنت المقدس واسكدرية وقرطبة .

أما الدافع الخاص الذي حملة على عقد أواصر الصداقة مع
الملوك فهو طمعه في أن يتمكن من مد يد الغوب والمساعد له لمن
يعسسون تحت رحمة هؤلاء الحكام .

وإذا أراد العارء الوقوف على ما كاتب نكابه القدس : مدنة الله
وما حولها من شدة بسبب كثرة البغرات للظروف والأحوال خلال
هذه القمه الانقاله ، فليقرأ كتابي المسمى « تاريخ أعمال أمراء
المشرق » فقد أجهدت نفسي في أن يكون سجلا شاملا لأحداث حوليات
خمسائة وسبعين من السنين ، أعني منذ زمن محمد [صلعم] حتى
الوف الحاصر . وهو سنة ١١٨٢ من مولد المسيح .

كان هناك فى ذلك الوقت صراع موصول الحلفاء بين المصريين والعرس أشعلت جذوته المنافسة الضارية بينهما حول الزعامة ، على أن الامر الذى لا يكره احد هو أن كل واحد من هاتين الامم كذب بعض مذهبيا يخالف المذهب الذى يعسفه الأخرى تمام المحالفة ، مما أدى الى حد كبير الى اثاره شعور البعض بينهما ، ولا يرال احلاف المذهبين الدينيين بينهما حتى اليوم هو موضوع الجدل الناشب بين هاتين الامم سوبا أفصى للقضاء على كل براحم بينهما، حتى ان كل واحدة منهما تعتبر الأخرى كافرة ، وقد ذهب هذا الشعور مذهبيا بعيدا أدى برغبة كل منهما فى محالفة الأخرى حتى فى الاسم ، فيطلق أنباع المذهب السرقى على أنفسهم اسم « أهل السنة » على حين أن الذين يؤثرون اباع المذهب السرقى المصرى - وهو أقرب ما يكون اليها - يطلقون على أنفسهم اسم «السعة» غير أن سرح الاخلاف فى الخطأ بينهما لا يدخل فى نطاق هذا الكتاب .

وقد أخذت مملكة مصر رداد قوة يوما بعد يوم اد اسولت على الولايات والأقطار الممدة حتى أنطاكية ، كما وقع فى يدها مدينة القدس وغيرها من المدن التى خضعت لبعض العواوين ، وربب على ذلك أن خفت بعض الشئ متاعب المسيحيين الذين دخلوا تحت سيطرتها ، شأنهم فى ذلك شأن سجناء يسمح لهم بالتمتع بعسل من الاسنجمام ، وأخرا أصبح الحاكم [بأمر الله] خليفة لهذه المملكة جزاء وفاقا للؤم الانسان ، فجاوزت خطايا هذا الخليفة خطايا جميع سابقيه ولاحقه على السواء ، حتى غدا اسمه مضرب الأمثال عند الأجيال التالية التى تطالع خبر جنونه ، وكان هذا الرجل مشهورا بشئى ضررب الاثم والاجتراء على ارتكاب المعاصى مما جعل حباه - وهى كربة تند الله والحلو معا - سنحق رسالة خاصة فائمة

بدانها ، فكان من الأفعال الذميمة التى اجترحها قيامه بهدم كنيسة القيامة التى شيدها فى الأصل « ماكسيموس » الموقر أسقف بيت المقدس بأمر الامبراطور قسطنطين بم أعيد ترميمها - زمن هرقل - على يد « موديسوس » الموقر .

وكان والى الرملة واسمه « ياروق » وهو أحد رجال الحاكم بأمر الله - فد أخذ على عاتقه تنفيذ أمر الخليفة ، وسرعان ما أعمل معول الهدم فى البناء حتى سواه بالأرض ، وكان رئيس الكنيسة يومذاك هو «أوريسسوس» المعظم حال من هذا الخليفة السبعة ، وتقول الرواية ان الخليفة اتخذ هذا الاجراء البعيد المدى ليبرهن لأهل مله على مدى اخلاصه للمله ، اد كانوا ينعتونه بالنصرانى قدحا فيه ونبلا منه لانه ولد من أم نصرانية ، ومن ثم حملته الرغبة فى محو هذه التهمة منه على أن يقترب تلك الجريمة ، ولما كان يعتقد أن لن يكون هناك بعدئذ اتهامات توجه الى شخصه وان خصومه لن نواسهم الفرصة بعد ذلك لشن حملات ضارية عليه فقد هدم مهد الايمان الكاثوليكي الذى تصدر عنه الديانة المسيحية .

- ٥ -

أخذت أحوال مسيحيى بيت المقدس منذ ذلك الوقت تزداد سوءا ، ولا يرجع ذلك فحسب الى ما يشعرون به من حزن تقسم بسبب هدم كنيسة القيامة المباركة ، بل وأيضا الى الأعباء المترابدة التى يفاسونها من جراء مخلف الخدمات المفروضة عليهم ، فقد وجدوا أنفسهم مطالبين بدفع اتاوات وضرائب باهظة ينوء بها كاهلهم ، ويرفضها العرف وتشجبها الامتيازات التى منهم اياها حكامهم السابقون ، هذا بالإضافة الى منعهم من أداء شعائرتهم الدينية التى

كانوا يمارسونها سرا وجها بحت حكم الولاة المحلطين ، وكانوا كلما ران عليهم ظلام الايام ألزموا بالبهاء داخل بيوتهم فلا يجرؤون على الخروج بين الناس ، بل انهم لم يعودوا يرون بيوتهم ملجأ أما لهم ، فقد كان خصومهم يحصبونهم بالحجارة ، ويرمونهم بالمادورات ويسبون عليهم هجمات وحشية ويلاقون هم من الازعاج أشده ، لاسيما في أعينهم الخاصة ، وكانت الشهمة العابرة يرميهم بها أى فرد كافية لجرهم بالعنف وتوقيع القصاص عليهم ونعديهم من غير محاكمة ، كما تصدر بضائعهم وبجاراتهم ، وسهب أملاكهم ، ويحطف الناس أبنائهم وبناتهم أمام أعينهم ويرغمون بالجلد تارة والكلمات المعسولة والوعود الكاذبة نارة أخرى على جب دينهم ، فان لم يفعلوا ذلك صب خصومهم عليهم حام غضبهم ، وأذاقوهم العذاب ألوانا وبصوا لهم المشائق .

وكان بطركهم الموجود آنذاك هو الذى يتحمل فى بادىء الأمر هذه البلايا وتلك الاهانات ، ثم أخذ بعدئذ يحض أهل مله - سرا وجها - على النمىك بالصبر ، ويعدهم بأكاليل الشهادة - فى العالم الآخر - نعتقد على رهوسهم حزاء ما تحملوه من الشرور الدنيوية ، فكانت كلمانه الهاما لهم وبلسما لجراحهم فاقتدوا به ، وراح كل منهم يواسى الآخر ويشد من عزمه ، يفعلون ذلك فى حب منبادل ، فاستهانوا بالأهوال الدنيوية بلقوجها فى سبيل المسيح .

وان الأمر لبطول بنا جدا لو تكلمنا عن الحالات الفردية ، أو تحدثنا عن ضروب التعذيب الجثمانى الذى تحمله خدام المسيح هؤلاء بصبر يرجون منه أن تزلف لهم الجنة ، لكننى أسوق مثالا واحدا من أمثلة جمة لتدرك جلالتكى لماذا كانت أتعفه الأسباب تؤدى بهم الى ورود حوض الردى ، ذلك أنه كان يعيش بين ظهرانى قومنا فى مدينة القدس واحد من الأشرار الفجرة الذين انطوت نفسه على كراهية سوداء لاهلنا كانت تحمله على الدوام لاضطهادهم ، فدرد

هذا الرجل مكبده فيها هلاكهم ، اد انسل جلسه داب ليله حاملا حيفة كلب بم ألقاها في ساحة الجامع الذي كان القوامون عليه - كذلك أهل ادينه كلهم - حريصين أشد الحرص على بطاينه البامه ، فلما أهل فجر اليوم التالي أقبل المصلون على المسجد لاقامه الصلاة ، فوجدوا حمله الجبوان النجس يصاعد منها النس ، فثار باثرينهم ، وبعالت صرخاتهم حتى صحب المدببه كلها على صاحبهم ، وأسرع الناس الى المسجد ، فأجمعوا الرأي كلهم - دون أن يسد عنه أحد - على أن مسئولة الحادث رفع على كاهل المسحجين وحدهم .
فماذا كان بعدئذ .

لقد تقرر اعدام جميع النصارى باعتبار أن الموت ولا شئ سواه - هو وحده الذي يمكن أن يكفروا به عن هذا الدنس ، فأهبط المؤمنون - وكلهم ثقه ببراهه ذيلهم - لنحمل الموت من أجل المسح، وببما كان الجلادون يتقدمون مسهرين سيوفهم ويوشكون أن يعقدوا الأوامر الصادرة اليهم اذا بساب يافع يفيض قلبه بالنحوه يقدم الجموع جاعلا نفسه الفداء لهم ويقول لهم :

« أيها الاخوة .. ستكون أكبر نكبة أن يهلك الكنسه كلها بهذه الطريقه ، وانه لأجدي أن يقدم واحد حيانه فداء للناس جميعا فلا يهلك السعب المسيحي جميعه ، فعدونى أن نكرموا ذكرى سويوا ، وأن توقروا أسرته الى الأبد ، وتخصوها بالنسريف ، ان خلصتكم بأمر الرب ، فان عاهدتموني أن نفوا بهذه الشروط خلصتكم جميعا بأمر الرب من هذه المذبحة » .

وأنصت المسيحيون الى كلماته في فرح شديد ، وأبدوا اسعاداتهم للوفاء له عن طيب خاطر بما سألهم ، ووطعوا على أنفسهم العهد أن يخرج في يوم عند الشعانين موكب مهيب ممن هم من ذريته، يحملون الى المدينة أغصان الزيتون رمزا لسيدنا يسوع المسبح :

حبيدك أسلم الساب نفسه لوجوه أهل بيت المقدس ، معلنا
لهم أنه هو الذى افترق ذلك الجرم ، فبرأب بذلك ساحة المسبحين
الآخرين ، اد ما كاد العضاة يسمعون قصه حتى صفحوا عن بفيه
قومه ، أما هو فقد فلوله بالسيف ، وهكذا قدم حياته من أجل
اخوته ، وقابل الموت بعزم كريم ، وبام أطيب نومه مباركته وهو واثق
كل الثقة أنه قد حظى بعطف الرب .

- ٦ -

ولقد نأى أحيرا أن حلب السفغة الالهية والعطف الربانى على
هذا السعيب المنكوب حين وافاه العون الكريم بالرحمة بوضعه البائس،
اد فارق الأمير الخبيث الدنيا ، وملد من بعده ابنه « الظاهر » معالند
السلطة ، فاجنث الاضطهاد من جذوره ، وجدد الانعاقبة التى نعضاها
أبوه ، وأحكم روابط الصداقة مع رومانوس امبراطور القسطنطينية
الملقب بلهيوبوليس ، الذى اسجىب الظاهر لرجائه فأذن للبصارى
بإعادة وبسييد الكنيسة ، لكن على الرعم من حصول مؤتمى القدس
الأنقياء على هذا الاذن الا أنهم أدركوا أن مواردهم المائلة وحدها
عاجزة عن إعادة بناء أثر عظيم كهذا الأثر ، ومن تم أرسلوا سماره
الى « قنسطنطين مونوماخوس » الذى ولى العرش بعد « رومانوس »
وصار اليه الصولجان والناج فتضرع اليه السفراء باكين بين يديه ،
ووصفوا له ما تكبدته الناس من حزن ممض وسقاء بالغ بسبب
تدمير كنسيتهم . وضرعوا اليه أن يعمهم سخاؤ الامراطورى
ليتمكوا من إعادة بسيد الكنيسة ، وكان القوم قد عهدوا بهذه
السفارة الى رجل من أهل القسطنطينية اسمه «جون كاريايسيس» جمع
بين شرف الأصل ونبل الخلق ، قد نبذ وراءه ظهريا جميع مباحج

الدسا من أجل خدمة المسيح وصرف همه لرعايه الله ، وكان جون هذا يعيش يومئذ فى بيت المقدس ، عارفا عن الدنيا ، باهجا بهج الفقراء من أجل المسيح ، فباط القوم به هذه المهمة فأذاها صابرا غير مقصر، وأخلص فى عرسها بين يدي الامبراطور المبجل حبيب الله . وبجح فى مسعاه ، اذ وعده فسطنطين من ماله بالمال اللازم للسير فى اجراء اب اعادة البناء ، وزاد فجعل هذه النفقة المالة من جيبه الخاص ، فلما أنجز جون مهمه على الوجه الأكمل آب الى بيت المقدس والفرحة نغمه لحصوله على الوعد الذى كان المؤمنون يلهفون عليه .

وعلم القاصى والدانى بنجاح رحلته ، وتوفيقه فيما حصل عليه ، فارتفعت معنويات رجال الدين والناس جميعا ، وبدوا وكأنهم قوم أبلوا من مرض خطير ، وكان رئيس تلك الكنيسة فى ذلك الوقت هو البطررك « تقفور » .

لم يكذ الناس يتأكدون من منحهم الاذن بالبناء وحصولهم على المال من الخزانة الامبراطورية حتى شيدوا كنيسة القيامة المجددة التى لا تزال حتى اليوم فى القدس ، وكان ذلك سنة ١٠٤٨ من ميلاد المسيح ، أعنى قبل تحرير المدينة بواحد وخمسين عاما ، وبعد هدم الكنيسة سبع وثلاثين سنة ، فلما كمل البناء واستقام عاليا رأى الناس فيه عزاء لهم عما كابدوه من الأهوال والأخطار القاتلة التى تعرضوا لها من قبل .

بيد أن الشعب المؤمن لم يخلص تماما من المتاعب والى التى لم تتوقف عن أن تصيبه بين آن وآخر ، فكم تعرض للبصق والصفع ، وطالما زح به فى السجن وكبل بالقيود ، ولم يقتصر الأمر فى الاضطهاد على من كانوا بالقدس وحدها من المسيحيين بل تعداهم الى من كانوا يسكنون فى بيت لحم « وتكوا » أيضا ، ولم يحدث

أن جاء وال جديد أو أرسل الخليفة نائبا عنه الا تجددت الاهداب
منصب على رأس شعب الرب المتدين الذى لم يقصر أبدا فى الوفاء
بكل ما هو مفروض عليه ، ثم يهدد بعد ذلك مباشرة بهدم الكنيسة ،
حتى صارت هذه المعاملة عادة تتجدد كل سنة تقريبا .

**واصطنعت شتى الطرق لابتزاز هذا الشعب ، فاذا أراد
مضطهده اغتصاب أى شئ منه أو من البطرك وتلكا هؤلاء فى
الاستجابة هددوا فى الحال بهدم كنيستهم .**

وكانوا يعانون كل سنة على وجه الغريب هذه المعاملة ، فيدعى
النواب الجدد أن أوامره ولاهم صريحة بتسوية الكنائس بالأرض
فى الحال ان تجرأ أصحابها على التأخير فى دفع الجزية والضرائب
المفروضة عليهم .

لكن على الرغم من ذلك فان المسيحيين نعموا – على طول مدى
حكم المصريين والفرس – بأحوال معيشية أطيب من التى عاشوا فى
ظلها بعد أن بسط الترك سلطانهم ومدوا نفوذهم على ممتلكات
المصريين والفرس ، اذ أخذت أحوالهم تزداد سوءا مرة أخرى منذ
أن أصبحت المدينة المقدسة تحت اشراف الترك ، كما قاسى شعب
الله (على مدى ثمانية وعشرين عاما من الحكم التركى) مشاقا أعظم
هولا من المشاق التى عاناها تحت نير المصريين والفرس والتى بدت
فى نظره أقل فداحة .

وسوف نحدث كثيرا عن الترك في هذا الكتاب وعن عدوانهم على شعبنا كما سنقص أيضا أخبار البطولة المجيدة التي طاملا فما بها ضدهم ولما كانوا قد دأبوا منذ ظهورهم حتى الآن على الإبدفاع الطائش في مهاجمتنا فانه يبدو من الأوفق في الكتاب الحالي أن نعدم موجزا عن نشأة هذا الجنس وتاريخه القديم ، ونتكلم كذلك عن بيئته مقعد العظمى التي شهد الأخبار أنهم حافظوا عليها آمادا طويلة .

لقد جاء جنس الترك أو التركمان (وهما من نبعه واحد) في الأصل من المناطق السهلية ، وهم قوم معرطون نبي العظاظه ولا يقيمون في مكان واحد ، بل كانوا يجولون على الدوام ههنا وهناك سعيا وراء المرعى النضير لقطاعهم ، ولم تكن لهم مدن أو قرى أو أماكن معينة يستقرون فيها ، فان رأيت احدى القبائل أن يعير مكانها شدة بأجمعها رجالها وخرحت تسعى وقد نصبت عليها شخا يكون أكبر رجالها سنا ، وهو الذي يرفع اليه القبيلة سبي مشاكلها فيقضى فيها بما يرى ، ويلتزم المحاصمون بطاعه فيما قدر وقرر ، لانه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يسع هوى ذاته ويحالف ما يقضى به السخ ، وكانوا يأخذون معهم أثناء تجوالهم حمى ما يحتاجونه من علف الجناد ، ويستصحبون معهم الماشية والعصم وكذلك عبيدهم ونساءهم ، وذلك كله هو جميع ما يملكون .

وهم لا يهتمون بالزراعة ، ولا يعرفون البيع ولا السراء ، ولبس لهم من وسيلة في الحصول على ضرورات الحياة سوى المقايضة فان أعجبهم موضع معشوشب لطيف وأرادوا النزول به فترة من الوقت دون اضطراب أرسلوا من قبلهم طائفة من أعقل رجالهم الى صاحب الحاجة يسألونه أن يأذن لهم بضرب خيامهم هناك ، فاذا انهوا الى

اتفاق مرض على دفع قدر معين دفعوه لحاكم هذه الناحية ، ثم يقيمون
بعد ذلك فى العابات والمراعى وفق السروط المبرمة .



وحدث ذات مره أن انفصلت طائفة من هؤلاء الناس عن سواها
ودخلت بلاد فارس ، فوجدت الافليم ملائما كل الملاءمه لاحتياجاها ،
ودفعت للحاكم ما اتفقوا سعه عليه فى البدايه ، وأقاموا هناك ردحا
من السنين أطول مما جرب به عادتهم ، ورايد خلال هذه العره
عددهم زياده هائله ، والواقع أنه لم يكن هناك حد نفث عنده
كربهم ، حى انتهى الأمر أخيرا بملك فارس والأهالى أن يحرقوا
من نزايد عددهم الكبير ويوجسوا حيفه منه ، فراحوا يقلبون الأمر
فيما بينهم حنى انتهى بهم الى وجوب استعمال القوه فى طرد هؤلاء
الدخلاء من مملكهم ، لكنهم ما لبثوا أن رأوا بغير هذه الحطه ،
فأضافوا مطالب حديد زادت من المصاعب المراكمه دون أن يخف
الضغط المعناد ، وكانوا يطمحون أن يؤدى هذا الأمر الى ارهاقهم
ارهاقا يحملهم على الزوح من تلقاء أنفسهم ومن غير ضغط عليهم ،
ومع ذلك فقد ظلوا أعواما طويلا بعد ذلك متحملين عبئا ثقيلا من
الماعب ، كما أرهقهم الاناثوات المفروضة عليهم ، وأخيرا نشاوروا
فيما بينهم فقر رأبهم على أنه لم تعد لهم طاقة على تحمل ما هم فيه .

فلما علم الملك بذلك أمر المبادئ أن ينادى بوجوب رحيلهم
جميعا من أرجاء المملكة فى فترة معينة لا يتجاوزونها ، ومن ثم عبروا
نهر « كوبار » وهو حد المملكة فى تلك الناحية ، واغتنموا الفرصه
اذ ذاك لاقامة جموعهم الكثيفه ، فلما تهيأت لهم الحياه فى فسحة
من الأرض وفى رقعة أوسع مما كانت لهم من قبل تأملوا ما هم فيه
من الكثره ، فراعهم أن يستبكين جيش كبير لا يحصيه العد كجيشهم
هذا لصلف أى أمر ، وعجبوا من أنفسهم أن يتحملوا شتآن الخدمه

ودفع الجريه وكان من الجلى أنهم يماللون العرس وغيرهم من السعوب فى العدد والبأس ، وبدا لهم أن العقبة الوحيدة التى تقوم أمام احتلال الأراضي المجاورة بالقوة إنما يرجع لعدم وجود ملك تتولى أمرهم ، كما هو الحال فى بقية الأمم الأخرى .

لذلك قرروا أن يولوا عليهم ملكا فاستعرضوا قومهم جميعا فوجدوا من بينهم مائة أسرة لها الصدارة على غيرها ، فأمرؤا أن يخرج رجل من كل أسرة ومعه قوسه ، فتجمعت بين أيديهم حزمة فيها مائة قوس بعدد العائلات ، واذا ذلك استدعوا صبيا صغيرا وأمرؤه أن يسحب سهمها واحدا بعد أن غطوها ، وكان الاتفاق بينهم على أن يتم اختيار الملك من الأسرة التى منها السهم الذى يسحبه الصبى ، وشاءت الصدفة أن يكون السهم المسحوب هو سهم السلاحفة فكان الملك الذى يلى أمرهم فى المستقبل من هذه الأسرة حسبما جرى عليه اتفاقهم .

ثم أمرؤا باختيار مائة فرد من السلاحفة اشنرطوا فيهم أن يكون كل واحد منهم أكبر رجال عشيرته سنا وأعظمهم خلقا ، وأحسنهم طبعا ، وأكثرهم اقداما ، ثم يتقدم كل واحد من هؤلاء برمح عليه اسمه وجعلوا من هذه الرماح مرة أخرى حزمة وأحسنوا غطاءها ، ونادوا ثانية على الغلام ذاته (أو آخر فى مثل برادته) وأمرؤه أن يسحب رمحا فكان الرمح الذى سحبه الصبى يحمل اسم سلجوق .

وكان سلجوق هذا رجلا جميل المنظر من أسرة مرموقة ، قد ذاع أمره وصيته فى عشيرته ، وعلى الرغم من كبر سنه إلا أنه كان قوى البنية . فد طال نمسه فن الحرب ، وكان كل شىء فيه يشير الى أنه أمير عظيم .

نُصَّبَ الرجل باجماعهم كبيرا عليهم ، ووصعوا في يده السلطة الملكية ، ووفروه التوفير الواجب نحو الملك واسموا على طاعته وقطعوا له يمين الولاء الصادق بنفد كل ما يقضى به فيهم ، فبادر هذا الملك في الحال الى استخدام السلطة الموكلة اليه للعمل على ما فيه حير المملكة وبعث المنادى في الناس المجسمين أن يعبروا النهر من جديد بكل كتائبهم وأن يحتلوا أرض فارس التي غادروها منذ قليل ، كما أمرهم بالاسيلاء على المملكة المجاورة حتى لا يضطروا في مستقبل أيامهم أن يهيئوا على وجوههم في أرض الغير ، وحتى لا يكونوا عرضة لاسنبداد غير محتمل من الشعوب الغريبة عنهم .

وتمكنوا في مدى سنوات قلائل من اكتمال بلاد فارس وجميع الممالك الشرقية والتغلب على بلاد العرب وغيرهم من أصحاب النفوذ والسلطة من الأمم الأخرى ، وهكذا أتبع لهذا الشعب البسيط التافه أن يسسم فجأة معارج الذروة ويتبوأ القمة حتى ملك الشرق كله .

وكان حدوث ذلك قبل ثلاثين أو أربعين عاما من قيام أمرائنا الغربيين بحمله الحج التي هي موضوع هذا الكتاب .

ولكى نفرق على الأقل في الاسم بين هذه القبائل التي نصَّبت عليها ملكا فنالها الشهرة العظيمة وذويوع الصيت وبين أولئك الذين لا زالوا محتفظين بأسلوب حياتهم الخشن القطري فانا نقول ان الجماعة الأولى تعرف الآن بالترك ، وأما الثانية فتعرف باسمها الأصلي وهو « التركمان » .

ولما ترك للترك عرو جميع ممالك الشرق بطلعوا لفتح مصر القوية فزحفوا على بلاد الشام ، واستولوا على بيت المقدس واحتلوا عدة مدن قريبة منها فزادوا من متاعب المؤمنين الساكنين هناك زيادة أرهقتهم كل الارهاق لما فرضوه عليهم من أعمال يؤدونها لهم ، كما أشرنا الى ذلك حالا .

لم يكن المؤمنون في السرق وحدهم هم الذين أتاح عليهم
الطعام بكلدتهم بل لقد صعب الإيمان ووصى نبي العرب ووصى ناسه
انحاء الارض ، لا سيما بين من كانوا يسمون بالمؤمنين فبلاست
حسبه الله من قلوب الناس ، وضاع العدل من الارض ، وانعدم
الطمأنينة اد فسي العنف بين الامم ، وساد العس وعمت الخيانة
والخديعة والاحتيال كل صفع وناد ، وطويت كل قسمله . ثم يعد
وجود لها وصارت عدما واربع رايه السر مكانها . والندى لا وراء
فيه هو أن الدنيا قد بدت وكأنها منحدره في هوه الطلام ، وأنه
قرب الموعد الباسي لظهور ابن الانسان « فقد أمسك الكيرون عن
عمل الخير ، وأصبح الايمان في العالم عريبا ، وعمت القوصى ، ولم
يعد أحد يراعى مكانه صاحب مكانه ، وخيل للاطر أن العالم يريد
أن يعود القهقرى الى الوراء الى وضعه الأول من القوصى السى كان
عليها ، كما لم يعد الأمراء الكبار الذين كانوا ملزمين بالسير برعسهم
نحو السلام مكتربين بانعافيات السلام السى بعدد بين بعضهم والبعض
الآخر ، وراح كل منهم يعال حتى لأنفه الأسباب ، وعادوا في الأرض
فسدا يحرقون كل ما يلاقونه ، ويسسون على العسائم النسي
وجدوها ، ومكنوا أبعاعهم السفله الأوعاد من اعصاب ما بملكه
العمراء ، ولم يعد وسط الكوارث الجمه طمأنينه على أية ملكيه ، وكان
مجرد النشك في حيازة الشخص لسيء ذى فيمة سببا كافيا لقبيله
والزج به في السجن حيث يلقي من العذاب الجنماني ما لا يحمل ،
ولم تعد أمة الأديرة والكنائس بمنجاة من هذا الشر ، كما لم يعد
أحد يراعى ما لممتلكات هذه الأماكن الطاهرة من امتيازات منحها
الأمراء الأنقباء لها ، وانعدم التقدير الذى كانت تضفيه عليها مكانتها
الرفعة السى كانت لها من قبل ، فاقتحمت المعابد وانتهكت حرمانها ،
وبهت الأوعنة المعدة للخدمة الديسة ، ولم يرق بد الانتهاء بين

الطاهر والدس ، واعتمد التمييز بينهما وشملت الأسلاب
فينا سملت أكسيه المدايح والأردية الكهوبية والواوي المخصصة
لخدمة السيد ، ويعقبوا اللائدين بأقصى الأماكن الدينية والمعصم
بالاحرم المقدسه واللاجئين الى ساحاب الكائنات فطالبهم ايديهم
وساقوهم الى التعذيب ، وجرعوهم كأس الردى دهاقا ، هذا الى
جانب اللصوص الطلبة الذين سملحوا بالسيوف في الطرق العامة
وراحوا يصبون الكمائن لنصيد المسافرين ، فلم ينج من بطشهم
حاج ولم يسلم من ترهم رجل ذبح ، ولم تكن القرى هي الأخرى
بمخاة من الأخطار لأن السفاحين المخلعين أحالوا جميع السوارع
والدروب الى أماكن نبب الخوف في نفوس الأبرياء ، وربما كان أسد
الناس عرصه للوفوع في المهالك هم أبعدهم عن السهات .

ومورست شنى أنواع العجور جهرا ومن غير حياء كما لو كانت
أمرا مشروعا . ولم بعد نراعى روابط القرى من الدم والرواح ،
ونخلي الناس عن العفة - وهي غاليه عند الله وملائكه - فنبذوها
سد النواء ، وصارت الصدارة للدعارة والانكباب على السراب والهالك
على ألعاب المسر والعمار التي تحتاح الى سترات لبلبة طوليه ،
فمارسوا ذلك كله في ساحات المعاند ، واعتمد التدبر والنعف
وساوى رجال الدين بقية الناس في ممارسة الحياء غير السرمه
وصاروا كمن نقرأ عنهم في الأنساء حب يقال :

« كما الشعب هكذا الكاهن ، وكما العبد هكذا سيده » (١)
فقصر الكهنه في أداء واجباتهم « وكلهم كلاب بكم لا تقدر أن
نسخ » (٢) ، فكانوا لابنورعون عن مقابلة أى أحد « ولا نأبى رؤوسهم

(١) هوشع ٤ ، ٩ ، واشعيا ٢٤ ، ٢٤ .

(٢) اشعيا ٥٦ ، ١٠ .

رب « (١) الخبز ، وصاروا كالرعاة الدس أهملوا قطعان الماشية
الموكول النهم حراسيها وبركوها عرصة لهجمات الدئاب ، وبأسوا
كلمات المسيح حيث يقول (٢) « مجانا أحديم » محانا اعطوا » ،
ولم يبورعوا عن خطئهم السموه ، فملطحوها بعار حمجى (٣) .

فهل ثم حاجة لمريد من القول ؟

والخلاصة أن أصبح الصداه للردائل « اد كان كل بسر قد
أفسد طريقه على الأرض » ، ولم يستطع بهديدات الرب التي جلبت
كسدير سؤم من السماء ولا الطواهر الأرضة أن بزحر من سلخوا
طريق السر ، فاسترب المجاعات وعمت الأوبئة وأرعدت السماء
بالندر (٤) ، وصربت الرلازل كبرا من السلاذ المخلفة وطهر غير
ذلك من الدلائل التي عددها المسيح في الانجيل (٥) .

ومع ذلك فلم يرعو الناس عن غيهم بل ظلوا يركبون سبي
الموتعات (٦) ، سأنهم في ذلك سأن الأعنام ننسخ في رويها (٧) .
وأهابوا الرب الرءوف الذي بعد طويلا فكان ملهم في ذلك
مل الدس فال فيهم السيد (٨) .

(١) المرامير ١٤٩ - ٥٠ .

(٢) مي ١٠ - ٨ .

(٣) اطر القصة والحر كامل في اللوك (نان) ٥ - ٢٠ - ٢٧ .

(٤) الكويين - ١٢ .

(٥) اساء الى ما ورد في مي ٢٤ - ٧ من قوله « لانه يوم أمة على أمة .

وممكنة على مملكة وكون مخاعات واونة ورلازل في اماك » .

(٦) راجع قول السد المسيح في لوقا ٢١ - ١١ .

(٧) راجع رساله بطرس الثانية ٢ - ٢٢ حيث قال « كايهم كلب قد عاد الى

قيته ، وحزيره معسلة في مراعة الجماء » .

(٨) راجع أرميا ٥ - ٣ ، ٥١ - ٩ « صريهم فلم يوحوا » أقيتهم وأبوا

قول الناديب » .

- « يا رب أليست عيناك على الحق • صربهم فلم يوحعوا •
 أفسهم وأبوا قبول التأديب • صلبوا وجوههم أكر من الصخر •
 أبوا الرجوع » ، وكذلك قوله « داوينا بابل فلم سف » •

- ٩ -

حين فاض مرحل العصب بالرب من هذه الأمور فصى على المؤمنين الصادقين الموجودين فى أرض الميعاد أن يرسفوا فى قيد العبودية المتشار إليها من قبل ، وأن يقاسوا من السدائد ما يعجز اللسان عن وصفه ، وبالإضافة الى ذلك فانه آثار عليهم حصومهم وصب عليهم سوط عذاب فابتلى الدين ظلوا حتى هذه اللحظة سادرين فى غيهم ومعتقدين أن كل شيء سيظل سائرا وفق هواهم ذلك أنه بينما كان « رومانوس » الملقب بـ « ديوجيوس » يحكم الإغريق ويدير دفة أمور المملكة فى القسطنطينية على أمم صورة من النجاح اذا بواحد من حكام فارس وسورية الأفوياء واسمه ألب أرسلان ينهض من قلب الشرق بعساكر كيفة جمعهم من سبى الأمم الحادثة ، وكانوا من الكرة بالصورة التى عطب - كما قيل - وحه السبيطة ، كما اصطحب معه العربات الحربية والعريسان ، ومنتت حلقة قطعان الماشية والأغنام ، وكان مجهزا بكل شيء تجهيزا رائعا ، وتقدم حتى دخل الامبراطورية [البزبطه] وأخضعها كلها لسلطانه وسطر على كل شيء خارج المدن من الحقول والبلدان المسورة والقلاع المننعة دون أن يحرج أحد لصدده ولم يعرض زحفه أى معترض ، ذلك لأن كل واحد من الناس كان لا يعنيه غير سلامة نفسه ، ولا يكرت حتى بنسائه ولا أطفاله بل ولا بالحرية ذاتها ، وعلم الامبراطور فى هذه الأثناء بأن حشدا قويا معادبا له كأنه السيف المسلول يهدد نقطم الرفاق قد شرع فى تخريب الامبراطورية المسححة ، فدفعنه

شده انشغال باله الى استدعاء قواته من الفرسان وجميع المساه
الذين تستطيع الأمة تقديمهم ، استجابة لما يفرسه الموقف الحرج .

فماذا يقول أكثر من ذلك ؟

لقد رحف الامبراطور بكل ما يجمع لديه من الكائب ،
وما حشده من الفرسان الكثيرين ، ولكن زحفه كان على غير رضا من
الله فلاقى الخصم لكن بعد أن كان قد استولى على قلب الامبراطورية
وأخذ ينوغل فى داخل البلاد .

ثم كاس المعركة التى سُبِت بعد ذلك فى ملازكرت معركة
ضارية ضراوة تناسب مع قوتين تعادل كل منهما الأخرى تقريبا
وتحرك كلا منهما كراهية يزيد بها عنفا ايمان شديد الصلابة ،
وكراهية لمعتقدات يعتز الواحد منهما أن خصمه يصدر فيها عن
دنس .

فماذا نقول أكثر من هذا ؟

لقد باد الحش البصراني ، ودارب الدائرة على صفوف
المؤمنين ، وسفك العدو دماء فداها المسح بدمه ، وكان أسوأ النكبات
اللى حاقت بهم وقوع الامبراطور فى الأسر .

وعاد من هذا الجيش من قيضت لهم الحياة ليقصوا نبأ الكسه
اللى ألب بهم ، فاسمع الناس فى ذهول لما يقولون ، وأدى بهم
الحرن الذى استولى على نفوسهم الى الأس من حاثهم وسلامتهم ،
فأسلموا أنفسهم للبكاء الممض .

فى هذه الأثناء انتسى العدو العظم - وان يكن كافرا - بنصره
الساحق ، وأخذ يساهى بما أحرز من الظهور ، فأمر [ألب أرسلان]

باحضار الامبراطور من يديه ، وجلس هو على عرشه الملوكي ، ثم أمر بطرح رومانوس تحت قدميه ، وأراد اظهار احفاره لكل ما هو مسيحي فاجد من جسد الامبراطور موطنًا لقدمه ، وراح يدوسه صعودا ونزولا ، حتى اذا رضى بنفسه بما ألحقه به من حقير واردراء أمر طائفة من كبار رجال الامبراطور الذين أسروا معه أن يرفعوه من على الأرض ، وأذن لهم جميعا بالرحيل .



حين صك نبأ هذه الاهانة سمع أمراء المملكة بادروا الى اخسار رجل آخر ولوه أمرهم ، شعورا منهم بأن رومانوس - الذي لقي هدم الاهانات الجسدية - لم يكن بعد أهلا لحمل الصولجان ، ولا حديرا بهالات السرف التي تلبق بأغسطس ، بعد أن فضح أفعال فصححة ، ثم سملوا عينه ، وان نكرموا عليه بالحياة لعيش ما بقي من أيامه كمواطن عادي .



لم يصادف ملك شاه أية عقبة في تنفيذ أهدافه ، فقد نجح فما أقدم عليه ، اذ استولى على جميع البلاد الممتدة من لاذقية الشام الى مصبق السفور الذي ينساب الى حوار القسطنطينية ، وكانت الأرض التي استولى عليها تقدر برحلة ثلاثين يوما طولا ، وعشرة أو خمسة عشر يوما عرضا واسترق جميع سكان المدن والقرى ، وهكذا (١) « غضب الرب على شعبه وكره ميراثه وأسلمهم ليد الأمم، وتسلب عليهم ميفضوهم » .

(١) الزامير ١٠٦ : ٤١ .

ثم كانت مديته أنطاكية الهامة آخر ما استولى عليه ، وكانت لها الصدرة بين كثير من الولايات في النبل والروعة . إذ كانت أول مركز لأمير الحواريين ، ثم أصبح يدفع الحرية لحصوم ملها ، وهكذا دخل تحت سيادة المارفين - وفي زمن قصير سبيا - بلاد « كوليسيريا » بما استملت عليه من ولايات فيلقية وإيسوريا و « بامفليا » و « لكيا » و « كبادوسيا » و « علاطه » وأبضا ولاينا « بوسوس » و « بسنا » وقسم من آسيا الصغرى ، وسهر كلها بكثرة مواردها ، وكان أغلب سكانها من البصاري لكن جرى عليهم الأسر ، وعلت الكنائس على أمرها وامنت البها يد الدمر ، وانطلق الأعداء بطاردون الله المسححة لا تأخذهم في هذه المطاردة هواده إذ أجمعوا العزم على استئصالها ، ولو كان تحت يد ملكسه فوه بحرية لم له ما أراد من عر حدال فتح المدينة الملوكية (أعنى القسطنطينية)، ذلك لانه بب في نفوس الاغريق من الرعب ما جعلهم يسبعدون سلامة أنفسهم حتى داخل أسوار عاصمتهم ، ولم يعودوا يعسرون نعلل البحر في أرضهم كافيا لضمان سلامهم تمام السلامة .

أدب هذه الأحداث - وأخرى متشابهة لها في طبعها - إلى سيطرة الفرس التامة على كافة سكان بيت المقدس وما حاورها ، فغمر البأس الناس من قمة رأسهم إلى أخمص أقدامهم ذلك أن عزاءهم - كما قيل - كان تأتهم في وقت السدة من القصر الامراتوري يوم كانت الامراتورية سعم بالرخاء ، فكانت سلامها وسلامة أحوالها وانعاش حال المدن المحاورة - وفي مقدمها جميعا أنطاكية - تبع في نفوسهم أملا كبيرا في أن ينعموا بالعيش أحرارا في مسنقل أيامهم .

أما الآن فقد أصبحوا جرعين على أنفسهم وعلى غيرهم فعمتهم الاشاعات المتسومة حتى أصبحوا يودون الموت أكثر مما يرحون

الحياه ، وانهارت عزائمهم اعمقادات منهم أن قد قضى عليهم بالأسر
الأبدى .

- ١٠ -

حدث فى أثناء هذه الأوقات العصبة الحطره أن وصل الى
مدينة القدس جماعه صحفه من اليونان واللايس بحوا من سبي
صنوف الهلاك فى أرض العدو ، وكان محيئهم لأداء مساسك العباد
فى الأماكن الطاهره ولكن حراس أبوابها لم يأذبنوا لهم بدخولها
حتى يدفعوا قطع البعود الذهبه السى حرب العاده أن يدفعها كل
داخل ، عر أنهم كانوا قد صرفوا فى أثناء رحلتهم كل دابق كان
معهم ، ولم يسق فى بدهم شىء من بعد تؤدونه لسداد هذا الرسم
المالى ، وان كانوا قد وصلوا - بسق النفس - الى هدفهم الذى طال
سوفهم الله ، فبلغوه سالمين .

وبجمع الحجاج ررافات أمام المديسه سيطرون الاذن لهم
بدخولها ، وطال انتظارهم حتى مات منهم أكثر من ألف حاج بسب
الجوع والعرى ، وكان هؤلاء الناس (الحجاج) - الأحباء منهم
والأموات - عبثا ثقلا سوء به كاهل الأهالى العساء الذين حاولوا
المحافظة على حياة من لا يرال فيه نفس بتردد ، فراحوا بمدونهم
بما قدروا عليه من الطعام بسكون به رمقهم ، كما بذلوا من حاسهم
ههنا فى دفن الموتى ، رغم أن مشاغلههم الحصوصه كانت فوق
طاقهم .

أما الحجاج الذين دفعوا الرسم النفدى المقرر ، وأذن لهم
بدخول بيت المقدس فقد أضافوا الى المواطنين عبثا زاد من أعبائهم

وحملهم مسئولية أضحم ، لما كان ينبغي هؤلاء الحجاج من الأخطار أثناء بجوالهم الذى كان يسهم بالبعد عن الحذر بلهفا منهم على رbare الأماكن المقدسة ، وكانت هذه الأخطار سمتل فى البصق عليهم ، أو لكيم على آدابهم ، أو ما هو أسوأ من ذلك ألا وهو حقتهم سرا . ومن ثم فانه لما راح الحجاج سرعون فى المصى الى الاماكن المقدسة مصى المواطنون بسعونهم فى حبان أخوى مؤملين أن نملكوا بهذه الطرفه من دفع هذه الأخطار عنهم حرصا منهم على حبانهم وسلامتهم وحرعا من أن تقع لهم حادث مؤلم .



وكان فى المدسه دير ملكه « الأمالغون » لا يرال يعرف حنى اليوم باسم دير القدسة مارى « حامة اللانين » وهو ملاصق لمارسان به كنيسة صغيرة أقمب تمجيدا لطرك الاسكندرية المبارك « جون المنتر » وكان نفوم بالعناية بالمارسان رؤس أساقفة « الدبر المذكور حالا » . كما كانت المعونة بذل به فى أى وقت للحجاج النؤساء الذين يحضرون فى مل هذه الظروف فننقو عليهم مما نأنى من الدير أو من الهاب الى بحود بها المؤمنون وكان قل أن يحد بين الألف من الحجاج القادمين واحد يسطيع أن يكفل ذاته ونقم أود نفسه اد يكون أكرهم قد فقدوا نفقة سفرهم ، وأرهمهم الصعاب المهلكة ، وما استطاعوا بلوغ غاينهم سالمين الا بعد عسر ومنقّة .

هكذا لم يكن ثم راحة للمواطنين فى بلدهم ولا فى خارجه ، وما كان من يوم يقضى عليهم الا ويحمل لهم نذر الموت ، الذى كان هناك ما هو أنكى منه ألا وهو حزعهم مما هو مائل أمامهم على الدوام من الاسترقاق الفظ الذى لست لهم قدرة على احتماله .

وكان هناك شيء آخر أدى بهم الى أقصى آيات الحزن ، وذلك أن العدو كان يدخل قسرا الكنائس التي أعيدت لأصحابها والتي بدلو جهدا كبيرا في الحفاظ عليها وفتحها عليهم وهم في ذروه انغمارهم في أداء طقوسهم الدينية غير عابيه فط بما لهذه الأماكن الطاهرة من حرمة واحترام ، فينحد من مذابحها مقاعد له ، ويبت الفرع في قلوب المصلين بصغيره وصباحه الجنوني ، ثم يعلب كنوس القرايين ويظا بأقدامه الأدوات الخاصة بالمراسم الدينية ، ويحطم التماثيل الرخامية ويكيل اللكمات لرجال الدين ويصب عليهم وانلا من اللعنات ، ثم يجذب البطرك المولى الأمر من كرسبه ، ويجذبه من شعره ، ويأخذ بلحته ويطرحة أرضا كأنه مجرم خفي ، وكم من مرة ألقى به الأعداء في الحس من غير حرية ، وعاملوه معامله لا تجور الا مع أحقر العبيد كل ذلك تعذيبا لأنواعه الدين شاركوه الألم باعتناهم اناه أباهم الروحي .

لعد ظل هذا السعب المؤمن بالرب - كما فلنا - نغاسي ذلك القيد الفظ ، ولكنه أبى الا أن يطل مسنمسا بديه رغم بلواه على مدى أربعمائه وسعين سنة . وطالما جار هؤلاء بالسكوى الى الرب في صلواتهم التي لا تنقطع واستغابوا به في أنات ماكبة ، وزفرات حري ، واجين أن يحلصهم من العذاب الذي لاقوه حزاء خطاياهم ، وكم سألوه ، أن تنغمدهم رحمته العظيمة فتبعد عنهم سؤر عصبه عليهم لأنهم وقعوا في هوة السر كما يقول القائل « غمر ببادى غمرا (١) ٠٠٠ كل ناراه ولجحه طمت عليه » .

وأخيرا يعطف الرب عليهم وتحن بنظرة منه وهو على كرسبه المجبد ورغب في وضع حد لهذا الشقاء ، فأبى حنانه الأبوى الا أن يمنحهم الراحة التي يلتمسونها .

(١) الزمير ، ٤٢ ، ٧٠ .

ان اهتماما في هذا الكتاب مصب على بيان طريقة ونظم
هذه الحطة الالهية التي ارادها الله لانهذا شعبه من بلواه تمجدا
للمخلص في المسيح .

- ١١ -

في هذا الوقت بالذات الذي كان فيه المدينة المحبوبة من
الرب يمر بلك المعاصي السابق وصعها ، كان هناك بين الجموع
الكثيرة التي سافرت الى الأماكن المقدسة من أجل العبادة والصلاة
فيسس اسمه « بطرس » من أسعفه « أمس » في مملكه الفرنجة
ويعرف « بالناسك » ، وهو لقب طابق لفظه واقع وكان هذا
الرجل قد سُدنه الى رب المقدس نفس الحماسة الروحية .

أما عن هيئته فكان رجلا فمبثا ليس فيه ما يحذب النظر اليه.
لكن كان يسكن هذا الحسد الضئيل شجاعة عظمى ، هذا الى انه
كان امرا خفيف الروح دكنا ، حمل العينين ، ولا نقصه البلاعة
اد كان طسعة ركب فيه وخلقة فطر عليها .

وبعد أن دفع المقرر حبايته من كل مسيحي راغب في دخول
المدينة اسسافه أحد الأنبياء المؤمنين بالمسيح ، ولما كان بطرس
رجلا طلعة فقد راح يلقي على مصبفه السؤال نلو السؤال مسفسرا
منه عن أحوال النصارى فجمع لديه منه تفاصيل حمة لا تقف عند
حد الأخطار الحالية بل تجاوزتها الى ذكر الاضطهادات التي قاساها
أحداهم من قبل على مدى سنوات طوال غائرة ، أما الأخبار التي
فاته سماعها منه فما لاذن فقد أدركها بالملاحظة الدقيقة التي أسعفه

بها عيباه ، كما دلته استقصاءاته الخاصة دلالة حلية على صدق ما سمعه من الآخرين ، ومما يجمع لديه بعد مروره على الكنائس خلال اقامته في المدينة . ثم ترامي الى سمعه ما كان عليه بطرك المدينة من كبرة الورع وعظم الخوف من الله فسمى لو نكلم معه عن الأحوال السائدة اذ ذاك في المقدس ، كما طمع أيضا في الحصول على صورته كاملة أكر وصوحا عن أمور معينة أخرى فمضى الى رؤيته ، حتى اذا صار في حصره كان حوار طيب استمع به كل من الرحلين وكان هناك مرحم أمس يرحم ما يقوله كل منهما .

أدرك البطرك « سمون » من كلام بطرس أنه أمام رجل فطر، ملم الماما واسعا بكثير من الأمور ، قادر على الاقتناع بالكلمة والفعل فأخذ يتروح له في اسهب وصدق الأحوال الجمة المصبة في وحشة على شعب الرب الساكن بيت المقدس ، فاثرت متساع بطرس الأخوية عند سماعه هذه الرواية ناثرا لم يملك معه دموعه عن الابهمار ، ثم راح يسأل في لهفة عما اذا كان في الامكان ايجاد طريقة ما للحلاص من هذه المصاعب المحدقة بهم ، فأحابه الرجل الصالح « اعلم يا بطرس أن السد الحيون الرحم يأبى أن تكرب نانا وآهاتنا الباكّة بسبب الخطايا التي كلبنا بها أنفسنا ، وليسب الآثام التي اركسناها ولم يظهر منها ، ومن ثم فلا محل في حاضرننا لوقف القصاص منا ، ولكن رحمة الرب العظيمة لن تسمح بأن يمسننا صر ، وبقوة اخوانك المحلصين في عبادتهم لاسد هذا الى أن مملكتهم – التي تفزع أعداءنا – تمتد امتدادا فسحا شرقا وغربا ، فان هم تعاطفوا معنا في حب أخوى وشاركونا في موقعا الحالى وقدموا من العلاج ما يدفع المصائب التي تنال علينا أو ان هم على الأقل تنصعوا لنا عند المسح فقد يراودنا الأمل في الحصول على أى عون من امراطورية الاغريق على الرغم من أنهم كانوا أكبر

ارتباطا بنا برابطة الدم والجوار ، هذا الى ما عندهم من ثروا
صحمة أعظم الصخامة ، ولكنهم أصبحوا اليوم لا يقدرّون على الدعا
عن أنفسهم اذ بلاشت فويهم بددا ، كما أنهم فقدوا - حسبما سمع
حنانكم الأخوى - أكثر من نصف امبراطوريتهم على مدى سنوات
فلائل » .

فرد عليه بطرس قائلا : اعلم أيها الأب المبارك أنه اذا يومر
لكسسه رومة وأمراء العرب مُبلّغ المعنى ثقة يخبرهم بالمصائب التي
نكابدونها ، فلا شك أنهم سوف يبادرون الى بذل الجهد لتقديم
العلاج بأسرع ما يمكنهم قولاً وعملاً لنخلصكم من هذه المسا .
وعليك أن سابر في الكتابة الى قداسة البابا والى الكنيسة في رومة
وأن تؤكد الخطاب بخاتم سيادتكم وأما أنا فلن أترجع من حمى
عن حمل هذه الرسالة رحاء خلاص روحى ، كما أنني مسعد
- مهتديا بالله - لزيارة الجميع والتوسل اليهم ، وسأكون الشاهد
عندهم على محتتهم النى يحاوز كل حد وأدعو الجميع أفرادا وجماعات
ألا يتوانوا عن اسعافكم بما فيه خلاصكم » .

نرلب هذه الكلمات نرول السلوى على نفس البطررك وملايها
بالغبطة ، كما نقلتها قلوب الجميع قبولا حسنا ، وفرن عمون
المسبحين فرحا لبطرس وشكروا رحل الرب شكرا حريلا على
عاطفته ، وناولوه المكتوب الذى سألهم اياه .

« حفا نارب نا مولانا ٠٠ كم أت عظيم ورحمك بلا حدود

» حفا يا عسى السعوى لن يخب قط من ناط أمله سايك ٠

« اد من أين جاء مل هذه البعة الحاج بلا معين ومن غير سند
كيدا الحاج بطرس وهو باء عن مسقط رأسه حتى يأخذ نفسه
وبحمل على عاتقه مهمة فوق طاقه ٩ ثم هل له أن يطمع بعد ذلك
في فحص ما بطلع اليه » ٠

« ان التفسير الوحيد هو أنه وجه أفكاره نحوك يا رب وأنت
حاميه ، وفاض قلبه بالحب المتقد فنعاطف مع اخوانه ، وأحب من حوله
حبه لنفسه فسار للوفاء بما فرض عليه ، وعلى الرغم من ضعف قوة
كثائه الا أن المحبة كانت سد أرره ، كما أنه رغم ما ألقاه اخوانه
على عاتقه عن مهمه سافه ان لم تكن مسنحيلة الا أنها نبسرت عليه
وذلت له فصل ما طبع في قلبه من حب لله ولجيرانه ذلك لان الحب
قوى كالموت » وأنه لا نفع الا الايمان الكامل بالمحبة (١) » ٠

« ان خادمك لن يتردد اد أظهرت نفسك له وشجعته بمرآك
ولن تتذبذب ، ولكنه ينهض فوبا لتكمل عمل الحب » ٠



وحدث في أحد الأيام أن خادم الرب هذا الذي أنكلم عنه كان مشغول البال على غير العادة بالتفكير في العودة الى وطنه والوفاء بالمهمة التي حملها ، ثم دخل كنيسة القيامة واجه بقلب خاشع كل الحشوع الى مسع الرحمة ، وأمضى الليل في الصلاة والبهجد ، حتى اذا فارت عاطفه سقط على الدرج واستغرق في اليوم العميق استغرافا لم يحدث له من قبل ، وخيل اليه أنه يرى سيدنا عيسى المسيح واقفا أمامه كالطيف وهو يقول له : « انهض يا بطرس وأسرع وانحر ما عهد به اليك من المهام غير حواف ولا وحل لأنني سأكون معك ... لفد جاء الوقت لطهر الأماكن المقدسة والمساعدة حذمي » .

واسسقط بطرس مسريحا الى الرؤية التي رآها وصار أكر مالا للطاعة ورأى - اسجانة للانداز الرباني - أن لا يرب أكثر من هذا ، فدب التساط في أوصاله وبأهب للرحوع ، ولما فرغ من الصلوات المألوفة مضى الى الأب الطرك (سمون) بسأده في العودة فنفضه ببركانه فاطلق شطر البحر حيث وحد سفسة تحارية على وشك الاحار عن طريقه، أنولنا فاسقلها فبلغ « ناري » بعد رحلة موفقة . وسما كان على وشك المضى الى رومة اذا به بعلم بوحد البابا ايربان [الثاني] في تلك النواحي فرقع اليه رسالة الطرك ومسحى القدس ، ووصف له ما يعاونونه من الأهوال والمساب على أندى الطغة الموحودين في الأماكن الطاهرة ونقل اليه في دقة وبراعة ما عهد اليه به .

- ١٣ -

حدث قبل سنوات من هذا الوقت أن سب صراع عسف بين
هيري ملك الألمان وامبراطور الرومان وبين البابا حريجورى السابع
سلف اربان الثامن ، وقد دار هذا الصراع حول الحاتم وعباء
الأساقفة الراحلين ، وكان العرف قد جرى - لا سيما فى
الامبراطورية - على ارسال حاتم أسقف الكسبة الراحل ومسوحه
الكهنوتية الى الامبراطور الذى يقوم بعد ذلك بقبل نارسال واحد
من بطائمه أو أحد مساوسيه وكل اله مهام الرعية فى ذلك المكان
دون انتظار لتمام رحال الدين باستحائه ، لكن البابا حريجورى
السابع [سحر بأن هذا العمل يخالف كل بواصم العدل لما فيه من
هدر لحقوق الكسبة ووطئها بالأقدام ، فقام من حابه نهي
الامبراطور عن عحرفه الكرنيه هذه ، تكرر منه مرارا هذا الهى
بالكف عما بفعل فلما رأى أن لا حدودى من هذه المحذيرات الهادئه
أصدر ضده فرار الحرمان .

غضب الامبراطور من هذا الاحراء أشد الغضب ، وسرع فى
اضطهاد الكسبة فى روما فعمد الى تنصيب جبهرت - رئيس أساقفه
راقبا - مكان البابا المعظم حريجورى ، وكان حمرى هذا كبر البراء
واسع المعرفة مكبه ثرونه الطائفة واعتماده على بطس الامبراطور
من خاع حريجورى الموقر ونولى هو فسرا الأبرشنة الرسولية ، وكم
كان غمنا غامة الغناء ننقصه صحه الفكر حين اعهد اعنفادا حازما
بأنه هو البابا حقا لعمه زورا وبهانا بهذا اللقب .



كان العالم السقى الغارى فى الرذيلة يسير - كما فلما قبل
هذا - فى طريق حطر خاسر فلما سب هذا الصراع ازداد بردى العالم

فى هوة أشد عمما لنخله عى كل احترام واجب لله وللانسان ،
وراح يجرى وراء كل ما دنسنه الحطينة ، ويباعد ما بينه وبين كل
ما ينطوى على الحر ، فصحبت السجون أبوابها للأساقفة ، وكان
اذا بجرأ أحد من رجال الكنيسة على معارضة الامبراطور فى تسببه
هذا زح به الامبراطور فى الحس وصادر كل ما يملك ، كأنه محرم
فقل نفسا ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من صب الأهوال الدنيوية
على رجال الدين بل صاروا عرضة على الدوام للخلع من أبرشياتهم
وبعض سواهم فى أماكنهم هذه .

فمر حريجورى من نقمة الامبراطور الى « ابوليا » حب لى
أعظم الترحيب ، وعومل أشرف معاملة من جانب دوقها روبرت
حيسكارد الذى مد به المساعدة الى البابا ونحاه من الوقوع فى يد
الامبراطور حتى نمكن أخرا من الوصول الى سالرنو حيث وافاه
أجله بها ودفن فى ثراها ، فخلفه اذ ذاك على كرسى البابوية البابا
فيكتور الذى لم يحاور نابوسه شيرس فقط ، فئلاه البابا ايربان
الثانى الذى أشرنا اليه من قبل والذى لحا الى قلاع أتباعه النبلا-
المخلصين ليدرا عن نفسه غضب الامبراطور هنرى المذكور من قبل ،
لكنه لم تكن أبدا لمحة منه اذ كان (الامبراطور الجديد) مصرا
فى عناد شابه عناد سلفه فى سلوك هذا الطريق الخبيث .

وعلى الرغم مما كان فيه البابا من بلاء عظيم الا أنه أحسن لقاء
الموقر بطرس الذى شغل نفسه منذ رجوعه من القدس بسفند المهمة
التي ألفت على عاتقه ، فوعده ايربان وعدا من الرب الذى هو خادمه
انه مبادر لمساعدته فى مسعاه الذى حاه اليه من أجله متى لاح له
الفرصة .

حينذاك اشعلت حذوه الحماسة الزكية فى نفس بطرس الذى
راح يذرع كافة أرحاء ايطاليا وعمر حبال الألب ولم يشرك أمرا من

الأمراء إلا راره ، غير مدخر وسعا فى حبهم جميعا ويحذبرهم ولومهم .
فنبجحت تحذيراته - بفصل الرب - فى حمل بعضهم على المبادرة
الى الخروج لمساعدته احوالهم الدين مسهم الملوى ونزل بهم الصر .
رعبة منهم فى ألا يدعوا الأماكن المقدسة - وهى البقاع التى يعطف
السند فسرفها بحضوره وصانها عن أن تدنس بالخائب .

ولم يكف بطرس بما أثمرته دعوته بين الأمراء وحدهم ، لكنه
يطلع الى أن تؤدى تحذيراته القوية الى تحريك نفوس العامة وأهل
الطبقة الدنيا ، واشعال جذوة حماسهم للقيام بنفس الواجب .

وبنما كان يتشقى طريقه فى بطاء بين الممالك والنسوعوب راح
- فى وفاء صادق لرسالته وفى نشوة روحية مقدسة - يبشر بنفس
الرسالة بين أفقر الناس وأدناهم ، ورعى المسيح مسعاه البار فكان
من عطفه عليه انه لا يكاد يدعو الناس حتى تؤتى دعوته آكلها طسة .
وأصبح بشيره هذا صروريا أشد الصرورة للبابا الذى أجمع أمره
على أن يتنعه دون ابطاء الى ما وراء الحال ، ذلك لان كلام بطرس
كان يفتح قلوب سامعه لطاعته فلا يجد البابا صعوبة فى دعوتهم
الى نفس الأمر الذى يؤدى الى تحقيق هدفه تحقيقا يجعله قادرا على
التأثير فهم .

- ١٤ -

كانت السنة سنة ١٠٩٥ من مولد السيد المسيح وهى الثالثة
والأربعون من تتويج هنرى الرابع ملكا على الألمان ، وهنرى هذا
هو الثانى عشر من أباطرة الرومان ، كما كان يحكم فرنسا فلنبلب

الحروب الصليبية ج١ - ٩٧

الأول بن هري الأول ملك المربجه العظيم ، ورأى البابا ايرباد
- وفسدك - ان خب سى ادم قد حاور كل مدى ، وأن كل
سء بندى الى اسفل كما لو كان ينجو الى السر ، ومن ثم عقد
مجعما لكل ايطاليا فى « بياشيزا » فكان هذا المجمع خطوه احسج
اليها كل الاحياح لرد غلو الناس ، فلما انتهى هذا المجمع عادر
البابا ايطاليا فرارا من غضب الامبراطور عليه ، وعبر جبال الألب
ودخل مملكة فرنسا حيث نسلم ناكبدا بينا عما سمعه. حالا من
الأخبار بين منه أنه لم يعد أحد ما فى أية ناحية يكره بالدر
العلوبة ، الى حاب اسحقاف الساس بتعاليم الأناجيل وبلاشى
الايمان ، وبانت كل بعمة وفضلة مهدده بالخطر وفعرت مملكة الشر
ودولة الطلام فاهل لبسبح الجميع .

ونظرا لمكانة البابا ايربان الثانى فقد كان شديد الميعة المربية
السبيل الذى يسلكه للقضاء على الرذائل والخطايا الفاحشة التى
كانت للأسف تزداد بشاعة حتى لتكاد أن نبتلع الدنيا بأجمعها ،
لذلك عزم على الدعوة لمجمع عام عقد أولا فى « فريلسه » ثم فى
« بوى » ، حتى اذا حل سهر نوفمبر اجتمع باسم الرب فى كاترموم
- احدى مدن « أوفرن » - مجمع مقدس من الأساقفة ورؤساء الاديرة
من شتى النواحي والولايات الواقعة وراء حمال الألب ، بكلهم
الرعاية الالهة .

وحضر هذا الاجتماع أيضا بعض أمراء تلك الولايات دانيا .
كما قررت فيه التنظيمات التى يمكن أن تؤدى الى التخلص من
الظروف غير الملائمة التى تمر بها الكنيسة ، وكان هذا القرار بناء
على نصيحة رجال الدين وأهل التقوى ، كما أذيعت المراسم التى
كان يرحى منها أن تساعد على تقويم الأخلاق وتصحيح الأخطاء
الجسيمة .

ولما كان بطرس الباسك يسعر بالمسئولية الكبيرة بحاه الرساله
التي حملها ، فقد رأى أن هذه الاجراءات ربما أدت الى عوده السلام
الذي يبدو وكأنه قد تلاشى من الدنيا .

وأحرا ألفى ابرهان عطمه وهي كما يلي .

- ١٥ -

« اعلّموا أيها الاخوة الأعزاء ، وحق لكم أن تعلموا كيف أن
فادى الجنس البشري قد نزل في بجالند هبكل بسرى لخلاصنا
جميعا ، وعاش بيسا كائنسان ، وكان مجيئه نمجيدا لأرض المبعاد .
الى وعد بهما من قبل ، والتي داعب شهرتها بأعمال الباموس
وبالمعجزات المتكررة التي قام بها ، وهذا ما يشير اليه العهدان :
العديم والجديد في كل ما بصمناه بقرىبا ، وأن الواضح حقا أنه
أحب تلك الأرض حبا صادقا منذ أن يعطف على ذلك الجبرء من
الأرض - أو بلفظ أدق - على هذه البفعة الصغيرة قسمها بميراثه ،
رغم أن للرب « الأرض (١) وملؤها المسكوبة وكل الساكنين فيها »
ومن ثم فانه هو القائل أيضا بصوت أشعيا (٢) « مراثى اسرائيل »
والفائل أيضا (٣) « ان كرم رب الحدود هو ست اسرائيل » .

(١) مرامير ٢٤ ، ١ ، ٤٩ ، ١٢ .

(٢) اشعيا : ١٦ ، ٢٥ .

(٣) اشعيا ٥ ، ٧ .

وعلى الرغم من أنه كرس الدنيا بأجمعها منذ البدء لنفسه
 إلا أنه اسقى المدينة المقدسة على وجه الخصوص لتكون خاصة به ،
 وذلك بسخاء النبي القائل « الرب (١) أحب ابواب صهيون أكثر من
 جميع مساكن يعقوب » ، وقد قيل في هذه المدينة أقوال كبيرة رائعة
 فهناك أكد محلصنا بعاليمة وعداياه وفيامه من بين الموبى أن الخلاص
 إنما يكون في أرضها ، لذا فقد أخيرت تلك المدينة منذ البدء لتكون
 شاهدا على هذه الأمور ، ولنكون هيكل الأسرار ، واختيرت حقا لتكون
 خاصة لمن اصطفاهم بقوله : « اهتفي يا بنت أورشليم » هو ذا ملكك
 يأتي اليك من أجل أورشليم المدينة التي اخترتها لنفسى لأصح
 اسمي (٢) فيها .

لكن على الرغم من أن خطايا أهلها حملت الرب العادل على أن
 يوقعها مرة بعد أخرى في أيدي السريرين ، ويجعلها تكايد قضاظهم
 فترة من الوقت ، إلا أنه لا ينبغي أن يذهب الظن بأحد إلى أنه دخل
 عنها ونبذها منذ النواة لأنه مكتوب (٣) « ان الذي يحبه الرب
 يؤدبه ويجلده » .

ولكنه يغضب على من يقول له (٤) « لذلك ... أحل غضبي
 بك فتصرف عيرى عنك فأسكن ولا أغضب بعد » ومن ثم فإنه يحب
 هذه المدينة حبا لا تطغى حدوته وأنه القائل (٥) « ستكونين أكليل

(١) مزمور ، ٨٧ ، ٢ .

(٢) ملوك أول ، ١١ ، ٣٦ .

(٣) عزرائيل ، ١٢ : ٦ .

(٤) حرقيا ، ١٦ : ٤٢ .

(٥) اشعيا ، ٦٢ ، ٣ ، ٤ .

جمال بسد الرب ، وناجا ملكيا بكف الهك ، ولا يقال بعد ذلك
بهجوره ولا بهل بعد لارصك موحسه بل ندعين حصصيه وأرصك
نرعى بعوله لان الرب يسر بك (١) .

وان مهد ايماننا ، ومهبط رأس مولانا ومبمع الخلاص فد
تملكها الآن عموة شعب غير مثاله ، هو ابن الجاريه المصريه [هاجر]
لدى يفرص على أبناء المرأة الحرة [ساره] ظروفًا بالغة السوء حتى
قالت : « اطرده هذه الجارية وابنها » .

لعد ظل خنس الشرفيين (٢) البغيض عبر سموات طوال مصد
يبسط سلطانه على الأراضي الطاهرة التي مشى عليها السد بقدمه ،
ثم خضع المؤمنون للعهر ، وراحوا ينخبطون في فيد الأسر ، فدحلت
الكلاب الأماكن الطاهرة ودنس الهيكل وضربت المذلة على عباد الرب ،
واليوم ها هو ذا الشعب المخار يحمل الأحوال التي لا يسحقها ،
وها هم رجال الدين مسرقون ، والكرامة ساقطة في الوحل والطين ،
وأصبحت مدينة الرب - التي هي فوق كل مدينة - محكومته
لا حاكمه ، فمن ذا الذي لا تنفطر نفسه كمدا ، ولا يذوب قلبه
حسرة حث تخطر ببالة هذه الإهانات !!

« أيها الاخوة الأعزاء : من ذا الذي يستطيع سماع هذا كله
ولا تبكى مقلته ؟

« لقد غضب يسوع فطرده من هيكل الرب جميع من اتخذوه

(١) سفر التكوين ، ٢١ ، ١٠ .

(٢) وقد يمكن ترجمتها بالمسلمين لأن لفظ Saracens أصبح في كتب
الغربيين في العصور الوسطى وعند بعض المؤرخين المحدثين مرادفا لكلمة «المسلمين» .

مكانا للبيع والسراء ، حتى لا يصير بيت أبيه - وهو بيت الصلاة - معاره للصومس وماوى للشساطين (١) .

« لقد كان هذا هو الذى أثار الحماسة الكريمة فى نفس القديس مائوس - السلف العظيم للمكابيين الطاهرين كما بشهد بذلك هو نفسه اذ يقول : « لقد أصبح الهيكل شمه اسان ملا شرف ، وتلاشت كل المآثر الرائعة » .

« ان مدينة ملك الملوك النى نقلت الى الآخرين نوامس الامان السلم فد دانت رغم أنفها الى برهاب الخوارح ، كما أن كسسه القمامة المجنونة السو هي آخر مكان رقد فيه السند نقاسى حكمهم وداطح ناوساح أفوام لن تكون لهم حط القمامة بل كب عليهم أن يطلوا فى الجحيم الى الأبد ، كأنهم هسم النار لا ينطفئ لهمها أندا ، كما أن الأماكن الموقرة المخصصة للأسرار الالهية ، والمواصم البى عرفت السند زائرا لها بسخصه ، وشاهدت آياته ، وباليها حسابه ، وبحسم فيها كل الراهين الدالة على ذلك فى ايمان صادق قد عذب مداود للماشنة وحظائر للبهيم ، كما أن أحسن الناس الذين باركهم رب الأرباب فد تعالى أنسهم من حراء عبء الخدمات المفروضة عليهم ولا يستطيعون التحلل منها ، ولا يُنقدون عليها الا الأحسـ الباقه .

وان أبناء هذه المواضع - وهم أغلى مهر للكنيسة الأم - ود الى القيص عليهم ، وسبقوا أذلة ، وأرغموا على خدمة الخوارج الدسسين ، حتى بنكروا اسم الله الحى القوم ، وبنطق شفاههم الطاهره بالمجديف فيه ، فاذا امنعوا ذعرا من أوامر الكفار الآثمة

(١) متى ٢١ - ١٢ - ١٣ .

دبحوهم بالسيف دبج الأصاحي فيدخلون في عداد الشهداء الأبرار .

« ان الذين استهكوا حرمة المقدسات الديسه لا يسمون حرمة للمكان ولا للناس ، ولا يسورعون عن فعل الفسوس واللاوبين ، ويرعمون العذارى على ارتكاب الفحشاء والا كان الموت بالعذاب من نصيبهن ولم يشفع عندهم للعجائز شبخوخهن .

« الا فالويل لنا نحن الدين يعيش في نعاسه الرمن الخطير الذي نبأ به الملك الطاهر داود المختار من الله ، وشكى منه اد فال (١) « يارب ، ان الامم قد دخلوا ميراثك وجسوا هبكل قدسك » ، و قوله (٢) . « الخطاه يسحقون سمعك يا رب ويذلونه ، حتى مى الطعام يا ربى يسمون ؟ منى يا رب بغضب كل الغصب وسفد كالبار غرنك ؟ » . . . « هل الى الدهور يرفض الرب ولا يعود للرضا » . . . « حنى منى يا رب نخنبي كل الاخساء » « أذكر يا رب ماذا صار لنا ، اشرف وانظر الى عارنا » . . . الويل لى حين ولدت لأرى هذا البؤس المحق بسعوى وبالبلد المقدس وأن يسام الى أيدي الأعراب (٣) .

« أنب هو ملكى ، يا الله باسمك ندوس العائمن عاسا » (٤) .
فحسب « لا بطنوا انى جئت لألقى سلاما على الأرض بل سفا » (٥) .
فساءحوا أنفسكم أبها الأحباب بحماسة السيد فبه نطح مضائقنا ،

(١) مراير ، ٧٩ ، ١ .

(٢) مراير ، ٩٤ : ٥ .

(٣) راحع المكايين ، ٢ ، ٧ .

(٤) ٩٤ : ٤ .

(٥) مى ، ١٠ ، ٣٤ .

وإذا أحس أحدكم بالحمية لسريعه الرب فلينضم إلينا ، وهيا بنا
نمضى لحطم الصود الى نكلنا ونلقى بعيدا بحبالهم عنا ، فالروح
نفسه سيهد أيضا لأرواحنا أننا أولاد الله ، فان كنا أولاده فانتا
ورثته أيضا ووارثون مع المسيح « (١) وأذهبوا وليكن الرب معكم ،
ووحوا السلاح الذى سجدتموه لعل بعضكم النقص الى صدور أعداء
الملّة وخصوم المسيح .

« ان مملكة الرب لن يكون لمن أحرّموا فسرقوا ومن اتهموا
باشعال النار عن عمد ، ولا لمن نهبوا الناس وسفكوا الدماء
ولا لأصحاب الحرائم الأخرى المسابقة لهذه فى طبيعتها .

فأطيعوا الرب الطاعة التى يرضاها ، عسى أن تنزل عليكم
رحمته سريعا ويكون لكم سقاة القديسين فيغفر لكم ما اقترفتكم من
خطايا أثرت بها حق الرب عليكم فاستشيط غضبا .

« وعلى ذلك فحن محدروكم وموصوكم باسم الرب بالعمل
على التطهر من خطاياكم وذلك بمشاطرة اخواننا سكان القدس
وما حولهم فى مصائبهم وآلامهم ، وكونوا شركاء لهم فى ارث ملكوت
السموات ، وعليكم أن تكبحوا بكل عضبة ديسة وقاحة الكفار الذين
يحاولون اخضاع الممالك والولايات والدول ، وأن يحاربوا ما وسعكم
الجهد هؤلاء الذين أحمعوا العزم على ازالة الاسم المسحى ، فان لم
يفعلوا ذلك فان كنيسة الرب الى لم نرتكب اثما سوف تفقد الايمان
سريعا وتكون السيادة لجهالة الوثنية ، ولقد رأى بعضكم بعبنى
رأسه هذه الأمور الى نكلم عنها الآن ، وعرف مدى الأهوال التى
يحياها أولئك الأسماء ، وان رسالتهم التى أحضرها بده ذلك الرجل
الموقر « بطرس » الموحود معا الآن لتحمل نفس الأمر .

(١) رومية ، ٨ : ١٧ .

« ومن ثم فتقة منا برحمة الرب ، وبقدرة الحوار بين الطوبانسي بطرس وبولس لنعمر خطايا المسبيين الصادقون الذين يحملون السلاح لقنال الكفار ، وينحملون مسقة رحله الحج هذه . ونضع عنهم كل عقاب مفروض عليهم بسبب آثامهم ، ولسق الداهيون الى هناك بنه صادقه وبقة نامة بغفران خطاياهم ، وبحصولهم على النعمة الأبدية . »

« كما أننا في الوقت ذاته سوف نبسط حمايه الكيسه ورعايه المباركين بطرس وبولس على من ينهضون مسلحين بايمانهم الصادق لحمل عبء محاربة الكبار ، وسندرحهم في عداد أبنائنا المطيعين المحلصين » ونرسم بأن يطمئنوا ، وألا يخالجهم أدنى خوف على أملاكهم وذويهم ، فان اجترأ أحدا ما - أثناء هذا الحج - على أن يسبب لهم ضيقا أصدر أسقف ناحيته قرار الحرمان ضده ، ويظل فرارا مصلا على علبه عند الجميع حتى ترد المسروقات ، وحتى يقدم العويص الملازم عن الأتشيء المفقودة ، كما أن الأسافعة والمساوسة الذين لا يقعون موقفا صلبا ضد أمثال هذه الأحداث سيعاقبون بحرمانهم من ممارسة مهام وظائفهم حتى ينوبوا ؛ لننالوا رحمة الكنيسة الرسوليه « هكذا ختم [البابا ابربان الثاني] موعظه ، وأمر جميع الحاضرين اذ ذاك من رجال الكنائس بالعودة الى أبرشياتهم لكرسوا أنفسهم لما سمعوه ، ولسعوا سعيا حثيثا لحيث أتباعهم على النهوض الى الحج . »

ولما فرغ [ابربان] من هذه الرسالة أمسك عن الكلام وانفض بالمجمع الذي راح كل من حضره يودع أخاه ويرجع الى موطنه ؛ وانصرفوا منصاعين في صدق واخلاص لسفد قرارات المؤخر (١) وحب الناس جميعا على الواسي بحفظ السلام الذي ائبلف الناس على تسميته « بسلام الرب » . وصدر الأمر بعدم اعاقه من عزموا

(١) اي مؤتمر كدمونت .

على لرحله ، وألا نعم فى وجههم العرافيل أساء انخذلهم الاجراءات
اللامه للسفر .

- ١٦ -

وزياده على ذلك فانه نظرا للخدمات الجليلة التى أداها بطرس
للدين ، فان الله انعم عليه - وهو الخادم المطيع المبسر ، ذو الهمة
العالية الرائعة - بالبلادة والفصاحة ، ووهبه القبول الحسن فى عمون
الجمع حتى ان كلمانه كانت تبدو وكأنها وحى من الله ، اد بلغها
القوم - صغبرهم وكبرهم - بالرضا والامسال ، غير عابئين بما يبطوى
عليه نفعها من مشقة .

ولم يكن الحماسه الدينيه لهذا الحج فاصره على من اسمعوا
اليه شخصيا ، بل تجاوزتهم خطبته - حين داعب طولا وعرضا -
الى من لم يكونوا حاصريها ، فبئت فيهم رغبة عارمة للتمام بنفس
الرحله ، كما صدع الأسدعه بما أمروا به ، مطهرين الدعوى الكريم
فدفعوا أبناعهم للسفر للحج ، ودأبوا على النسل فى ربوع أسقفائهم
بيذرون بدور الحياه بين الناس ، وما كان لحبه منها أن يموت اذ كانت
لا نفع الا ونؤبى أكلها طيبة مباركته ، ومن الحق أن نقول أنه بحقق
كلمة السبده (١) اذ يقول « ما حثت لآلهم سلا ما بل سبعا » ، فقد
افصل الروح عن روحه والمرأة عن بعلمها ، وفارق الآباء أبناعهم
والأبناء آباءهم ، ولم يسقط أى رباط محبه أن يحول دون هذه
الحماسه ، كما عادر كبير من الرهبان أديرهم ، وفعل السناك

(١) مى . ١٠ . ٣٤ .

فعلهم فركوا صوامعهم التي احدها طواعة ملحا يسم فيه كل واحد منهم على افراد « حبا في الله » .

لكن الرب لم يكن مع الجميع في عملهم هذا ، اذ لم يكن الحصافة - وهي أم الفصائل كلها - محركهم الحقيقي ، فقد شارك البعض البعض الآخر حتى لا يفروا عن بعضهم ، ونهض آخرون حتى لا يهيموا بالنراخي والكسل ، وساهم غير هؤلاء وهؤلاء بدوافع نافهه ، أو عساهم بخروجهم هذا يهربون من دائنهم الدين أنفلوهم بالدون العادحة ، وهكذا كاس هناك أسباب مختلفة أسرع بالجمع الى نفس الهدف ، ولم يكن هناك في بلاد العرب أى اعراف بالنسب أو الجنس أو الوضع أو الظروف . كما لم يستطيع أحد منع أحد من الصيام بالرحلة مهما زو له الكلام ، بل اشد البعض بالبعض دون تمييز بين الواحد والآخر فكانوا جميعا يدا واحدة ، وأقسموا كلهم المبني بقلوبهم وأرواحهم ، وبدا الانجاز الحرفي لما جاء في الكتاب(١) من انه « سبأى أهم كسرة من بعد تمتدح أورشلين وسجد لها ، ويحملون الهدايا في أدبهم » .

لقد تلقى الكسرون ممن حصروا مؤمر « كاسموب » هذه الكلمة الراسخة بفرح عظيم ، وكان على رأسهم « أديمار » أسقف « بوى » ذلك الرجل الطاهر الذبل العاطر الذكر ، والذي صار بعدئذ النائب للبابا ، فسار بسبع الرب في حملته هذه سره ملؤها الصدق والاخلاص .

كما كان من بسهم أبصا « ولم أسقف أورنج » الصادق الايمان والذي يخاف الله .

(١) طوبيا ، ١٣ . ١١ - ١٥ .

ودب (١) نفس الحماسة كذلك في نفوس أمراء جميع الممالك الذين لم يحضروا الاجتماع ، اذ راح كل واحد منهم يسجع صاحبه ويستعدون للسفر الذي حددوا يوما معنا له يكون بعد انمام جميع ما يلزم من الاسنعدادات وبعد ان يسجع كل رفاقهم ، والحق أنه يبدو كأن العاية الالهيه هي التي رببت الحمله التي تكلم عنها . وكان الأوامر صدرت اليهم من الرب ، ذلك أنه لم يكن يشاع أن أميراً ما من الأمراء قد قطع العهد على نفسه بالحج حتى ينوافد الناس عليه زمرا اثر زمر ، يتوسلون اليه أن يسمح لهم بالانضمام الى جماعه ، ويعترفون بسيادته عليهم ، ويعطون العهد على أنفسهم بالطاعة والإخلاص له ، ولما كان المل (٢) يقول عار على أن أنخلف عن الناس اذا كان الطاعون قد أخذهم حتى آحر واحد فيهم « ، فقد أسرعوا الى تجهيز أنفسهم بكل ما يلزمهم ويحتاجون اليه ، وكانوا يتزاحمون ويسابق كل منهم الآخر ، والحق أنه كان تكرسا الهيا لان نار التطهر هذه كانت لازمة لمحو خطايا الماضي وحب آثامه التي كانت - وا أسفاه - كبره حدا ، كما كان الانصراف لتدبير السفر معيدا في منع ارتكاب الخطأ بعد ذلك ، بعد أن كانوا قد حادوا عن طريق الرب وأساءوا السر مع غيرهم .

وقد اتفقت الآراء جميعا على قبول ما اشترطه البابا من قنام كل من أقسموا على السفر لهذا الحج برسم شارة الخلاص على ثيابهم ، ألا وهي الصليب الزاهي ، وبذلك يحملون على أكفاهم

(١) جاء في الترجمة الانجليزية التي اعتمداها ، وباء على ما ذكره . Man i Sacrorum conciliarum nova et impressima collectio, vol xx. col. 923.

أن كل ذكر بلغ الثانية عشرة أو أكثر كان عليه أن يقطع اليمين كل ثلاث سنوات على حفظ سلام الرب ومراعاته .

(٢) رد المرحمان الأمريكان هذا النيل الى هوراس Horace . Ars Poet. 417

ذكرى الذى عزموا على رياره الناحيه الى سهدب آلامه ، وكانوا
فى عملهم هذا مقلدين للسيد الذى أسرع الى هناك من أجل خلاصنا .
لانه : « يولد لنا ولد ، ونعطي ابنا ويكون الرياسه على كفه » (١) .

ويبدو كأن الآيه النالبة من سفر أسعنا سير الى هذه الحركة
حيث يقول ان السيد (٢) سوف يرفع رايه للأمم ويجمع منيعي
اسرائيل .

وظهر أيضا نمام كلام السيد حرفا بحرف مصداقا لقوله (٣):
«ان أراد أحد أن يأبى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويسعبي» .

- ١٧ -

عمد الأمراء النالية أسماؤهم من كلتا المملكتين الى بعوبه
عزائهم بعلامة الصليب ارتباطا منهم بالحج القادم :

السادة المشاهير : هج الكبير شقيق فلب الاول ملك
الفرجة ، وروبر كونت فلاندرز ، وروبر كونت نرمندى ابن
وليم الاول ملك الانجليز ، وستيمن كونت شارنرز وبلواوالد كونت
تيوبولد الكبير ، وأديمار أسقف بوى ، ووليم أسقف أورنج ،
وريموند كونت بولور وسيل حيل ، مع آخرين غيرهم من الرجال
العظماء .

كما ذهب أيضا المحارب الباسل لورد جودفروى العظيم دوق
اللورين ، ورحل معه كذلك أخواه اللوردان بلدوين وإستاس ،

(١) اشعيا ، ٦٠٩ .

(٢) اشعيا ، ١١ : ١٢ .

(٣) متى ، ١٦ : ٢٤ .

وصحبهم كذلك بلدوين الملفب سورج وهو قريب الاحوه الملائه
واين لورد هيج كونت ريسيل ، وحاسه دى جراى ، وبلدوين كونت
هينولت ، وايزور كونت ديبى ، وربولد كونت أوريج ، ووليم كونت
فوريز ، وكونت مسمن دوماال ، وروبرو كونت برشى ، وهيج كونت
سب بول .

وممن صحبهم من علسة القوم وان لم يكونوا من فئة
الكونتات : النبلاء اللامعون الذين تقدموا طواعية من تلقاء أنفسهم
وهم :

هنرى دينس ، ووالف بوحنسى ، وايفرارد دى بويسيه ،
وجاسون دى بارف ، ووليم أمانجو ، وجاستون دى سزيه ،
ووليم دى مونلييه ، وجرار دى رؤسبلون ، وجرار دى شيريزى،
وروجر دى بارتفيل ، وجى دى بوسسا ، وحى دى جارلاند سكال
ملك الفرنجة ، وتوماس دى لافبر ، وحالن دى كالفوموب .

• رجا، سار بطرس الناسك بطائفة كنفه من الناس جمعهم
يمشقة كبرة من مملكة [فرنسا] وامبراطوريه [آلمانيا] .
• وحاه من الحانث الآخر من حبال الألب بوهموند أمير مارنو
ابن روبرت حسكرارد دوف أبولنا ، وابن أخيه تانكربد ، وكثرون
غيرهم لا نعي ذاكرنا أسماءهم ولا نحصى عددا .

وظل جميع هؤلاء - مع فواب ضخمة من أهل القبال فى
المنظار الساعه الملائمة للانضمام للكنائب الحربيه المسححة ، وهم
على أتم أهية لمساند، أنواجهم لتحمل أهوال حجب عظيم كهذا الحجب
مرضاة للمسيح .

ومن ثم فما كاد الشناء ينصرم ونبدأ بباشبر الربع فى الملهور
ونكسر سنده الرد ويعود الحو اللطيف يغمر الدتا حتى هتوا

حسادهم ، وأعدوا سلاحهم ، وجمعوا ماعهم ، كما طل من أزمعوا
الخروج معا على انصال بعضهم ببعض ، وحددوا موعدا دفيما
فما بينهم والساعة التي رأوها ملائمة لبدء مسيرهم ، وانفقوا أين
يكون ملنقاهم ، واستعرضوا المسالك فاختاروا أيسرها عليهم
وأسرعها في ابلاغهم عايبهم . واد لم يكن في قدره أى اقليم أن ينفرد
وحده بوفير المثونه لهذه الآلاف المؤلفه من الناس فعد ربوا ترتيبا
دقيقا أن يقوم كل واحد من الأمراء الكبار بالسير على انفراد بمس
يبعه من القواب ، ويسلك طريقا لا يسير فيه سواء ، وانفقوا على
ألا تلتفى هذه الحوشى الا فى مدينة « نقة » .

لهذا - كما سنشرح فيما بعد - سار الدوى [حودفردى]
بكتائبه من طريق البحر ، واتخذ كوت بولوز وأسقف بوى طريقهما
عبر « دلمانسا » أما الزعماء الآخرون فاخرفوا « أبولنا » وبذلك
وصلوا فى النهاية الى القسطنطينية ، وان لم تكن بلوغهم جمعا فى
وقت واحد بل فى أوقات محلفة . وأعدوا فى الوقت ذاته العباد
الذى رأوه كافيا لرحلة طوبلة كهذه الرحلة ، وراح كل منهم بعد
المال الذى نطلبه هذه السفرة بما يتناسب وطول الطريق ، كل
ذلك وهم ناسون أن الأمور كلها بيد الله ولبس بيد البشر لأن
الاسان فى ضعفه لا يعلم ما يأتى به الغد .

لم تكن بم دار واحدة من دور جمع ولايات الغرب ساكنة
هادئة ، بل كان كل امرئ منهمكا حسب امكانياته فى ترتيب ما يهمه
من أموره الخاصة ، فهنا الأب يدبر شئون أسرته ، وهناك الابن
وثم الأسرة كلها منصرفة لاعداد ترتيبات السفر .

وحاص رسائل كثيرة بعث بها أولئك الذين أزمعوا الرحل
فى وقت واحد ، سجع كل منهم الآخر وبحذر التأخر فى الخروج .
ونصحوا بالبيكر فيه ، ولما أخذ الذين قلنا انهم قادة الجماعات

المحلقة في دعوة البعية بعد انزعوا أنفسهم من أحضان أعزائهم
وسط العويل والرفرات ، وقد ودع كل منهم الآخر وتبادلوا القبلات
فما بينهم ، ثم رحلوا ، وكان خروجهم في جو من الانسحاب
والولولة ، فرى الأمهات يصحبن الأبناء ويرى البنات يودعن الأبناء
والأخوات والأشقاء ، أما الزوجات فانطلقن يودعن أزواجهن حاملات
أطفالهن الرضع على أذرعهن .

فلما فرغن من الوداع الأخير رحن يبايعن بنظرات حادة من
لا يستطيع مصاحبهم أبعد من ذلك .

- ١٨ -

كان وولتر المجلس الشريف النبعة والمحارب الكمي أول من
بهض للحج خبب بدأ رحلته في اليوم الثامن من سببر مارس
عام ١٠٩٦ من هولد المسبح ، واستنصحب معه طائفة كبيرة
من الجند المساه ، أما الفرسان الذين كانوا معه فلم يزيديوا
على سردمة ضئيلة ، فلما عبر بهم مملكة النيوتون دخلوا بلاد
مملكة المجر التي كان الوصول إليها أمرا عسيرا لكثرة المستقعات
التي تغطي معظم بواحيها وأحداق الأنهار الكبيرة بها ، ومن ثم لم
يكن في استطاعة المسافرين الوصول إلى المملكة أو الخروج منها إلا من
أماكن معنة شديدة الضيق .

كانت مملكة المجر حينذاك تحت حكم أشد الملوك نمسكا
بالمسيحية ، ألا وهو الملك « كولمان » الذي ما كاد يعسم باقتراب
« وولتر » وكان يعرف خبر رحله ويسنصوب هدفه الكريم حتى
رحب بدخوله مملكته ، وسمح له أن يسير فيها بحملته ، كما أذن

له بعقد سوى عامه ، فسار « وولسر » في بلاده آمنا ، وبلغ نهر ، ماروس « سالما ، وهو الحد الفاصل المعروف به بين المجر والسرو ، ثم عبر النهر ووصل بقواه الى أرض البلغار في مكان يعرف « بلجراد » .

لم يكن يدور بخلد [وولسر] أن طائفة من جماعه قد تحلف وراءه على الجانب الآخر من النهر في موضع يعرف باسم « سمان » لسراء الطعام وما لا غنى عنه في الرحلة ، فأمسك المجريون بهؤلاء الرجال وجردوهم مما عليهم من الساب وضربوهم ، ثم أرسلوهم بعد ذلك الى أصحابهم خاوى الوفاض، فحزن القوم جميعهم حزنا عميقا للمحنة الطامة التي حاقت برفاقهم ، ومع ذلك فقد أقنوا نمام البقي أنه من الصعب عليهم - بل من المستحيل - أن يعودوا فعبروا النهر أخذا بالبار لما في ذلك من تأجل مسيرتهم ، فأروا - في ظروفهم الراهنة هذه - أن النفاذ عن المضرة التي أصابتهم إحدى عليهم من المبادرة الى القسام بعمل طائس لا يستطيعون احرازه ففعلوا نادمين . واذ كان أملهم في الله الذي يتصوا من أجله عظما فقد انصرفوا عما أرادوه ايمانا منهم بأنه ما من مصنة بإفهاها حيد المسيح الا والرب غر مهمالها بل معاقب عليها بمسليا لأنه وعد أتباعه بذلك اد قال (١) : « تكونون مغرضين من الجميع من أجل اسمي ، ولكن سعة من رؤوسكم لا نهالك ، وبصبركم افتنوا أنفسكم » . ومن ثم ساروا لطسهم ، ومضوا في طريقهم حتى حاءوا - كما قلنا - الى « بلجراد » فوجدوا « وولسر » قد سأل الدوى حاكم أهلها أن يأذن لهم بعقد سوق ينابيع فيه ، ولكنه رفض رجاه ، فلم يجد اذ ذاك بدا من أن يضرب معسكره أمام المدينة ، واذ كان عاجزا عن كبح حماح حسه الحائم فقد ففد الكبر

(١) لوقا ٢١ . ١٨ - ١٩ .

من رجاله ، ذلك لأن عسكره لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الحصول على أى شىء من البلغار اطلقوا للبحر عن الطعام ولم يتخرجوا عن أية وسيلة لالتماسه دفعا للجوع الذين عضهم بابه ، فقد لهم أن يأتوا الى قطعان من الماشية والأغنام كانت للبلغار فأخذوها قسرا وسافوها الى المعسكر ، فلم يكذب أصحاب القطعان يعلمون بما حرى لها من نيب حتى هسوا الى أسلحتهم وكروا على [اللاتين] كرة ضاريه محميين العزم على اسرحاعها ، وهاجموا اللصوص الذين كانوا يسوقون الدواب أمامهم ، وفتكوا بهم غير جماعه فوامها مائة وخمسون رجلا قدرت لهم النجاة انفصلوا عن بقية رفاقهم ولجأوا الى كنيسة صادفوها فى فراهم فأضرم العدو فيها النار ، فمات حرقا من اعنصموا بها الا فلة لاذت بأذيال الفرار .

ولما أدرك « وولتر » أنه يقود جيشا عبيدا لا يعرف النظام ولا يكرب بما يفعل فقد انفصل عن ابغوا شهواتهم اتباعا أعجزه عن كبح حماهم ، وسلك ببقية عسكره مسلكا فيه الحكمة والحرص ، فاحاز بهم غابات بلغاريا الكثيفة ، حتى انتهى السير بهم أخيرا الى « سرالكا » (١) وهى مدبنة حملة من مدن « داكيا الوسطى » ، فصرح لحاكمها بما لحقه من الخسارة وشكى اليه البكة التى حاقت طلما بسعب الله على يد البلغار وطلب منه أن يعوضه عن ذلك كله ، فعامله هذا الدوق معاملة كلها عطف عنه ، لانه كان رجلا مستقيما يحاف الله ، وصرح لهم باقامة سوق يستطيع الجنس أن يشترى منه ما يحتاجه بضمن معقول ، وكبل لا تطفف فيه ، وزاد فوعدهم أنه غير حاجب عنهم ما يحتاجونه مما يفرضه نوامس الانسانية ، كما أمدهم بمرشدين يدلونهم على بقعة الطريق حتى يبلغوا المدينة

(١) رجحت الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب أن تكون هذه المدينة هى « صوفيا » فى الوقت الحالى .

الامبراطوريه ، ولما وصل « وولتر » الى القسطنطينية جىء به الى
حضرة الامبراطور ، ونجح فى الحصول من جلالته على اذن يسمح
له بانزال جيسه قرب البلد وبعقد سوق للتجارة ، على أن يكون
ذلك الى حين ، حتى يصل بطرس [الناسك] الذى كان قد آدى
للولتر أن يسير تحت قيادته .

- ١٩ -

ما كادت تفضى فترة وجيزة بعد الأحداث التى ذكرناها حتى
زحف بطرس عبر « لوثاريجيا » و « فرانكونيا » و « بافاريا »
والاقليم المسمى بالنمسا ، وكان تحت امره حشد ضخم يكاد يقرب
من أربعين ألفا جعل منهم جيوشا على اختلاف أممهم وقبائلهم وألستهم
وشعوبهم ، فلما أشرف بهم على تخوم مملكة المجر بعث برسالة الى
ملكها ، فجاءه الاذن فى سر بالدخول ، على أن يسير فى المملكة فى
هدوء ، عبر محدث ارجاها ولا مسب شغباً فاستجاب بطرس لما
اشتراطه الملك ، وبادر بالانتفاع من هذا الاذن ، ودخل المملكة
بعسكره ، وأمدّه أهلها بكميات كبيرة من الطعام قدموها اليه بثمر
معقول ووفق شروط طيبة ، فنقدم العسكر فى هدوء الى المدينة
« سملين » التى أسرنا اليها ، حسب حاجهم بئاً ما حاق برؤسهم الذين
سبّوهم بقيادة « وولتر » وما عوملوا به من معاملة دنسة على أيدي
أهل تلك الناحية ، فلما طالعوا ما كان معلقا على أسوار المدينة من
أسلاب وسلاح رفاقهم رمزا لانتصار المجرىين عليهم أغضبهم ذلك
كل الغضب وحشدوا انتضوا أسلحتهم واقتحموا المدينة عنوة ، فلقى
غالب أهلها مصرعهم اما قتلا بالسيف أو غرقا فى النهر القريب
منها ، ويقال انه هلك فى هذه الحركة الهوجاء ما يناهز أربعة آلاف

مجرى ، وكان ذلك غفابا يكافى جرمهم ، ويقول الأبحار أن « بطرس
فقد فى هذا اليوم مائة رجل فقط من رجاله ، فلما فرغ الحجاج من
الاسلاء على المدينه بعوة السلاح أقاموا بها خمسة أيام سويا
بسبب ما وحدوه بها من وافر الطعام •

★★★

كان دوق اللعار المدعو « نيكيناس » هو المستول عن رفض
السماح لولتر وجيسه بعقد السوف ، فلما برامى الى سمعه خبر
انقام عسكر بطرس من مدينة « سملين » بسبب المعاملة البى كان
قد صادفها حس وولتر سرب الخوف الى نفسه من أن يزل به
هؤلاء نفس العقاب لانه لم يكن يريثا من هذا الموضوع ، ولما كان
« نيكيناس » غير واثق تماما من وسائل الدفاع عن مدينة بلغراد
التي يحكمها فقد عادرها ، وغادروها فى انره سكا بها جميعا
مستعجبين معهم مواشهم ودوابهم ، ولاذوا الى الغابات فرارا الى
ما بها من المحابى والأماكن السرية •

وبينما كان بطرس لا يزال مقيما بالمدينة المغلوبة على أمرها
حاء به الأخبار بأن ملك المجر - وقد هزه نبأ المذبحة النى حرب على
شعبه - اسدعى اليه فوانه الحربة من شتى أرجاء تلك الناحية
واستعد اسعدادا جبارا للئار لهذه الدماء المهرقة ، فبادر بطرس
فى لحظته الى الاستلاء على جمع السفن الراسبة على طول النهر ،
وأمر حسنه ركوبها والعبور بها على وجه السرعة ، فاستجابوا له
وأخذوا معهم ما وحدوه بالمدينة المنهوبة من ماشة ودواب ، وحازوا
ما بها من أغلى الأسلاب حتى توفر بن أيديهم من ذلك كرة فوق
الوصف ، ولما تم نقل كل شىء الى الشاطىء الآخر ضربوا معسكرهم
أمام بلحراد النى وجدوها مهجورة من أهلها ، وسار بطرس من هناك
من معه ثمانية أيام اجتاز خلالها غابة كنفة بالغة الاتساع ، خرج

مها الى « سس » ، وسار من خلفه كل الجيس بما معه من عربات
ومركبات وقطعان الماشية والدواب .

ومدية «نبس» هذه شديدة الحصانة بفضل سورها وأبراجها
الى حجمها فوه كثره من السجعان والأبطال ، فعمر جس [بطرس]
النهر الذى يجرى الى جوار المدينة من حسر صخرى ، وضرب معسكره
على مقربة منه .

كانت المثونة النى معهم فى الزحف قد أخذت فى النفاذ ،
وأصبح العسكر يواجه نقصا بسا فى الطعام ، ومن ثم بعوا برسالة
الى حاكم المدينة يتوسلون اليه فى لهجة رفيقة أن يأذن لهم باوامه
سوق بسروط كريمة وأسعار معدله ، وتكون السوق حافلة
بمطلبات الحياة اليومية الضرورية لهؤلاء القوم الحجاج الذين
خرجوا امتثالا للأوامر الالهية ، فأحابهم الوالى بأنه عر مستطع
الاذن لهم بذلك الا اذا بعوا اليه أولا برهائن من رجالهم تأكيداً
لعدم قيامهم باحداث أى أذى ، وأنهم لن يقدموا على أى عمل من
أعمال العنف نصبون به الأهالى العاملين بالسوق ، وارضى الطرفان
هذا الشرط ، وأرسل [اللاتن] اليه الرهائن ، واذ ذاك مضى
المواطنون من المدينة حاملين معهم بضائعهم .

- ٢٠ -

توفرت كميات هائلة من الزاد لكل الجيس ، وجرى التعامل
بين الجانبين ببيعاً وشراء على أحسن ما يكون التعامل ، واصرم اللاتل
فى هدوء تام ، والناس من كلا الجانبين يتحدثون بعضاً الى بعض فى
مودة ، حتى اذا بدت تباشير الصباح عاد الرهائن الى قومهم وأخذ

الجيس ينأهب للمسير ، وبينما كانوا على وشك الرحيل - أو بلفظ أدق - بينما كان الجانب الأكبر - ان لم يكن الجيس كله قد أخذ فى الرحيل ، اذا بجماعة قليلة من طعام الناس ودعاة القوضى ممر يستحقون لعنة الله عليهم قد حدثهم نفوسهم بإحداث شغب بأفه فى الليلة السابقة أثناء شائهم بعض ما بلزمهم من رجل بلغارى ، فاسحبوا ليلًا من الصفوف النى كانت قد رحل وأضرمو النار فى سبع طواحين كانت موحودة قرب الحسر وفوق النهر المذكور ، فانت النار عليها كلها حتى صارت رمادا .

كان أبناء الماعون هؤلاء - وعددهم قرابة مائه شخص - من سعب السويون الذين لم يكف العمل السرير الذى ارتكبوه فى اطفاء غصصهم المجنون ، بل رادوا عليه فراحوا يقذفون بالنار بيوت طائفة معنة من الناس تقع خارج الأسوار فأحرقوها هى الأخرى ، ونفوسهم ملأى بنفس الضغنة ، فلما فرغوا من حريمهم هذه أسرعوا للانضمام الى بقعة الجيس البرىء مما فعلوه ، وساروا كأنهم غير شاعرين بما ارتكبوه من الاثم .

كان حاكم المدينة قد بلغاهم فى الليلة السالفة لعاء بالغ اللطف ، فلما رأى نكرانهم لأفضاله عليهم اضطر لتدبير خطة بعابهم بها بدلا من منابعة الاحسان اليهم ، وترمى هذه الخطة للقضاء عليهم قضاء لم يعرف النصفة فيه ، اذ عدهم جميعا لصوصا مخربين ، وأخذ الحس كله بحرمة سرذمة قليلين ، ومن ثم اسدعى اليه الأهالى وأمرهم بحمل السلاح ، ولم يتأخر هو ذاته عن قيادتهم بنفسه فكانوا جمعا كبيرا ، وراح يسجمعهم بالقول والعمل على مطاردة الصليبين كما لو كانوا ماضين للنار من فجرة دنسين ، وأصبح أهل البلاد كلهم رحلا واحدا ، قد توجدت مناسرهم ، ويقدموا مهاجمين القوات التى كانت قد سبقت غربها ، ثم كروا على المؤخرة

كرة عنيفة وراحوا يعملون سيوفهم فيها . ثم جاءوا الى أولئك العساء
الدين لم يكونوا فد انضموا بعد الى الجنس الأصلي فهاجموهم بسدة ،
وحرءوهم كثوس الموت دهافا ، كما أوقعوا نفس العقاب ، ان
قصدوا أو عهوا - بكثير من الأبرياء ، فأخذوا البرىء بجربره المذنب ،
واسنولوا على العربات والمركبات المحملة بسى أنواع المثنونه ، وفبدوا
السيوخ والعحزه والساء والصسان والبنات الذين تم يستطيعوا
اللاحاق ببقية القوم ، وساروا بهم ، فسعى غليلهم ما سفك فى
المذبحة من دماء الصلى ، ثم عادوا الى المدينة محملين بالفسائم .

- ٣١ -

راح بطرس فى هذه الأثناء بتقديم بطلعة عسكريه وكنار رجال
الحملة وهم على جهل تام بالكارثة التى أصاب رفاقهم حتى طالهم
فحأة رسول يخب به حواده على عجل ، حاملا الهم نأ الفاحقة ،
وأسهب لهم فى شرح قصة القبض على رفاقهم اسهابا ما كاد يضافح
أذنى بطرس حتى نادى فى العسكر أن يوافوه ، واستجاب لنصحة
أهل المحربة منهم ، فكروا راجعين عبر الطريق الذى تقدموا منه
طوال اليوم كله ، فلما طالعبهم حذب اخوانهم الصرعى - وكانت
برهانا على المذبحة - لم يستطيعوا امساك أنفسهم عن البكاء والعبول .
ثم وقفوا أخيرا للمرة السانة أمام المدينة فى البقعة التى كانوا
معسكرين فيها الليلة المارحة .

لم تكن عند بطرس ومن معه من زملائه الذين كانوا أحسن
من غرهم فى سبطرنهم على انفعالاتهم الا فكرة واحدة وغرض
واحد بالسبة لهذه المسألة . . . لقد عادوا لكشفوا

سبب الفاحشه . ولما حاولوا ازالة دواعى الرعاع حتى تمكنوا من
ممانعه رحله حجيم فى امان آكر ، وذلك حين يسبب السلام
اسبابا ناما وبعد على اكمل وجه بين السعبيين ، وبصو
المعوس من كل سائبة ، فأرسلوا الى حاكم المدينة والى سوحها
من أجل هذه الرغبة رجالا أهل قطه وادراك للمستولية ، وعهدوا
البهم أن يقتصوا الحفائى والطروف التى أفضت الى ذلك السغب
العفائى ، واهراق كسر من الدماء الريفية .

فلما وقف الرسل على سبب [هذا الشقاق] بين لهم أن
الأهالى لم يعمدوا الى حمل السلاح جزافا بلا مبرر يدعوهم للغصب ،
ولما لم يكن الوقت ملائما للمطالبة بالسار جزاء ما اركبوا من
الأخطاء ، فقد بذل الرسل غاية جهدهم لمحاوله اعاده السلام الى
محراء ، بأن يعاد الى رفاقهم كل ما فقدوه من الغنائم والمناح .

وبسما كانوا يسعون سعيا حسنا للوصول الى هذه الحاشية
والى انفاق يرضى الطرفين ، ادا بهم بسمعون ضجة هوحاء فى
المسكر سببها العواطف المأجحة النائرة ، وأدكاها تهور بعض
الأشخاص الذين لا يكثرثون بسىء ما ، ولكنهم أرادوا سلوك طريق
العنف للانتقام لما وقع عليهم من أضرار .

وطمع بطرس فى بهدئة ثائرتهم وازالة ما فد يؤدى الى مذبحه
أخرى ، فاخترار رهطا من المسئولين أصحاب النفوذ القوى وأرسلهم
الى الرعاع فى محاولة منه لمنعهم - وهم فى سورة غضبهم الحىونى -
من مهاجمة الأهالى ، فما أحدث هذه المحاولة نفعا ، فقد رفضوا أن
يسمعوا الى تحذيره المجدى ، واذا ذاك أصدر أوامر صريحة الى
الجسس عن طريق المنادين أن يلتزم كل واحد يمين الطاعة التى فى
عقه له ، فلا يحاول بأى صورة من الصور أن يساعد أو يعضد الذين

يريدون المحرق سلوكهم الطائس على سجب السلام الذي عاد
برفرف الآل من احديد عليهم .

واسحاب الجيس لهذا التوجيه وعده أمرا لا مفر من الحضور
له ، واذ ذاك ركن الجمبع الى الهدوء انظارا لانتهاء البوره الأولى
ومعرفة نتائج الأمر كله .

أما الرسل الدين كانوا ذهبوا الى الحاكم لعقد الانفاق دند
رأوا العكس من ذلك ، وأن الأهالي لم يمكن بهدئة ثائريهم ، بل ان
غضبهم راح يزداد عنفا بين لحظة وأخرى ، فلما أدركوا ألا أمل
فى نجاح مهمتهم السى جاءوا من أحلها بذوا هذه المحاولة وراء
ظهورهم ، وعادوا الى المعسكر لمساعدته رجل الرب بطرس فى احقاد
ناثرة الفنة ، لكن هذا كان ضربا من المسحبل ، فقد اندفع فرائه
ألف من الباس فى هذه المحاولة المجنونة ، وكانوا فى عددهم هذا
يمائلون عدد من هب من أهل البلد ، وبمخض الأمر عن معركه
شرسة حرت أمام المدينة .

ورأى من بداخل المدينة أن السقاى قد بن من هم خارجها ،
واد كانت العنة قد وقعت على كره من بطرس وعلى الرغم من أمره
الصريح ، فقد راودهم الأمل فى وقوف بقسة الجبتس بمعزل عنه
لا تمد له بد المساعدة ، واد ذاك فبحوا مزاليج الأبواب ، واندفع
حموعهم هادرة ففتك بما يقرب من خمسمائة رجل من رجالنا الذس
على الحسر ، والذين كانت بقتهم كلها لا يعرف مواضع المحاضاب ،
ولا تدري شبتا ما عن الموقع بأجمعه ، فابتلعها النهر ، فلما رأى
العسكر هذا المطر هبوا سبراغا الى أسلحتهم لأنهم لم يعودوا قادرين
على تحمل الأحوال التى انصببت على رفاقهم ، والتقى الجمعان
المتعاديان وجها لوجه فى معركة وحشية أسفرت عن مذبة مروعة .

فكان الحطب فى هذه المرة أشد من سابقه ، ولم يستطع العامه ولا الرعاع غير النظاميين أن يصمدوا أمام ضغط البلغار عليهم ، فتخلوا عن موضعهم ولاذوا بأذيال الفرار ، فتأثر بهذا الهرب الجنوى آخرون كانوا يحاربون ببسالة ، فاقنقوا أثرهم وفعلوا فعلهم .

على هذه الصورة هرب الجيس كله .

فلما صدعت الصعوف وانفرط عقدها ، لم يعد يوجد أحد ما يحاول المقاومة ، وفى وسط هذا الاضطراب فقد بطرس كل ما كان الأمراء المخلصون قد أهدهو اياه من الهدايا ، كما ضاع كل ما كان عنده من مال كان قد اعزم بدله فى سد حاجات الفقراء وأهل الفاقة فى أثناء الطريق ، وذلك بسبب استلاء العدو على العرة التى كانت تحبل هذه الروة ، فضاع كل شىء بضياعها .

أما البلغار فقد حدوا فى أثرهم بعصونهم والعضب يملأ حوانبهم ، فقارب من قتلوهم منهم عشرة آلاف مسبحى ، واسنولوا على العربات ، ونهبوا ما عندهم من المئاع ، وسبوا كثيرا من النساء ، واسرقوا العديد من الأطفال .

فأما الذين سلموا من الوقوع فى أيديهم فقد التمسوا النجاة فى الفرار الى أعماق الأدغال التى لا يمكن الوصول إليها ، وكان من أصعب الأمور استدعاهم للرجوع فى اليوم الثالث ، اذ أخذوا يدقون لهم الطبول ، وينفخون الآهاق ، حتى التفوا حول بطرس هم ومن نجا منهم ، وارتدوا جمعا الى بل صغير يرتفع بعض الشئ عن السهل .

ولما كان اليوم الرابع وفد تجمعت القوات المسرده ، وأقبل الهاربون من الأماكن الخفية التي ظلوا منوارين فيها ثلاثة أيام سويا ، وصار عدد الجيس الذي عاد بعضه الى بعض يهرب من ثلاثين ألفا نهثوا من جديد لمتابعة الزحف ، وعلى الرغم من سلوكهم الطائس الذي أدى الى ضاع ما يقرب من ألفى عربة نعل ومركه حمولة من أيديهم ، الا أنهم استنصروا العار ان لم ينجزوا حجهم فعادوا لمواصلة رحلتهم تحت ظروف بالغة المشقة ، اذ بسما كانوا يهيمون بالسر رغم حاجتهم الملحة الى المثونة اذا بوافد من الامبراطور يصل الى المعسكر مزودا بالأوامر الامبراطورية الصادرة الى بطرس وغيره من قادة العسكر ، فخاطبهم الرسول علاسة بقوله .

« أيها السادة السلاء العظام : لقد وصلت الى سمع الامبراطور شائعة بضمن رمكم بهمه شسعة دات طسعة نكراه ، ونقول انكم سرتهم سررة خرفاء في امبراطورسهم ، وأنكم اركنتم أمرا اذا في حق سكان البلاد وحى رعاياه ، وأثرهم القلافل والاضطرابات ، فاذا طمعهم في أى وقت في نوال عطفه ، وأن نفعوا عند حالته موقع الرضا فاننا نهاكم - بأمره - ألا تفكروا في البقاء بأى مدينة من مدنه أمدنا نحاوز ثلاثة أيام ، وعليكم أن تسدوا رحالكم سريعا الى القسطنطينة في انضباط ونظام نامن ، وسيدل الجيس على الطريق ، ونعنكم بما تحساحونه من الطعام بنمن مقبول » .

شدت هذه الكلمات من عزيمة القوم ودفعنهم حاجتهم للطعام الى التسرد ، كما أن رأفة الامبراطور أنعنست الآمال في نفوسهم ، فراحوا يشرحون للمبعوث الامبراطورى بعض الظروف التى أدب الى الاضطراب الآخر مدافعن عن أنفسهم ، ومرئين عنده ساحتهم ،

ويحدثوا عن تذرعهم بالصبر فى احتمال البلى التى أنزلها السغار
بهم ظلما وعدوانا ، فلما فرغوا من كل ذلك ساروا - كما وجههم -
راسدين حتى بلعوا القسطنطينية بعد رحله سافه ، فاما بأموها
وجدوا بها « وولتر المفلس » وفوانه التى كانت معه فى انتظار
قدومهم ، فانصم المعسكران بعضهما الى بعض ، وخموا فى الموضع
الذى حصص لهم ، واستجاب بطرس للاستدعاء الامبراطورى .
فدخل المدينة ووقف فى الحضرة الملوكية التى سألته عن مقاصده
من وراء هذه الحركة الكثرة ودوافعه اليها ، فاستهبط بطرس فى
شرح الأمر اسهابا دل على ما هو عليه من فصاحة اللسان وقوة
الحنان ، وأخبره أن أكبر أمراء العرب فادمون فى أثره ، وهم رجال
مخلصون فى خدمة الرب .

ولقد أظهر [بطرس] روحا عالية ، واملاكا لىاميه البلاءة ،
مما حمل كبار رجال العصر على الاعجاب بعظنته وشجاعته ، بل ان
الامبراطور دانه مال اليه كل الميل وأثنى على هدفه ، ثم صرفه بعد
هذا الاستقبال الكريم ، محملا بالهدايا الرائعة ، وأمره بالعودة الى
حنده الدين معه .



كان الحسن قد أقام فى هذا الموضع بضعة أيام أسح لرحاله
خلالها أن يعموا بالراحة وبما طاب لهم من المأكّل ، ثم صدر الأمر
الامبراطورى بتزويدهم بالسفن يعبرون بها البسفور الى « بسيسا »
وهى أول الولايات فى منطقة آسيا ، ويحدها نفس البحر الذى باغوا
مكانا يقع عليه اسمه « سيفنتوت » فأقاموا به وضربوا معسكرهم فيه .

كاتب البعثة الى عسكر فيها الحس نفع على نحوم بلاد العدو ،
فظلوا مقيمين بها أمدا فارب السهرين امامه طيبة ناعمة ، يوفر
لهم بها سنى صوف المثوبة . كما أنه فى حلال هذه الفرة كانت
هناك كميات ضخمة من البضائع تعرض عليهم كل يوم للبيع ، كما
أنبحت لهم فرصة من الاسنجمام الذى كانوا فى مسس الحاجة
اليه ، غير أن هذه النعمة العظيمة من الطعام والفراغ الكبر حولت
هؤلاء التعساء والجفاه الى قوم اسيد بهم الطيش ، ودفعتهم البلهنة
الى يتقلبون فى مطارفها الى الصلف ، فكونوا من سبهم جماعات
لا تأتمر بأمر أحد ، وراحوا يتوغلون فى البلاد - على غير رضى من
رؤسائهم - لمسافة بلغت عسرة أمال أو أكثر ، فساقوا منها قطعان
الماشية والدواب .

وطالما جاءتهم كتب من الامبراطور يحذرههم مغبه ما يمترون ،
وينهاهم عن التجرو على الابعاد أو استفزاز العدو ، ويأمرهم بالبقاء
فى الموضع الذى خصص لهم ، وأن يتهجوا النهج القويم الى حين
وصول فوادهم الذين فيل انهم فادمون وراءهم .

وخاف بطرس على من وكلت اليه رعايتهم فذهب الى المدينة
الامبراطورية عساه يحصل على تخفيض ثمن ما يسئرونه ، وعلى
ظروف أحسن فى المتاحرة ، فاعتنم العسكر المناكس الذى لم يالف
الظام فرصة تغيب بطرس ، وساروا سيرة رعناء حين قامت
طائفة منهم ، فوامها سبعة آلاف جندى من المشاة الذين يمانلون من
ذكرنا فى غهم ، وانفصلوا عن الجيش الأصلى ، وضموا اليهم
ثلاثمائة فارس وزحفوا جميعا على نقيية من غير اكترات باعراض
رفاقهم الآخرين على مسلكهم هذا ، ورتبوا صفوفهم للحرب ،

واندفعوا فساقوا من صواحي المدينة عددا كبيرا من القطعان
والأنعام ، وعادوا بها سالمين الى المعسكر .

ورأى جماعه من السيون وغيرهم ممن يكلمون لعنهم ما صادفه
اللانين من النجاح في غزويهم هذه ، فنملكتهم هم أيضا الرعبة في
مجازاتهم في السلب والنهب ، وأجمعوا العزم على القيام بعمل
هذه المحاولة ، مؤملين أن يحوزوا من المحر لأنفسهم مثل الذي حازه
هؤلاء ، وأن يرفهوا عن دواتهم فجمعوا من هذه الأمة [السونوييه]
ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص ومائتي فارس . ورحفوا بهم على
نيقية .

وكان في ذلك الاقليم - وعلى بعد أربعة أمال من نعمة
نفسها - مدينة حصينة تقع على سطح أحد البلال ، فدنا منها هؤلاء
النيون وهاجموها أعنف هجوم ، وأحدقوا بها من شتى النواحي ،
واسولوا قسرا على ذلك المكان رغم استبسال أهله في مقاومتهم .
لكبهم فكوا بهم وملكوا كل شيء في البلد ، ثم أعجبهم جمال الناحية
وغناها فحصنوها بحصنا قويا ، وأجمعوا العزم على البقاء هناك
حتى يصل القواد .

- ٢٤ -

كان [قلع أرسلان بن] سليمان [بن فطامس] صاحب هذه
الأرض وحاكمها قد علم قبل ذلك بآمد طويل بقدوم الزعماء
الصلبيين ، ومن ثم حشد جيشا كنيفا من السجعان الذين

لا يحصيهم العد من نواحي السرى ، نادلا فى سبيل ذلك كل وسائل
الاغراء والمال ، وعاد بهم الى هذه الجهات ليمد يد المساعدة المنسودة
الى أهالى الناحية ابتغاء صد هجمات العدو ، فلما بلغه الخبر أن
التيوتون الذين ذكرناهم حالا قد استولوا على احدى قلاعهم ، بادر الى
الزحف عليهم ، وحاصر القلعة حصارا شديدا ، وحكم السيف فى
رفاب كل من وجده فيها .

ووصلت آناء هذه النكبة الى المعسكر [الصليبي] ، وسرعان
ما تردد الصدى بأن طائفة السيون الدينى عادروا المعسكر منذ
قريب قد هلكوا عن بكرة أبيهم على يد فلح أرسلان . فاسبب الدعر
بنفوس القوم من هذا البأ ، ولم يسقطوا أن يكفوا ما اعمس به
صدورهم من الأسى ، فأسلموا أنفسهم للبكاء والأين ، حتى اذا
أصبح الحفيعه فى النهايه معروفه لا حياء فيها عم الاضطراب جمع
الناس فى المعسكر ، وارتفعت صيحاتهم عالية تلح الحاحا شديدا
ألا يسكتوا عن هذه المكبة التى نزلت باخوانهم ، وتنادوا بأن بهم
الفرسان والمشاة لحمل السلاح للخروج ثارا لدم رفاقهم المقولين.
وكان أعظم رجال الجيش وأهل الخبرة فى مثل هذه الأمور راعين
فى اطاعة أوامر الامبراطور ، فلما أرادوا التغلب على هذا الموضوع
وكبح حماح العامة الطائشة ثار الناس ضدهم وتمردوا عليهم ،
ورأسوا عليهم واحدا منهم اسمه « حودقروى » ويلقب « ببوريل »
وكان صعلوكا ، وجعلوه قائد هذه العصبة ، وراحوا يصبون اللعنات
على رؤوس أصحاب المكانة العليا ، زاعمين أن عدم اتاحة الفرصة
للانتقام بالسيف ممن قتلوا اخوانهم انما يرجع الى الجبن ، أكر
من أن يكون صادرا عن تفكير سليم .

كانت العلبة أحيرا لمشيئه العناصر الشريبه ، فحملهوا وراءهم
النساء والأطفال والشيوخ العزل من السلاح ، على حين سلح
القباقون . فجمع ميهم رهط كانوا حمسه وعشرين الفا من المشاة
المدحجس بالسيوف ، ومائتين من الفرسان المجهزين أحسن بجهر
بما عليهم من الرردباب ، وصعوا صفوفهم للقتال ، ورحفوا في
الغابات المنسار بها ، وكانت وجهتهم ناحية التل في اقليم نيقية ،
وما كادوا ينقدموه ثلاثة أميال في الغابة حتى كان قد بلغها أيضا
قلج أرسلان على رأس جيش من قومه كالديبي كره ، وراح بعد
السر سطر معسكرنا الذي ذكرنا موضعه من قبل ، قاصدا مباعسه
بالهجوم ، وترامب الى الأسماع صحاح وصحاح غير مألوفة صادرة
من العباب أنشأته أن الصليبيين قد غادروا مخيمهم ، وأنهم في الطريق
لمهاجمته ، فبادر في لحظه الى مغادرة الغابة والنزول الى السهل
العسج ، ففعل رجالنا متلما فعل [قلج أرسلان] ، غير شاعرين
بافتران العدو منهم ، فلما اكسفوا أنه أدنى ما يكون اليهم هوا
للاقتضاض عله ، وراح كل واحد منهم بسجع الآخر وسد من
عرقه ، وأحاطوا به مسرعين سيوفهم لينقموا بأيديهم لدم اخوانهم
المراق لكن بسما كان رجالنا مندفعين الى الأمام بعلوب ملؤها الحمه
والخبرة إذا يستوف العدو نلقاهم ، وذلك لأن الترك - وقد ألقنوا
أنه طرايع حتى الموت - فاوموا مقاومة عنيفة ، يذكها غضبيهم
العارم لا اعجزهم بكنرة جندهم ، واستبسل الجانبان اسبسال
قويًا راتيج لكن هارت الدائرة أخرا على الصليبيين بسبب كره
خصومهم ، ولما لم بسنطع رجالنا أن يتحملوا شدة المعركة أكثر
مما تحملوا فقد اضطربت صفوفهم ولاذوا بأذيال الفرار ، فانقض
عليهم الترك سيوفهم وتعقبوهم حتى معسكرهم ، وأعملوا فهم
مذبحة شنيعة .

رأى دى عدده المعركة بصعده رجل من دوى المكانه فى
معسكر بطرس ، منهم « وولر » المخلص ، و « ريسه دى بروس »
و « فولنر دى أرلمانز » وغيرهم .

أما الخمسة وعشرون ألفا من الجند المساة ، والخمسائه
فارس الدين كانوا قد خرجوا من المعسكر ، فقد راح معظمهم ما بين
فيل وأسير .

- ٣٦ -

دبت السنوة الكبرى فى أعطاف فلج أرسلان ، وهزبه المرحه
الطاغية لهذا النصر الذى حازه ، ولما لم يعد باقيا أحد قادرا على
مقاومته فقد حكم السف فى رقاب الأحياء ، عر مسبق تلى قد
الحماء أحدا مريضا كان أو عجورا ، رجلا كان أو امرأة ، وهلك
الرهبان وجميع رجال الدين ، لم يسن من هؤلاء كلهم سوى من
لم يلعوا سس الرشد من الصبيان والبسات الصغرات الدين كان
بهم عنده نهاء طلعتهم وصغر سنهم ، ولم تكن استنائه اياهم
الا لضرب عليهم الرق .

☆☆☆

وكان على الساحل قرب المعسكر حصن قديم نصف حرب ،
لس له أبواب ولا مزالج ، ولس من أحد يقيم به ، فالتأت
الضرورة طائفة من الحجاج تقدر بثلاثة آلاف حاح الى الهروب الى
هذا الحصن والاعصام به ، اعتقادا منهم أنهم واجدون فيه الملاد
الأمين ، وحاولوا الدفاع عن أنفسهم فى موقفهم العصب هذا لسد

الحروب الصليبية ح - ١ - ١٢٩

مداحاه بدروعهم رد لاجار الصحه بدحرجوبها الى هناك ، كى يحولوا بين أى أحد من الافراب منه . ولكن الترك شددوا عليهم الحصار فلم ينع هذه السدة المحصورين من الاستسسال دفاعا عنه حتى ردوا مهاجميهم على أعقابهم ، كما أرسلوا فى الوقت دانه رسولا على حياح السرعة الى بطرس يجبره بهلاك جماعه ، وأن الفله النابه منهم على فد الحاة نكابدون حصارا سديدا ضربه العدو عليهم فى قلعة نصف خربة ، وأنهم فى مسس الحاة للطعام والسلاح . فنادر بطرس بالمضى من ساعته الى الامراطور ، واسطاع بوسلانه الله وبصرعانه أن يحمله على أن يرسل فى لحطه هذه بعض الفراب الى هناك . وألقى لهذا العسكر أمره بانقاد الأحياء منهم من الخطر الذى يكسهم ، فأنجروا ما كلفهم به على أم وحه ، اذ ما كاد الترك يسمعون بأمر الامراطور حتى كفوا فى الحال عن مهاجمة ذلك المكان ، واستحبوا ومن حلفهم أسراهم ، وعادوا الى نقة ، كما حملوا بالاصافة الى ذلك أحسن الأسلاب والخم والفساطيط والحداد والمعال وجميع الجهراث التى يهبوها من الصلبيين .

وهكذا فان الطيس الجيوبى الذى كان عليه هؤلاء القوم الجعاه عن الظلمى ، انصرفون عن الأحد نمسوره من هم أحكم منهم ولم أدى بهم الى الابادة الشاملة ، ولما لم يكونوا معتادين على النظام المحمود فقد سلكوا سبلا لم يجنوا من ورائه خيرا ، واصبحوا بها لسوف العدو .

بعد فترة وحيره من وصول بطرس الى « سسبا » قام فسيسس بتوئني اسمه « جوسوك » سار في آنر خطى بطرس يحبه السرى لأداء رحله الحج هذه . ولما كان جوسوك قادرا بالطبيعة على اسماله الناس اليه بكلامه فقد استطاع اعراء كثير من السريون في جميع رحاب تلك المملكة على الاسنراك في هذه المهمة ، حتى نجحه لديه منهم قرابة خمسة عشر ألف حاج دخل بهم المحر ، لم داي كندا ، كما استحاب المجريون من حانهم الى أوامر ملكهم فعدهرا المضائع بأثمان معقوله الى رجال جس « جوسوك » الدس انطربتم وفره الطعام بين أبدبهم ، فأسلموا أنفسهم الى البطانة والكسل ، وانعسوا في الشراب يعبون منه عبا ، وأساءوا السره مع الأهالي والحقوا بهم سرورا كسرة اذ راحوا ينهسونهم ، وامدت أديهم بالسرفه الى البضائع المعروضة للبيع في الأسواق العامة ، واخرجوا الستات فقتلوا الناس غير مراعين أصول الضافة .

فلما وصلت أخبار ما فعلوا الى الملك اسنبد به الغضب ، فأمر أن ينادى في كافة أرحاء مملكه أن يحمل الناس وكبار ملاك الأرض السلاح للقضاء على هذه الأخطار الكبيرة ، لا سيما وقد ارتكب في كبير من الواحي تحاوزات مهلكة ، بلغت من العار حدا يعوق الوصف ويعف اللسان عن ذكرها ، وكان من المسحجل على الملك أن يفض الطرف عن مثل هذه الجرائم والا اتهم بالجبن ، وحلب على نفسه كراهة شعبة له ، ومن ثم تجمعت فواب المملكة ، وكروا كرة رحل واحد غاضب على الصليبين ، باعناهم أعداء يستحقون الاستئصال الدام ، وأجمعوا العزم على الفتك بهم انقاما مما احدثوا من الآثام .

وأخيرا ننسى لموات الملك أن نغير على طائفة من هؤلاء المجانين
 الفوضويين في مكان يعرف « ببلجراد » يقع وسط تلك المملكة .
 وكان هؤلاء (السنونون) قد سمعوا بزحف الملك ، وأبصروا تمام
 البعبع من حقه السديد عليهم ، كما أزعجهم شعورهم بما اقترفوا
 من الحرم ، ورآهم المجريون - وقد حملوا سلاحهم - عازمين على رد
 القزح نائمه فأرادوا درأ الخطر عن أنفسهم ، لكنهم أدركوا إستحالة
 الاشتباك معهم دون أن يفقدوا الكثرين من رجالهم ، ذلك لأن هؤلاء
 المسححي [السنونون] كانوا في الواقع رجالا ذوي بأس وشجاعة ،
 ومهرة في استعمال السلاح ، نأبون أن يسلموا أرواحهم من غير
 قتال ، ولذلك فإن المجريين - حريا على مألوف عاديتهم - حاولوا أن
 ساءوا بالحيلة ما يعجزون عن ببله بالعنف ، فأرسلوا وفادة الى
 « حوسوك » وزعماء حسنة ، يطمئنون خواطريهم - خديعة -
 بالكلمات المعسولة .

- ٢٨ -

لقد قالوا لهم

« أنه نرامى الى سمع الملك الشكوى المريرة من فعال جنسكم ،
 وفيل له انكم أنزلتم برعاياه الخاضعين له كثيرا من الأضرار البالغة
 والأهوال التي يعجز اللسان عن ذكرها ، وأنكم ساءرتم حسن
 المعاملة التي عومل بها عسكريكم بأسوأ ما يكون الجزاء ، ومع ذلك
 فإن الملك يدرك بحكمته تمام الادراك أنكم لستم جميعا نحمولون وور
 هذه الجرائم ، وهو واثق أن فيكم رجالا حكما ممن يمتلي فلوبهم
 بحسنة الله لم يرضهم فعال الآخرين الشريرة ، وأن هذه الجرائم

الى أثارت عن حق الحق الملكي قد نمب على عبر رضى هؤلاء وأنهما حدثت رعم اسسكارهم ، ولما كانت رغبة الملك ألا يؤدى خطايا الممسين الى نأثم الكل ، وألا يؤخذ البرى بحريه المذهب فقد قرر أن يسمح جماح غرضه حتى لا يصيب اخوانه فى الملة المسححة بضرر ، ومن لم فانا نشتر عليكم أن سسسلموا وسسلموا كل ما معكم الآن ، بما فى ذلك سلاحكم ، دون قيد أو شرط ، واضعين ذلك كله فى يد المالك حتى يذهب عنه غضبه تماما ، فان لم نفعلوا ذلك لم سسسطع أحد منكم النجاة من الموت - لأنكم - بوجودكم فى وسط ممالكه - لستم أكفاء لها فى القوة الحرسية ، كما أنه لا قدرة لكم على المساعدة من بطسه » .



ظهر منذ البداية عدم رضاء « حوسوك » ورؤساء حرسه عن المسلك الجنونى الذى سلكه شعبهم العنيد ، لكن بساطة قلوبهم دفعتهم للقة فى اعبار رحمة المالك أمرا لا يخالغ السك فيه أحدا ، ومن ثم فقد حملوا عسكرهم بالقوة تقريبا على الاذعان لفكره تسلح أنفسهم وسلاحهم وكل ما تملكه أيديهم الى الملك ، وبذلك يكملون عما ارتكبه من آثام حرسه ، وانتهى الأمر أخيرا برضاهم عن نكرة أنهم بما يقرر ، هذا على الرغم من احساحهم العنف ، ومماهم السديد للحرب دفاعا عن أنفسهم ، بد أنهم ما كادوا يفرغون من تسليم أسلحتهم وجمع مناعهم لقواد الملك ورسله حتى وحدوا الموب فى انظارهم ، بدلا من العطف الذى كانوا يتوقعونه ، اذ قام المجريون بساغته التوتون على غرة منهم ، وكروا عليهم فى الوقت الذى كان فيه هؤلاء عزلا من كل سلاح ، ابمانا منهم برحمة الملك ، وثقة منهم به ، وأعمل المحربون قسهم مذبحة من أسسع المذابح فى السعد عن الانسانية ، دون تفرقة بن الصالح والطالح منهم وأسفر

الأمر عن عرق المكّان كله في بحر الدم المظلول ، واملائته حسب الصلي
واسهى الأمر بهلاك هذا الجمع الكثيف الذي لم يبق منه سوى نفر
قليل نجوا من الهلاك السامل ، ممن سملهم رحمة الرب فلم
تأخذهم سيوف المجريين ، فعادوا الى وطنهم يفصون جبر المديحة ،
ويروون نبأ المصير المشئوم الذي لقيه اخوانهم على من اربطوا بالعهد
ممن كانوا على وسك القهام بذلك الحح دانه وأسدوا الصبح لهؤلاء
الحجّاح الجدد بوحوب اصطباع الحكمة في سرهم ، واتخاذ أكبر قدر
من الحذر من هذا الشعب الدي ، لما ارتكبه من خيانة لن نمحي من
الأدهان .

- ٢٩ -

في هذه الأثناء - أو بعدها بقليل - نجتمع من بلاد العرب
رمر كسعه لا يحصنها العد من المناسة ، كانت تحركهم نفس الرعة
[في الح] ، وانطلقوا لم نزعموا عليهم أحدا أو سحدوا لهم
مرشدا ، وزحفوا من غير هدى ولا نبصر أو حكمة ، على الرغم من أنه
كان بينهم في الواقع رجال من أصل شريف ، أمثال « نوماس
دي لافر » و « كلاربولدوى فندبل » ، و « ولهم البجار » وكوب
هارتمان وغيرهم ، غير أن القوم كانوا لا يعرفون الانضباط فلم يطيعوا
هؤلاء السادة بأي صورة من الصور ، وضربوا عرض الحائط
بما أُنشأ به عليهم أهل الحجى والبصرة ، فانطلقوا على وحوهم
هنا وهناك ، مقرفين الفعال التي يرفضها القانون ، ويرتكبون
ما سمله عليهم شهوانهم ، ومن ثم فقد ركبوا من الجنون والبسطط ،
مع أن واجهم كان بحجم عليهم أن يحملهم خوفهم من الله على السير
في هذه الرحلة الباهضين بها سيرا كله طاعة للأوامر الالهية ، وأن

يلزموا تمام الالتزام بالنظام فى حجهم الذى يقومون به من اجل
المسح ولكنهم كانوا لا يمرون بمدينة أو قرية الا ونبوا على من فيها
من يهودها فذبحوهم من غير أن تأخذهم رحمه ، ولم يكن اليهود
قد أخذوا حذرهم منهم اد لم يكن هناك ما يحملهم على أن يوحسوا
منهم سرا فخافونهم •

وقد وقعت هذه الاعداءات على وجه الخصوص فى مدينة
« كولوبا » و « ميز » حب كان الكونت « اميكو » أحد سلا
ومسهورى تلك الناحية الأقوياء قد انضم بالكبرى من معوه الى
عصابات المحتاح ، وكن [اميكو] بالنسبة الى مكانه ملزما
بما يقرضه عليه هذه المكاة من السمك بالأحلاف . الا أنه لم
كن بالنسبة الى سحب التماور فى السلوك ، وسار على
العكس من ذلك ، اد ساهم فيما ارتكبه أساعه من أعمال الفساد
والسر ، وزاد على هذا فراح يسجعم على افراف الخرائم •

اخبرف هذه الجموع كلها « فرانكوسا » و « بافاريا » حتى
بلغت ناحية تدعى « مسسمورج » (فمزيلورج) على نهر المجر ،
وكادوا يوقعون السماح لهم بالدخول من غير صعوبة ، لكنهم
ما كادوا يرون المدخل مغلقا فى وجوههم حتى وقعوا على هذا الحجاب
من الجسر •

وكان فى الناحية قلعة شديدة الحصانة بفصل حماية نهرى ،
« الدانوب » و « لبتا » لها ، وكذلك المستنقعات العميقة المحطة بها •

وتقول الأخبار ان عدد الحس الذى رحف الى هناك قارب
مائى ألف حدى من المساة ، وبلاثة آلاف من الفرسان •

يضاف الى ذلك أن ملك المجر أصدر أوامره بعدم السماح
لهؤلاء العسكر الراغبين فى عبور بلده بدخوله ، فقد نذكر الأحوال

السي كان قد أوقعها بعوات « جوسوك » فحاف ان هو ان لهذا
العسكر بالدحول أن يدفعوا الى القنال لأخذ البئر ، لا سيما وأن
خر المجزرة الدامة التي جرت حديثا قد عم السهل والجبل ، ويردد
في جميع الآفاق ، فحملت صناعة هذه الفعال الملك على الخرب .

وعلى الرغم من ذلك فقد اتصل هؤلاء الحجاج بالمركزول اليهم
حراسه المدببة وبقواد العرف القائمة بحماية هذه الباحة . وكان
انصاليهم بهم لسؤالهم الاذن لهم بإرسال رسل من قلمهم الى الملك
للمسكون منه الحصول على انقافة بخلهم عبور تلك الباحة .

وفي خلال هذه الفترة كان الحشد قد ضربوا معسكرهم في
مرعى ممتد قرب هذه الباحة ، وأقاموا في اسطار ما يسجد عنده
سفاريهم الى الملك .

- ٣٠ -

انقضت بضعة أيام عاد بعدها الرسل الذين كانوا قد ذهبوا
الى الملك ، وأعلموا فسل سفاريهم فسلأ باما ، وحينذاك آتت زعماء
الحملة أن لا رحاء في خبر يأتيهم من ناحية الملك ، لذلك أجمعوا
أمرهم على تخريب بلاده الواقعة على هذا الجانب من النهر ، واضرام
النيران في ضواحيها ، سالكين بذلك مسلك الأعداء في أملاكه ،
وبنما كانوا ذات يوم منهمكين غاية الانهماك في هذا العمل اذا
تكوكة من رجال الملك قوامها سبعمائة فارس قد عبرت الى
لحمية المنطقة من أن يعيث الأعداء فيها تخريبا ، فصادفوا على غير
انتظار جماعة الحجاج فلم يستطع الفرسان تجنبهم ، كما حال النهر

بسيهم وبين العوده الى الساحة التى جاءوا منها ، ثامى فرسان الكوكبه
أو حلقهم مصرعهم ، ولم يسج منهم الا نفر قاتل فقتلوا حيادهم ورأوا
الاحياء يحلفاء المسيفعات حفاظا على حياتهم رحمانه لأرواحهم •

تملك السحاحة الحجاج بما أحرروه من نصر على عدوهم ،
فصمموا على ساء بعض الجسور ومهاجمة القلعة حتى اذا تم لهم فتح
الطريق نحد السف عزموا على دخول المملكة ، لذلك اسندعوا جميع
عسكرهم لتحصى هذه العابة ، وعبروا الجسر الى فرعرا حالا
من افانها ، وتمكنوا من الوصول الى الحصون والقلاع ، ثم دفعنهم
الحرأه للاستعداد لسف الأسوار وسق طريقهم الى الداخل ،
محدث من دروعهم وقاء لهم ، وبجحت محاولانهم الحاده فى فتح
ثعرا فى أماكن كبره من الأسوار ، حتى اذا باعء ملهم بقطه صار
دخول الحجاج فيها الى المدينة أمرا مقرا ، واسسد الناس بهوس
المبمن بها الذين لم يعد لهم أمل فى البقاء على حياتهم ، اذا
بالصلبس المهاجمين يصسهم رعب مفاجئ أرسلته السماء هلع
له فلوبهم فدخلوا عن الهجوم وفروا ناركن وراءهم معطم مباعهم ،
وعلى الرغم من أن ظاهر الأمور كان يسر الى أن الصر حلفهم وأنه
لس هناك ما ببرر فرارهم ، الا أنهم ولوا على أعقابهم منهزمين ،
مدبرين غير مفلين ، ويقال أنه لم يكن ثم سبب وحه الا أن يكون
آثامهم الجمة وخطابهم الكبره قد حلت عليهم سخط الله لأنهم
كانوا قد غرقوا الى الأدان فى لجة الكفر الذى يززل بالخوف فلوب
أصحابه مصداقا لكلمات الحكم « هرب الحبان دون أن يكون أحد
يطارده » •

تبدل وضع المجربن الى ما هو أحسن حين رأوا القوات
الصلبية تلوذ بأذيال الفرار فانطلقوا انطلاق الغالبين يتعقبون هذه
القوات التى أنزلت الفزع الممض بهم منذ قليل وكانت هذه القوات

المعادية هي التي لم تكونوا بسطعون دفعها حتى وهم وراء الاسود
في حماية المستعاب ، أما الآن فقد راحوا يطاردونهم من خلفا .
أنفسهم ، ولم تكفوا سب الفرع فيهم ، بل رادوا فراحوا بقلوبهم .

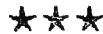


فر من هؤلاء كوت « ايمكو » ومعه الجانب الأكبر من فوائه
المدحوره ، وعاد بهم الى وطنه .

أما الأمراء الآخرون الذين أسرب إليهم من قبل فقد فروا عبر
« كاريسا » حتى بلغوا إيطاليا التي عمروها ووصلوا الى حدود
« أبوليا » ومن هنا انحدوا نحو بلاد اليونان في أثر أولئك القرا-
الذين قاموا هم أيضا بنفس هذه الرحلة ، والذين كانوا قد اصرحوا
عليهم أن يركبوا البحر الى « دورازو » .

ولقد تأثر العرب كله عن حق بهذه الحركة وبغيرها مما على
شاكلها ، وراح كل أمه على وجه الغريب يرسل فوائها على حده ،
وقد انفصل الواحد منها عن الأخرى ، فمضى للحج جماعات بحب
أمره فادع معمدس ، ورحل آخرون من غير أن يرأسوا عليهم أحدا
لكن كان من الواضح أن الطريق الذي سلكه القوم عبر البحر كان
أقصر الطرق ، بيد أنه أصبح مستودا في وجوههم . بسبب
ما أنزلوه بسكان هذه البلاد من المصير والسرور التي حاوزت كل
مدى وسبب ما ارتكبه الجحاح الذين سبقوهم من حرم ، فأصابوا
به الناس من غير أنم اقرفوه .

من أجل هذا السبب واحة الذين جاءوا من بعدهم صعدوه
بالعة في الحصول على عطف ملك المجر .



هنا ينتهي الكتاب الأول

الكتاب الثاني

جيوش الحملة الصليبية الأولى تزحف الى القسطنطينية

فصول الكتاب الثاني :

- ١ - موعد رحيل حودفروى والنبلاء المصاحبين له ،
وكيف تقدموا حتى بلغوا المجر .
- ٢ - رساله الدوق الى كولمان ملك المجر على لسان
« حودفروى ديس » ، ورد الملك على الدوق .
- ٣ - الملك وقوادنا يعقدون مجلسا فيما بينهم
ويرسلون بلدوين أخا الدوق « رهينة » ثم عودته
بعد احتجازهم المجر ، والملك يتحف الدوق بكنيز
من الهدايا .

٤ - عسكريا يهدم فى أراضي الامبراطورية ، ووصف
الدخول وملاحظة عن أحوال بلاد الاغريق
العسة .

٥ - الدوق يرسل مبعوثين الى الامبراطور يطلبون
منه اطلاق هيج المطيم وغيره من البلاء
الموجودين فى السجون . قواسا ننهب الاقليم
ثم تصل فى النهاية الى القسطنطينة .

٦ - الادبراطور يدعز الدوق للحضور اليه ، لكن
الدوق يرفض الدعوة فبسبب العداوة العسة
بينهما فيعمد الامبراطور الى حيلة مكره بسل
بها الجبس الى مكان عسه له .

٧ - وصف موقع القسطنطينة . الدوق يرسل
رسلا الى الامبراطور ، وحسنا يكابد الماعب من
الكمائن التى لم يكن يتوقعها والتى نصها
الاغريق له .

٨ - الحس يعود الى المدينه وسبب معركة كبيرة
تتمخض عن مذبحه نطعة فى الاغريق .

٩ - الناس يهرعون لحمل السلاح ويعملون بد
التخريب فى الناحية كلها ، ويسفر الأمر عن
توفر كميات ضخمة من المثونة فى المعسكر .

١٠ - وصول رسل من ناحية بوهيموند الى الدوق
جودقروى يحملون اليه رجاءه بعدم الذهاب الى
الامراطور ورد الدوق على بوهيموند .

١١ - الامبراطور يرسل ابنه جون بورفرو وحسن الى الدوق رهينة عنده ، ويدعو حودفروى اليه فيذهب حودفروى فينباه الامبراطور ويسقر السلام بين الاثنين .

١٢ - الدوق يساعد في المعاداة فيه من الوقت فيرحل محملا بالهدايا ، عهد سوو للحجاج وعمر عسكر الدوق الى البسفور وضرهم خامهم في الافلم المحيط بخلقدوسا .

١٣ - اسراع بوهيموند في القدوم ووصف من كان في معننه من الكبار ويدبر الامبراطور الحطط السربة لصيدهم .

١٤ - رسالة الامبراطور الكسوس الى لورد بوهيموند ونام حسن الامبراطور بهجوم سرى على معسكر بوهيموند والقبض على أسير فصيح بوايا الامبراطور السرير

١٥ - الدوق [حودفروى] يخرج لاسسيفال الأمير بوهيموند وبسر به رغم أنه الى الامبراطور الذي يستقبله باحترام كبير ، كما أن نانكريند يحرك في الوقت ذاته كتابه في سنسنا فننظم الى حسن الدوق ، .

١٦ - وصول روبرت كوت فلاندرز بجسه ودهابه محروسا الى حصرة الامبراطور بناء على استدعاء الأخير له . وأغداق الهدايا الجمة عليه ثم عوده البحر وانضمامه الى الزعماء الآخرين .

١٧ - كونت نولوز وأسقف بوى بحرفان دلماسا
بجيوئيهما ، ويلاقبان كبرا من الصعوبات فى
عبور هذه الملاد .

١٨ - سفاره امراطوريه نقابل الكوب فى دورارو .
والبلغاريون يلقون القبض على أسقف بوى ولكن
سرعان ما يطلق العنايه الالهيه سراحه ، وحين
وصول ريموند الى « رودسو » يصله رسل من
الامراطور ومن فادننا مرة أخرى .

١٩ - الكوب يرك حيسه ويذهب الى الامراطور تكبه
لا بواقى على وجهه بطره ، فعتمد الامراطور
- خيانة منه له - الى اصدار الأوامر بمهاجمة
حيس الكونت .

٢٠ - الاعريق يباغنون حيس الكوب أثناء عماره
فيحدم الكونت غبظا من الامراطور ألكسسوس
الذى يندى ندمه على ما جرى وبدفعه خوفه على
نفسه الى أن يطلب من الأمراء التدخل ويظهر
ببرائه مما حدث .

٢١ - الكونت يضافى مع الامراطور بسبب وساطه
القادة ويدعوه لمرافقة القادة الصليبين فى
زحفهم ، أما القوات التى عبرت البحر فنسرع
الى نقيه ويسير الكونت فى أثرهم فى الحال .

٢٢ - وصول روبرت كونت نرمندى وأستاس - أخى
الدوق - بكتائبهما الى القسطنطينية واستقبال
الامراطور لهما بالترحب ووصلهما بالهدانا

الحمة ثم عورهما السعور ومحتهما الى الرءماء
الآخرين .

٢٣ - اتصال أحد موظفي الامبراطور - واسمه
تايكبوس - بزعمانا وبودده اليهم وكان رجلا
شديد المكر مطبوعا على الحب الدنيا .

★★★

هنا يبدأ الكتاب الثاني

جيوس الحملة الصليبية الأولى تزحف الى الفسطنطينية

- ١ -

فى نفس هذه السنة ، أعنى سنة ١٠٩٦ من مولد السيد المسيح ، وفى اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس ، قام « جودفروى » دوق « لوثاريخيا » العظيم المبجل بجمع أصدقائه فى رحلة الحج ، وأعد أمتعته بالطريقة المألوفة ، وكان خروجه بعد رحيل « بطرس الناسك » أثر الطامة الكبرى التى حافت به وأشرنا إليها ، وفى أعقاب مذبحه جماعة « هوتشوك » التى ذكرناها أيضا ، وبعد النكبة الأخرى التى حرت على حدود المجر ووصفناها سابقا ، وقلنا انها نزلت بالجيس الذى جاء من بعده ولقد انصم الى معسكر « حودفروى » رجال من ذوى المكاة السامية ، الحديديين بخلود الذكر ممن ربطوا أنفسهم به ، وهم لورد « بلدوين دى موتس » كونت « هينولت » ، ولورد هيج كونت « سسنب بول » ، وابنه « انجراند » وكان شابا غرائقا على الهمة ، وكونت « حارنسه » المعروف بجراى ، ولورد « رينار » كونت نول وأخوه بطرس ولورد بلدوين « دى بروج » أحد أقارب الدوق [جودفروى] ، ولورد « هيرى دينس » وأخوه « حودفروى » ، و « دودو دى كونسى » ، و « كونون دى موساج » وكثيرون غيرهم ممن لا نعى اسماءهم ولا ندرك عددهم .

(الحروب الصليبية ح ١) - ١٤٥

ولقد سار هؤلاء جميعا فى طريقهم فى هدوء مسيره طائفة واحدة مرابطة ، حتى اذا كان يوم ٢٠ سبتمبر بلغوا سالين معادين ناحة فى ولايه النمسا يعرف باسم « سولنبورج » حيث يكون نهر « لينا » الحد الفاصل بين اقاليم الامبراطورية وبلاد مملكة المجر .

وحين بلغ هؤلاء هذه المدينه وقع عليهم وقع الصاعقة ابحار النكبة التى قبل انها حاف بجوسوك وعسكره ، فساور بعضهم مع بعض كفى ينسى لهم السر فلما فى امان حتى يم لهم ابحار العمل الذى ازمعوا الصام به ، فانفى رايهم فى النهاية على وحب ارسال سفارة الى ملك المجر نقصى منه السبب الذى ادى الى هلاك حس اخوانهم الذين سيقوهم فى تلك البلاد على هذه الصورة .

وزيادة على ذلك فقد كلف الرسل الموفدون بايجاد فرصة للفاهم مع الملك حول اسباب السلام ، وأوصوا أن ينحلوا جانبا عن اثاره الشكاية من الخصومات السابقة ، حتى يتمكنوا من الحصول على اذن يملكون به سالين عبر المجر ، لأنهم لو راحوا يبحثون عن طريق آخر يسلكونه بعد أن بدأوا مسيرتهم فان خسارتهم تكون فادحة . ومسقتهم التى يلقونها عطمة ، لذلك ابحاروا لهذه السفاره الشريف « حودفروى ديش » أخا هرى ، مع طائفة معينة من دوى المكانة العاليه والرسم النبيله ، وكان احسارهم [حودفروى ديش] راحا الى روابط الود والصداقة التى كانت تربطه منذ سنوات طويلة سالفة بملك المجر ، فلما صار [حودفروى] فى حضرة الملك حماه بما تلقى مكانه ، لم ألقى على مسامحه بما كلف أن يقوله :



قال :

« لقد جئنا الى جلالكم مبعوثين من قبل السبل السرى
جودفروى دوق لوئارنجنا » ومن فى صحبه من العاده الآخرى ،
عماد الرب المرافقين له ، والصادقين فى طاعهم للاراده الربانية .

« وابهم لموافقون أن يعرفهم السبب الذى من أحله عومل شعب
مسحى طالعتنا حنهم على طول الطريق هذه المعاملة الى سكرها
الانسانية على يدكم ، وأسم أمة ذاعت شهرتها بين الأمم بأنها من
الشعوب المؤمنة المخلصة ، وكأنه كان من الأسلم لهؤلاء المسحيين
لو أنهم وأزواجهم سطر بلاد العدو فسلوكها ، فإن كانت حرائم
هؤلاء الناس شعبة بشاعة اسحقوا من أحلها العقاب الشديد فإن
الذين أرسلوني اليك مسعدون أن يحملوا - عن طيب خاطر -
اصلاح ما أفسدوه ، ذلك لأنه اذا كان الجرم يعادل العقوبة كان
ذلك عدلا ، ولن نثير غضبا كبيرا ، بل ننفي أن نقبله فى صبر .

« أما اذا لم يكن الأمر كذلك ، ولم يكن هناك مبرر لمهاجرتكم
الأبرياء . فإن زعماءنا لا يقبلون السكوت وغض الطرف عن النكبات
التي كانت من نصيب خدام الرب ، بل انهم مستعدون للنار لئلا
احوانهم ولذلك فانهم ينتظرون أن نوافقهم بالجواب عن كل هذه
الأمور ، وسوف نخذون قرارهم بما ننق وخلاصة ردكم » .

وختم جودفروى دبش خطابه بهذه الكلمات .

فأجابه الملك وهو محاط بكبار رجاله .

« أيها العزيز جودفروى ، يا من حبونا منذ زمن بعيد بمودتنا
التي هو أهل لها ، انه لسعدنا أن تكون قد أتيت لا لتجد صداقة

الأيام الحالية فحسب بل ولتسمعنا ونحن نؤكد براءتنا أمام حكم
عادل مثلك .

« اننا - كما قلت بحق - في عداد المؤمنين ، واننا سستطيع
بأعمالنا أن نعلي من شأن هذا الاسم ، ولكن الذين سبقوكم من أساع
بطرس الناسك وذيول جوتشوك ومن بعدهم ممن حاولوا الاسيلاء
قسرا على احدى قلاعنا القائمة على أطراف المملكة ، واقحام مملكتنا
بالعنف ، لم يكرهوا في الواقع من أساع المسح . ولا أهلا لحمل
هذا النعب ، فلقد احفلنا ببطرس وحسنه في بداية الأمر احفالا
كريما ووهبناهم ما عندنا من السلع مجانا وبمن رخص . ولكهم
رغم ذلك كانوا كالحية تختبئ في الصدر أو كالفأر في صوان
الملابس ، اد ردوا احسان المضيف أسوأ رد ، لأنهم بدلا مما كان
يحسنه عليهم الواحد من مجازاتنا بالشكر على ما نفضلنا به عليهم ،
اذا بهم يقتحمون واحدة من مدننا الواقعة في أقصى نجوم المملكة ،
ويمكنون بأهلها فكا دريعا ثم يرحلون في خسة اللصوص . سائقين
أمامهم قطعان الماشية والأغنام ، وحاملين معهم ما سلبوه ، وعلى الرغم
من هذا الفعل الذمسم فقد أذنا لجيوش حوتشوك بالدحول دون أن
تكلفه رهقا أو تسرا ، كأننا لم نلق أذى من الجيوش التي سبقه
في المجيء ، لكن رجاله لم يترددوا بدورهم في النهب ، ولم يكفوا عن
العنف ، ولم يتحرجوا عن اضرار النار ، بل انهم لم يتورعوا عن
سفك الدماء لأوهي الأسباب وأتفه العلل ، ومن ثم فقد أغضبوا الرب
منهم بسبب شناعة جرائمهم .

« ولما لم يعد في طوق صبرنا قدرة على تحمل ما أترلوه من
البلايا برعايانا ، فقد صح عزمنا على القيام ببعض ما فيه علاج
لهذه الظروف الخطرة ، فدلثنا تجاربنا الماضية على أن الحكمة
تقتضينا أن نوصد أبواب مملكتنا في وجه هذه الجماعات المؤلفة من
فجرة أوغاد ، حتى لا ننكب للمرة الثالثة على أيديهم ، فكانت

محاربينا اياهم كأعداء خيرا مما يرلونه بنا من اهانات ، ويلحقونه بنا من الخسائر العادحة .

« فليكن ادن فيما فصلت عذرا لنا عندك ، وآب الرجل القطر اللبيب ، فوالله لقد بنا الحق الصراح كما جرى » .

ولما فرغ الملك من قوله هذا أمر باستنصاف الرسل أحسن ضيافة ، وأن يعاملوا بوافر الاحترام حتى يستطيع - بعد مساورة رحاله - اعداد رسل الى انعاده [الصلبيين] يحملون اليهم الرد الملائم ، ثم يبع أحيرا الى الدوق والى القادة بعض أهل بيته صحبه السفراء ، وحملهم هذه الرسالة البالية .

« لقد سمعنا وحاءنا الأخبار الصادقة منذ آمد بعبد بأك بعد عن حى أمرا عظيما حاملا ، كبر القدر فى قومه ، كما أن العلاء - وان بعدوا عنك أرضا - لبنون على صدق ايمانكم ، وتباب حناكم نبانا سكرتون عليه ، وقد شدنا اليكم حسن الأحدوثة عنكم ، ويطوله أعمالكم فرأينا أن نحسك حتى فى غيبابك ، وأن نجبوك بعطف أكبر . ونحن نعقد أن الرجال النبلاء الذين أرسلهم ، والذين يمايلوكم أيضا فى حمسهم للعقيدة المسححة ، قد قاموا كذلك بعمل كله بقوى . ولما كنا عازفين كل العزوف عن أن يعنور القصور والمراخى ما بنتنا من ود بسبب عمل غير مرض ، فائنا على استعداد لأن نعمل كل ما يزيد هذه المودة نماء ، ونبذل العطف للجميع ، ونعاملهم معاملة تنطوى على الحب الأخوى » .

وها هى دى الفرصة قد وانتنا لندرجكم أن تتفضلوا بالحضور الى فلعتنا « سيبيرون » لنعقد واياكم مجلسا طال اشتاقنا له وتطلعنا اليه ، وحى نكون قادرين على الوصول الى سلام ينلهم مع رغباتكم » .

بعد اسماع الدوق الى رسل الملك ومشاورانه أصدقاءه ،
غرب يوما معينا مضى فيه الى المكان الذى قسم له ، مستصحبا معه
ثلاثمائة فارس من الصفوة المسفاة من رجاله ، فلما احسار الحسر
وحد الملك الذى اسقبله أزوع استقبال ، وخصه بأسمى آيات
الرحب . وأبدي كل منهما لصاحبه الصداقة الحميمة . ثم انعقا
فى النهاية على ببادل الرهائن الذين يخاروبهم من عليه القوم ،
كما انعقا على ألا سطوى صدور الحانين على كراهة بعضهم لبعض ،
وأن يعود السلام بن الفريقين ، فلما تم قبول هذه الشروط أذن
الملك للدوق وعسكره بدخول المملكة .

ورغبة من الملك فى أن يزداد قلبه طمأنينة ااد بسمح بدخول
مل هذا الجيس اللحب الذى قد يحدث - بطريق الصدفة المحضه -
أن سوسل نأى ذريعة لاحداث ما يكون فيه مضايقة للملك اعتمادا منه
على كثره عدده وشجاعه فقد سألهم أن يعطوه بلدين - أخا الدوق -
وروحه وأهل بسه رهائن عنده ، فوافق الدوق على ذلك . وأسلم
أخاه رهنة كما اتفق على ذلك من قبل ، ثم دخل المملكة راضى النفس
قرب العين بعسكره ، وحسذاك أصدر الملك - وفاء بوعد - فرارا
نقى بتقديم الطعام اللازم للحد فى كل ناحية يمرون بها من نواحى
البلد لقاء سعر معقول ، وألا يطفف عليهم فى الكيل ، وزيادة على
ذلك فقد أمر بأن يصحب الحشش سوق يناعون منها ما يريدون .

أما الدوق فقد أمر من حانبه أن يساى المنادون فى أرجاء
المعسكر ألا ينهب أحد شيئا ما أو يلجأ للعنف أو السده مع من
يأتون الى الحشش ، والا كان الموت حزاء ومصادره كل ما بيده ،
كما أمر أن تجرى معاملاب البع والشراء فى جو من السلام والمحبة
الأخوية .

وهكذا قدر لهم - بفضل من الله - أن يعبروا كل بلاد المجر
فى سلام لم يعكر صفوه أحد من الطرفين ، ثم مى الملك برهائه
الى يسار الجيش على رأس قوة كبيرة من حرسه الخاص ، وهو على
أم أسة لأن يخدم فى الحال أى سعب قد يحدث ، فلما وصلوا أحرا
الى « سملين » التى تكررت الإشارة إليها بوففوا على شاطئ بهر
الساف ، حتى تم اعداد ممر للعسكر [الصلى] ، ولما لم يحدوا
سوى بصع فوارب قليلة لا تكفى لىل قوم كبيرين كهؤلاء انقوم فقد
جهرب أرمان لهذا الغرض ، وأقاموا ألف فارس فى كامل سلاحهم
لحراسة الساطى الآخر ضد ما قد يكون هناك من كمين بصفه العدو
لهم حتى يسر للجيش - بعد عبوره النهر - أن يحد مكانا هادئا
بوفرت فيه أسباب الراحة .

وحسبك أخذ الحجاج يسفلون الى الحانب الآخر فى لهفه
وشوق .

ما كاد [الاناس] وبعض رعمائهم بحازون النهر حتى أسرع
الملك بالمقدم مسسجبا معه حرسا كبيرين ، وأسلم بلديون وزوجه
وبقة الرهائن الى الدوق وفق ما انفقوا عليه فى البدانة ، ثم وصل
الدوق ومن معه من العادة بالغالى الثمين من الهدايا الى وصلهم بها
الملك نكرما لهم واحلالا لعددهم ، ثم عاد الملك بعدئذ الى قصره .

حسبك بادر الدوق مع القادة الآخرين وبقة الناس الى السر
وراء الحند الذين كانوا قد عبروا النهر الى الساطى الآخر ، حتى
اذا وصلوا الى بلجراد - احدى مدن بلغاريا التى أشرت إليها من
قبل - نصب الدوق خيامه ، فلما فرغوا من ترتيب مناعهم ، وبها
الجند المرحيل ، شقوا طريقهم عبر غابات بلغاريا وأدغالها الساسعه
الكشفة ، فبلغوا أول ما بلغوا مدينة « ننس » ثم « سترالمكا » .

من اليسير على المرء أن يدرك ما عليه الاغريق من النعاسة وأن يعرف مدى الصعف الذى بلغتة الامبراطورية حين يساهد أوصاع الأماكن التى كانت فى السالف ولايات غنية ، حافلة بكل ما سسبه النفس من السلع والمنجر ، لكن حدث بعد انهاء حكم أمراء القسطنطينة اللابن أن وقع الامبراطورية سبب أخطائها ومساءها تحب ساطان المونان بزعامة نففور الأول ، فاعسمب شعوب المظفه اليمحنة فرصة ضعفها وبادرب فى الحال الى سن سلسلة من العاراب على الأراضى الخاضعة للامبراطورية ، وراحت تعامل السكان وفق هواها .

كان من بين هؤلاء الغزاه جماعه « البلغار المبربرين » ، الذين لم يأخذوا بحد من الحصاره ولكنهم أغاروا عليها من الشمال . وبسطوا ساطانهم على جمع الأقطار المصدة من الدانوب حتى مدنه القسطنطينة الامبراطورية ، وكذلك الى بحر الأدرياتك ، وجم عن ذلك أن اضطرب أسماء الولايات واختلطت الحدود بعضها ببعض . وأطلق اسم « بلغاريا » على كل الأصقاع التى طولها مسيرة شهر ، وعرضها عشرة أيام أو أكثر . ولم يدرك الاغريق الأشعفاء أن هذا الاسم بالذات كان دللا على اللعنة التى انصبت عليهم ، ذلك لأنه كان يقع فى القديم على بحر الأدرياتك ولايا « ابروس » وكانت عاصمة احدهما الكبرى هى « دورازو » التى كانت فى وقب من الأوقات فصبة برهوس « ملك الأسروت » وكان رجلا شجاعا وكان موضع الإعجاب من الناس .

كان الافليم الذى يوشك أن يحارزه الدوق [جودفروى] على رأس جسده نألف من ولايتى « داكيا » وأعنى بهما داكيا (ربنسس)

وهي التي تكون على يسارهم حين عبورهم الدانوب . وذاكما المجربة
التي مروا بها في طريقهم ، وفيها مديننا نيس وسيرالينكا
الرائعتان .

كذلك كانت توجد ولايات أخرى في نفس المنطقة هي اركاديا
وساليا ومقدونيا وأقاليم براقيا الثلاثة التي قدر لها أن تبقى نفس
الخط العابر [الذي قسمه الامبراطور به] لم تكن هذه الولايات كلها
هي وحدها الأملاك التي صاغت من يد الاعريق بسبب ضعفهم ،
ذلك أنه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يقسم في الأراضي الواقعة في
الولايات القاصية ، ولا يجوز له رراعها حتى بعد أن أخضع الامبراطور
« باريل » الاعريقي نفس السعب البلغاري . وكان واضحا على وجه
الخصوص في حالة الأراضي الماخمة لحدود الممالك الأحيية والتي
كانت تمتد الى بلادهم وأعنى بها ولايتي « دوكا » ، ولا يزال نفس
الوصف مطبقا حتى اليوم . ولما كانت الناحية بأجمعها مغطاة
بالغابات الكثيفة والنباتات المتناسكة فلم تكن ثم أحد يتفادى على
اختراقها حتى ولو رغب في ذلك ، وبرجع هذا الى أن اليونان وصعدوا
ثمنهم الكسرى في العواثق التي يعود الى صعوبة الطرق وكثرة أسجار
العوسج والسوك التي كانت تعسر وسائل دفاعة بفوق ما تستطيعه
قوات اليونان الدفاعة .

ونهج اليونان هذه السياسة دانيا فركوا « بروس بريموس »
أرضا عذراء خالية من السكان ، حتى ان الغابات المهجورة والأحراج
الموحشة أصبحت لا تنتج طعاما ، وصارت عقبة كاثاء في وجه من
يبغي دخولها ، وكان هذا الافليم الذي لابد من أن يحنازه بقية
القادة الآخرين يبدأ عند « دورا زو » ويمتد مسرة أربعة أيام في
الجمال المسماة بجمال السلطان .



سار الدوق يمس معه من العسكر عبر داكما البحريه المعروفه
أيضا باسم « موزيا » ، فلما احراز الأخراج المسماة عاده بمرر ساب
بازيل صادف ناحبه أكثر اساعا ورفاهية أمدته بكميات وفيرة من
المثونه حتى جاء الى مدنه « فيلسو بولس » الجمبابة ، الآهله
بالسكان . وهذا علم بما فعله الامبراطور من رح هيج الكبير - أحي
ملك فرسا - في السجن مع ثله من رفاة البلاء ، فأرسل على
جناح السرعة وفي لحظنه رحلا من قبله الى الامبراطور . ولاحه
بالرسل ملحا عليه أن يطلق سراح هؤلاء الرجال . ويلومه على
ما أنرله بهم - وهم الذين وهبوا أنفسهم لرحلة الحج نفسها - لكنه
سحنيم من غير حرم ارتكبه .

وكان هذا الرجل الوحه [هيج] أول القاده حمعا في الخروج
الى الحملة ، وفد احراز جبال الألب ودخل ايطاليا ، ثم عادرها الى
« أبوليا » حيث أبجر في حراسة قليلة ، ووقف في « دورارو »
في اسطار القادمين وراءه ، ولم يكن يخطر بباله أبدا وفوع أى خطر
عليه ولا على من معه ، وهم في مملكة الاغريق المنظور اليهم بأنهم
يعتقون المسححة ، عبر أن والى هذه الباحة ألقى القيص عليه وزح
به في السجن ، لسلمه الى الامبراطور كى يقضى فيه بما ساؤه
ارادته الملوكة ، فحسسه الامبراطور كما لو كان لصا أو سفاكا
للدماء ، وكان الامبراطور سطر وصول القادة الذين قالوا انهم في
الطريق . فاذا قدر لهم النجاح فى الحضور أطلق سراحه كند بمن
بها عليهم ، أما ان كان الأمر غير ذلك فاسوف يبقه أسرا طول
حياته .

كانت الامبراطورية اليونانية في هذه الآونة بحكم رجل
ماكر يدعى « ألكسيوس » وبلغ « نيكومسيوس » ، كان يعبس من
قبل في العصر الامبراطوري ، ويشغل وظيفة كبير الحجاب التي
سقط به واحبايا ، وهي وظيفة سميها نحن [اللانس] بحاحب
الحجاب ، أو مدبر شئون القصر ، ويجعله في مكانة بلي مباشرة مكانة
الامبراطور ، مما أسبغ عليه تقديرا كبيرا عند الامبراطور « نففور »
الملقب « نيوتانس » صاحب الصولطان في هذا الوقت ، لكن ذلك
الرجل [الكسيوس] خان ولي نعمه [نففور] وكان ذلك قبل
مجيء سيمنا بحمس سنوات أو ست فتخلع مولاه ونقلد الأمر بدلا
منه في الامبراطورية ، وأصبح مالكا لها الآن اعصابا .

وجاء رسل الدوق الى الامبراطور ، وراحوا ينعذون العلمات
الملقاة بهم ويسألونه في الحاف أن يطلق سراح هيج ورفاقه ، فلما
رأوا اصرار الامبراطور على رفض رحائهم عادوا الى الجسس الذي كان
اد داك قد حاور « أدرنه » وبرل للاستجمام في أحد السهول .

ولما علم الدوق والقادة الآخرون عن طريق معرنتهم أن
الامبراطور لم يمن بالحرية على هؤلاء الرجال [هيج ورفاقه] انفق
رأيهم جمعا على الاذن لعسكرهم بنهب الافلسم ، واد طالب اقامتهم
هنا ثمانية أيام سويا فقد دمروا الناحية دمارا شاملا ، لكن ما كاد
أنباء ما فعلوا تصل الى سمع الامبراطور حتى بعث رسلا من لده
الى الدوق يرحوه - عن طريقهم - أن يكف أيدي جنده عن أعمال
الحريب هذه ، ويؤكد له أنه مستنجب لرجائه ، ومطلق سراح
الأشراف الذين في حبسه ، فقبل الدوق هذا الاحراء بنفسه خذلى
وأمر جنده بالدوقف عن مناعة السلب والنهب ، ثم سار بعدئذ الى
مدينة القسطنطينة مستصحبا قواته في أحسن نظام ، فلما صار

أمامها أمر جسده ، القوى البأس ، الكثيف العدد ، بنصب خيامهم
هناك وإقامة معسكرهم .

أما السلاء الدس أسربا اليهم وهم : هبح الكبير و « دروحو
دى نيسل » - و « ولیم » النجار ، و « كلاريبولد دى فنديل » ،
ففد قدموا من المدينة لمقابلته ، ثم ذهبوا الى المعسكر شاكرين له بده
عليهم فى تحريرهم من أسرهم ، فاستقبلهم الدوق استقبالا نفص
بالود ، وحباهم بما هم أهل له من التعظيم ، واستبقاهم معه بعض
الوقت مسبغا عليهم عطفه ، ومواسمهم مواساة الأخ لآخوانه يساركيم
آلامهم الى حملوها ظلما .

- ٣٦ -

لم يكد هؤلاء يرفعون من عناق بعضهم البعض ومن يبادل
الأحاديث الرفقة فما بينهم ، حتى وصل رسل من جهة الامبراطور
[ألكسسوس كومبى] بحملون الأوامر بوجوب اسراع الدوق للمصول
بالقصر الامراطورى ولكن فى حرس قليل ، غير أن الدوق رأى - بعد
مساوره أصدقائه - أن يرجى ذهابه اليه ، مما أغضب ألكسسوس
غضباً حمله على رفض الاذن لهم بعقد سوق يبتاع منه العسكر الوافد
مع الدوق ويشترون ، بد أن ما صار فيه القوم جميعا من مسس
الحاجة الى المثوبة وقله ما لديهم منها ، حمل القادة مرة ثانية على
الانفاق على احناح تلك النواحي بجماعات مسلحة كبيرة . وعادوا
بسوفون أمامهم قطعان الماشية والأغنام التى غنموها ، ورجعوا الى
المعسكر وقد فاضب أيديهم بشتى أنواع الماكولات ، حتى ان الرعاع
منهم أصابوا منها وفرة ضخمة أصابتهم بالكظة .

★★★

ولما رأى الامبراطور أن المنظمة قد عرضت للحريق والنهب ،
خاف أن تتطور الأمور الى ما هو أفدح من هذا فأمر بعقد السوق ،
ولما كان يوم الأحزان لمولد سيدنا قد قرب موعدة ، وصار على
الأبواب فقله أصدر الزعماء - احتراماً للدين - قراراً ينهى الجند
عن النهب وارتكاب الموبقات خلال هذه الأيام الأربعة ، فانقضى العد
فى أتم هدوء وسلام .

ثم جاءت بعد ذلك رسالة من الامبراطور سسل كلماتها روه
وعذوبة ، وإن انطوت على الخديعة ، يسألهم فيها أن يخرج الجيش
عن طريق الجسر المجاور للقصر المسمى بعصر « بلاس-باى » وأن
يقيموا فى القصور المتعددة المنتشرة على شاطئ البسفور ، فأقبلوا
فى سر على تنفيذ هذا الأمر ، لأن طلائع النساء الذى كان على
الأبواب كانت تزعجهم أشد الازعاج ، كما ضربتهم العواصف الناحه
بشدة لم يسبق لها مثيل ، حتى أن الخمام لم تمنع المطر من التسرب
الهم ، فتولاهم الجزع من الخطر الذى يهدد الطعام وسائر معادياتهم
بالفساد والعفونة بسبب العرض الدائم للرطوبة ، ولم يكن هناك
من انسان ولا حيوان ولا ذى روح بقادر أن يحمل أكثر من هذا
البرد القاسى الذى كان يخرق كل شيء ، وعجزوا عن مجابهة البلوح
الكترة ، ناهيك بالبلل والمتاعب التى لحقت بهم وكان فوق طاقتهم .

وعلى الرغم مما كانت تحمله كلمات الامبراطور من العطف على
الحجاج ، الا أن هدفه الحقيقى كان يخلف عن ذلك تمام الاختلاف .
فقد كان السبب الجوهرى لهذا الانفصال هو أن يصحح العسكر أقل
حرية فى التحرك هنا وهناك ان هم صاروا فى بقعة محدودة ، كما
تزداد قدرة الامبراطور فى كبح حمايتهم والسطرة عليهم .

ولكى يكون هذا القول أكثر وضوحاً فلا بد من إبراز بعض
الحقائق عن موقع تلك المدينة المذكورة أعلاه .

ان بحر بطس [البحر الأسود] الذى يحذ اسمه من الافليم
المجاور له يقع على بعد ثلاثين ميلا من شمال القسطنطينية ، ويكون
جزء معين من هذا البحر على شكل نهر ينحدر جنوبا عبر مسالك
ضيقة . ثم يسقم مجراه لمسافة قدرها مائتان وثلاثون ميلا ،
يخترق فيها مدينى سيستون « وابيدوس » الموغلنن فى القدم
ونفع احدهما فى أوربا ، والأخرى فى آسيا ، ثم يصب فى البهانة
فى بحريا الأبيض المتوسط ، وعند خروج هذا الماء من البحر الأسود
ينتشر للاثين ميلا فى مجرى يمد من الممر الأول الذى دخله ويكون
فى الناحية الغربية خليجا يقرب طوله من حمسه أمال الى سة ،
وعرضه ميل واحد ، ويسمى هذا المجرى الضيق الذى يمد لاثين
وبلدين ميلا من البحر الأسود الى البحر الأبيض المتوسط بالسفور
أو « بروبوس » أو « هيليسبونت » ، ويشهد بذلك « سولوس »
فى الفصل السابع عشر من مذكراته حيث يقول « ان خليج أوربة
الرابع يبدأ عند الهيلسبونت وينتهى عند بحيرة « ماوتس » والعرض
الكلى لهذا المجرى المائى الذى يفصل أوربة عن آسيا يتحول الى
مضيق يتألف من سبعة روافد ، وهذا هو البسفور الذى عبره
احرسييس على حسر من العوارب أمر باقامه ، ويجرى الماء من هنا
على شكل قناة الى مدينة « بريانوس » الآسبوية الى اسولى عليها
الاسكندر الأكبر أثناء مروره بجوارها حين كان يتطلع لعزو العالم ،
ويسع هذا المجرى المائى مرة أخرى ويتحول الى سطح واسع جدا
من المياه فسمى بروبوننس [أى البسفور] - أما الآن فانه يضيق
الى مسافة عرضها خمسمائة خطوة ، ويصبح بسفور براقا الذى
نقل « دارا » حنذه عبره .

وببدو أن هذه الأسماء ترجع فى أصولها الى الشعراء القدامى

فسمى البسفور بهذا الاسم لما يقال من أن جوبير سكر في شكل
ثور حاملا عبر مياهه « أوربه » اسم أجبور .

وجاء اسم هيللسبوننت من « هله » أخب « فركسيس » الذى
تزعم الأسطورة أنه عبر هو الآخر البحر بأخيها على ظهر كس ،
وهو يعبر الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا ، ويعرف عادة باسم ذراع
سنت جورج وقد ذكرنا طوله ، أما عرضه فليس منساويا في كل
الأماكن ، ونظرا لموقع الأراضى المحاورة له وطسعة نكويها فان عرضه
الآن يصل الى ميل ، ثم تنسع حتى يبلغ ثلاثين ميلا أو أكثر .

وأما الخليج الذى يمد الى الغرب فنكون - كما ذكرنا - واحدا
من أشهر مواسى الدبا وله مرفأ رجب ، وأما المدينة التى نكلم عنها
فقع فى راية بين هذا الخليج وبين البسفور ، وكانت تسمى فى
العديم بربطة التى كانت موضعا لا يعتد به ، والأغلب أنها كانت
آخر المدن فى براصا ، أما الآن فهى أسعد المدن حظا اذ تحمل اسم
الامراطور الذى راد فيها حتى أصبحت قصبة الولايات كلها كما
صار مقر الامبراطور ، وأصبح اسمها بفضل مكانها المسارة
مافسا لاسم سديتها رومة .

وتذهب الرواية الواردة فى الكتاب السالب « لول أورسماس »
الى أن تأسس هذه المدينة كان على يد « ناوساوسوس » ملك
الاسيرطس ، وهى على شكل ميلب عبر مساوى الأضلاع التى يمد
أولها من تلك الزاوية الواقعة بين البحر وبين هيللسبوننت حسب
نوح كيسة سنت جورج المعروفة باسم « مانحانا » ، ويمد هذا
الضلع بامتداد المناء الى القصر الحديد المسمى بقصر بلاشرباي .

أما الضلع الثانى فيمد على طول البسفور من عند دير سنت
جورج الى البوابة الذهبية .

وأما القسم الثالث فيمد بطول الافليم من نفس البوابة الى
عصر بلاشيرناى المذكور حالا ، وهو محصن بالأسوار والأبراج
ووسائل الدفاع الخارجية ، ويوجد عنده نهر يصب فى المبناء وهو
صحل جدا فى الصنف ، أما فى الشتاء فنغزر مياهه بسبب فئصال
مياه الأمطار مما يصح الحسر معه ضرورة لابد منها .

★★★

ولما احار جيسا هذا الجسر مضى الى السواحى التى حصنت
له فى بعض المائى الكثيره القائمه على امداد ساطيء البسفور .
وهى الدور الواقعه بين مياه البحر الأسود ، وحدث فى أساء
انتظارهم فدموم القادة الآخرين أن نسلم الدوق عدة رسائل من
الامبراطور . برجوه فهنا السخوص اليه ، غير أن عدم اطمئنان
« حودفروى » الى صدق الملك وتخوفه من الاجتماع به حملاه على
الاحكام عن اسجاجة دعواته ، وان شعر أن من سوء الأدب ومحالفه
نوامس السرف ألا يبعث على الأقل أشخاصا ملائمين لمسله عنده ،
طالما هو عازف عن الذهاب بنفسه ، ومن ثم فقد أرسل البيل
كونون دى مونساج وبلدون دى بورج وهى ديس يعبدرون
للإمبراطور عن عدم فدموم حودفروى . فلما أدرك ألكسسوس أن
لا رجعة للدوق فما فرره وأنه لا سبيل أبدا لارغامه على الحضور
الى مجلسه عاد فأمر بعض السوى ونقضه ، ولكن هذا الاجراء لم
يسجح فى ثنى هذا الرجل [حودفروى] عن عزمه ، واد ذاك اتخذ
ألكسسوس اجراءات أشد صرامة ، فأرسل فى السر جماعة من رماه
الأقواس عبر النهر ، فى قوارب الى المكان الذى كانت تعسكر فيه
قوات الدوق ، فلما أهلت أولى تباشير الصباح قتل هؤلاء الرجال
بسهامهم طائفة كبره من رجالنا لم نكونوا فحسب من بين الذين
ذهبوا الى الساطيء ، بل وأبضا ممن كانوا بطلون من النوافذ .

حين جاء نبأ ما جرى الى الدوق اسدعى في الحال رعاء
الناس لمساورتهم ، ونزل على ما أجمعوا كلهم عليه ، فوجه أحاه
[بلدوين] على رأس كسبه من العسكر للاستيلاء على وجه السرعة
على الجسر الذي عبره الجسس ، حتى لا يفقد الكبرن من رجاله ، فخرج بلدوين
المنحاج على رأس خمسمائة فارس وأسرع بهم الى الجسر واسمولى
عليه عنوة ، ولم يعد الخطر فاصرا على من جاءوا بالهوارب بل ان
المدسة بأجمعها أيضا حملت السلاح بربد الفك برحالنا .

رأى الصليبيون ان استداعهم الاغريق سطوى في اقامة
الاستعدادات ضدهم ، كما حمل الأهالي السلاح للقضاء عليهم ، لذلك
أضرموا النار في جميع القصور التي كانوا يزلونها ، والتي بعد
مسافة ستة أميال أو سبعة على طول البسفور ، فسب الحرب في
جميعها ، سواء ما كان منها ملكا للأهالي ، أو كان للامبراطور ،
والهمنها الميران حتى بهاب الى الأرض ، وسمع رجالنا دوى الطبول
ونفر الأبواب بردد مدويا في الأحياء المحفلة الى كانوا قد
انكفؤوا اليها التماسا للراحة ، فأسرعوا لحمل سلاحهم ، وسمروا
الدوق الذي أسرع الى الحسر بهود عسكره وقد صفهم للقتال ، عر
أن أصحاب الخبرة الحربة الكبيرة خافوا أن يضيق العدو الحياق
على الجسس وهو في مواضعه الصيقة هذه ، فهلكون ان اسمولى
الخصم على الجسر ، ومن ثم لم يريثوا في انتظار فرق المشاة ، بل
بادروا الى جمع كل الخبالة في تلك الناحية ، الا أن بلدوين - أخوا
الدوق - كان كما قلنا - قد أسرع الى الأمام واحتل الحسر رغم
محاولات الأعداء فأرغمهم أن يولوا الأذنان هاربين ، فسيطر بذلك
على الشاطئ الآخر للنهر ، واستخلصه لجيشنا .

ومن ثم فقد تمكن الدوق وجميع رجاله من العبور بكل ما معهم
من المنايع والنجهرات ، وأقاموا مره أخرى فى موضع بالعراء ، واحه
المدينة ، ويمند فى كل اتجاه دون أى عائق .

ولما افترب المساء من الدخول سببت معركة فى البعثة الواقعة
عندما يعرف الآن باسم قلعه بوهيموند الموجودة بين كنيسة السيدس
الطاهرين كوزمو ودامين وبين قصر بلاشرباي الجديد ، القائم فى
راوية من المدينة قرب الميناء ، وهلك فى هذه الموقعة أعداد كبره
من الساس ، وعجز الاغريق عن حمل ضراوة القنال فكفروا عنه
وارتدوا الى المدينة .

حينذاك نزل عسكرنا المنصور فى أروع بقعه من الساحه الى
اسولوا عليها بسجاعتهم ، ولولا سرعة دخول الليل ووضعه ديانة
للقنال الدائر بين الجبشين لتمكن الأهالى من معاودة الحرب بسبب
ما صمرونه من الكراهية السوداء المني كانت تعسفى فى صدورهم
بحونا ، وزادها حدة غضبهم علينا ، وكان من الممكن حينذاك أن
يحرى معركة ثانية أسد وحسة من سابقنها فتمخض عينا خساره
فى الأرواح أكبر من الخسارة السالفة .

ها - ولأول مره - تحلى بوضوح للعنان مدى الشر الذى انطوب
عليه خطة الامراطور فى اصدار الأمر بنقل المعسكر ، اذ كان ذلك
نابعاً من رغبة منه فى أن يضع هذا السعب الصليبى الذى تساوره
الشكوك فيه فى منطقة ضيقة محدودة ، فصبح بن المطرقة
والسندان .

ما كاد النهار يطلع على الكون حتى نودى علامة بين الناس بحمل السلاح ، وخرجت طائفه بقيادة رهط من الزعماء ليمسس المنطقة التى حولهم ، والعودة بالأطعمة التى منع الامبراطور سعيها .
وصدرت الأوامر لهذه الطائفة بالحصول على ما خرجوا من أحله ان عسبا أو بالسرا ، وألا يحلفوا وراءهم ماسية ولا عسا ولا عله ، ولا أى نوع من المثونة .

كما صدرت الأوامر لغرهم ولطائفه من العاده بالبقاء مع الدوى فى المعسكر لحراسته ، ذلك أنهم حين اكسفوا غدر الامبراطور وخيانة شعبه ، لم يدحروا وسعا فى الاسعانه بكل الوسائل الممكنة لحمايه أنفسهم من هذه المكائد الوضيعة ، فنهض اد داك كسه كبرة من العرسان والمنشاة ، وخرجت فى حملة لجلب التمام وطالت غيبتهم سه أيام بلالها ، راحوا خلالها يهبون الجفول فى دائرة محيطها سنون ميلا ، فلما كان اليوم الثامن عادوا الى المعسكر بكمات وفرة من المواد الغذائية لا بنصورها العقل ، والحق أن قطعان الماشية والأغنام ودواب الحمل - بله العربات - كانت كبرة جدا ، حتى لقد صادفوا صعوبة بالغة فى احضار كل ما نهموه .

سما كانت هذه الأمور تحرى فى المعسكر وصل الى [حودفروى] رسول من الأمر بوهوموند بحمل اله خطابا بقول فمه :

« اعرف يا أعظم الرجال انك تتعامل مع أحقر الحيوانات ،
 ومع رجل خسيس كل الخسة ، لمس له من عرض أبدا الا الحديعة ،
 ولا ينور عن اصطناع أى وسيلة أو سلوك أى سبيل يكون فيه
 هناك كل من هو من أمه اللابس ، وسببرهن لك نفديرك الذاتى - أن
 آحلا أو عاجلا - على صدق احساسى نحو هذا الرجل ، وذلك
 لأسى أعرف أن اليونان بضمرون السر والصعينة لكل من هو لاتينى ،
 وتلك طبعة متأصلة فيهم ما لهم منها من فكاك ولا يسقطعون عنها
 حولا ، ومن ثم فعلتك أن نغادر المدسة - اذ سئنت - وبرحل الى
 الواحى المحيطه بأدرية و « فلسوبولس » ودع هسار الجنس
 الدين عهد بهم الرب المك ليسجمعوا وينصموا بلذبذ الطام فى
 مطقة أخرى خصه ، واننى لقادم المك - ان بأذن الرب - فى مطلع
 الرمع بأقدم المك - بأغنارك مولاي - خدماى الأخوبة المطونة على
 الحب والنصحة صد أمر الاغريق اللثم » .



قرأ الدوى الرسالة ، وبعد أن تنصر ملها فى فحواها عقد
 مجلسا مع الصادق ، ثم أرسل الرد كناية وشفاها بهذه الصورة
 الحكمة .

« اننى أعرف يا سفيق الحسب - كما حاءنى الأخيار منذ
 وقت طويل مؤكده صدق ما أحس - أن الجنس اليونانى المحتال
 بطوى قلبه على الكراهية العميقة لنا ، ويلتفه للاضرار بشعنا ،
 واذا كنت فى حاجة الى شئ من هذه المعرفة من قبل فقد أكدنها
 التجربة يوما بعد يوم ، وليس أسك فى أن ما انطبعت عليه أنت
 من صادق القوى بحركك ضدهم ، كما لا أسك فى صحة احساسك
 الغربى بخسهم ، ولكننى اذ أضغ خوفى من الله أمام عنى .

ولا أغمصها عن هدف حملى ، فان بدنى يقسم من أن أوجه صد
أى شعب مسجى سفى الذى تطعب العهد على أن أنابل به الكمار ،
ومهما يكن الأمر فان الجنس الذى معا - أيها المحب لارب -
سؤفا الى قدومك وقدوم الأمراء الآخرين المخاصين للسند » .

- ١١ -

استبد بالامبراطور وبجميع من حوله الفزع الكبير حين رأوا
البلد بأكمله عرضة للنهب ، كما أنه لم يعد فى قدره الامبراطور
احمال أنين سعبه وبكائه ، وزاد الطين بلة ما عرفه من حبر مجىء
رسل الأمير بوهيموند وقدومه حالا فى أنهرهم ، كما أنه خاف ان
يتحد الأمراء الذين على وشك الوصول ويصبحوا يدا واحدة يعمل
لدماره قبل أن ينجح هو فى استرضاء الدوق ونهضة بائرته ،
ومن ثم فقد عاود مرة ثانية ارسال مبعوبه اليه ، مانمسا منه زبانه
وكان هذا هو السبب الذى حملة على أن يجهد نفسه كل الاجتهاد فى
أن يتم الوفاق بينه وبين الدوق قبل وصول هؤلاء الأمراء ، ودن ثم
أرسل وفادة ثانية الى الدوق ياج عليه أن يبادر بالحضور الى النصر
دون أى ابطاء أو تمهل حالمًا بصله ابنه « حنا برفرحمتس » الذى
أرسله اليه ليكون رهينة عنده .

ولقد أبلج هذا الاتصال قلوب العادة [اللاتين] فأوفدوا
اثنين من ذوى المكانة الرفيعة هما « كونون دى مونناج » و « بلدوين
ذى بوج » لبيكونا فى استقبال ابن الامبراطور الذى عهدوا به الى
الرعاية الكريمة من بلدوين أخى الدوق ، وما كاد ذلك الأمر يتم
خلف الدوق أخاه فى فسادة الجنس وشخص هو الى المدينة ، يصحبه

العاده الآخرون ، ودخل على الامبراطور الذى كان يلهف أسد اللبفه على فدومه فاستقبله الامبراطور استقبالا كريما وكان محاطا برحاله المارين وكلهم يوافون لرؤبة الرجل الذى طالما سمعوا به وعرفوا الكدر عنه من قبل .

وأكرم الامبراطور أيضا وفاده من كانوا فى شرف صحة الدوى ، واحتمى بكل منهم الاحفاء اللائق بقدره ومكانته ، ثم قبلهم حمضا فملة السلام ، وأكثر من السؤال عن صحتهم ، مخاطبا كل واحد باسمه ، ورفق لهم ، وأبدى لهم العطف عساه يكسب ودهم. ثم انعم الى الدوق قائلا له .

« أيتها الدوى المحبوب لقد سمعنا أنك أعظم من معك من الإهراء ساءا وقرة ، وما كما حاملين حماسك الكريمة فما عاهدت به نفسك المصام به من مسروع حاطتك التقوى الكريمة فه برعايتها. أصف ال ذلك أن الأخبار الى ذاعت عنك شرفا وغربا فد أكذب لما أنك رجل قوى الروح ، صادق الايمان ، ولهذا فقد اكسبت عن حق حب الكبرن حتى من لم نتج لهم الفرصة لكفائك .

« ولما كانت رغبتنا أن نحوطك بكل آبات الحب ، وأن نخصك بالرد الصادق ، فقد صممنا أن نثنيك اليوم ابا لنا فى حضره كبار رجل فصرنا المقدس ، ونعهد اليك بامبراطورينا ، عسى أن يظل تماسكيا عن طرفك صححا غير منلوم فى نظر الجموع التى احسبها هيا ، وكذلك فى عمون أناء العصور القادمة » .

بهذه الكلمات التى صاحبها احتفال ملكى جرت العادة باتخاذها كلما كان هناك نين من هذا النوع ، أمر الامبراطور أن يلبسوا الدوق الثياب الامبراطورية ، وتبناه حريا على عادة المملكة .

وبهذا عاد السلام وحسن النية بين الاثنين من جديد .

حي فرع الامبراطور من هذا الحفل فتح خرائنه للدوق ورفاهه ،
ووصلهم بالهدايا الذهبية الرائعة ، وأغدق عليهم الحواهر والساب
الحريرية . والمرهريات الغالية بنفسه التي يعجز الحال عن
تصويرها . صنعها وصفا ، وذلك لأن الامبراطور أراد - من وراء
انحافهم بالهدايا التي أكرمهم بها - أن سر دهولهم واعجابهم بما هو
عليه من ثراء ليس له مثل ، كما هدف أن يحلب ألبانهم بعظمته
المؤثرة . ولذلك لم يقصر كرمه الذي حص به الدوق على أن يكون
مره واحدة . فحسب . بل أحد مند يوم العطاس حتى عمد الصعود
برسول اليه أسبوعيا من القصر الامبراطوري من القعود الذهنية
ما بكل أكاف اربعة رجال أسداء عن حملة . هذا الى جانب عسره
أنقال من الدراهم الحاسبة ، عبر ان الدوق لم ييسق من كل ذلك
شيئا لنفسه ، بل حاد بما جاءه على البلاء والجيش ، حسما يستلزم
حاجة كل فرد .

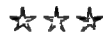
★★★

استأذن الدوق ومن معه ، بعدئذ الامبراطور في الرحيل .
ورجعوا الى المعسكر ، ثم ردوا اليه ولده يوحنا الذي كانوا قد
استبقوه في المعسكر رهينة الى حين أوبة الدوق ، وقد صحبه في
رجوعه كوكبة من حرس الشرف .

حينذاك أصدر الامبراطور بسانا عاما بقضى بتجهيز كل
ما يحتاجه حش الدوق بمن معقول ، وكل لا جور فيه ولا ظلم ،
وبودي بقل كل مخالف لهذا القرار ، كما أعلن الدوق من ناحيته
على لسان مناديه باعدام كل من يرتكب في معسكره عملا من أعمال
العنف ، أو يخطيء في حق رجال الامبراطور ، وبهذا استمر الحانبا

في تعاون مبادل بينهما في أمور البيع والسراء وسادهما حو من
اتفاق العام .

ولما آذن شهر مارس بالانصراف عام الدوق بوصول الفاده
الآخرين ونزولهم بجيوشهم في تلك الناحية ، فأمر الامبراطور
بهيئته السفن وعبرهم البسفور ، بعد أن وافقه على هذا الأمر كبار
رجالاه آسيا ، واذا ذلك حرب [-ردفروي] معسكره في خلدونية
في بيسا التي كانت أول ولاية في آسيا بصل إليها .



وكان قد انعقد [في سنة ٤٥١] في خلدونية لدى هي من
أعمال بيسينا ، وفي زمن كل من البابا لبو الكبير والامبراطور
ماريان المجمع الديسي الرابع العام ، وحضره ستمائة وسنة وثلاثون
من آباء الكنيسة ، فسحب المجمع هرطقات كل من الراهب
« اوسيبوس » راهب اسكندرية و « ديسكورس » بطريركها .

كان هذا المكان [وأعني به خلدونية] أقرب ما يكون الى
القسطنطينية ، ولا يفصله عنها سوى البسفور ، ويستطيع الناظر من
هنا أن يطالع المدينة « الملوكية » ، حتى وكأنها الى حوار .

يضاف الى ذلك أنه كان في استطاعة من حجم عليهم أعمالهم
الذهاب إليها من المعسكر القمام بهذه الرحلة ذهابا وايابا ثلاث أو
أربع مرات يوميا .

عبر أن كلمات الامبراطور المعسولة - في الاحاح على الدوق بأن
يعبر هو وجسسه البحر قبل الوقت الذي كان محمدا لذلك - لم تكن
صادره عن اخلاص وصدق طوية ، بل كانت على العكس من ذلك نابعة

• يا دليج عليه من الحل والرعبة في خداع الدوق حتى لا نصمم
 • رايه الى قواب اللابن الآخرين عند وصولها ، كما أنه سناك ستمل
 الخب دانه حين احنال فأرغم الآخرين الذين حاءوا بعدئذ على ركوب
 البحر . زاحدا بئذ الآخر ، حتى لا نسيى مطلقا وجود جسمين مما
 في وقت واحد أمام المدسه •

- ١٣ -

هكذا كان الموقف بين الامراطور والدوق في القسطنطينية ،
 رحدث في هذه الأساء - وقبل دخول فصل السناء الفارس الرد -
 أن قام لورد بوهموند بن روبرت حسكراد أمير ناراسو بصور بحر
 الأدرادك ، ووصل الى دورازو على رأس جمبع عسكره ، رباع
 من هناك - هو من معه - الرحف في بقاء عمر عادات بلغاريا وكان
 قد انضم الى حنسه كبر من أصحاب المكانة السناءة وأهل الدره من
 ابطالها وغيرها من البلاد ، وقد أوردنا أسماء هؤلاء وعددهم لئلا
 ذكرهم خالدة أبدا ، منهم تانكريد بن ولسم مارشيسوس ، وريسارد
 اليرسماني بن ولسم دى الذراع الحدنبة أخو روبرت حسكراد ،
 رآخوه ريسولف ، وروبرت انزى ، وهيرمان دى كاني ، وروبرت
 دى سورديفال ، وروبرت بن تستان ، وهمفرى ابن رالف ، وربنشادر
 ابن كونب ريسولف ، وكونب ريرونولو مع اخوته ، وكذلك
 بويللودى شارترز ، والبيريد دى كانسانو ، وهمفرى من هرب
 سكالوزو •

انخرط هؤلاء جميعا بحب راية بوهموند ، حتى اذا ناخرنا
 " كاسوربا " احمقوا بعد ميلاد المسيح •

لم يكن المدينة يعقد في هذا المكان أسواقا لمن يسر بالناحية من الناس ، ومن ثم اضطر [اللاتين] للاستسلام فسرا على قطعان المسه والدواب ، ويهب كل ما يحاحونه للعسس مما أدى الى حصاره الأهالي الذين بطروا اليهم بطريقتهم للأعداء .

ثم أخذ [اللاتين] بعد ذلك في مباحه رحفهم من عدد الناحية حتى بلغوا منطقه سديده الحصب والماء ، ويعرف باسم « بلا حرسا » فضرروا معسكرهم بها ، وهنا وافهم الأخبار أنه يوجد على مقربه منهم مدينه حصنة يسكنها الهراطة . فأوسعوا خطاهم نحوها ما وسعتهم السرعة واستولوا عليها بالسلاح . وأصرموا النار في مباحه ، وراح ما بها من من هالك بالسيف أو صريع اليديه النار ، ثم عادوا منها محملين بالغنائم الصحمه والأسلاب الوفيره .

ولما سمع الامبراطور أن كنائب بوهيموند سابع رحفها ، أوعر سرا الى مقدمي حموسه الذين كان قد أرسلهم في مساهي ذلك المكان أن يطاوا سائرين مع جميع قواب تلك الناحية الى حاسب القواب المسححة حتى يصلوا الى نهر الورداد ، على أن يغصموا الفرصه ان لاحت لهم لئلا أو نهارا للاغارة على طلعة الجسس ، سرا أو جهرا ، وذلك لما نعى الى علمه من أعمال القتل النى جرب عند مجيء الفائد بوهيموند ، وكان الامبراطور قد داى منه ومن أبيه روبرت حسيكارد الأحوال الحمة فى سالف الأيام ، لكنه استطاع بفضل ما طبع عليه من الدهاء والمكر - أن يوفق غاية النفوس فى سنر أغراضه واخفاء أهدافه . بارساله طائفة من كبار من حوله الى هذا الرجل العظيم [بوهيموند] ألقى اليهم أن تكلموه بلين الكلام وأرقه ، وأن بصطنعوا معه من الأسلوب المطمئن ما يخفى غرضه ، وأن يستعملوا كلمات تبث فى نفسه الطمأنينة ، لكنها نخفى وراءها الغدر الذى لا مناص

منه ، كما أمرهم أن يبدلوا قصارى حيدهم لخديعه . وكأب لهجه
الرسالة المكتوبة اليه وكذلك الكلمات التي فاه بها الرسل كالآتي

- ١٤ -

« قد علم جلالنا - رعانا الله - بما لا يدع مجالا للسك أنك
أمير جليل القدر ، قوى السكينة ، رفيح المكاة ، كما أنه يعلم أنك
ابن أمير مبجل نوى لم يصرف الكلل اليه سبيلا ، وقد أنزلناك ما
مرك الحب ، وحبوناك من اقبالنا ما أنب أهل له . وان كما لم
نرك وجهها لوجه حتى الآن . »

☆☆☆

« وقد علمنا أن طاعك للرب حملك على أن نهب نفسك
لخدمته ، وأن تسارك بقية الأمراء المخلصين في الصيام برحلة الحج .
وان هدفنا هو أن نزيدك منا حبا ، ونزلك منزلة الود من نفسنا
لذا (فانا نلتمس منك) أيها الصديق الحبيب أن نوعز الى أساعك
بكف أيديهم ومنع أذاهم عن رعايانا ، وألا يرنكبوا عملا من أعمال
العنف أو النهب أو اضرار الحرائق ، ونسألك أن تبادر ما وسعك
البدار للمجيء الى حضرتنا لا تخاف شيئا ما ، عساك أن نعم
بآلاف السرف ، وتحظى بالنعم التي نعزم اغداقها عليك ، ولقد
أصدرنا أمرا الى حامل هذه الهدايا على تهئية كل ما هو لازم لجيشك،
بمن لا فصا فيهِ ، حتى تظل امداداتكم بأسباب العيش موصولة على
الدوام » .

وعلى الرغم مما يوحى به طاهر كلمات الامبراطور هذه من الود الكبير ، الا أنها كانت تخفي وراءها السم ، غير أن بوهميوند - وزير الرجل العطن اللماح ، المدرك تمام الادراك ما سطوى عليه نفس الامبراطور من الشر - كم مساعدته ، وأخذ حذره الشديد ، وأرجى الى الملك آيات الشكر على ما أبداه من العطف والاهتمام بسلامته ، وبيع الدوى هؤلاء المرشدين ، حتى اذا بلغوا نهر الورداد وجدوا قسما من عسكرنا قد عبروا النهر حالا ووقفوا على ساطئه الآخر ، بينما كان هناك غيرهم يأهبون لعبوره ، فظن أتباع الامبراطور الذين كانوا يقتفون أثر معظم جيشنا ان فد لاحب الفرصة لهم ، فكروا فى وحشية ضارية ، وروح عدوانية كريهة ، على هذا الرهط من الناس الذين كانوا على وشك العبور .

فلما اضحج المكر السيء لسانكريد - وكان مسعدا للدوام للعمل - هب كآته البرق الخاطف الى تلك الناحية ، مسسحبا معه ما بقرب من ألفى فارس وعبروا النهر المزد سباحة الى ساطئه الآخر الذى لم يكادوا يصلونه حتى وثبوا على العدو بسوفهم ، فدمرهم صفوفه وأرغموه على الفرار ، ثم مضوا يعقبونه بعض الوف وفكروا بالكسرين من رحاله ، كما أسروا البعض منهم وجاءوا بهم الى بوهيموند الذى أمطرهم بأسئلته ، مستفسرا منهم عما وراء مطاردتهم حبشا مسحيا مثلهم واقتفاء أثره ، فقالوا له انهم رجال الامبراطور ومرتزقنه ، وأنه لابد لهم من الانصاع لأمره ، وتعال من أوصاهم بقتالهم .

وحينذاك اضحج للجميع بما لا يدع مجالا للشك والريبة زيف كل ما قاله الامبراطور لهم وأنه قول لحمته الخديعة ، وسداه الرءاء .

غير أن بوهميوند لما كان يعلم أنه موشك على الرحيل ، وأنه فى حاجة لاستعمال كل ما يقدمه له الامبراطور من وسائل السفر ،

فقد تصدى للوئوف في وجه ارادة بقية رجاله ، ورأى أن يكس
أحاسيسه ، حتى لا يبر حنى ألكسيوس من غير فائدة بجنها .

- ١٥ -

بعد أن احتاز الحسن مقدونيا وولاية الليريا كلها ، راح يبحث
الخطي وهو بحث قتاده حودفروى الحكمة حتى دنى من المدينة ،
فوقف قربها ، وكان ذلك قبل عند الميلاد بخمسة أيام ، وهما جاء
سفاره ثانه من الامبراطور الذى أرسل برحو من بوهمود في
الفتح أن يحلف وراءه قوائه ، وبضى لزيارته في حرس ليل ،
فنرد بوهمود فترة فصرة وأجل سقذ هذه الأوامر بعض الوقت ،
لانه كان بسك في نوابا الامبراطور ويدرك ما بضمه من السر ،
وبما كان يبحث فيما ينبغي عليه اخذاه ، اذا باندوق المظم
جودفروى يعبل في أبهة عظيمة ، يحوطه كوكبه سرف من النبلاء ،
وقد وفد على بوهمود - استجابة لوسلات الإمبراطور الماجة عليه -
في محاولة منه لحمله على زبارة حالته الامبراطورية دون خوف أو
وجل ، فعانق كل منهما الآخر ، وتبادلا قبلا الحب ، ودارت
بهما الأحاديث اللطيفة وراح كل منهما يسأل الآخر عن أحواله ،
فلما فرغا من ذلك أشار الدوق حودفروى - بناء على ما لديه من
العلماب - على بوهمود - بزيارة الامبراطور ، ولكن الآخر أظهر
في بداية الأمر اصراره الشديد على رفض هذا العرض ، غير عابئ
بنصحة الدق ، لعدم ايمانه بصدق ما يقوله الامبراطور كما
ذكرنا ، بد أنه رضخ في النهاية لرجاء حودفروى ، ومضى مطمئنا
في حراسه التوف الى القصر ، فلما بلغه تلقاه الامبراطور بقبلة

السلام ، وآحاطه بكل ضروب العطف ، وبعد حوار أخوى طويل أصبح يوهيموند « رجل الامبراطور » كما يقول المل وأعلن بعبسه له ، وأقسم يمين الولاء له حريا على عادة الافصال لساداتهم اللوردات الاقطاعيين .

فلما فرغ من فسمه انبالت عليه الهدايا الغالبة السى لا بعدد يمين ، والسى حىء له نيا من الحزاة الملوكية ، حب فدمرا اله الذهب والساب والمرهبات والاحجار الكرمة . وبذلك انعقد السلام بين الاثنين .



أما نانكريد - ابن آحب يوهيموند - وكان رجلا يسبر كل ما فيه الى عظمته - فقد كان حريصا كل الحرص على ألا يذعب الى الامبراطور حتى لا يتحدث اليه ، وبينما كان خاله [يوهيموند] لا يزال فى البلاط الامبراطورى انتقل هو بكل عسكره الى بنينيا فى اقليم خلفدونية الواقعة على لجانب الآخر من السفور ، وضرب خايمة قرب جيش الدوق [جودفروى] الذى كان قد عبر البحر منذ قليل وأصبح الآن فى انتظار الجيوش الأخرى .

ولما علم الامبراطور [ألكسيوس] بتجنب نانكريد المجرى الى حضرته اشند غضبه منه ، الا أنه نمسك بالعقل وكظم غيظه ، وراح يفتق - بين آونة وأخرى - الهدايا على الأمراء الذين يزورونه ، فاذا ما صدروا عنه الى معسكراتهم فيما وراء السفور - وصلهم بآيات التسريف .

وأقام الجبسان هما فى وئام واسنقرا فى انسجام على مقربة

من المدينه فى اسطار وصول الجيوش الأخرى ، ثم انصم الجمع
بعضهم الى بعض فى جيش واحد فى السير الى الحج الذى اعزموه .

ولقد أمدت المدينه الملوكية والمنطقة التى حولها أهل المعسكر
بكميات كبيرة من الطعام ، حتى أصبح الجميع قادرين على التمتع
بالوفرة منه حسبما يساءون .

- ١٦ -

فى هذه الأثناء ، وعند اقتراب دخول فصل الشتاء ، سرع
روبرت كونت فلاندرز العظم فى الأبحار من « نارى » إحدى مدن
أولمبا الساحله ، وأرسل بعد ابجاره بجميع حسبه فى « دورارو »
ونحاسى زدهيرير الشتاء بنزوله وسط الثباب والمراعى وفي منطقة
خصبه تزخر بشئى متطلبات الحياة ، فأقام بها ، حتى اذا دنى
فصل الربيع تابع رحلته وهو أنسط ما يكون لتنضم الى الفاده
الآخرين الذين سبقوه فعبروا البحر .

وأنفذ الامراطور - كما فعل مع القاده الآخرين - رسلا من
جهه الى كونت فلاندرز قبل وصوله القسطنطينية ، يسرون عليه
بنرك قوائه خلفه ، ومنابعة رحلته مع ثلة من رفاقه ، للمول بالحضرة
الامراطورية ، وأوقفه هؤلاء الرسل على كل صغيرة وكبيرة مما فعل
سابقوه فى هذا الموضوع مع الامراطور ، فلما بلغ الكونت
القسطنطينية مضى الى القصر فى شزيمة ضئيلة من حاشيته ، فلقاه
الامراطور بكل مظاهر الاحلال ، وعامله أظب معاملة ، فلم يكن من
[الكونت] الا أن نهج نهج الآخرين فقطع على نفسه يمين الولاء الذى

طلبه منه الامبراطور ، واذا ذاك انهال عليه من مظاهر الكرم والهدايا أكثر مما انهال على السابقين ، وكان حظ رفاته مثل حذا الحظ من الكرم ، وان نال كل منه حسب مرتبه .

وصلدرد الادن لجيس كوت فلابدر بالبفاء عده أبام حرب المدينة منعماً بأطبب الطعام ومسحماً ، وقد أكبر الكوت في حذه الأبام من احتماعه مع الامبراطور لبحب المواضع الى ديب ضرورية ، فلما فرغ منها اسأذنه في الرحل بعسكره فأذن له ، فأبحر للانضمام الى اخوانه الحجاج الذين استقبلوه بالحب العظيم . وانضم الحسان بعصهما الى بعض .

أقام العاده بضعة أيام يفص الواحد منهم على الآخر الاحداث المخلفة التي جرب له في رحلته ، وقد سادهم روح البهجة . حتى اذا فرغوا من استعراضهم للصعوبات التي مرب بهم اسهوا آخرا الى منافسة المسائل الخطرة ، وكان من الضروري بعد آن عقد كل منهم محادثات دفقة مع الآخر أن يقرروا منى وكف تكون احاز المسروع الذى أقدموا على النهوض به ، وبينما كانوا مهتمين فى لوم رفاقهم الذنب تأخروا فى المحيء وحملهم مسئولية انصرام الوقت بلا طائل اذا برسول بصلهم من كونت بولوز وأسقف بوى ننمؤهم نابهما على مقربة منهم ، وأنهما سرعان ما سيدخلان المدينة .

- ١٧ -

بلازم هذان الرحلان العظمان منذ مسنهل البسر ، وظلا حنبا الى حناب بحوشهما ، فكائنا رفنقى رحلة لم ينفصل أحدهما فيها عن الآخر ، وكان فى ركابهما رجال بارزون من علة القوم خلاها ومكائة ،

مهم : ولم أسقف أورنج ، ورينبولد كوت نفس المدينة [أورنج]
وحاسون دى بيريه ، وجيرار دى روسيلون ، ووليم كوت
مونتبلية ، ووليم كوت فورير ، وريموند بيليه ، وجاسون
دى بيارن ، ووليم أمانجو وكثيرون غيرهم ممن لم تع الذاكرة
أسماءهم ، الا انهم سيظلون من غير شك أحياء فى ذاكرة الزمان ،
ذلك لانهم آثروا الفقر عن رضا وطيب خاطر ، فهجروا ، مهبط
رؤوس آبائهم وفارقوا أحبائهم وأقاربهم ، وبخلوا عن أملاكهم
الفسيحة الى ورثوها عن أسلافهم من أجل اقتفاء خطى المسيح .

وصدقت النية من هؤلاء الناس جميعا فأخلصوا فى خروجهم
واتباعهم من ذكرنا من الرجال الموقرين ، وشدوا رحالهم الى ايطاليا .
واجازوا لمبارديا ، حتى اذا حلفوا وراهم الاقلم المسمى «فورم حيلي»
دخلوا استريا القريبة من «أكويلنا» فأفضى بهم السير فى
النهاية الى أرض «دماشيا» الواقعة على امتداد الطريق الواصل بين
المجر وبحر أدريايك ، والتي توجد بها أربع مدن كبرى هي «زارا»
و «سالونا» (المسماة أيضا بسبالو) و «أنتيقارى» و «راحوزة»
التي يسكنها قوم قد أوغلوا فى الهمجية ، وبلغوا من الوحشية
أقصاها ، فهم يعيشون على السلب والنهب والقتل .

وأرضهم مكسوة كلها بالغابات ، وشقتها الأنهار الكبيرة ،
وتحفل بالمراعى الفسيحة ، ومن ثم تقل بها الحقول الا ما تنائر منها
هنا وهناك .

ويعتمد الأهالى فى معاشهم اعتمادا تاما على الماشية والأغنام
باستثناء جماعات قليلة جدا تقيم على ساحل البحر ، وتختلف اختلافا
بينا عن بقية القوم فى العادات واللغة ، فلسان هذه الجماعة هو
اللاتينى ، على حين يتكلم بقية الأهالى اللغة السلافية ، وسلوكهم هو
سلوك المتبربرين .

ولما دخل الكونت وأسعف بوى ورجالهما هذه الولاية صادفهم كثير من الصعاب على طول الطريق لا سيما بسبب طبيعة الاقليم الوعرة ، واصراب فصل الشتاء ، كما ظلوا بضعة أيام يكابدون وطأه المجاعة لقلة ما عندهم من الطعام والمثونه .

ولما طالع الأهالي وجوه فومما فزعوا فزعاً شديداً ، حملهم على ترك مدنها والتخلي عن أماكنهم الحصينة ، وفروا فرارهم من وحوش كاسره ، واعصموا باللال والأدغال مسنصحين معهم نساءهم وأطفالهم وماعهم وان ظلوا يتابعون فى خلسه - وعلى بعد - آثار حبسنا الزاحف ، ويفكون بمن نرمى الأقدار فى أيديهم من المرضى والمسبن والعجائر من النساء ، ممن لم تسعفهم قواهم وخطاهم البطئنة بملازمة بقية القوم ، فانفصلوا عنهم .

ولما كان الكونت يسعر بالمسئولة الملقاة على عاتقه عن هذا الحسد الكيف ، فقد ولى قيادة الطلبة الزاحفه أمامه جماعة من الزعماء . وأما هو فقد وقف فى المؤخرة على رأس الجانب الأكبر من الفرسان ، كما أنه هو ذاب كان آخر العائدين الى معسكره .



كان الجو ملثاً بالضباب الكثيف ، والظلام شديداً كأنه قطع متصل بعضها ببعض حتى ليكاد المرء يحسها ، ومن ثم فقد كان من الصعب حدا على السائر فى الخلف أن يتبين الذين أمامه ، على حين أن طلعة الجيش كانت لا يرى قدامها أكثر من رمية حجر ، هذا الى جانب ما ذكرناه من أن الاقليم زاخر بالأنهار والقنوات المائية ، ونكثر فيها المسنقعات التى تعمل على زيادة الرطوبة والضباب الكثيف لحظة بعد أخرى ، حتى كاد الهواء أن يخنق الأنفاس .

يضاف الى ذلك أن المواطنين الدماشيين والسلاف كانوا على

دراية نامة بالافليم ، فراحوا يباعون الجيش وهم على العمم الساهفة
وفى الغابات الكيفة ، وكسبرا ما كانوا يبرزون فجاء من العباب
لمهاجمة الحجاج العزل من السلاح .

غير أن الكونت ومن معه من العاده طالما قاموا أيضا من جانبهم
يردون على هجماتهم عليهم بملها ، فقصص حرايهم وسوفهم على
الكثيرين منهم ، وكان فى امكانهم أن يفحسوا العفل فيهم أكبر
مما فعلوا لولا فرار هؤلاء الدلاسيين الى الأحراج القريبة منهم ،
مسخدين منها ملجأ أمينا لهم ، وحدث فى يوم من الأيام أن وقع بعض
هؤلاء الأشرار فى يد الجنس فأمر الكونت بقطع أيديهم وأرجلهم من
خلاف ، عسى أن يكون فى هذا العقاب زجر لغيرهم ، فكفون
- جزعا - عن متابعة الجيش وملاحقته .

ظل الحجاج ثلاثة أسابيع منناله يعبرون هذا الجزء من الاقليم
وهم فى كرب وضيق ، حتى انتهوا أخيرا الى موضع يقال له
« سكوتارى » وجدوا به ملك السلاف ، ولما كان الكونت رجلا رحما
رضى الخلق فقد سخي فى تقديم الهدايا الى ملك السلاف راحا أن
يؤدى هذا الكرم من حانه الى نوثق روابط الصداقة بين الجناس ،
وحتى يضمن لمن معه مودة الأليا عساهم يعقدون لهم سوقا يشترون
منها ما يحتاجونه من بضاعة .

لكن الكونت لم يستطع - حتى بهذا السلوك - أن يهدد من
وحشة هؤلاء القوم ، أو يخفف من قضاظتهم ، بل الواقع أنهم
أزدادوا شراسة عما كانوا عليه من قبل .

لكن سننى للجيس أن يصل فى النهاية الى دورازو بعد مسره
أربعين يوما داخل أرض دلاشيا كابد فيها كل الصعاب .

حاصرت المخاوف الكثيرة الامبراطور من مقدم الكونت ، لما كان عليه هذا الأمير من الفطنة والعقل ، الى جانب ما كان تحت قيادته من جيش بالغ الضخامة ، وكان الامبراطور قد أرسل منذ أمد طويل قبل وصول الصليبيين الى هذا المكان سفارة من كبار رجاله لمقابله الكونت في دورازو ، وعهد اليهم أن ينقلوا اليه تحياته الرقيقة النابضة بالود ، فامتلأوا لأوامر مولاهم وذهبوا الى الكونت وخاطبوه بالفاظ سداها الرقة ولحمتها المدهنة ، وقدموا اليه رسالة الامبراطور النى تضمنت الآتى :

« أيها الكونت العزيز ، لقد طبق الحافقين منذ أمد بعيد كبير من أخبار فطنتك ، وما اشنهرت به من حسن الأحدثة شهرة ذاعت شرقا وغربا حتى بلغت بلاطنا ، مما حملنا على حبك ، ومن أجل هذا الحب ، ورغبة منا في اظهار مودتنا ، فاننا ندعوك اليسا لتؤكد لك - بسبب فضائلك - وعلى رؤوس الأشهاد - تقديرنا الشخصى لما أنت عليه من الفضل ، ونحن نتطلع فى لهفة الى قدومك علينا ، واننا نريد أن نناقش مع عظيمك - وأنت العزيز الغالى عند امبراطوريتنا - كثيرا من المسائل المتعلقة بالأمور العامة ، ونرحوك رجاء حارا أن يكون سيرك عبر بلادنا من غير شغب ولا ازعاج ، وأن تبادر بالمحبة اليينا معتمدا على محبتنا ، ولتكن واثقا مما عزمنا عليه من اعداقتنا عليك آيات الشرف ، كما أصدرنا تعليمات الى حاملي هذه الهدايا أن يهينوا موضعا تبتاعون فيه ما تحتاجونه ، وأن يظل التعامل التحارى بين قومنا وقومكم موصولا ، تحت شروط ملائمة كل الملامة » .

حين تسلم الكونت هذا الخطاب انشرح صدره وصدور عسكره انشراحا كبيرا ، ققرروا متابعة السير ، فساروا آياما كثيرة

فاسوا حلالها المساق فى اجتيازهم الأجراف والجبال ، حتى اذا جاوزوا بلاد ابروس كلها نزلوا فى الاقليم المسمى ببلاحوسا ، ناصبين معسكرهم به لكثرة ما يزخر به مما تهواه النفس .

١٨٨

وأما أسقف بوى الذى عاش حياته عفيفا طاهر الدليل فعند انتقى من دون الجند مكانا قصيا اينارا منه لراحته ، ونصب هناك معسكره ، لكن ما لبث البلغار أن هاجموه وأخذوه أسيرا ، غير أنه لما كان شعب الرب لا يزال فى مسيس الحاجة الى فسيس عظيم كهذا القسيس فقد أبت رحمة الرب الا أن سداركه ، فأبقت على حياته ، وما كان ذلك الإبقاء الا عن طريق الصدفة الحنة وحدها ، اد طلب منه أحد اللصوص أن يسلمه ما معه من الذهب ليعسط عليه فضل حمايته ، فلا ياله أحد بضر ، فأعطاه ما طلبه ، فأغصب هذا بقية اللصوص ، فنار بينهم فتنة تعالى ضجيجها حتى سمعها عسكرنا ، فهبوا جميعا الى سلاحهم ، وكروا على المفسدين وأنقذوا الأسقف المجل ومن معه من بين أيديهم .

★★★

تابع العسكر بعد ذلك مسيرتهم ثانية فعبروا سالونكا وكل بلاد مقدونيا ، وظلوا يابعون زحفهم المضنى عدة أيام حتى بلغوا مدينة « رودستو » البحرية المطلة على البسفور ، والتي تعد عن القسطنطينية مسيرة أربعة أيام ، وهنا جاء الى الكونت وفد آخر من جهة الامبراطور ، كما وفد عليه رسل من القادة [اللاتين] الذين قدموا قبله يحضونه النصيح ، وبلحون عليه أن يأذن لجيشه بالسير ولكن فى بطء ، أما هو فعلمه أن يسادر بالخروج فى شزيمة ضئيلة من حرسه للذهاب الى الامبراطور ، حتى اذا فرغ من أمره معه يكون جيشه قد بلغ [القسطنطينية] ، واذا ذاك يستطيع ملاحقة الآخرين

بأسرع ما يمكن ، دون أى عاقبة للجيس الذى كان راعيا فى سرعة الزحف .

وكان الكونت قد أرسل [الى القادة] من تلقاء نفسه جماعة من عنده . فلما عادوا اليه شجعوه على اتخاذ نفس الخطوة .

- ١٩ -

بلاشى أحيوا بردد الكونت أمام الالحاح المسنمر من جانب مدوبى كل من الرسل الامبراطوريين والقادة [اللابى] الذين المسوا هم أيضا منه أن يسرع الى قصر الامبراطور ، فاستجاب لهم جميعا . وبرك جيسه بحت الحماية الدفينة من جانب الأسافه وعمرهم من الأشراف الذين كانوا فى المعسكر ، ومضى هو ملبا الدعوات المكرره اليه ، ودخل القسطنطينيه فى رهط قليل من حاسه ، وفى حراسه مندوبى الامبراطورية ، فلما مثل أمام الامبراطور بالامبراطور ووحوه رجاله فى الترحاب به واطهار التعدير العظيم له ، لكن ما كادت تسهى كرمات البناء التى فلتت لاسنمالتة وخديعه ، والنى تضمنت الالحاح السديد عليه لقطع يمين الولاء للامبراطور بالطريقة التى انبعاها القادة الآخرون الذين سبقوه ، أقول ما كادت هذه الكلمات المعسولة تنتهى حتى رفض الكونت قطع اليمين رفضا باتا .

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى القسطنطينية ادا بالامبراطور قد استبد به الحق لرفض الكونت اعلان تبعيته له كما فعل الآخرون ، وحينذاك أسر الى قادة جنده الموجودين فى تلك النواحي

بمباغة فواب الكونت وأخذها على عره ، وأمرهم ألا يدخروا وسعا في ازعاجهم ، حتى ولو أدى بهم الأمر الى اغتيالهم ، وقد سَجَّعه على ركوب هذا المركب وسلوك هذا السبيل النزام القادة الآخرين بيمين الولاء الـى قطعوها له ، كما أغراه على ذلك أيضا أن جوسهم كلها كانت قد عبرت البحر ولم يعد من السر رجوعها ، كذلك صدر الأمر الى جميع السفن المتجهة لنعل البحاره أو الناس بحرا بعدم مغادره الساطىء الآخر ، وبذلك نصبح كل فكره للرجوع ضرا من العب لابعدام وسائل النعل ، وكان الامبراطور قد نجح بكلماته المعسولة الخادعة ، وما اصطنعه من اعراءات كبيرة فى حمل الجيوس على العبور فردا بعد فرد حتى لا يجمعوا كلهم فى المدنة فى وقت واحد . وكان الداعى له الى ذلك الأمر هو خوفه - كما سرحنا - من أن يجرى هؤلاء العسكر فىكون فى تجمعهم كلهم خطر ما بعده من خطر عليه . كما أن سخاء القادة لم تكن عن كرم أو حس فصد ، بل كان سياسة خبئة نطوى على المكر وهى وليدة البأس ، ومع ذلك فقد أدم زعماؤنا على تلبية ما طلبه الامبراطور منهم لنقيم فيه وتصديقهم لما بقوله ، وكان من أصعب الأمور اقناعهم بسوء طوة الاغريق ، ولؤم نة الامبراطور وخداعه وختله الذى لا ينقضى ، لا سيما منذ أن بالغ فى السخاء عليهم واكرامهم وتظاهره نحوهم بأقصى مظاهر حسن النية .

- ٢٠ -

راح الضباط الذين تلقوا أوامر الامبراطور - وهم من أمراء الخمسمائة وكذلك الموكل بهم قيادة القوات الحربية - ينفذون توجيهاته ، فقاموا سرا - والبلبل يلف الدنيا بظلامه - بمهاجمة

عسكر الكونت الذين لم يكونوا يتوقعون فط أى خطر يأتهم من هذه الناحية ، فراحى حراسهم ، وغفل عيوبهم ، فأخذهم الاغريق على غرة منهم ، وفتكوا بالكثيرين منهم فسكا دريعا ، وذلك لأن المباغتة أدت الى عدم اتاحة الفرصة لهم لانضواء صفوفهم ، فجرت فيهم مذبحة محزنة ، وفر من نجى فرارا مشييا لكنهم ما لبثوا أن رجعوا على أعقابهم حين تصروا حالهم ، واستردوا شجاعهم وعادوهم بطولهم ، فأنزلوا كثيرا من الحسائر تلك العصابات الحربية من مرفقه الامبراطور ، ولقد أبدى الصليبيون مقاومة عميقة أخذين بعين الاعتبار ظروف الزمان والمكان ، غير أن اليأس بدأ يسرب الى نفوسهم بسبب مشقة الطريق وما يلقونه كل يوم تقريبا من أخطار لا تسهى ، بأنهم على غير انتظار منهم ، فراحوا يستسلمون لليأس ، وطالما لاموا أنفسهم على ذلك ، وأخذت حماسهم نفتر كل يوم عن الذى فعله بسبب الارهاق الذى نال منهم كل مال ، ومن جراء المصاعب الشاقة التى واحسهم ، وندم الكثرون منهم على المغامرة التى أقدموا عليها ندما جاوز الكثيرين من العامة الى طائفة كبيرة من أبرز رجالهم الذين يشأونهم مكانة ، والواقع أن الريبة ساورتهم فى قدرتهم على انحاز حججهم ، فنسوا ما قطعوه على أنفسهم من عهود ، وما أقسموه من أيمان ، وراحوا يعدون العدة للعودة من حيث جاءوا ، ولولا أن أخذهم تحذيرات الأساقفة ورجال الدين من كل جانب ونصائحهم البهم وحثهم اياهم على الوفاء بما فى أعناقهم من يمين فهجروا الحشس وحاولوا الرجوع الى ديارهم ، غير مبالين بالخطب الذى يترتب على ذلك .

ولما سمع الكونت هذا النبأ عصر الحزن قلبه واستبد به الألم وبكى وأعلن أن قد غرر به ، ثم أرسل رهطا من أشrafه المخلصين الى الامبراطور يقولون له على لسانه انه خائن ، لانه خرج على جميع مقتضيات اللياقة والذوق إذ أمر رجاله بمحاربة جيش الكونت

ريموند فى الوقت الذى ذهب فيه ريموند الى الامبراطور استجابة
للكتب العديدة التى جاءته من القادة ، ونزولا على النماساتهم
الكثيرة منه .

كذلك لام الكونت القادة لمداومهم اللاحاح عليه بالمضى الى
الامبراطور حتى ترك حبشه وشخص الى القسطنطينية ، وأعلمهم
ريموند بالمصائب التى آلت بكتائبه وبخيانة الامبراطور لها ، ثم
طالبهم - كاخوة له - أن يثاروا لهذه العمال الشائنة .



لو ان قوة الكونت كانت مكافئة لرعبته الصادقة فى الاسقام
لرجاله لما كان لنهديات الآخرين ، ولا لمدخل سواهم من القادة
فدرة على ثنيه عما اعزمه ، فقد اشهر عنه انه كان رجلا صلب
الارادة ، قوى السكينة ولا بثنبه ثان عما أحجم العرم عليه ، كما
أنه لا ينسى الاساءة أبدا .

وحين عرف الامبراطور المدى البعيد الذى ذهب اليه ندم على
ما بدر منه ، ورأى أن يبعث فى استدعاء القادة الذين لا رالوا
بجيوشهم على السواطى الأخرى طالبا البهم المسؤل فى حضره ،
طمعا منه فى أن يؤدى ندخل هؤلاء القادة - وهم الدوق وبوهيموند
وكونت فلاندرز - الى اسمرضاء ريموند ، فاستجابوا كلهم لدعوه،
وعلى الرغم من شدة حنفهم جمعا على ما قد جرى الا أنهم رأوا عدم
ملاءمة الزمان ولا المكان لطلب الثأر ، ومن ثم انفردوا بالكونت رجاء
أن يحملوه على ألا يصرح بالأخطاء التى يشعرون أنها قد حاقب به
وبهم أيضا ، مبينين له أن اندفاعه فى طريق الانتقام قد يؤدى الى
ضباع جهد أيام طويلة ، والى عرقلة زحف أولئك الذين يرغبون فى
السير فى طريق السيد ، فاستجاب الكونت لحججهم هذه ، ورضخ

لتدخلهم الرحيم ، وكبت مساعره المريرة واحساسه بالآثم ، وحضع
لنصيحة القادة ، ووافق على ما رنبوه ، وحينذاك ذهبوا جميعا الى
الامبراطور بنفوس راضية وان عبروا بالاجماع عما يسعرون به من
السخط على ما جرى ، فلما أدرك الامبراطور ما هم عليه من الاسساء ،
وقد رحدهم جميعا شعور جماعى مبن ربط بينهم جميعا لم يحد بدا
من التنازل والاعذار للكونت أمامه وفى حضور بطانه ومن لا تمت
اليهم بصلة . وزاد فأقسم بأنه لم يعلم بما قالوه من خبر الاهانة النبى
لحقب الكونت ، وأن شئنا من ذلك لم يصدر عن أمره . وقال انه
على الرغم من ذلك فانه راغب فى اسنرضاء الكونت لتؤكد له
براءته .

هكذا كانت بكسف للعبان - يوما بعد يوم - حذع الاعرق
وخيانة الامبراطور ، ولم بعد هناك أحد من الزعماء لم يصح له
وضوح الشمس فى وسط النهار ان نفس الكسوس نطوى على
كراهة سوداء لسعنا واحتقاره اناه ، ومع ذلك فلما كان يحقق
هدف الحجاج بدفعهم الى أمور أخرى . ولما كانوا هم أنفسهم نواقين
لأنحار مهمتهم على الوحه الذى يرضاه الرب ، فقد رأوا أن الجاوز
عما لحقهم من الأهوال أعظم من انصرفهم عن هذا المسروع المقدس
الذى جاءوا من أحله .

- ٢١ -

انصاع الكونت لنصيحة القادة فصافى مع الامبراطور ،
واقسم له يمين الولاء على الصورة النبى أقسمها الآخرون ، فأصبح
الامبراطور منذئذ بحوه بعطفه السامل ، ويسخو عليه بالهدايا

المسه الى لا يحصيها العد ، والننى تبلغ قبمتها فدرا لا يدركه
التصور ، كما مضى يصل الزعماء الآخريين بالمزيد من العطايا ،
واذ ذاك استأذونه فى الرجبل فأذن لهم ، والتمسوا من الكونب
- على وحه الخصوص - ألا يبطيء فى اللحاق بهم ، بل عليه أن
يجيء الهم على جناح السرعة ، واذا ذاك انطلقوا عابرين المسفور ،
وانصدوا الى كائنهم الموجوده فى بينينا .

أما عسكر الكونب [ريموند] فكانوا قد بلغوا القسطنطينية
حينذاك ، فأمرهم الكونب بركوب البحر فى ساعنهم هذه فاسجباوا
لأمره . وانضموا الى الجيوش التى سبقتهم وان تحلف ريموند عنهم
للطر فى ترنسب أموره الخاصة ، وبصريفها نصريفا لم يحل بيه
- وهو الرجل الفطن - وبين الاهسام بالصالح العام ، اذ فعل ما فعله
العاده الآخرون من قبله حين راح يرحو الامراطور رحاء الملح أن
يصحب القوم فى زحفهم . على أن تكون له فمادة حس المسح ،
وبكون حينذاك صاحب الأمر فنه .

وعلى الرغم من أن جمع فادننا - لا سيما كونت بولوز -
طالما النمسا منه مرة بعد أخرى أن يفضل بمرافقنهم كقائد لجس
المسح ، وأن يأخذ القيادة العليا بده ، الا أنه ظل ينصل مسحلا
المعاذير ، بحجة أنه محاط بأعداء همجيين كالبلفار والكومان
والبشناق الذين لا يكفون عن الحركة على حدود الامبراطورية
لاعننام الفرصة لسن هجماتهم الفجائية ، وتهديد سلم الدولة
وأمانها . وبين لهم أنه رغم رغبته السديدة فى المساهمة معهم فى الح
العظم . ومشاركهم فى النصر المقبل الا أنه لا يستطيع أن يتنحى
عن المسئولية الملقاة على عاتقه بمملكته ، والا أتاح الفرصة للعدو
المحقق بها لبزل الضر بها .

لكن كان جميع ما صرح به افكا وكل ما فاله بهتانا حنوه
الخدعة .

وكانت غيرته من رجالنا هي التي دغنه الى هذا الادعاء ، لانه كان يلتمس أى ذريعة . نمكنه من كف مساعدته من شعبا واعاوه تقدمهم بأى وسيلة سسطعها .

وكان القادة الذين عبروا البحر حالا - وأعنى بهم جودفروى وبوهيموند وروبرت كونت فلاندرز وأسقف بوى - قد أعدوا حوائجهم وصاروا على أهبة الاسعداد لمواصلة الحج مرة أخرى ، كما أزمعوا السير على مهل الى نيقة فى انتظار رفاقهم القادمين وراءهم ، ومن ثم ساروا يومهم كله قاصدين نقوميديا ، التى هى أكبر مدن ولاية بشسا ، واذاك خف بطرس الناسك لمقابلة الكائن المقدمة وتحية الزعماء .

كان بطرس - تحنبا منه للجو القارس - فد أمضى الشتاء فى هذه الناحية مع الفئة القليلة الباقية ممن ظلوا على قيد الحناء . فانضم بهم الى زمر الحجاج الذين رحبوا به أجمل نرحب ، ولما سألوه عما لقيه حيثه من الأهوال أسهب لهم فى تفصيل كل ما حاق بهم ، ولم يفته أن يصف لهم روح الفوضى والنمرد التى كان عليها هؤلاء العصاة الرعاع الذين خرجوا فى صحبه ، ونسب النكبة الى ألفت بهم الى سلوكهم الذاتى أكثر من نسبتها الى شىء سواه فشاركه القادة الحزن العميق فى مصسته ، ثم وصلوه هو ومن معه بالهدايا الثمينة الجمة .

ازداد حينذاك عدد الجيش زياده كبيرة بعون الرب ، وذلك لان الطوائف المخلفة اتحدت حتى صار حماة واحدة تابع السبر تحت قيادة حكيمة لسبة ، فبلغوا نبقية فى الوقت المحدد ، ونصبوا معسكرهم على شكل دائرة أحاطت بالمدينة ، وخصصوا أماكن معينة

للزعماء الذين لم يعدوا بعد ، حتى اذا كان اليوم الخامس عشر من شهر مايو [سنة ١٩٠٧] ضربوا الحصار على المدينة .

حين فرغ كونت تولور من انجاز شئونه في القسطنطينية اسأذن الامبراطور في الرحيل ، فسأخا عليه ثانية سحاء بالغا ، ووصله بالهدايا اكراما له ، فسار بمن كان قد ظل معه من رجال جيشه ، مقتفين أثر عسكر اخوانهم ومسرعين في زحفهم ، وسرعان ما بلغوا المدينة المذكورة آنفا .

- ٢٢ -

في هذه الأثناء قام لورد روبرت - كونت برمدي العظم - وغيره من كبار النبلاء البارزين ممن كانوا في معينه ، ومنهم لورد ستيفن كونت شارتريز وبلوا ، ولورد أسباس أخو الدوق حودفروي ، بايفاد الرسل من جانبهم الى الامبراطور والى اخوانهم ، يعلنون اليهم أنهم قادمون حالا .

وكان مع هؤلاء أيضا ستيفن كونت أومال ، وألان فيرجانت ، وكونون ، أحد سعاة برباني ، وكذلك روترو كونت بيرش ، وروجر بارنفيل .

وكان جميع هؤلاء النبلاء مع كثير من غيرهم من الأبطال البارزين وفيهم كونت فلاندرز وهيچ العظیم قد وصلوا العام المنصرم الى أبوليا مع دخول فصل الشتاء .

وكان الأخيران قد عبرا البحر الى دورازو ، أما بعبهم فقد كان خوفهم من برودة الجو القاسية حاملا اياهم على فضاء الساء فى ربوع أبوليا اللطيفة ، وعلى حدود كلايريا [قلهورية] .

لكن ما كاد الربيع يطل حنى استدعوا أنبأهم الحجاج ، وجهروا مناعهم للسفر ، ويمموا وجوههم شطر الساحل ، سالكين الطريق الذى سلكه الآخرون ، فأبحروا الى دورازو ، وأرسوا بها ، ثم تابعوا سفرهم منها على جناح السرعة لتعويض الوقت الذى قضوه فى أبوليا ، وأعانهم الرب فاحازوا الولايات الوسطى لا سما « الليريكوم » ومقدونيا ومنطقتى تراشيا ، وكانت رحلة هادئة أبانغهم العسطنطنية آمنين ، فاستدعاهم الامبراطور استدعاءه الزعماء الآخربن من قبل ، فلما دخلوا القصر تلقاهم جلاله وجمع من حوله من الرجال البارزين لقاء حارا مشرفا .

ثم أجرى الامبراطور محادثات طويلة مع الزعماء السلاية . مجتمعين تارة ، ومع كل منهم على حدة بارة أخرى ، ملاحا اناهم بكامانه الرفقة ، ووعدوه الجمة ، فقطعوا له على أنفسهم العبد الذى قطعه الآخرون له من قبل .

وكان هؤلاء القادة الآخرون قد أخبروهم - قبل ذهابهم الى الامبراطور - بكل ما ينبغى عليهم فعله فقالوا لأنفسهم ، لسنا أكبر من كبارنا الذين سبقونا ، ومن ثم فانهم اقتداء منهم بهم بهجوا نهجهم وربطوا أنفسهم بالامبراطور وقطعوا له يمينا كاليمين التى قطعها له على أنفسهم من سبقوهم ، فكان الرد عليهم أن حطوا بعطف أكبر مما حظى به هؤلاء ، وأصبحوا جديرين بالحصول على منحة فاقت كل ما قدم من قبل ، فكثرت المال بين أيديهم ، وحاءهم من الهدايا ما لم يروا له مثيلا من قبل ، من الذهب والملابس النمنمة والأواني التى تشد الناظر اليها : مادة وصنعة ، وكذلك النساب

الحريرية ، فأذهلهم سخاء الامبراطور الذى حاور عطاياه فى طبيعتها وقدرها كل ما نصوره نحن ، ثم اطلقوا محملين بهذه الهدايا الرائعة بعد استئذانهم الامبراطور فى الخروج حتى لا يكونوا سببا فى تأخير اخوانهم الحجاج . وعبروا البسفور ، وأسرعوا بجمعهم الى نيقية حيث كانت بقية الجيش الصلبى لا تزال بها ، فنلقاهم الأمراء بالأحضان ، ثم نزلوا جميعهم راضين فى المكان الذى قسم لهم .

- ٢٣ -

انصل بمعسكرنا اغبى اسمه « نانكوس » كان موصع ثقه الامبراطور . وكان لشم الطبع عذارا ، بدل أنه الأفطس على ما اطلوب عليه نفسه من الشر ، وكان زعمائنا قد سألوا الامبراطور أن يمدهم بمُرشد لتكون رحلتهم أكثر أمانا ، فصدر الأمر الامبراطورى بسين [نانكوس هذا] لتكون مرافقا ومرشدا لنا .

لم تكن معرفه البامه بناتك النواحي هى وحدها - كما قل - التى دعب الى اختياره ، بل ان الامبراطور كان كبير الاعتماد عليه لما كان عليه من فساد النية والنفاق الذى لا حد له ، فانضم بانكوس بقواته الحاصفة الى زعمائنا ، عساه يكون كالأوزة التى تصح غالبا بين الدجاج ، وكالحبة الرفطاء بين ثعابين الآكل ، فكان أذن الامبراطور وعنه فى كل ما يجرى بالحيلة ، وبسر له كل ملاحظة يبدىها أى شخص تفسيرا يرشح بالحقد ، وبلقى من موله على يد الرسل الكيرين المررددين بسهما غدوا ورواحا موحزا للخطط التى يوحه اليها مشاريعه الشريرة .



ولقد نألف هنا - ولأول مرة - جيش منحدر للسيد الحي ،
وكان فى مجموعته مكونا من زمر شتى ألقت قبادنها الى رجال
تزعموها فى أماكن مختلفة وفى أوقات متباينة ، ثم انحدرت هذه
الجماعات الكثيرة حتى اذا وصلت الى ها هنا صارت جيشا واحدا ،
ذلك لأنه لم يتأت لأحد من قادة جيش الرب وزعمائه منذ مغادرتهم
أوطانهم حتى بلوغهم هذه المدينة وضربهم معسكرانهم بها ، أقول لم
يتأت لهؤلاء رؤية بعضهم البعض ، ولم تسنح لهم الفرصة لمناقشة
المسائل المتعلقة بالصالح العام كما سنحت لهم الآن .

واحصوا العسكر فوجدوهم سمائة ألف شخص ، ذكرا وأنثى
مشابه لا طهر عندهم ، أما الفرسان من أصحاب الدروع فكانوا
مائة ألف .

وقد عسكر هذا الجيس بأجمعه أمام مدينة نيقية ، مكرسا كل
نشاطه بنسي الطرق الممكنة للاستيلاء عليها ، وبذلك يهدون أول
ثمار عملهم للسيد فى اخلاص .



هنا ينتهى الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

فصول الكتاب الثالث

- ١ - وصف مدينته نيقية وذكر أسباب شهرتها ، وكيف جمع حاكمها فلح أرسلان قوة كبيرة من الترك من كل نواحي الشرق لمحاربنا ، وكيف أعدوا الكمين لمهاجمتنا .
 - ٢ - قواننا بهاجم المدينة في ضراوة ولكن المواطنين يجدون سبيلا لهم للخروج عن طريق الحجرة ، فيرسل إليهم قلح أرسلان رسالة يشد بها أزرهم .
 - ٣ - القبض على حامل الرسالة وافضاؤه الى العاده بكل أسرار العدو ، ووصول كونت بولوز
- (الحروب الصليبية ح ١) - ١٩٣

- وكان الغائب الوحيد - على جناح السرعة
استجابة للزعماء الآخرين .

٥ - قلع أرسلان ينزل من النلال ويهاجم معسكرنا
بعنف ، ولكن الهزيمة حقيق بحشه ويرسل
رجالنا بعض امارات انصارهم الى الامبراطور
فيكافئ الرعاء على ما فعلوا .

٥ - اقامه الفادة في الأماكن التي خصصت لهم
ومهاجمة المدينة المحاصرة من كل النواحي وهلاك
طائفة من السلاء في المعركة .

٦ - أهل المدينة يحطمون آلة كانت على الأسوار
فيهلك نحبها كبر من الصليبيين ، كما أن
البحيرة يعوى بجاح محاولا .

٧ - الصليبيون يقلون الفوارب من البحر على
العربات ويسيطرون على البحيرة ، وينظر الأهالي
في يأس ودهشة الى براعة شعبنا .

٨ - معاودة الهجوم على بيعة من كل الجهات ،
ومحاولات كونب تولوز التغلب على برج أمامه
واستعماله من أجل ذلك الآلات وشنى الحيل
الممكنة ، ولكن مقاومة الأهالي أدت الى فشل
جهوده .

٩ - البراعة العظيمة التي أظهرها جود فروى ، وقيام
أحد الأهالي بقذف النار وصب الزيت على الآلات

وما حدث اذ ذاك من المصير المحزن الذى لقيه
أحد رجالنا البارزين .

١٠ - أحد الصناع يقدم خدماته للزعيماء اليائسين
فيبنى لهم آلة ويحدث نقبا بالسور الذى
سرعان ما ينهار .

١١ - زوجة قلع أرسلان نفع فى الاسر هى وولداها
أثناء محاولتها الفرار ويسولى اليأس على
الأهالى فيفاوضون تايكوس الاعريقى كى
يسنسلما ، ويبعث القادة الرسل الى
الامبراطور بشأن هذا الموضوع .

١٢ - الامبراطور يوفد رسلا من قبله لسلم المدينة ،
كما يبعث أيضا بالهدايا والشكر للقادة ، ولكن
السلطان يسولى على الصليبيين ويشكون من
شحجبات الاتفاق بيبه وبينهم ، وبصدر الامبراطور
أمره بسوق الأسرى الى القسطنطينة ويقدم لهم
الهدايا ويبيع بهم من هناك الى بلادهم .

١٣ - رفع الحصار عن نيقية ، والجيش يتابع زحفه
وينفرق القادة ، ويعوم فلج أرسلان بأعراض
الصليبيين مرة ثانية بجيش كنيف .

١٤ - نشوب المعركة وهلاك وليم أخى تانكريد فيها ،
وأما جيش بوهيموند فبصبح بأكمله فى خطر
عظيم ، كما أن تانكريد نجا من الأسر بأعجوبة .

١٥ - القادة الآخرون يصلون لجده اخوانهم
المنهوكين ، فيفر قلع أرسلان ويحقيق البوار

بجيشه ، ويعود الصليبيون وقد فاصب أيديهم
بالغنائم ، وينجمع العسكر كلهم مره أخرى .

١٦ - الجيوش تدخل « بيزيديا » ولكنها تكابد هـا
الشدة بسبب قلة الماء ويصبح العسكر فى حال
بالغة الحزن شديدة الخطورة .

١٧ - انفصال بعض القاده عن بقية اخوانهم وبحريهم
الاقليم المجاور ، وبجاة الدوق من الموت باعجوبة
من هجوم دب عليه .

١٨ - اصابة كونت تولور بمرض أشفى به على الموت ،
وأما الجيش فيعبر « ليكونيا » ويصل الى
« مرعش » حب تمون روجة بلدوين أحي
الدوق .

١٩ - دهاب نانكريد الى فيليقية ومحاصره طرسوس ،
وزيارة بلدوين - أخى الدوق - لتلك النواحي
واستقباله بالتعظيم الذى هو أهل له .

٢٠ - بلدوين يطلب انزال راية نانكريد من فوق
القلعة لرفع رايه مكانها ، فيرند نانكريد عاضما
ويسنولى « جلف » على أدنة .

٢١ - استيلاء نانكريد عنوة على المصيصة وهى احدى
المدن الواقعة فى نفس الاقليم .

٢٢ - استيلاء بلدوين على طرسوس وهلاك ثلاثمائة
صليبي أمام باب المدينة فى نكبة فادحة .

- ٢٣ - بعض المحاربين يحملون السلاح لمقاومة بلدوين ،
ولكنهم يهدأون أخيرا وبصل الى طرسوس
أسطول من الغرب محمل بالرجال .
- ٢٤ - بلدوين يزحف على المصصه بعد اسبلاطه على
طرسوس ، وانشب معركة بينه وبين تاكريد
ثم يتصافى الاثنان ويتصالحان .
- ٢٥ - بلدوين يعود للجيش الاصلى أما تاكريد فيغير
على كافة أرجاء قيلقية ويسنولى عليها ، فسرع
الحكام المجاورون لمهادنه كسبا لوده ويقدمون
الهدايا اليه .

هنا يبدأ

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

- ١ -

كانت نيقية - وهي إحدى مدن بيسيا وعاصمة الافليم - خاضعة في القديم لسوميديا ، ثم تحررت من سلطانها عليها على يد الامبراطور قنسططين . بعدد لما قررته أول مجمع ديني مقدس انعقد فيها ، فقد حدث في عهد كل من البابا سلفيسر واسكندر الموقر بطرك القسطنطينية والامبراطور قسطنطين الذي اشربا اليه حالا أن اجتمع في ببقية مجمع مقدس حصره ثلاثمائة وتمايون من آباء الكنيسة لسجدوا قرارا ضد هرطغه آريوس وأساعه ، فمحمض المنع عن سجب ما عليه هؤلاء من عقده فاسدة ضاله ، واسيدالها بالحق المبس على شهاده الكتاب المقدس ، وبدك قدم المجمع الى كنيسة الرب ايماننا نقي الجوانب ، كما عقد في نفس المدينه مجمع عام آخر ، يعرف بالسابع ، في زمن الامبراطور المؤمن قسطنطين [السابع] ابن ايرين ، احتجاجا على اللا أيفوسين أعى المهامين للصور المقدسة ، وكان يحلس على كرسى رومه اذ ذاك البابا أدريان . وكان بطرك القسطنطينية حينذاك ثاراتيوس الموقر ، ولبقى الهراطقة المشار اليهم في هذا المجمع من الكنسه الارثوذكسية الحكم العادل الذى يسحقونه بشجب بهتانهم .

★★★

ونفع مدينة « بيعة » في الافليم السهلى ، وتنمى بموقع رائع كل الروعة ، وتشرف عليها الجبال التى تحيط بها من شى النواحي ، كما أنها حافلة بأحسن الحقول فى المنطقة فأرضها خصبة ، هذا الى جانب المزايا العديدة التى سحت بها عليها الغابات والاحراج ، ويوجد بالقرب من المدينة بحيرة عظيمة الاتساع ، وهى بمد شطر الغرب امتدادا كبيرا ، وكانت الأمواج اذا هاجت بها علت المياه وعسلت جدرانها •

وزباده على ذلك فان بيعة مكنته بالسكان الذين هم مساعير حرب ، ونوم بحراسها حراسة تامة أسوار عريضة الاتساع . وابراج ساهقة الارتفاع ، قدت من الصخر الجلود ، حتى ان الدخشة استولت على رجالنا حين أخذوا يقربون منها فرأوا وسائل دفاع ضخمة •

كانت المدينة وبعمه الافليم والولايات المناحمة لها فى هذا الوقت تحب حكم وال تركى شديد المراس قوى الشكيمة ، بدعى « قلىج أرسلان » ويكسى « بالشاه » التى يعنى الملك فى اللسان الفارسى ، وكان قلىج أرسلان هذا على جانب كبير من الحق ، وما كان يسمع بعزم فواتنا على المجيء حتى أخذ للأمر أهبه ومضى الى الشرق يلتمس العون والنجدة من حكاهم تلك النواحي ليحول بين الصليبيين وبين المجيء ، واستطاع بقوة اقناعه ، وبالمزيد من التوسلات ، وبالمال الذى بدله أن يجمع اليه من فارس وما تأخمها أعدادا ضخمة من الأتراك الذين طمع أن يعينوه على انقاذ « نيقه » وتجنب الناحية بأجمعها وبلات الخطر الذى يهددها ، وحدث قبل هذا بقليل - وكان على القسطنطينية الامبراطور رومانوس ديوجيمس وهو الثالث قبل الامبراطور الحالى الكسيسيوس [كومنن] - أن تمكن أقوى ملوك فارس يومذاك واسمه ملك شاه - وهو عم قلىج أرسلان من الاستيلاء

عموه على جميع الأقاليم الممنه من خليج السفور حتى بلاد الشام ومسيرها رحلة ثلاثين يوما ، كما يمد نفس المسافة من البحر الأبيض المتوسط الى الشمال ، وقد آلب معظم تلك الأراضي في ذلك الوقت الى فلج أرسلان الذى استغل ملكيه اياها ، فمطلع الى الاستيلاء على كل الافليم الممتد من طوروس فى فلسطين الى السفور ، ومن ثم كان له - وهو على مدى رمة فوس من القسطنطينية ذاتها - بوابه الذين يجنون له الصرائب من المارين بها ، كما كان هؤلاء النواب يجمعون لمولاهم الجزية والاناوات من كل المواحي المحطة بالاقليم .

كان هذا الحاكم يقسم فى الماطى الجبلية المحاوره ، التى لا نبعد عن قواننا أكر من عشرة أمبال ، وكان يرب العرصة الموانة لمهاجمها دون أن يعرض نفسه للخطر بفصل ما تور له من جيش بذل الجهد فى جمعه ، وبهذا كان تأمل أن يذهب عن المدينة الجزع الذى يؤرقها من هذا العسكر .

- ٢ -

لم نكد قواننا تقف أمام المدينة حتى ست هجوما عينا عليها رغم عدم حسن تريب العسكر ، لأنه لم يكن قد تم تنظيمه بعد ، ومع ذلك فان عسكرنا الذين جاءوا أولا قد نخبوا لأنفسهم مواضع محددة يقبمون فيها ، وخصصوا أخرى ملائمة للقادمين بعدهم ، وبذلوا غاية جهدهم لمنع الأهالى من دخول المدينة أو الخروج منها غير أن البحيرة الملاصقة لأسوار المدينة - كما قلنا - كانت تقف حائلا دون تنفيذ هذه الخطة بسبب ما كانت توفره السمن الموجودة

فيها من السلامة لمن يريدون الخروج من البلد أو دخوله ، وعلمهم
حسب شأؤوا ، ولما لم يكن لدى جيشنا قوة بحرية فقد كان عاجزا
عن تقييد حرية السفن هذه ، ولكنه استطاع بشىء الحيل أن يمنع
الوصول الى المدينة عن طريق البر بفضل عنايته الشديدة بمراقبة
جميع مسالكها ومافذها ، ولما عرف فليج أرسلان أن مدينته تعاني
أهوال الحصار فقد أرسل اثنين من أتباعه ليدخل الطمأنينة في
قلوب أهلها ، وبشجعهم على الاستمرار في الصمود ، وقد أرسلهما
في قارب يعبر بهما البحيرة ، وبعد معهما عبارات التشجيع التي
جاء فيها حسب العادة .

« ان قدوم هؤلاء الماكند المبرزين الذين يطمون أنفسهم
قادرين على فرض الحصار على مدينا لا ينبغي أن يسبب لكم خوفا
كبيرا ، لأننى مرابط الى حواركم بقوة صخرة من الرجال الأشداء
العظماء ، كما أنني في ارتفاع أعداد أكر فادمة بعدهم ، وحين يلتزم
شمل هذه القوات كلها في جمع واحد فسوف نفاجئ معسكرهم
بالهجوم ، فاذا هاجمناهم نحن من الخارج فهبوا أنتم من ناحيتكم
لمساعدتنا ، وكونوا مسعدين لفتح الأبواب وانفضوا محدس
لا يسعاكم شغل سوى مهاجمهم ، ولا ترهبكم كيرة عددهم اد
ليس عندهم من العدد والعدة ما بكافىء ما عند قوائنا النشيطة ،
لأنهم جاؤوا من أقصى بلاد العرب ، فأعياهم طول السفر ، وأرهقهم
بعد المسافة ، وقت في عضدهم ما صادفوه من الماعب ، وهم
لا يملكون سوى حياء لا يصمد للقتال الشديد ، ومن ثم فهم ليسوا
نظراء لقواتنا التي وصلت حالا ، ولا يبلغ نشاطهم نشاطها ، وعليكم
ان تذكروا كيف انصبرنا في يسر على جيشهم القوي ، وأوردنا
ما ينيف على خمسين ألف من رجالهم ورد الردى في يوم واحد ،
فقرروا نفسا واهدأوا بالا ، ولا يأخذنكم الجزع لانكم تلقون نهار
الغد نحدة كبيرة ، وسوف تتخلصون من العدو » .

ظل الرسولا مبحرين على طول الساحل سعيا لأحسن مكان
يرسوان فيه ، وبينما كانا يللمسان متعدا أميا يدخلان منه اذا
برجالا يباعوبهما على حين غرة منهما ، فوقع أحدهما فى الأسر ،
وأما الآخر فقد فل حلال الهجوم ، فأخذوا الأسير الى القادة لم
يمسوه بسوء ، فاعترف لهم تحت التهديد والخوف بما يعرفه وكشف
النقاب عن كل شيء وأحبرهم عن أرسله وعما حمله على إرساله .
فانصح من روايه أن فلح أرسلان بعث بالرجلين ليخبر الأهالى أنه
قريب منهم ، وأنه قادم اليهم بالجند القوى الذى جمعه ، وقد
أجمع العزم على مباغنة معسكرنا عدا .

فلما عرف زعماء كناننا أن فلح أرسلان على وشك العدوم
أمرؤا بابقاء الأسر تحت الحراسة ، وبأدروا فى لحظتهم فأرسلوا من
فلهم الى كونت بولور والى أسقف بوى - اللذين لم يكونا قد انضموا
الى بقية العسكر حتى هذه اللحظة - رجالا يللمسون منهما المجيء
على جناح السرعة ، فلما سلم هذان الفائدان تلك الرسالة من
أحوانهما جزعا عليهما حرعا عر ليل ، وندما على بأخرهما عن اللحاق
بهما . وخرجا وظلا سائرين طول الليل حتى بلغا المعسكر مع أولى
بأشر الصبأ وقيل شروق الشمس ، وندما وحولهما البأس
ما بين مهلل وهائف ، والرايات ، تحفى أمامهما ، ويلمع الأسلحة
فى الجو ، وما كادا يضعان أنفألهما جانباً لسحذا مكاناً مع بقدة
الحيش فى المكان المقسوم لهما حتى انحدر قلح أرسلان من ناحية
الجبال - وكانت الساعة الثالثة طيقا لما قاله الأسير ، واجناز السهل
فى طريقه الى المدينة ، على رأس حشد كشف من الفرسان ، ان تعدهم
بجدهم قرابة خمسين ألف رجل ، وما كاد رجالا برون العدو حتى
هوا الى أسلحهم فحملوها ، والى طبول الحرب فدقوها ، والى
الأبوا فننفخوا فيها ، وأيقطوا العسكر كلهم فرتبوا صفوفهم
استعدادا للقتال ، وأخذوا لكل شيء قد يعرض لهم أهبتة ، وتهيشوا

لمواجهة العدو القريب منهم في صورة الرموا فيها عاية الانلزام
بقواعد التنظيم الحربى الذى دربوا عليه ومارسوه طويلا .

- ٤ -

أرسل فلح أرسلان كنيبة قوامها عشرة آلاف رجل على خيولهم
لكونوا طليعه ، نحو البوابة الجنوبية النى وكلت حراسها الى
كونت بولوز ، لكن لما كان فلح أرسلان غير عالم بوصول ريموند
فقد نوح أن يجد البوابة كعهده بها فى اليومين السالفين من غير
حراسة ، بيد أن أملة تبدد هباء اذ صادف عندها من الجيود المرابطين
أكثر مما فى أية بقعة أخرى ، لكنه لم يكن عالما بهذه التغيرات .

ومن ثم أسرع فسن غارة شعواء على رجال الكونت الذين رعم
أنهم لم يتخففوا من أحمالهم الا منذ قريب الا أنهم صمدوا للهجوم ،
وبعدوا شمل الصف الأول من عسكر العدو الذى أدبر هاربا ،
بيد أن ظهور فلح أرسلان على رأس امدادات قوية أحييا عزيمته
عسكره ، فعادوا الى ساحة القتال بعد أن كان قد انعط عقد نظامهم .

فى هذه اللحظات لاحظ البدوى وبوهيموند وكونت فلاندرز
أن العدو قد عاد بقوات أكبر عددا وأنها تقف صفوفها مراصة ، كما
لاحظوا أن الارهاق بلغ من رجال كونت بولوز مبلغا جاوز الحد ،
بسبب جيش كاسح باسل الشجاعة قد اندفع اندفاع رجل واحد
لمساعدة رفاقه ، فقام [الثلاثة] قومة صادقة بمهاجمة معسكرات
العدو والقريبة ، وتناوشوه بالرماح والسيوف ، وعلى الرغم مما كان
يبدو على العدو حين طلوعه فى البداية من دلائل الشجاعة والبأس .

إلا أنه لم يمض غير ساعة واحدة من الصراع حتى وعدوا أربعه آلاف
نفس ما بين قتيل وأسير ، مما حمل بقيتهم على الفرار .

وهكذا أحرزت قواتنا هذا النصر الأول بعون الرب ، واستمروا
يحاصرون الخصم حصارا أحاطوا فيه بالأسوار ، فلم يجرؤ قلعج
أرسلان أو أى أمير آخر من أمراء العدو - منذ ذلك اليوم وأيام
الحصار النالية له - على القيام بهجوم كهذا الهجوم ، وإذا كان
رعمائنا المذكورون أنفا قد برهنوا على كفاءتهم ، فإن تائكريد وولتر
دى جار لاند صنجان الفرنجة ، وجى دى بوسسا ، وروجى دى بار
نعل أبدو من البسالة ما أذاع صيهم وأكسبهم حسن الأحدوة .

ورغبة فى زياده بب الفزع فى قلوب الأعداء بعد صدر الأمر
لرجالنا بقدف أعداد كبيرة من رؤوس البرك المقولن الى داخل
المدينة ، قذفت بها الآلات اليهم ، وكما بعوا الى الامبراطور ألفا
من هذه الرؤوس وطائفة من الأسرى هدية ، فكان لذلك وقع طيب
فى نفسه ، وريادة على ذلك فقد قام ألكسيوس بمكافأة زعماء
الجيوش بمبالغ طائلة من المال ، وخلع عليهم شتى أنواع السياب
الحريرية المختلفة الأنواع ، ثم زاد فى كرمه فأرسل المواد الضرورية
لهم من غير ابطاء عليهم ، وأمر بجهيز سوق حافلة بالضائع من
أحلهم .

أراد قوادنا تنفيذ غرضهم ، فرأوا من الملائم فرض الحصار على
المدينة من كل جوانبها كما قلنا وذلك بوضع القواد فى أماكن
استراتيجية راحوا يصبون منها وابلا من الأضرار على الأهالى ،
عساهم يحملونهم على الاستسلام دون مشقة نلقاها ، لذلك قسموا
منطقة السور الى أقسام متساوية ، عهدوا بكل قسم منها الى فريق
معين من الزعماء .

فرباط الدوق وأخواه بقواتهم فى الجانب السرفى .
أما القسم الشمالى من المدينة فقد وقف فيه بوهموند بجيشه
ومعه تانكرىد والقادة الذين تبعوه . والذين ذكرنا أسماءهم من قبل .
وكان على هؤلاء فى الترتيب كونت فلاندرز ، وأمير نورماندى
مع جندهما .
كما خصص الشطر الجنوبى لربمويد كونت تولوز ولأسقف
بوى بمن معهما .
وقام سسيفن كونت شارنرز وبلوا بنصب معسكره وراءهم .
وكان معه هيج الكبير وبعض النبلاء الآخرين والرجال العظام .
ولما تم الاحداق تماما بالمدينة على هذه الصورة أجمع القادة
على وجوب الاسراع فى نصب الآلات اللارمة لسفويس الأسوار ، وهى
الآلات المسماة بالآلات المحركة .
كذلك صدرت الأوامر بالنعجيل بساء آلات رمى المنجنيق
وقذف الأحجار التى توفر الحصول على المواد الملائمة لصعنا من
الغابات القريبة .

- ٥ -

وسار العمل سيرا حثيثا فجيء بالفعلة الذين راحوا يتنافسون
فما بينهم فى انجاز ما بيدهم من عمل ، ليفرغوا لمهاجمة المدينة ،
وظلوا على هذه الصورة سبعة أسابيع ، وان دأبوا خلالها على مراوحة

المدينة بهجمانهم بين آن وآخر ، حتى جاء يوم من أيام كرههم طالعههم فيه نكد البطال ، يوم فقدوا اثنين من محاربيهم الأشاوس جمعا بين ببل المحند ورمعة المكانة ، هما : بلدوين الملقب بكالدرون ، وبلدوين الغننى ، فقد هلكا وهما يقاتلان أروع فال أثناء قصف المدينة ، اذ أصيب أحدهما بحجر أرداه صريعا ، وجاء الآخر سهم عرب أودى بحياته ، ومن ثم فرر العادة شس هجوم ثا ، ولكن هلك فيه وليم كونف فوريز ، وجالو دى ليل ، وهما يحاربان ببسالة ، وقد رميا بسهمين أصابا منهما مقنلا .

وأصاب المرص هنا أيضا دى بوسسا أحد بلاء مملكة الفرنجة ، وكان مرضا عضالا أودى به ، فدب الذعر فى نفوس شعب الرب لهلاك هؤلاء المحاربين الذين شيعوا الى مواهم الأخير محاطين بالشرف والحرن العميق ، وكان موكب حنازهم موكبا حافلا لم بحر العادة بمله الا لن تسنموا ذروة الشرف الرفيع .

- ٦ -

وحدث فى مرة أخرى أن كان جميع العادة منصرفين الى الحصار ، وقد بذلوا أنفسهم أصدق البذل فى ذلك ، فلم ينالوا قسطا من الراحة أو قلبلا من التمهل ، وراحوا يحاولون بكل ما فى وسعهم نصب آلاتهم على الأسوار ، عساهم يمكنون من شق طريق لأنفسهم يفتحون منه المدينة .

وانصرف كونت هارتمان وهنرى ديش - وهما نبيلان من مملكة التيوتون - وانصرف أتباعهما وحواشهما ومعاونتهم الى

نصب آلة صنعت - على أحسن ما تكون الصنعة - من جدوع البلوط التي سدوا بعضها الى بعض شدا منينا ، وأحاطوا الآله بأعمده غلاظ ، وربب عسى أن نسع في جوفها عشرين من الفرسان الشجعان عهد اليهم بنقويص السود ، فادا صار الفرسان في جوف الآله آمنوا على أنفسهم حتى من أعتى الصخور الضحمة الى برميهم بها الآلات . لكن حين أسمدت هذه الآله الى الجدار اشد الاهالى في رميها من فوق رميا أسفر عن حطمتها بمام الحطيم ، بسبب ما ايهال عليها من القذائف الحجرية ، فنثرت أجزاءها بددا ، وهلك جميع من كانوا بداخلها فقد سحقوا سحقا فاشد حرر الناس على هؤلاء النلاء ، وعظم الكرب لصناع جهد أيام كثيره صرفوها في بقاء تهدم عن آخره ، ولم يعد به أدنى فائدة ، وحزن الناس على مصير أولئك الشجعان الذين فطروا القلوب للنهاية الى اسهوا اليها ، ومع ذلك فما زال الأمل يراود النفوس ويهدد الجوانح ، لبيهم الجارم بن هؤلاء الذين خاطروا بحياتهم في سبيل المسح في هذا العمل ؛ بما فازوا بحياة أسمى من هذه الحياه الدنيا ، ولادراكهم الحقيقي أن هؤلاء الرجال الذين ماؤوا في ذلك الفصال ماؤوا شهداء ، لذلك فقد ازدروا هم أيضا الموت واسهانوا بالحياه الدنيا ، واسنمروا يواجهون سسى المخاطر بقلوب ثابتة الحنان ، ومن ثم فقد انفق القاده على الاسمرار في مضاعفة رمى جميع أسوار المدينه ، وراح كل قائد يبذل قصارى جهده في تشديد الحصار - في قطاعه الذى وكل اليه - شدة حملت بفيه الناس على النحدث بما كان مه . وسار العمل قدما ، وان كلفهم غاليا ، كما أن المعارك الموصولة والكمائن شبه الدائمة ، لم تدع لأهل البلد وقيا لالتقاط أنفاسهم .

ومع ذلك فان البحيرة المجاورة للمدينة كانت تقف أمام ما يعمله الصليبيون كأكبر عقبة أنفسدت عليهم جنى الثمرة المرجوة التي بذلوا من أحلها جهودهم المضنية ، هذا الى جانب ان هذه البحيرة كانت

مصدر راحة وطمأنينة للمحصورين الذين يسر لهم بركوبهم ماءها
أن يجلسوا ما يشاءون من الطعام والمثوبة ثم انها كانت تمكنهم بين
آونة وأخرى من ادخال رؤوس كثيرة من الماشية الى المدينة بحب
بصر قوائما التي كانت تقف مكشوفة الأيدي عاجزة عن معهم
من ذلك .

- ٧ -

حينذاك اجتمع القادة أحباب الله للنظر في هذه المشكلة على
وجه الخصوص ، وتدبير أحسن الوسائل لمعالجتها ، واستقر الرأي
منهم أخيرا على ارسال رهط من بنهم الى البحر ، بحرسهم كوكبه من
الفرسان ، ووكلوا الى هذه الطائفة من الناس أن ينقلوا القوارب من
البابسة الى البحيرة مفككة أو كاملة ، مسنضملين في ذلك ما يسر
لهم من عربات الحمل والعجلات وغيرها من وسائل النقل . وراوا
أن عدم تنفيذ هذا الاجراء لابد أن يؤدي الى فشل جميع مجهودات
الصليبيين وضياع كل ما بذلوه من مال ولا تعود ثمة جدوى لأي
شيء ما .

وخرج الرهط الموكل اليهم تنفيذ هذه الخطة فيسر السيد
طريقهم ، وكلاً محاولتهم برعايته ، اذ وجدوا السفن الراسية هناك
من الحجم المتوسط فحصلوا عليها في سهولة من الامبراطور ،
وجروها على البابسة الى البحر بعد أن شدوا كل ثلاث عربات أو
أربع الى بعض حسب طول السفن التي يحاجونها ، وأمكن بهذا
النقل على مدى ليلة واحدة سحب هذه القوارب من البر الى

البحيرة ، مسافة سبعة أمال أو نريد ، بعد أن شدوا الحبال الى
أكتاف الرجال ورفاب الجياد ، وكان من بينها سفن كبيرة الحجم
تسع الواحد منها ما بين خمسين ومائة مقاتل .

ولما تم سحب هذا الأسطول على البابسة ، وفرعوا من انزاله
الى البحيرة ، بلغ فرقة الجيش الصليبي غايتها ، وأسرع الى
الشاطئ ، وحى بالجدافين المهرة والرجال المغنولى السواعد المشهود
لهم بالمهارة فى هذا الفن ، وسرعان ما املاأ قلوب الجميع بالهمة
فى اسنلائهم على المدينة .

ولاحظ أهل البلد وجود عدد من السفن أكبر مما اعتادوا
رؤيته ، فملكهم الدهشة ولم يدروا أهى بعض من الأسطول الذى
حاء لمساعدتهم أم انها من سفن العدو .

ثم أدركوا بعد حين أنها لنا ، قد نقلها رجالنا من البحر بعد
بدلهم مجهودات مضنية فى سحبها على اليابسة ، ثم أنزلوها الى
البحيرة فتملكتهم من الدهشة أكبرها من بأس الصليبيين ومهارتهم
اد يحجوا فى تعمد عمل يعبر من المتوس منه وشبه مسجل .

- ٨ -

أدى ادخال السفن الصايبية الى سد معرج المدينه عن طريق
البحيرة ، ومن ثم نادى المنادى أن تحمل كل كتيبة سلاحها ،
وتقف بفبادة فائدها فى المكان المخصص لها ، كما نودى بتشديد
الضغط على أهل البلد ، وشن الهجوم العنيف على المدينة ، ومضى

كل فائد يشد من عرم رجاله ، ويخرج على رأسهم الى المعركة وهم في أكمل سلاح ، فلما سم ذلك كله حرب معركة لم تكن في الحسبان ، أبدع فيها رجالنا أما ابداع في استعمال الآلات ، مدللوا على شجاعتهم ، وبينما كان بعضهم منصرفا الى ملعمه الأسوار ، مضى غيرهم يقدفون الأحجار الصخمة على الحصون لضعف صمودها .

أما القسم الجنوبي الذي عهد به الى كوت بولوز لسخده مركزا لهجماته فكان به برج يبرز كل برج سواء في ارتفاعه الشاهق وبساته المحكم ، وفيل ان زوجه فلج أرسلان كانت نفهم على مفرقة منه .



وظل الكوت بضعة أيام يبدل كل جهده لهدم هذا السرج فما أفلح ، بل بات مساعيه كلها بالفشل اد على الرغم من موالاته رمبه بالصخور النني كانت تنصب عليه من آلبين الا أن الباء الصلدة أثبت أنه من المستحيل رحنة حجر واحد منه ، فلم ين ذلك الكوت عن مضاعفة الضغط عليه كما زاد من عدد الآلات التي أعدها لقصفه ، غير أن موالاته قذفه بكيل الصخر والأحجار الثقيلة أصابه بالشروخ فوهب مقاومته ، وانتهى الأمر أخيرا الى اصعافه ، فلما رأى العسكر هذا المنظر البهيج وثبوا فرحين وبنة فوية عبروا بها الخندق المملوء بالماء حتى حاذوا الأسوار في محاولة منهم لتفويصه ، وكان كل منهم يشجع رفيقه على الهدم ، فان أعجزهم الهدم فلا أقل من فتح نفرة فيه .



كان الأهالى يدركون أن الحظر يهددهم ان انهيار البرج ، فانطلقوا يملؤون داخله بالأحجار والأسمنت حتى اذا زعرت الآلات أسواره أو قوضتها حل الجديد محل القديم ، وأصبح عائقا فى طريق الذين يحاولون فتح الغرة .

غير أن رجالنا نجحوا فى هذه الأثناء فى سبيت سمار مى الى السور من هجمات العدو ، ثم فيض النجاح لهم أخيرا بعد أن بدلوا من الجهد عاينه ، وبفضل عددهم الحربية ، ويمكنوا من فتح ثغرة كافية لادخال رجلين فى غير مشقه كما أخذ الأهالى فى الوقت ذاته يزدنون من معاوهم العيفة ضد عدوهم ، وراحوا يقابلون الحيلة بالحيلة ، ويواجهون القوة بقوة ملها ، وأظهروا روحا لا تقل عما عند الصليبين وحاربوا بكل ما يملكون ، وجاهدوا كأهم رجل واحد ، فرموا بالنشاب والمنجنيق وكل سلاح تسر بين أيديهم تسنى لهم العشور عليه ، وتكاتفوا فى رد العدو ونفادى الأهوال المصبة عليهم .

- ٩ -

كان من بين المدافعين عن السور والفائمين بصد القوات المهاجمة رجل تميز من بين الرجال بضخامة جسمانه وشدة بطشه ، وكان نسيج وحده بما تنطوى عليه نفسه من كراهية لنا لم يحاول سترها ، وقد أذاق هذا الرجل رجالنا كثيرا من العطب بما كان يرميهم به عن قوسه ، وقد غره ما كان يصادفه على الدوام من كبد لنا ، ولم يعف عن نيل رجالنا بفاحش القول يرميهم به ، فلم يطق جود فروى العظيم احتمال هذا العار ، فتتكب قوسا ضخما ، وتخبر مكانا مناسباً ، وسدد رميته فى دقة ، فأصاب السهم - وقد انطلق -

أحشاء هذا الحاسر فجندله صريحا على الارض قد فارقه روحه فلفى
الحراء الحق الذى محا الالهات الجمّة السى كان يصبها على
الصلبيين ، وكان رفاق هذا الزنيم قد نسجوا على مواله فوصعوا
حطة محكمه كل الاحكام فى هذا الجزء من السور ، غير أن فرعهم
من الدوف اسبىد بأكرهم فقللوا من رميهم رجالها بالسلاح ، وكفوا
عن ملاحقتهم بالاهانات ، على أن رحالا عرهم لم يعلموا بآ هذه
الكبة فابروا على نشاطهم فى الدفاع عن المدييه من أماكن أخرى
على طول السور من أخذهم الحذر الشديد ، ولم يكفوا عن اصابه
رجالها برموهم وهم على الأسوار والأبراج ومنركونهم ما بين جربج
وقتيال ، ولم يكفوا بأن بصصوا عليهم العار والريب والدهن وعبر
داك من المواد السى تؤهح النار ضراها ، بل رادوا على ذلك بأن راحوا
برمون النار المشعلة على آلاسا فنلف أكرها ، الا ما كان منها فى
أماكن سددت عليها الحراسة البدفة .



أما رجالنا الذين كانوا فى الناحية الجنوبية فكانوا يشس
هجومهم العنيف على البرج ، واسنمروا على ذلك الحال من السباط
حتى البهانة ، لكنهم لما رأوا أنهم كلما نقبوا جزءا من السور نهارا
رمة العدو لبالا فانهم سرعان ما نراخوا فى جهودهم بنض الشئ ،
حتى اذا أيقنوا فشلهم التام كادوا أن يقلعوا عما هم فيه ، لولا أن
رحلا منهم شجاعا على المكانة - وهو فارس من جيش كونت نرمدى
قام بمحاولة بارعة ، مؤملا من ورائها أن يقنقى الآخرون منواله ،
فلس درعه ، ووضع خوذته على رأسه ، وعبر الخندق مستهنا بكل
خطر ، ودبا من السور مخذا من ترسه مجنا يقنه العطى ، عادفا
من وراء ذلك أن يقوض البناء الحجرى الجديد الذى شيده الأهالى
فى الميل ، وأن يعيد فتح الثغرة التى كانت موجودة فى اليوم

السابق ، فأصر أهل البلد أن يكون الهجوم الذى يشبوه من أعلى هجوما عنيفا ، فساءت محاولة [الفارس النورماندى] بالفشل اذا لم يجرؤ أحد من الصليبيين على القدوم لنجدته ، فمردى قنلا فدهس حقه الفذائف الحجرية الضخمة ، فهلك حب السور على مشهد من رفاقه الذين وان كانوا راغبين أسد الرعه فى انفاذه ، الا أبهم كانوا أعجز ما نكونون على مده بأى عون من جانبهم ، فجذب المارقون اللجنة الهامة بالخطاطب الحديدية ، وقذفوا بها فيما وراء السور ، حسب طلب موضع سخرتهم المفعده ، ثم جردوه فى النهايه من درعه وسلبوه حوذته ، وألقوا به الى قوائنا فى الخارج ، فبكاه الناس وهم يسبون عليه وعلى شجاعته ، ثم دسوه بما يلبى به من الاحرام وسحبوا حنمانه فى قبره ، ولم يشكروا أبدا فى أن منته هذه كانت عظمت فى عين الرب ، وأن روحه — وقد لقب هذه الخاتمة النبيلة — سوف تكون مع أرواح الصفوة المختارين ، لأن الجميع — كما قيل اجمعوا على أن من يسقطون فى ساحة القتال سبوا فى لهم ما وعدوا به من حياة أبدية مجيدة بين القديسين .

- ١٠ -

قام فى هذه الأثناء رعاء جوشنا الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الرب بعقد مؤتمر على مألوف عادتهم بعد ان اتضح لهم عدم احراز أى تقدم فى مشروعاتهم ، بل نسينوا أن واقعهم حرى على العكس مما رتبوا ، وأدركوا أنهم أضاعوا جهودهم وبعثوا نشاطهم سدى ، ومن ثم راحوا ينشأورون فيما بينهم بروح ملؤها الجدد فيما ينبغي عليهم عمله فى ظروفهم الراهنة هذه ، وبينما هم يقلبون الأمر على شتى

وجوهه بقلوب جازعة ، اذا برجل لمباردى يأبىهم ويبثهم أنه لاحظ
ألا جدوى من وراء جمع مشاريع مهندسيهم ، وان جهدهم داهب
ادراج الرياح ، وذكر لهم ما هو عليه من مهاره فائقة في هذه
الصناعة . وبين لهم أنهم لو وفروا له المواد اللازمة والمال الكافي
لايما العمل بأحدونه مما عندهم في حراسهم العامه فانه بمشنة
الرب منحره في ايام فلائل معدودات وأنه مدمر البرج . وفانح فيه
غرة واسعه ، ان بشأ الجميع أن يفحموه منها لم يعسر ذلك
عليهم . وأكد لهم أنه منم ذلك العمل دون أن يفقد رجلا واحدا ،
فأمدوه بما يكفى نفعاه مما أخذوه من الأموال العامة . هذا بالاضافه
الى تحصيصهم مبلغا مناسباً مكافأة له على جهده .

وجيء له بالمواد التي أرادها ، فعمل آلة رائعه الصنع صمم
على هيئة بسيطيع من بداخلها - رغم مقاومه العدو - أن يعلقوها الى
الرح من غير خطر يهددهم . فان دخلوها أحصمهم وتمكنوا من مباعه
عملهم في تفويض المباني وهم آمنون . لا خوف عليهم .

وأنجز الرجل صنع هذه الآلة كما أرادها ، فلما ضمت أجزاءها
بعضها الى بعض وتم تحصينها من كل النواحي حسبما أشار
[صانعها اللومباردى] دخلها هو مع رهط من الرجال الشجعان ،
وبدأوا عملهم في تفويض المباني وهم آمنون ، لا خوف عليهم .
ثم دفع القوم الآلة بمن في داخلها من الصناع ، حتى اجتازت الخندق
ثم سنوها الى الأسوار في براعة ومهارة فائقين .

على أن الأهالي لم يفارقهم اندفاعهم الذى طبعوا عليه ، فراحوا
يرمون الآلة من عل ، ويقذفونهم باليران المسنعة فما أجدتهم هذه
القذائف ولا أضرت بالآلة ، ولا كان منها شر عليها لأن الانحدار
الشديد لكل من السفف وجوانب الآلة حال بين هذه القذائف وبين

آن تسفر حيت رميت ، فسلم كل من كان فى الداخل من الرجال ، وسرعان ما أخذت نفة الأعداء نزعزع فى أساليبهم السليديه ، وكان اعجابهم بعفوية المخرع وقوة الآلة ، اعجابا بالغيا لما اتضح من فسل كل حبله حالها .

كان الدين بداخل هذا المحبأ آمين باما من مكائد العدو ، ومن ثم ظلوا يبايعون عملهم فى تقويض البرج وفى نقب السور بكل ما أوتوا من فوه ، ولم يكد الصدع يام بججر الأساس فيحلعه حتى وضعوا مكانه العروى والأعمدة الخشبيه خوفا من أن ينهار ما فوى السور على الآلة فيسحقها سحقا اذا ما نزع الأساس اذ لا تعود الآلة فادرة على تحمل كتلة ضخمة كهذه الكله ان هى انهارت عليها .

ولما اصبح أن البرج قد نقب بما يكفى لسقوطه ، اسفلوا البيران فى الدعائم التى يقوم عليها الحائط الآيل للسقوط . وجرى أيضا بمواد ملهبة بعمل على بقاء النار مشتعلة على الدوام ، واذا ذاك ترك العمال الآله وعادروها مسرعين الى رفاقهم ، حتى اذا انتصف الليل أو كاد أنت النار على الأعمدة الخشبية فصرىها هسيما ، وانهار الرج وصحب انهياره دوى كأنه الرعد ، أثار فى الناس حمعا - حتى من كانوا على مسافة قاصدة - فرعا وحف له قلوبهم ، ونبه صوب انهياره الجند فهوا الى أسلحتهم مجيعين العزم على افحام المدببة عنوة .

- ١١ -

طلب روجة فلج أرسلان - حتى هزم اللحظة - صابرة صبرا شديدا على بحمل أهوال الحصار ، أما الآن وقد بلغ العزع منها غايته بسبب انهيار البرج فقد أمرت - كعادة النساء - بأعداد السفن

وصحبت جواربها وكل أهل بيها ، وانقلب سرا من المدينه عازمه
على الدماس مكان يكون أكبر أمنا وسلامة ، لكن الصليبيين كانوا
قد أقاموا حراسا فى القوارب الراسبه بالبحيرة لمسح المحصورين من
الدخول أو الخروج ، واد كان هؤلاء الحراس رجالا عقلاء قد أعدوا
لكل سىء عدته ، ربطين أسند البعظه فى مراقبه أنه حركة فهد بكسف
لهم أمر هذه السنده وهى على وسك الهروب ، فامسكوها وبعها
ولداها الصغيران وساروا بهم الى القاده الذين أمروا بوضعها وولديها
تحت الحراسة الكسفة .



أما الأهالى فقد مسهم العرع الشديد بسبب الغره التى يمكن
عدوهم من فتحها ، وبسبب القبض على سنده لبا هذه الخطوره ،
وتملكهم الأس القابل من قدرتهم ، فأرسلوا فى لحطهم وفاده الى
الرعاء يلتمسون منهم منحهم هدنه ليرسب خطه الاسسلام .

ولما كان بايكيوس الذى تكلم عنه من قبل رجلا سديد المكر
كبير الدهاء ، فقد أدرك أن الأهالى لابد أن يحلوا عن دفاعهم عن
المدينة ، ومن تم دعا كبار رجال المدينة الى لقاء معه بصحبه فنه أن
يسنسلوا للامبراطور احلالا له ، كما أشار الى ان حشش التحاح
الواقف الآن قبالة المدسه مشعول هذه الملحظه باحار أمور أخرى ،
وذكر لهم أن هؤلاء الرجال الذين كان اشتركهم فى الحصان عن
طريق الصدفة البجمة قد بعدوا تماما عن حطهم الرئيسيه ، كما
أكد لهم أن الامبراطور سوف يقف على الدوام الى جانبهم (وليس
الى جانب الصليبيين) ، وأن فى قدرتهم الاعتماد النام على رحمته
الجديرة بشكرهم ، وحسناك يحق لهم أن يأملوا أن تكون الأمور
أكثر يسرا عليهم وألقى اليهم أن الخير لهم أن يسسلوا - ادا

استسلموا - الى الامبراطور وأن يؤثره على قوم مجهولين ،
وأفهمهم ان الاستسلام الذى لا مفر منه يجب أن يكون للامبراطور
الذى سوف يمكن اذ ذاك - بمعونتهم من اسروداد المدبنة التى
انتزعت منه ظلما مد قريب بسبب بطش الأبرك .

آنت هذه الحجج القوية وأمالها اكلها فى حمل الأهالى
المجمعين على موافقه [ناسكيوس على ما طلبه] مسرطين عليه صما
سلامتهم ، فلما اسجاب الى ما طلبوه منه وما اسرطوه عليه فقد
آثروا أن يسلموا المدبة وأنفسهم وكل ما ملك أيديهم الى
الامبراطور .



لم يكن هذا العرض مرفوضا أيضا من جانب العادة الصليبيين
نظرا لأنهم كانوا فى الواقع ينطلقون الى حامية تختلف كل الاختلاف
عن هذه الحامية ، ولم يكن من عرصهم أن يعيموا فى نيفية أطول
مما أقاموا ، ومع ذلك فقد طمعوا أن يطبق الاتفاق [المبرم بينهم
وبين ألكسوس] فندفع عنائهم المدبنة وأسلابها الى الجبس تعويضا
له عن المشاق التى كابدها والحسائر التى مى بها ونجمها .

على أن [الفداه اللابى] اسرطوا - قبل أن يبحوا كل
ما يتعلق بالاستسلام . وقبل أن يوافقوا على ما فيه تحقيق رغبات
الأهالى فى هذا الصدد - أقول انهم اسرطوا ان يعود الى الجبس
جميع اخوانهم من عسكر بطرس الناسك ، الذين أسرهم قلعج أرسلان
فى قلعة سمينوت وكذلك من أسرهم الأهالى أثناء الحصار .

لذلك تم موافقه القادة وأهل المعسكر على انقاذ رسل من
قلعهم الى الامبراطور ، يحملون اليه الرسالة النالبة يقولون له فيها :

« لقد أخلص الجيش الصليبي ووفاده السه في حصار سبعة
محبه منهم في المسيح ، واستطاعوا بجهودهم الصادقة الدؤوبه ،
وبعون الرب أن برعموا تلك المدينة على الحصوع ، واننا لنلمس
من كريم حلالكم أن لا تتأخروا عن ارسال بعض وجوه رجالكم الى
تلك الناحية ، على رأس قوة كافية لتسلم هذه المدينة الى استسلم
تعدبرا منها لاستمكم .

« وعلى الاهالى ان يلزموا هم أيضا بارجاع من في أيديهم
من الأسرى وهم كيرون ، ذلك لأننا راعبون في الرحيل في أعقاب
تسلم حلالكم المدينة ، ومعتزمون مناعة السر في طريق الحج
الذى اعزمناه بفضل الله » .

- ١٢ -

ملأت هذه الرسالة قلب الامبراطور عبطه ، فأعذ في ساعته
الى نيفسه رهطا اختارهم من حاشيته ونفائه وأهل الحيرة ممن
يستطيع الاعتماد عليهم في تسليم المدينة والقيام بتحصيتها ، وكلفهم
بأن يحملوا اليه - كملك خاص له دون سواء - كل ما غنم من
الأسرى من ذهب وفضة وشتى أنواع المناع . كما أرسل الى القادة
هدايا ضخمة طمعا منه في كسب ودهم ، وزاد فآزجى اليهم شكره
الخاص - كتابة وقولا - على خدماتهم الجليلة والعطاء العظم الذى
حصلت عليه الامبراطورية بفصل جهودهم .



على أن الحق بلغ غايه مداه بعامة الجند ومن دونهم ، لما
بذلوه هم أيضا من أقصى الجهد في حصار المدينة : الأمر الذى كانوا

يتوقعون معه أن تكون لهم وحدهم ودون سواهم هذه العنائم التي استولوا عليها من الأسرى ، وما عمروا عليه من البضائع ، وما رخر به المخازن الموجودة في المدينة دانيها ، فيعوصهم ذلك كله عن حصارهم لأملأهم ، لكن بين لهم الآن أنهم لم يجزوا الجزء الأوفى على ما تكبدوه من المشاق فقد أصبح لهم ما عرم عليه الامبراطور من احتجاز كل شيء لنفسه ولخزائمه الخاصة ، أعى الغنائم التي نص الاتفاق المبرم بينهم وبين الامبراطور على أن تكون عنيمة مساعه . فقدموا على ما بذلوا من جهد ، ونجلى لهم الآن أن كل المال الذي أنفقوه قد ضاع بددا .

كذلك دأب العاده على انهام الامبراطور [الكسبوس كومين] بانه نكب عهده ، وخالف بصوص الاتفاقية التي نصت شروطها المبرمه بسهم وبسه على أنهم اذا استولوا أبناء رحفهم كلهم معا على بلاد الشام بارساد الرب على أى مديسه من المدن التي كانت تابعة لامراطوريه وحب عليهم ردها اليه هي وما يلحقها من السواحى ، أما الغنائم والأسلاب وما شاكلها فنؤول من عبر حدال الى العسكر مكافئه لهم على جهودهم ، ويعويضا عن النعاب التي تكبدوها .



بأدر الصليبيون الى اخراج مرزفة الامبراطور من المديسه وردوهم الى مولاهم صفر الأيدى ، وما كان لأحد أن يلومهم على هذا العمل الذي قاموا به ، بل اللوم يكون في التزامهم الوفاء بالعهيد مع رجل نقص عهده معهم ، غير أنه لما كان الخوف من الرب بملا جوانحهم ، ولما كانت الرغبة في الاسراع بانجار عمل أجل حطرا من هذا وأبلغ أهمية بملا نفوسهم ، ولما كان امام حجبتهم هو مقصودهم فقد كموا مشاعرهم الحقيقية في صدورهم حفاظا منهم على الصالح العام .

ثم حاولوا بكل ما فيهم الرقيفة بهدنة مشاعر العامة الذين كان
سخطهم شديدا على هذه المعاملة التي عاملهم بها الامبراطور .

★ ★ ★

ولما دخل المدينة الرسل الاعريق الدين اوفدهم الامبراطور
لاسلامها وأخذوا سلاح أهلها وسلموا البلد منهم مضوا الى المعسكر
ووقعوا أمام العاده بأعبارهم - أى الرسل - مسئولين عن حياة
الأهالى وسلامتهم مصرحي بأن الأهالى هم الذين أعادوا المدينة الى
الامراطور ، وانهم استأمنوه على أنفسهم ، وأسلموه رقابهم .

بعد ان استسلمت مديته ببيعته على هذه الصورة ، أقيمت فيها
فوه كافية لحمايتها ، وسيرت بعدئذ امرأة قليج أرسلان وولداها ،
وطائفة كبيره من الأسرى الى انقسطنطينية ، فلم يكف الامبراطور
بعاملتهم بالرحمة ، بل زاد فبالغ في الاحسان اليهم واکرامهم ؛ إذ
لم تكف تنفض أيام قلائل على ذلك الأمر . حتى رد عليهم حريتهم
التي كانوا يتمتعون بها من قبل ، ويقال ان الدافع له على ذلك
هو ما كان يراوده من الأمل في اكتساب موده الترك ، وما كان
يطمح فيه من تحويلهم ضدنا من غير جهد ببذل ، وما كان يقدره
من أن قواننا لو حاصرت أى مدينة أخرى فلن يخامر أهل تلك
المدينة خوف منه ، أن هم استسلموا له على هذه الصورة التي
استسلمت له بها مدينة نيقية .

وكان الاستيلاء على مدينة نيقية في العشرين من يونيو من
مولد السيد .

لم يكد الحصار يرفع عن بيعة حتى أصدر القائد أمرهم بمابعه السير ، فربب العسكر مناعهم ، وحرث كنائبهم يوم التاسع والبتشرين من يونيو ، فى وحده مماسكه ، وظلوا سائرين لمدة يومين ، فلما كانت الليلة الثانية اتفقوا على النزول عند جسر معين لوفرة الماء عنده ، فافاموا هناك ، حتى اذا أهلب طلائع العجر الوليد وان كان الطلام لا يرال بمد روافه على الكون بأهبوا للرحيل مره أخرى فعبروا الجسر ، وهبا حذب اما صدقه أو بانفاق من الفاده - أن مضى كل منهم بكتيبه معارفا غيره ، وادا ببوهيموند كونت نورماندى، وسيفن كوت بلوا ، وناكريه وهيج كونت سنن بول ييمون وجوههم ناحية السبار ، وساروا ذلك اليوم وحدهم لس معهم غرهم ، حتى انتهى بهم السر الى واد يسمى «بجورجون» فعسكروا به حوالى الساعة التاسعه ، ونزلوا عند ضفاف نبع جار . كثير الكلا ، وافر المرعى ، وأقاموا الحرس حول العسكر ، ونعموا بلبلة هادئة رغم انشغال بالهم .

★★★

أما القادة الآخرون فقد ابجهوا يمينا ضاربين معسكرهم - بعد مسرة يوم - فى ناحية لا يكاد يفصلهم فيها عن غيرهم سوى ميلين ، وقد توفر لهم هنا أيضا المرعى الطيب والماء الغزير .

فى هذه الأثناء كان قلح أرسلان - وفد أهله الخطب الذى نزل به - دائم التفكير فيما دهمه على أيدي الصليبين من ضماح تلك المديه الرائعة من قبضته ، وما كان من فقده لزوحته والصبيين ، فاشتعلت نيران النار فى قلبه وأجمع العزم - ان أمكن - على نصب كمين لعدوه ، حينذاك حشد عددا كبيرا من العسكر ، منعبا بهم

الجيش الذى اعطى الى اليسار نفس خطاه ، وكاتب عبوه تأبىه
على الدوام بأخبار حركات العسكر الذى يسبغه وبيلفه لاغسام
الفرصة الملائمة لماعسهم ، وسرعان ما أعلمه كشافه بأفسام
الجيش سطرين ، وأن أهريجا اله أضعفها وأفلها عددا ، وأذكر
فى الحال أن الفرصة اله ينشدها مند وفط طويل فله واثنه فزل
من الحمل بجيشه الذى لا يحصه العد .



وما كاد الصياء بسرغ فى ببيد عبس الظلام التصف حتى بين
للمرافين ذلك لأن الجيش الصلبي كان قد وصح رحالا يرصدون
من بعد مكائد العدو ، ويعطون الاساره فى الوقت المناسب ،
فأعطوها ، فدف الطول فى الحال محدره من افرابه ، فهب
العسكر جمعهم الى سلاحهم وقد بههم دى الطول ونداء
المنادين ، وأسرجوا حولهم واستعدوا للالحام فما ورب من
النواحي ، وكان ذلك فى الصباح الباكر من أول بولسو ، واصطف
الصفوف لنقال ، سواء منهم أمراء المثين أو أمراء الحمسين ، ويقدم
كل واحد منهم على رأس جماعه ، أما الزعماء فكانت أماكنهم فى
أحنحة المشاة .

ولما كانوا يريدون أن يكون نفدم القوات للعمال من غير عائق
يعوقها ، فقد أنزلوا فى غابات البوص المتكاف العريبة منهم جميع
العجزة والمسنين من الرجال والنساء ، والآلاف المؤلفه ممن لا جدوى
ترنجى منهم فى المعركة وحعلوا معهم كل ماعهم ، وكان هذا المكان
الذى اخناروه ، والذى تحميه العربات الخفيه وغيرها من مراكب
النقل ملاذا آمينا ، وبعصوا بالرسيل الى كنائب الجيش الأخرى اله
دفعها الطبش للانفصال عنهم حاملين اليهم نبأ ما هم فيه من حرج
وضيق ويحونهم على المجيء اليهم على جناح السرعة لنجدتهم .

ومن ثم سم احاده بنظم كل شىء فى معسكر بوهيموند وفق ما يقضى به أصول الحرب ، ولما فارب الساعه الثانيه بهارا ظهر قلع أرسلان ، يفود جماعة لا يحصنها العد من البرك . فاسسولت الدهشه على حششا ، اد لم ير فى هذا الحشد الكيف الذى قيل انه حاور مائى الف معانل سوى الجماله . على حين كانت قواتنا - كما قبل - سأل من حليط من الفرسان والمشاة .

- ١٤ -

حين أخذ جيش البرك فى الاصراب بعالت فى المعسكر ضجه هائله لم يعد أحد يدرك معها أو يسئبن منها كلمة مما يقال ، فلم يكن سسمع الا صليل السلاح ، وصهيل الحبل ، وقرع الطول ونفخ الأبواق ، وهافات المعسكر الحماسيه اللى بعالت حتى حل انها ببلغ عمان السماء . مما أوقع الفزع فى خلوب من لم يالفوا شهود مل هذا الموقف .

وأحدب صفوف البرك برمى بنفسها على فواننا ، ممطرة اياها بوابل هبان من السهام ، كأنها المطر الدفاق فسدت الأفق ، حتى انه ما من أحد من المحاربين الصليبيين الا وقد أصابه جرح لتوالى السهام بعضها فى آبر بعض ، وكانت كل رهبة أكف من سابقتها ، فان فات سهم واحدا أصابه التالى بحرح واذا كان هذا الأسلوب من القتال عرييا على رحالنا وليس مألوفا عندهم ، فقد صعبت عليهم مواجهته . وأخذت خيولهم سهاوى بحهم وأمام أعينهم ، وهم عاجزون عن نجدبها اذ كانوا هم أنفسهم مرمى صربا تأتيهم من حيث لا يحتسبون ، ومن نواح سدت عليهم فيها مسالك الفرار ، ومع ذلك فقد استمروا يقانلون خصومهم بالسيوف والحراب ، وبجاهلوتهم دفعا الى الوراء ، حتى اذا عجز الترك عن الصمود بسب

شده الغارة عليهم ، فبحوا صفوفهم عمدا لتجنب الالتحام ، فجارت الحيلة على الصليبيين اد لم يجدوا واحدا يصدى لهم ، ورجعوا الى مواقعهم فى الخلف دون احراز النجاح ، وحسناك عاد المرك ثانيه فصفوا صفوفهم ، وكروا على رجالنا صابيين عليهم سيلا جارفا من السهام والنشاب ، حتى قل أن استطاع صليبي واحد فى هذه اللحظة النجاة من غير حراح خطيره نافذه . وقد قاوموا ما وسعهم المقاومة ، يحميهم ما عليهم من الدروع والرديات والخود ، ولكن سافطت الجياد على الأرض ، ووقع من لا سلاح معه واخنط الحابل بالنابل .

ولقد سقط فى هذه المعركة فراهه ألفين من وجوه الفرساى والمنساء على السواء ، كان من بينهم « ولجم » ابن المركير الطيب وأحو نانكرىد ، وكان شابا ببسر يومه بما سيكون عليه فى غده ، ذلك أنه بسما كان مسنبسلا فى الدفاع عن جماعه ، اذا سمهم عرب أصابه فصرعه .

كذلك لقي روبرت أوف باريس نهايه بنفس الطريقة ، وكان محاربا بارعا مشهودا له بالكفاءة .

بل ان نانكرىد دانه – الذى لم نكن بكنرت بالحياه ولا يعا بمكانته السامبة – كاد أن يكون هو نفسه من الهالكين ، وكان الموت منه قاب قوسين أو أدنى ، اد طوح بنفسه فى معمان القتال ، صابا على العدو أهوال الدمار ، ولكنه نجا بفضل ما بذله بوهمود من جهد فانزعه من برائن الموت رغم أنه . واسمرت كفه العدو بزداد رجحانا ، على حين شالت كفة الصليبيين وأخذت شوكتهم فى الصبغ ، واذا ذلك شرع الترك فى مهاجمنا بالسيوف ، ونضيق الخناق علنا ، وهم أقرب ما يكونون لنا ، حتى لم تعد أية حدود

نرتجى من الفسى المدلاه من بجادها ، فاصطربب الصفوف ، واريد
الحاريون الى حسب بوجد أمتعهم وأحمالهم فى الغابات الكيفه
المشابهه ، وراحوا يتزاحمون حول العرباب ، أملا فى أن يجدوا
شيئا من الحماية .

- ١٥ -

فى هذه الالباء البى كان حشس الايبان فيها يحارب بحب عده
الطروف ، والبى أخذت فيها قوة بوهيموند فى الضعف والبلاشى ،
خف لبجدهم رهط من احوابهم الأساوس العظام ، بطالع فبهم
دوى حودفروى ، وكوب ريموند ، وهيج العطبم . وبلدوين أسساس
أحا الدوى وسواهم من العاده الذين أخلصوا الببه لله وكانوا قد
خلفوا وراهم فى المعسكر من لا ظهر عندهم يركبوه ، ونركوهم مع
سنى أنواع الأمعه ، أما هم فقد هبوا نحدة على رأس أربعين ألف
مقابل من العرسا ومعيهم أحسن السلاح . فبت فدومهم الحماسة
السديده فى رجال بوهيموند الذين كانوا على وشك التسليم ، فلما
عاودهم نأسهم ، عادوا الى ساحة المعركة أشوق ما يكونون لأخذ
النار ، النار ، اننعاما لما نزل بهم من المصائب ومسح عار هزيمتهم
السابقه ، وكروا على العدو كرة ضاربة ، وأجادوا الضرب بسوفهم
بأيد لا يعرف الكلل البها طريقه وما لبثوا قبللا الا وقد هزموا الأعداء
الذين لم يعودوا قادرين على الصمود ، والذين كانوا يخافونهم أسد
الخوف ، ويحسبونهم أشد منهم بأسا .

★★★

وفد راح أسقف بوى — مع رهط من مساعديه فى نفس أسقفبيه —
بقوى عزائم الناس ويعظهم ويشجع القادة ألا يتراخوا فى قتالهم

أخذوا بدم من هلك من اخوانهم ، مؤكدا لهم أن النصر لا يد مسعفهم .
من السماء ، ودعاهم الا يمكنوا خصوم الله وأعداء اسم المسيح من
التباهى بأنهم أهلكتوا المؤمنين . وظل رجال الرب يحنون الناس على
القبال بهذه الكلمات وأمنالها من عبارات الشجيع ، وبسوا فيهم
الشجاعة .

ومن ثم شن الصليبيون فى همة لم يعهد فيهم س قبل ،
هجوموا عسفا سلوا فيه سيوفهم على الأعداء ، مغررين صفوفهم حتى
حملوهم على الفرار ، وأعملوا فيهم مذبحة شرسه ، كما راحوا يعقبون
الفارين فى اصرار وعزم مسافة ثلاثة أو أربعة أمال الى ما وراء
معسكرهم الذى كان يقوم فوق واد شديد الخصوبة ، وكان القتل
فيهم فطيعا .

وهكذا بيدد البرك أمام عدوهم مكبدين خسائر فادحة فى
الأرواح . ثم عاد الصليبيون الى معسكر حصومهم فجاءوا منه ببعض
من قومهم [اللابى] ممن كان العدو قد أسرههم ، وعروا فى هذا
المعسكر على كميات كبيرة من الذهب والعصه ، كما اسولوا على
كثير من الحمير وبغال الحمل وفواقل الجمال (وهى دواب لم ييس
لعومما رؤسها من قبل) كما اسولوا على بعض الخيل ووجدوا فيما
وجدوا شسى أنواع الخيم والفساطيط المختلفة الألوان ، فأخذوا هذه
المغامم الغالية كلها وقفلوا راجعين بها الى معسكرهم برؤوف عليهم
راياب النصر ومحملين بأعلى الأسلاب ، وسائقين أمامهم الدواب
والعييد .

ويقال ان العدو فقد فى هذا اليوم ما يعرب من ثلاثة آلاف رجل
من رجاله الأفوياء البارزين من أصحاب المكانة الرفعة فى قومهم ،
كما سقط فى تلك المعركة أربعة آلاف من عامنا ، ومن الطبقات
الدنيا من الرجال والنساء على السواء .

ويقول أهل السن - اعتمادا منهم على ما تعيه ذاكرتهم - انه لم يهلك من وجوه قومنا سوى اثنين فقط ، ولقد حرب الموقعة يوم أول يولسو ، وكان الحظ فيها بين صعود وهبوط كما أنها حرت بين هوات لا بكافىء أحد الجانبين فيها الآخر فى العدد ولا فى العدد ، واستمررت من الساعة الساعة حتى الساعة من ذلك اليوم وقبل ان عدد الفرسان وحدهم الدين أحصوا فى جيش قلع أرسلان كان يربو على مائة ألف وخمسين ألفا ، أما فرسان الصليبيين الذين شاركوا فى هذه المعركة فقد قاربوا الخمسين ألفا .

ولما فرغ الجيش من هذا النصر العشيب الذى هبأه له العناية الالهية انضم رجاله بعضهم الى بعض مره نابه ، وأنجب لهم مره راحة قصيرة صرفوها فى مداواة جراحهم ، وأقاموا نلأه أيام سونا وسط المراعى الخضراء مستجمين معنيين بجأدهم ، وزاد فى رفاهيتهم جميعا ما خلعه العدو وراه رغم ارادته من متونه وأحمال ضخمة من المأكولات الكيرة .

★★★

وطهر قوادبا العظام ظهورا ببنا فى هذه الأرمه الخطيره ، كما وابت الفرصة من هم دونهم لكسب المجد المؤمل ، لاسبما بلديوين بورج وبوماس لافير ، ورينو دى بوفيه ، وجالو دى شوموت ، وحاسنون دى بيرن وجيرارد دى شيريزى .

ويعرر منذ هذا اليوم بالاجماع أن ننضم الكنائس بعضها الى جانب البعض وتنوحد ، وأن نسير مترافقة كالجسد الواحد حتى ينقاسموا حمصه الاقبال الحظ اذ يقبل ، وادباره اذ يدبر .

أقام المحاربين مسجماً في هذه الساحة ثلاثة أيام كما فعلوا
وكانوا هم وحدهم أحوج ما يكونون لهذه الراحة ، ثم لما ناداهم
النير اسعدوا مرة أخرى لمابعه رحلة حجهم التي بدأوها ، وكان
طريقهم الذي سلكوه يمر عبر كل بلاد بسينبا الى بسنديا ، وقد
دفعهم رغبتهم في اخضرار زحمتهم الى الترويل عن عر فصد في افلم
جاف ، يكاد يكون بأكمله حلوا من الماء ، ولما صاروا فرسه للخطرين
الجسيمين : الظمأ وسدة فيظ يوليو كما هي العادة ، فقد أخذت أعداد
كبيرة منهم في الهرب ، وتقول الروايات أنه هلك يوم ذاك أكثر من
خمسائة من الحسنين من شدة العطس والحر ، ومضى الرواية
فيقول ان الحوامل من النساء طرحن ما في بطونهن من شدة الظمأ
والحر المهلك ، وكان ذلك حدثاً لم يسجل الماريخ له مثلاً .

أما النساء اللاتي كن يعانين غصص الكرب الشديد ، فقد حلقن
أطفالهن في المعسكر ، منهم الأحياء ومنهم الموتى ، وفيهم من يعاون
سكرات الموت ، ودفع الرحمة الانسانية غيرهن الى احتضان أطفالهن
في صدورهن ، عبر آبهات أن يراهن الرحال وهن سطلقن
في الطرقات شبه عاريات ، لا يشغل بالهن شيء سوى خطر الموت
المفرع ، عبر حافلات بأنوثتهن .



ولم يحد الرحال فنيلا قوبهم الجنمانية الهائلة ، فأعمى عليهم
من وطأة الحر ، ومما بذلوه من جهد ، فراحوا يلهون بأفواه مفتوحة .
وأثوف نثلف على سمة ريع ، ويسعون لالتماس الرطوبة ، عساه
تخفف بعض ما هم فيه من ظمأ ، لكنهم لم يحدوا شيئاً مما ننسدونه .

لم يصر مكابده هذه الأهوال على الآدميين وحدهم ، بل بعدتهم
أيضا إلى دوابهم التي تحمل ماعهم فعصهم كل بهيمة داب طلب
كاتب سنجب لكل ما يؤمر به ، أما الطيور الصغيرة والصقور
المحلقة في السماء فقد لفظ أنعاسها ، كما أن البزاة التي كان
البلاد يسمعون بها أناء خروجهم للصيد والقص فقد مات هي
الأخرى في أيدي أصحابها ، على الرغم من الرعاية القصوى التي
يجبونها بها .

وأما الكلاب ذات حاسة النسم النافذة والمدربه على الصيد ،
والحيوانات الأليفة فقد هجرت أصحابها الذين تبعهم ، وراح
يسافط على طول الطريق وهي تلهب من الظمأ ، وكان أسد الأشياء
ايلا للسادة وأوجعها لبفسهم ، هي أن جباههم الصافات - وهي
رفقهم في حروبهم وكان عليها كل اعتمادهم في طلبهم السلامة
لأنفسهم والتي حققت الفخر لنفسها بقوائمها الوثابة وأساسها
الرافة - هوب هي الأخرى نافقة كما نفقت دواب الحمل العاده بحب
وطأه الحرارة والظمأ .

وأجرا بفضل سع كل الرحمة ورب السلوى ، فأنقذ هؤلاء الحجاج
المعذبين الظماء إذ قادهم إلى نهر كانوا أحوج ما يكونون إليه وقد
طال بحمهم عنه ، فتدافعوا إلى مائه في لهفة مجنونة ، وراح كل منهم
يراحم الآخر في الوصول إليه . لكنهم بعمورهم على هذا الماء الذي
طال سوفهم إليه سقطوا في خطر أكبر مما هم فيه ، حيب أفلوا
يعمون منه عبا ، ولا يستطيعون مسك أنفسهم عن السرب ، فكان
ذلك خطأ منهم في هذه الحال ، إذ كانت كثرة الماء تحمل لهم الهلاك ،
الذي كانوا قد نجوا منه من قبل ، ولم يقف الأمر عند هلاك الآدميين
بل نفى كبر من دوابهم بنفس الأسلوب .

ثم شاءت عناية الرب أخيرا أن تنقذهم من هذه الأخطار فجاءوا

الى ناحية شديدة الخصب والماء قرب أنطاكيه الصغرى ، عاصمه
بسنديا ، وكانت من أجمل الواحى لما فيها من العنواب والمراعى ،
فضربوا مخيمائهم فى حقولها الحصراء .

- ١٧ -

وحدث لأول مرة فى هذا الموضع أن عمد بعض الرعماء الى
الانفصال بعوائهم عن الجيش الرئيسى ، وكان أول من فعل ذلك
منهم بلدوين أخو الدوق ، وانضم اليه بطرس كونت سننناى وأخوه
رينارد كونت تول ، وبلدوين دى بورج ، وحلمرب دى موب كلتر،
واسمى متحجبوا معهم سبعمائة فارس وجماعة من الجند المشاه .

أما نانى القاده الدين انفصلوا عن الجيش فكان ناكريد وفى
صحبه ريسارد من برسباس ، وروبرب أوف اترى على رأس
فوه كبيرة فوامها خمسمائة فارس وبعض الجند المشاه .

كان يحرك هؤلاء الفرسان جميعا غرض واحد لا يخلفون فيه،
ألا وهو استطلاع الطرق واستكشاف الاقليم المجاور . والحب
عما يجدونه ، وكان عليهم بعد ذلك أن يبعثوا الى الزعماء الذين
أرسلوهم جميعا بتقارير عن كل ما حدث بالنسبة للزمان والمكان ،
وأن الجيش يمكنه متابعة الزحف فى سلام وطمأنينة ، وكابوا فى
بدابة تغادرنهم المعسكر ملازمين للطريق الرئيسى فمروا ببعض المدن
المجاورة ومنها فوننة وهرقلنة ، ثم عرجوا بعدئذ يمسا ، وأخذوا
يحون الخطى ناحية الساحل .

فى هذه الأثناء استهوى الدوق والقاده الآخرين منى ظلوا فى المعسكر حسن منظر الواحى المحطة بهم وبهاؤها ، وجذب انباههم قرب المكان من الغابات ، فانطلقوا الى واحدة منها فى طلب الصند وذلك لابهى أحسوا وهم فى عمرة انسغالهم بالعمل المضى بحاحهم الى الرويح عن أنفسهم بعض السىء ، وودوا لو خلوا وراءهم - ولو لقرة قصره - ما يشغل بالهم من أمور كانت نقلفهم على الدوام ، فلما دخلوا الغابة استلقت انتباههم كير من مباهاجها ، ففرقت بهم المسالك ، ولاقوا مخاطر حمة .

فأما الدوق الذى خرج للغابة التماسا للرياضة وللهو ، فعد واجه على غير انتظار دبا بشع المطر يباهب ليعض على رجل من الفراء الحجاج يعمل حطابا فاصدا افراسه ، وعسا كانت مجاهدة الرجل فى العثور على ملجأ يهرب اليه فرارا من الدب . فلم يسعه الا الصراح بصوب عال يسأل المعوة فى محنه الخطيرة البى هو فيها ، وشاء العدر أن يظهر فى هذه اللحظة الدوق الذى أسفى على رفيقه المكوب ، فاندفع لنجدته ، فما كاد الدب يرى الدوق الذى كان موشكا أن يرفع سيفه لضربه حتى انصرف عن فريسه الأولى وألقى بنفسه على الخصم الشجاع ، مكسرا عن أنابه ، ومسددا نحوه مخالبه ، فأصاب حصانه بجرح خطير وجد الدوق نفسه ازاء مضطرا للدورل عن طهره ، مصلتا سيفه لمهاجمة الوحس الذى رمجر زمجرة ترعد لها الفرائص ، وأقبل على الدوق فاغرا فاه ، مكسرا عن أنابه ، غير مكترت بسيف الدوق ، بل هم بالامساك بصاحبه الذى رد هجمته بحسامه محاولا جهده أن يطعنه طعنة نجلاء ترديه ، فتحاشى الحيوان السلاح ، وطوق الدوق بذراعه وطرحه أرضا ، فلم يعد الدوق يملك دفاعا عن نفسه اذ علاه الوحس ، وأصبح من السر علبه أن يمزقه اربا بمخالبه وأسنانه ، ولكن المحارب الماسل استل حسامه ، واذا كان شديد البأس فقد احتضن الدب المهاجم

يسراه ، بينما أعمدت مياه سبعة حصى مقصه في حبه فصرعه ،
وهكذا كسب الدوى الجولة بالدم وان حرح منها بحرح حطر في
ساقه ارمى منه على الأرض وقد وهى بدنه وسرى الصعف في كناه
اذ اساب من دمه ما لم يعد معه فادرا على البيوض .

وبعالى صراح الرجل العفر الذى قدرب له السحاه مفصل
مساعده الدوى له ، فببه صاحبه العسكر لما حرى ، فاطلفوا كلهم
صوب الناحية البى كان البطل السجاع - حامى الجيوس - مسحى
فيها ، وقد أنخسه حراحه فوضعه على محفة ، وحمله القاذة الآخرون
الى المعسكر وسط نكاء الجمع ، واستدعوا له المطبين الذين بدلوا
المحاولات السافه لانقاذ ، ووصفوا له من الأدوية المناسبة ما جعل
الأمل يداعب النفوس فى أن يسرد عافنه .

- ١٨ -

حدث فى هذا الوقت بالداب أن اعمرى المرض الشديد ربوبه
كوب بولور ، ذلك الميجل الذائع الصب ، وحمل هو الآخر فى
محفه وقد أنهكه علته وأثقله مرضه . حتى انهم لما وضعوه على
الأرض فى انتظار موته كانت أنعاسه شبه مقطوعة ، فقام ولم أسقف
أورانج الطاهر السلوك بأداء كل الشعائر الى نؤدى للمؤمنين ،
مثما يفعل ازاء رحل قد انهى ولفظ أنفاسه .

واذا رأى العسكر أنهم قد حرموا - أو كادوا أن يحرموا -
من توجهات هذين الرحلين العظمين فقد ران عليهم من الأس

ما كاد ان يصرفهم عن مباحه رجله الحج الذى كانوا قد قطعوا العهد على أنفسهم للامام به . واستحرقوا جميعا فى البكاء لانسعال بالهم بحاله فائديهما ، وفام كل الحجاج أساء بأديهم السعائر الديسة برفع آكف الضراعه للرب عساه يرد على هدين الزعمين عافسهما ، فأصغى اليهم الرب الرحيم واستجاب لبوسلاهم ودعائهم ، ورد على الرجائن صحنهما ، وأصغت الرحمة لصلوب شعبه .



ولما انتهى العسكر الحجاج من اجبار ببسيدا دخلوا افلم ليكوبيا ، وجاءوا الى عاصمه فوبه ، وكانت هذه الباجبة فاحله جرداء . فابلوا فيها بعص كثير فى الطعام أدخل الأس الى فلوبهم ، وكان الركب قد علموا من قبل برحما عليهم . فاطلقوا بعسوس فسادا فى الافلم بآجمعه ، وبهوا جميع مدنه اعصادا منهم على عجز رجال أى مدينه عن المعاوامه . وزادوا على ذلك بأن سبوا النساء ، واسرقوا الأطفال وبهوا كل ما صادفوه من الماسه والأعنام ، ثم ثروا الى العبال المسعة مصصمين بها . وكان أمالهم الوحيد هو أن يبادر الصلبسون الى مقادرة الاقلم حين بلغ الجهد منهم غايته بسدر حاجتهم للطعام ، ولم تكن التترك واهمين فى هذا الأمل ، اد فر الحجاج من هذه الناحه الفاحله السى لا يستطيع اسعافهم بما يقدم أودهم وغادروها على حياح السرعة .

فلما خلفوا هرقلمه وراءهم ، حاءوا الى مدينه مرعس ، فقصوا معسكرهم بها . وأقاموا بها بلالة أيام .

وفى أثناء وجودهم فى مدينه مرعس هذه فاضب روح [حودهيلد] روجه بلدوين - أخى حودفروى - الذى كان قد تركها فى رعاية أخوبه حين سفره ، فرفد فى الرب فى هدوء ، ولفظت

انقاسا بعد مرض عصال أمصها ، وكاتب «جودهيلد» (١) هذه امرأه
شريفة المولد ، عاشت حياة حميدة طاهرة ، وتخلق بالخلق الكريم ،
ودفنت حسب مايت ، بعد أن أقاموا لها شعائر الشرف الحديرة بها .

- ١٩ -

فى هذه الأثناء قام نانكريد الفاضل ، وهو من هو فى الفصل
بعرض الحصار على طوروس وهى أهم مدن تلك الولاية . وبحج
اذ سناك أقصر الطرق فكان أول من بلغ فليسيا احدى ولايات الشرق ،
وساء على ما بقوله القدماء فان ولاية « أنتوكينا » كانت تسمى بمطغه
السرق .

رياحم فليقة من السرى ولاية كوابسريا ، « سوربه
الشمالية » كما نأحدها من الغرب ايسوريا ، ويحدها من الشمال
حال طوروس ومن الجنوب بحر ايجة ، ويوجد بها مدينان
رئيسيان هما طرسوس موطن معلم الميدين ومهبط رأسه أما
الأخرى فمدعى « عين روبة » ولكل منجما فراها النابعة لها . ومن أجل
هذا يقال أنه بوحد قباقة الأولى وقليقة النابعة .

والقول السائى أن مؤسس طرسوس كان يدعى « طارسس »
وهو ناسى أولاد « حافام » ابن يافت الذى نذهب الروايات المديمة
الى أنه الابن المالك لروح ، ويدللون على صحة هذا القول بأن المدينة
تحمل اسم مؤسسها .

(١) أشادت الترجمة الانجليزية فى تعليقها على حبر هذه السيدة أنيا عرنت
ناكتر من اسم ، ومع أن وليم أثر من هذه الأسماء كلمة « جوتيريا GUTEREA »
الا أنما بفصل « جودهيلد » ساء على المراجع الواردة فى هذه الهاشة الانجليزية .

ومع ذلك فإن لسولسوس رأيا مخالفا لهذا الرأي بشأن هذا
المؤسس ، فيقول في الفصل الثالث والأربعين من كتابه «المذكرات»
« وبيع فيليقيا مدينة طرسوس التي هي أم المدن ، والتي أسسها
بريسوس داناى الشريف ، ويسقها نهر « كيندس » الذى يقول
بعض النقاد انه يبع من جبال طوروس ويحدرا انحدارا عسفا
مجبعا ، على حين ذهب آخرون للعقول انه أحد روافد نهر
« هند اسباس » .

وربما كان هناك شيء من الصحة في كلا القولين من أن مؤسسها
هو طارسيس ، ثم جاء من بعده بريسوس فحصبها وزاد فيها .

أقام بانكريد ورجاله على حصار مدبنة طوروس بصعده ابام
حتى أرغم أهلها - بالوعيد بانه والكلام المعسول بانه أخرى - أن
يقبلوا ما رسمه من ادخال رايه ورفعها على أحد أبراجهم رمزا
لاعترافهم بالحصوع له . فاستجابوا لطلبه هذا ، مشرطن عليه أن
يطلبهم بحمائه حتى يحضر بوهيموند والجنس الرئيسى ، وألا يهاجم
- خلال الفترة الواقعة فيما بين دخوله وقدم بوهيموند - على معادرة
دورهم أو نرك مزارعهم ، فان رضى بهذه الشروط قبلوا أن يسلموا
المدينة فى هدوء الى بوهيموند حين يصل ، ويبدو أن هذا العرض كان
مرصا لبانكريد . فقد قبله هو أيضا .

كان أهالى هذه المدينة مسيحيين مثل جميع بقية سكان
الاعليم ، وهم يتألفون من الأرمن والأغريق ، غير نلة قليلة من الترك
الذين كانت لهم الغلبة الحربية لمهارتهم فى استعمال السلاح . والذين
كانت حراسة الحصون موكولة اليهم ، وقع على عاتقهم مهمة قمع
الأهالى بالسدة ، أما المؤمنون فلم يكن مسموحا لهم بحمل السلاح
ومن ثم صرفوا همتهم لممارسة البحارة والاشتغال بالزراعة .

فى هذه الأثناء كان بلدوين - أخو الدوق - ورفاقه الذين.

سلكوا مسالك لم تكن مألوفا - فى ميسس الحاجة للطعام ، لكن
سسى له أخيرا ، بعد جولات دائرية ، أن يصل بالصدفة الى قمه
جبل من الجبال اسشرف منها منظرا يمد حتى البحر الى قيليقيا
ومدنها المساربه بحب قدميه .



ولما بين لبلدوين أن هناك معسكرا حول طرسوس ، سرب
المحاف أن يكون قد ضل الطريق ، وأن تكون هذه الحيام حيام
عدوه ، بيد أن رعبه الملحه فى الوقوف على هويه هذا الافلم وعمن
يكون أصحاب هذا المعسكر الذى يراه على بعد دفعه للحروح على
رأس جماعه بما عرف عنه من الاقدام ، ونزل بهم الى السهل .

وكان ناكريد قد أقام لنفسه هو الآخر عبونا فى نقاط مرتفعة،
كما أخذ حدره توفعا لأى عدوان قد يقوم به العدو ، فاسدعى فى
الحال الله رفاقه فى الحرب وحملوا أسلحتهم لعينه بأن الدين
رأهم انما هم عسكر الحصم ، جاءوا نجدة للمدينة ، فصاح فى رحاله
مسححا اياهم ، وخرج بهم رافعين راياتهم لصد القوات الراحفة ،
ولم نظر روحه شعاعا لايمانه بالله ، فلما اقترب المصافان بعضهما
من بعض ورأى كل واحد منهما الآخر رؤيا العين ، عرف أن لىسب
هذه أسلحة العدو ، فدنا اذ ذاك كل واحد من الآخر فى اطمئنان
ونعانقوا .

وبعد الفراغ من الأحاديب الرقيقة المألوفة انضم بعضهم الى
بعض وابعوا زحفهم الى المدينة لاكمال الحصار ، فنلقاهم ناكريد
بالنرحاب والاكرام ، وأولم لهم لىلتهم هذه وليمة قدم لهم فيها لحوم
الأغنام والماشية النى بهوها من النواحي المساخمة .

ولما أشرق الصباح وبجلى النهار ، رأى بلدوين ورفاقه راية تانكريد تحمى على أعلى برج بالمدينة ، فهسيهم العيره فى الحال بأنسابها ، وسوا أواصر الحب والأخوة التى عقدوها فيما بينهم أساء رحفهم فى سلام ، وهى الأواصر التى صمموا - أفرادا وجماعات - على أن يظل عراها نائمة لا انفصام لها ، لكن الذى جرى كان عكس ذلك ، اذ غضب رجال بلدوين من جرأة تانكريد على رفع راية فوق المدبنة ، فى الوقت الذى يوجد فيه كثيرون غيره من الأمراء المحاصرين ، وهم أكثر منه حندا ، وأكثف عسكريا .

كان تانكريد رجلا مواضعا فأراد فء غضبهم ، فأبكر أن يكون قد استهدف اهانتهم من وراء رفع رايته ، وقال انه انفق على رفعا مع أهل المدينة بسبب بسالته ، وذلك قبل وصول الزعماء . وقبل أن يخامر الأمل أحدا فى قدومهم .

أما بلدوين الذى راح أصحابه يبيرونه بكل فواهم ، ويحونه على سلوك هذا السبيل ، فلم يعبأ بما فعله تانكريد ، بل نهج عكس هذا النهج ، وكان مدفوعا فى ذلك بانفعالاته ، فجاوز حدود القطنة . فبسطوا على تانكريد بكلماته السفهية ، وأدت عطرسه الى مأرق أوشك فيه كل منهما أن يقايل صاحبه ، ويقنك به ، وأخرا استدعى بلدوين إليه أهل البلد ، وهددهم علانية بتخريب المدينة وما حاورها من النواحي غير عابئة بما وعدهم به تانكريد من بسط حمايته عليهم ، ان لم يبادروا الى انزال راية تانكريد ونصب رايته هو مكانها .

ولما رأى الأهالي أن بلدوين أشد من تانكريد بأسا وأكثر منه حندا فقد أذعنوا له على نفس الشروط التى سلف لهم اشتراطها على

تأنكريد الذى أرسلوا رايته ورفعوا مكابها علم بلدوين ، فلما رأى
أنكريد هذا الحيف الذى حاق به أحرقه العطش عن حق ، لكنه كظم
عطشه بفصل ما طبع عليه من راحه العقل ، ومن عوده الصبر على
تحمل الآلام شفقة منه من حدود شقاء خطر بين قوات المؤمنين ،
لذلك بقص معسكره ، وأرد إلى مدينة محاوره بدعوبها « أدبه » ،
فلما بلغها لم تأذن له أهلها بدخولها لأن شخصا معبه اسمه « حلف »
من الأمة الرجيدية كان قد استولى عليها ، وكان « حلف » هذا
يفصل عن الحس الأصلي مع ثلة من الآخرين ، وجمع إليه حسدا
كسفا من الناس انخرطوا بحب رايته ، وشاء الصدفة أن يؤدى به
إلى أذنة حيث طرد منها الترك ، واستولى عليها فسرّا .

ولما علم أنكريد أن مسيئه الرب قد أسقط هذه المدينة في
أيدي شعبها ، بعث الرسل إلى حلف بلمس منه فتح أبوابها
لندخلها حياجه وأعلمه أنه يبعي البرول بها وسراء ما يحتاجه
عسكره من ضرورات العس . فاستجاب حلف للرسول ، وأمد
أنكريد وخيله بكل ما هو لازم لهم فى كمناب وفرة جعل نصيبها
إليه هبة . والبعض الآخر تأثما معفولة ، وذلك لأن حلف كان
قد وجد المكان ملثا بالذهب والفضة وقطعان الماشية والأغنام
والحبوب والنسج والزيت ، وقصارى القول بكل شئ نافع .

- ٢١ -

حين طلع النهار رحل تأنكريد من المدينة بكل من معه وأغد
السير فى الطريق الرئيس المؤدى إلى المصنعة ، إلى كانت واحدة
من أروع مدن هذا الاقليم ، والنسب نال حظا من السهرة بفضل

أسوارها وأبراجها وكثره سكانها ، كما زاد فى قدرها موقعها
البهيج ، وحقولها الحصبة ، وأرضها العسة ، وما كاد نانكريد يعسكر
على مقرية منها حتى أعار عليها وراوحها بسلسلة غير مقطوعة من
العاراب حتى نمكن من الاسسلاء عليها فى مدى أيام فلائل بمعونة
الرب ، وحكم السف فى رقاب أهلها الماروين .

ووجد بها نانكريد ثروات ضخمة وكميات كبيرة من الميرة من
كل صنف فوزع على أتباعه كل ما وجده ، فى أنصبة يلائم كل منها
ما أداه كل حاج من الخدمة ، ففاضب أيديهم بما ملكوا ، وعوضهم
الطعام الوفير عن أسام المسغفه التى فاسوها من قبل ، كما
اسسلموا فى الوقف دانه للراحة ، وأقبلوا على أكل ما يشتهون .
وأطاقوا ما عندهم من دواب النقل حرة برعى كيف شاءت .

- ٢٢ -

راح بلدوين - بعد رحيل نانكريد - يكر من نابب أهل
طرسوس ويهددهم بهديدا شديدا ويحذرهم مره بعد أخرى ، وأمرهم
أن يفتحوا الأبواب أمام عسكريه ليدخلوها ، اذ حيل اليه أن العار
لاحقه ان هو أصاع الوقت بلا عمل حتى بجىء الجيس ، فخاف
الأهالى منه أن يهاجم المدينة من قرب ان هم رفضوا اطاعة أمره ، لما
رأوا من عجز نانكريد عن مقاومته ، هذا الى جانب رعزعة ثقيهم فى
قدرتهم الذانة فعملوا من الضرورة فضلة ، وفتحوا الأبواب وأدخلوا
بلدوين وجميع عسكريه ، وخصصوا برجين جعلوهما فى وقتهما
الراهن سكنا خاصا له .

أما بقية جنده فقد نفروا فى بيوت المؤمنين من أهل المدينة .

وأما الابرايح الأخرى فكانت في أبدى السرك الدين كانوا لا يزالون يختلون المدينة ، وكانوا أكثر منهم عددا . هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يملكون بلا جدال معظم استحكامات البلد ، ومع ذلك كانت الريية بخامر نفوسهم من ناحية طائفة البصاري الدين أدوا [لعدوه] بدخول البلد ، واذ لم يكن لديهم ثم أمل في نجده تأتيهم . فقد كانوا يلتمسون الفرصة للسسل في الحفاء إلى حارجها مع زوحايم وأبائهم وما ملك أيديهم .

وحدث في هذه الليلة بالداب ان وصل إلى طرسوس ثلاثمائة رجل من حملة بوهيموند كانوا في طريقهم للانضمام إلى نانكريد . فأصدر بلدوين أمره بعدم السماح لهم بدخول المدينة ، ولما كان طول السفر قد أرهقهم ، وفلس في أيديهم ضرورات العبس . فقد ألحفوا في السؤال التماسا للسكن وعقد سوا لهم . فعطف عليهم في محنتهم هذه رفاقهم من الحجاج الذين هم دونهم مكانة والذين كانوا في المدينة ، وألحوا في طلب الاذن لهم بالدخول لكنهم ردوا فاشلين ، لأبهم كانوا ، كما قيل طائفة من رجال حملة بوهيموند الذين كانوا مغذين السير لمساندة نانكريد .

وعلى الرغم من عدم قدرة المسيحيين الموجودين في المدينة من الخروج إلا أنه لم تكن تنقصهم العواطف الأخوية فراحوا يدلون الحبال بالسلال من الأسوار ملأى بالخبز ، والروايا منوعة بالنبيذ . وهكذا أمكنهم امداد الدين بالخارج بالطعام الكافي لهم في هذه الليلة ، ولما وجد هؤلاء الرجال ألا مناص لهم من البقاء خلف الأسوار فقد وطؤوا أنفسهم على الاقامة أمام أبواب المدينة ، وتدبر حبايم جهد استناعتهم .

فلما كان الليل استسلم للنوم العميق والراحة التامة من داخل المدينة وخارجها على السواء من المسيحيين ، وضرب السكون أطنابه

ولكنه كان سكونا مريبا ، فقد قام الترك وغيرهم من كفار طوروس بفتح الباب في هدوء تام ، وخرجوا منلصصين مسسحبين معهم نساءهم وأطفالهم وعبيدهم وكل ما ملكت أيديهم ، وذلك لأنهم لم يكونوا يشعرون بالهدوء في بلدتهم الى جوار هؤلاء الصيوف الذين نزلوا بينهم على كره منهم ولكنهم خافوا مساكنتهم ، وأصبح هؤلاء الترك قادرين كل القدرة على مغادرة المدينة متى شاءوا ، اذ كان في أيديهم بوابة أو اثنتان من بواباتها ، وأبوا الا أن يخلقوا وراءهم انتصارا دمويا على عدوهم ، ذلك أنهم بعد أن فرغوا من ارسال أحمالهم وما ثقل من متاعهم أمامهم عادوا ففتكوا بكل الذين كانوا يغطون في سباتهم العميق .

- ٢٣ -

فلما كان اليوم السالى وقد ملأ النور الكون ، اسيعط مسبحو المدينة فوجدوها مهجورة ، فعجبوا كيف هرب العدو من غير صجة ، وانطلقوا الى الأسوار ومداخل المدينة عساهم يعرفون كيف تمكن هؤلاء من التسلل الى خارجها ، وبينما كانوا يتقصون الأمر في دقة وينقصون كل ركن وزاوية اذا بهم يطالعون آثار المذبحة التى أنزلها الترك الفارون بخدام المسيح فحزنوا أشد الحزن ، وتقطعت نفوسهم حسرات وأسلموا أنفسهم للبكاء .

ثم وقف رجال الطبقة الناسة على بعد من الآخرين وحمى السلاح ضد بلدوين وغيره من الزعماء الذين يشاؤنه مكانة ، وذلك لأنهم اعتبروهم السبب فى هلاك رفاقهم الججاج ، حين أبوا أن يستضيفوهم ، وكانت هذه الاستضافة واجبا لا يصح التنصل

منه ، كما كانت حقا لكل دى حاجة ، ومن ثم فقد استبد بهم الحنق ،
فاندفعوا اندفاعا عدوانيا يقصدون النيل من زعمائهم الدين لولا
انسحابهم الى الأبراج العالية لقتل منهم مثل الذين قتلوا وراء
الأسوار .

ولما رأى بلدوين أخيرا أن الهرج الذى استولى على الناس بحق
أخذ فى الزيادة ، راح يدبر فى لهفه كيف يرر مسلكه ، وكيف
يعتذر عن نفسه عند فومه ، عسى أن يهدأ نائرتهم ، ويركنوا الى
السكينة ، فتريث لحظة استرد فيها أنفاسه ، وسألهم الاصابات
فهدأت غاغة الرجال قليلا وان كانوا لا يزالون مشهرين أسلحتهم ،
وراح هو يبرئ ساحته عندهم ، مقسما لهم بأن السبب الوحيد الذى
حملة على اغلاق أبواب المدينة فى وجه الحجاج هو أنه كان قد وعد
وعدا لا حيث فيه الا يسمح لأحد بدخولها حتى يصل الدوق ، كما
أن كلماته المرائية ، وألفاظ الاستعطاف التى كان لابد منها فى مثل
هذا الموقف والسى فالها وقالها بعض أشرافهم فعلت فعلها ، وأفلح
فهدأت من ثائرة الناس بعض الهدوء وتراضوا فيما بينهم .

وهكذا انتهى النزاع ، ولبت القوم هناك فى سكون بضعة
أيام ، حتى رأوا أسطولا يمحى البحر على مسافة تقرب من ثلاثة أميال
من طرسوس ، فما كاد الفرسان والمشاة يطالعون هذه السفن حتى
هبوا سراعاً ناحسها ، وحدثوا مع القادمين من البحر فعلموا منهم
أنهم نصارى ، ولما سألوهم من أى البلاد هم قالوا انهم من فلاندرز
وهولندة وفريزيا ، حيث ظلوا يمارسون القرصنة ثمانى سنوات ،
ثم صحت ضمائرهم فندموا على ما كان منهم ، وتابوا عن اثمهم
فركبوا هذا البحر فى طريقهم الى القدس للصلاة .

فلما عرف رجالنا أنهم مسيحيون مثلهم دعوهم لدخول الميناء ،

وصافح بعضهم بعضا ، وبادلوا فيما بينهم قبلات السلام ، وبعد
أن أرسست السفن آمنة بالشجر قادوا رجالها الى طرسوس .

كان رعيم هؤلاء القوم يدعى « حينمار » من اقليم بولونيا ،
ومن مقاطعة كونت استاس ، والد جودفروى ، وما كاد حينمار يعلم
أن بلدوين هو ابن سيده حتى ترك الأسطول وتهايا لمرافقته الى
القدس ، وكان حينمار فاحش الثراء وزاد من ثرائه هذه الحرفة
الدنيئة التى مارسها ردحا طويلا من الزمن ، وكان فى خدمته رهط
كبير من الناس أبى معظمهم الا مصاحبته حين علموا بعزمه على اتباع
بلدوين ، واذا ذاك انقضى انقضاء دقيقا خمسمائة من أتباع القائدين
لحماية المدينة ، أما كل من سواهم فقد راحوا يتهشئون للخروج
للبحث عن حظوظهم .

- ٢٤ -

عادر الجيس طرسوس مميا وجهه شطر المصيصة حتى بلغها ،
وكان تانكريد كما قلنا من قبل - قد احتلها عنوة منذ أمد قريب ،
وأحكم قبضته عليها فأنزل بلدوين جنده خارجها وفي البساتين
المحطة بها . ليقينه التام بأن تانكريد لن يسمح لهم قط بدخول
المدينة .

ولما ترامى الى سمع تانكريد خبر وصول بلدوين ، وانه نصب
معسكره على مقربة منه ، غلى مرجل غضبه ، واثارت ثائرتة وتأججت
نيران استغظه اذ عاودته ذكرى المصائب التى صبها هذا الرجل ظملا

وعدوانا عليه ، ودعا رجاله وهو في سوره حنقه الى حمل السلاح
مجمعا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن ينزل ببلدوين من الأذى
مثل الذي أنزله هو به من قبل ، ومن ثم أنهض فرقة من رماة النساب
لرمي جياد بلدوين التي سرحها في المراعي ، ولأخذها أو دفعها .
كما خرج تانكريد ذاهب في خمسمائه فارس في دروعهم مهاجما بهم
معسكر بلدوين وأخذوا الحراس على غره منهم قبل أن يتمكنوا من
امتساق سيوفهم ، حتى كاد أن يفهم عن بكرة أنفسهم ، ولكنهم مع
ذلك هبوا الى أسلحتهم واسعدوا للمقاومة ، وحرث في اثر ذلك
معركة عنيفة ، استبسل فيها كل من الجانبين استبسالاً ضاريا كما
لو كان كل واحد منهم يحارب خصما لدودا ، فسقط من الجانبين
قتلى كثيرون ، وأسر كل فريق رجالا من رجال الفريق الآخر . غير
أن عسكر تانكريد كان دون عسكر بلدوين بأسا ، وأقل منه عددا .
ثم ان القتال أجهد تانكريد اجهادا لم يعد قادرا معه على تحمل
شدته ، فاضطر الى ترك ساحة المعركة ، والارتداد الى المدينة .



كان الجسر الشديد الصيق الذي يعلو البهر الفاصل بين
معسكر بلدوين وبين المدينة يقف عقبة كأداء في وجه قوات تانكريد
وهي تسرع في الفرار الى المدينة ، حتى لقد هلك رهط غير قليل
من فرسانه ومشاته ، وان أسعف الفرار ثلثة منهم هربوا الى داخل
البلد ، ولولا أن الليل أرخى سدوله مما أدى الى وقف القتال لكان
من الممكن أن تكون الخسائر أفدح مما هي عليه ، نظرا لما كان يكتنه
كل فريق من كراهية تضطرم كالنار في قلبه للفريق الآخر .

كان من بين أتباع تانكريد الذين وقعوا في الأسر رجال نبلاء
بارزون منهم واحد من ذوى قرباه اسمه ريتشارد دي برنسباني .

وآخر اسمه روبرت دانزى ، وكانت مشوره هدى الرجلين
وبحريضا هما هى السبب الرئيسى فى قيام نانكريد بحركة الاسقام
التي ذكرناها .

كما وقع فى أسر نانكريد واحد من اتباع بلدوين ومن علة
القوم وأسماءهم مكانه ، هو جلبرت دى هونت كلدر ، ونجم عن
غضب هؤلاء القادة أن شاع الاضطراب فى صفوف كلا الحاسبين ،
اعتقادا منهم بهلاكهم فى معركة اليوم .

وحين ذر قرن الفجر فى اليوم المالى أخذت أحاسيس الكراهية
فى النلاشى ، وخفت سورة الغضب ، وكان الفضل فى ذلك للرحمة
الالهية اذ تذكروا ما جاءوا من أجله ، فصفا تفكيرهم وعاد الى
هدوئه . ومن ثم مضت الرسل بين الجانبين تنشده اقرار السلام ،
ورجع كل أسير الى جماعته ، كما راحوا بتبادلون قبلات السلام
ارضاء لكلا الجيشين ، وعاد الوثام يرفرف من حدود بن الحمص
وأطلهم السلم بجناحه .

- ٢٥ -

نزل بلدوين على طلب رفاقه ، وعاد من المصبصة مضما بكل
عسكره الى الجيش الاصلى الذى كان قد وصل - كما قلنا - الى
مرعش ، وكان بلدوين قد علم بالحادث الخطير الذى ألم بالدوق فى
بيسيدا أمام انطاكية فاشتد حزنه على سلامة جودفروى ، وأراد
أن يتأكد تماما عن واقع حاله .

كان نانكريد فى هذه الأثناء قد زاد من بأس فوائه بمن صمهم
اليها من الرجال الذين جاءوا فى صحبة الأسطول ، فكثرت جيسه بهم
كنزة بالغة ، مكشاه من اجبياح كل فلقبا ، والاسيلاء فسرا على
معافل العدو انى وجدها فأضرم النار فيها حتى تهاوب الى الأرض ،
واذ ذاك عرض من فبها على السيف فصلهم جميعا ، وكان آخر مكان
عصف به جنده هو « الاسكندرية الصغرى » الى اسنولى عندها
أيضا رغم مقاومتها اليائسة ، فمكنه هذا النصر الأخير من أن يصبح
مسطرا على الاقليم كله .

سرعان ما نواردت الاحبار نصير الى تمام استيلاء نانكريد على
كل المنطقة ، بفضل ما تجمع لديه من مختلف القوات ، فارقض
قلوب الترك والأرمن الجليلين خوفا من أن يعوج نانكريد عليهم ،
ويفتح مدنهم ، ويسرق أهلهم ، فراح كل يافس الآخر فى سرعة
المبادرة بارسال الرسل اليه ، محملين بالهدايا السمية من الذهب
والفضه والجياد والحيول والأفمسة الحريية ، مؤملين أن يهدى
هذا الكرم حدة غضب ذلك الزعيم العظيم ، عساهم يكسبون وده ،
ويعقدون واياهم أواصر الصداقة .

هكذا كان النجاح حليف نانكريد فى كل خطاه ، لأن الرب
كان معه ، ولأن السد كان يوحه جميع أعماله لأنه خادم أمين .



هنا ينتهى الكتاب الثالث

الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين شمال الشام وشروعهم في حصار أنطاكية

فصول الكتاب الرابع :

- ١ - بولدوين أخو الدوق - يعود الى الجسس الأصلي
وينزل على اقتراح باكراد فيقود حمله برحف الى
الشمال ويحتل كل الاقلم حتى الفرات .
- ٢ - شهرة بلدوين تنتشر في كل ناحية ، فيستدعيه
أهل الرها فيسجيب لهم ويسرع اليهم عابرا
الفرات ولكنه يقع في كمين نصب له في بعض
الطريق فنخرج المسيحيون لمقابلته ويجعلون من
أنفسهم حرسا له ويدخلونه المدينة فرحس به .
- ٣ - الغيرة من نجاح بلدوين تدب في نفس حاكم

المدييه الذى يندم على قراره الذى اتخذه ويرعب
فى سجب الاتفاق ، لكنه من أجل اسرضاء الأهالى
يتبنى بلدوين ويتحذه ولدان وان أضمر الغدر به .

٤ - بلدوين يحاصر سمبساط استجابة لرجاء أهل
المدييه الذين يأمرّون ضد حاكمها الضعيف
انتقاما منه للأضرار الجسيمة التى أنزلها بهم .

٥ - الأهالى يفتكون بحاكم الرها وينصبون بلدوين
واليا عليهم فيشتري سمبساط من حاكمها
« بلدك » بمبلغ كبير من المال .

٦ - بلدوين يحاصر بلدة « سروج » ويسولى عليها
بالقوة فيسكره أهلها شكرا يعجز اللسان عن
وصفه .

٧ - ارسال طائفة معينة من رجال الجيش الأصيل
يحلون بالقوة مدينة « أرياح » واذا تراءى أنباء
ذلك الى أهل أنطاكية يبادرون الى هناك بقوة
ضخمة وينصبون كمينبا لشعبنا ، ويهاجمون
مدينة « أرتاح » لكنهم يفشلون فى محاولتهم
هذه فيعودون الى ديارهم بعد تحصين الجسر .

٨ - الجيش الرئيسى يصل « أرياح » ويرسل الكشافة
من هذا المكان لكشف الطريق ثم يقترب من
الجسر ويعبر النهر رغم ما بذله العدو من
محاولات كان يهدف من ورائها الى صده .

- ٩ - وصف مدينة أنطاكية ، ومكانتها .
- ١٠ - القول في الإقليم الذى به المدينة ووصف موقعها .
- ١١ - من كان حاكم هذه المدينة التى هى أنطاكية ، وكيف يادر هذا الحاكم - حين سماعه نبأ اقترابنا - الى تحصينها ، ثم جلب الى داخلها العسكر الذين استقدمهم من المدن المجاورة .
- ١٢ - زعمائنا يتساورون فيما بينهم ويتقدم الجيس الى المدينة .
- ١٣ - القادة يأخذون مواضعهم حول أنطاكية فى أماكن استراتيجية ويسدون منافذ المدينة فيسيطر الخوف على نفوس الأهالى .
- ١٤ - المسيحيون يقيمون جسرا خشبيا على النهر حتى يساعدهم على توفير مزيد من حرية الحركة للبحث عن العلف ، كما يقوم الأهالى بنسج هجبات مفاجئة على معسكر كونت بولوز من أقرب البوابات اليهم .
- ١٥ - الكونت يقوم بكثير من المحاولات ضد العدو وينتهى الأمر أخيرا بسد البوابة بأكوام من الأحجار يهيلونها أمامها .
- ١٦ - العدو يهاجم الجماعات التى خرجت فى التماس العلف وينسج عن ذلك قتال ضار بهلك فيه

الكثيرون من الجانبين اد يهلك بعضهم بالسيف
ويبتلع النهر غيرهم فيموتون غرقى .

١٧ - الضعف يستولى على جميع الاقاليم وتتفاقم
المجاعة وتزداد سوءا ويصبح الناس فى صراع
صد الجوع ، كما تؤدى الأمطار الغزيرة الى
الرطوبة التى تعمل على انتشار العفن فى الخيام
وهو عفن يهدد الجيش بالقضاء .

١٨ - بوهيموند وكوت فلابرز يخرجان فى حملة
كبيرة سعيا وراء الكلا ، كما يقوم المواطنون فى
الوقت ذاته بتسليح هجوم فجائى على المعسكر ،
ويسمى الصليبيون بحسابة كبرى ويكثر فيهم
الجرحي .

١٩ - الغرفة الباحثة عن الطعام تكشف العدو وتهزمه ،
ثم يعود بالغنمة والأسلاب الوفيرة .

٢٠ - مقتل « زفين » أحد أبناء ملك الدانمركين على
أيدي الاتراك قرب « فيلو ميليام » بينما كان
يفذ السير للانضمام الى الجيش .

٢١ - ناتيكوس الوغد يترك الجيش وليس فى نية
العودة اليه ويدعى ان ذهابه انما هو من أجل
عقد سوق يستبضعون فيها ، كما يزعم أنه ماض
الى الامبراطور ليساناله الحضور لمساعدتهم .

٢٢ - المجاعة تزداد تفشيا والطاعون المهلك يصيب
الناس فيأمرهم الأساقفة بصيام ثلاثة أيام ،

ويسرد الدوى جود فروى صححه ساما ويفرح
الجيش بفافته .

٢٣ - فورد بوهيموند يقترح خطة حكيمة للقضاء على
ما سببه الكسافة الذين أرسلهم العدو من
الازعاج .

٢٤ - خليفة مصر يوفد رسلا من قبله الى الزعماء ويطلب
عهد معاهدة بينه وبينهم ويحاول كسب
هودهم .

هنا يبدأ

الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين لشمال الشام وشروعهم فى حصار انطاكية

- ١ -

بيما كان نانكريد يتابع احصاء كل ارجاء فيليبيا عبر هياپ ولا وجل ، كان الجيش الرئيسى قد وصل الى مرعش [يوم ١٣ اكتوبر ١٠٩٧] ، واذا ذاك اعتزم بلدوين رياره أخيه جود فروى ، فلما وجده قد تماثل للشفاء ثارت فى نفسه نيران الغيرة من نانكريد مرة أخرى ، وأحفظه منه أن يجمع الكل على امتداح بساله الى طبق خبرها الآفاق ، ومن ثم دعا اليه أصدقاءه ، وأوصى ايهم بعزمه على معاودة القيام بمخاطرات جديدة وسألهم ان يكونوا عوناً له فى تحقيق هذا الهدف . لكنهم كرهوا ان يصاحبوه فى حروجه . لما سمعوه عن وقاحته المتناهية حيال نانكريد أثناء وجودهما أمام أسوار طرسوس فى قيليقيا ، اعتماداً منه على كسرة أتباعه . والحق انه لم يشد أحد منهم عن الاجماع على ان يسلكه كان اذ ذاك مسلكاً منسياً ، وهو اجماع استحققه عن حق جزاء جريمته الشنعاء ، وما كان لبوهيموند ورحاله ان يتركوا ما لحق بتانكريد دون عقاب .

ومن يجد بلدوين من يقبل مرافقته فى حملته هذه عبر شردمة قليلين ، كما عنفه أخوه خادم الرب - تعنيفاً قاسياً على عمله هذا ، ولما أدرك بلدوين شناعة ما اقترف ، من جرم فقد أعلن بكل مذلة انه

مسعد لأن يقدم لنا كريد النبيل الاعدار الواجب عما اقترفه من
اساءه في حقه .

ولما كان بلدوين قد أخطأ بقاء على ما أشار به غيره عليه أكر
من ان يكون حطؤه نابعا من بقاء ذاته ، ولما كان هذا المسلك
بحريص من سواء ولبس من طبعه ، فقد سامحه الجميع واسرد
ثقتهم به . والحق انه كان رجلا موصع الاطراء من كل الوجوه كما
انه لم يؤخذ عليه قط بعدئذ سبأه نرزي به كهذه الشناعة .

وكان لبلدوين صديق من أشرف الأرض يدعى « باكراد » يعرف
عليه في بغيته بعد فراره من حبس الامبراطور ، وظل هذا الرجل
يلتزم بلدوين على الدوام في جميع رحله . ومع انه كان محاربا شديدا
الا أنه كان شديد المكر . مغموز الوفاء ، وقد دأب على الالتحاح على
بلدوين واعرائه بشي السبل على جمع العسكر ، ووعد بأن ينضم
هو اليه في حملة يسسها على النواحي المتاخمة التي قال انه من اليسر
اجتلالها بقوة صغيرة ، ونزل بلدوين أخيرا على الحاح « باكراد » ، وخرج
مسترشدا به على رأس مائتي فارس ، وحشد غير قليل من المشاة
وزحف بهم ممما وجهه ناحية الشمال . وسرعان ما دخل اقليما
شديد الخصب والراء . أغلب أهله مسيحيون صادقون في دينهم .
أما البقية من السكان ، وهم قلة كافرة ، فكانوا أصحاب القلاع ،
وكانوا يعاملون المؤمنين الصادقين كما يحلو لهم ، كما كانوا
يعززونهم من الاسحراط في الخدمة الحربية .

وكان فلاحو الاقليم من المسيحيين الكارهين لأن يتسود عليهم
قوم من غير ملتهم ، لذلك لم يكذب بلدوين يدخل تلك الناحية حتى
أسلموه الأماكن الحصينة ، وما غبرت أيام قلائل على ذلك الأمر حتى
كان بلدوين قد ملك من الناحية أغلبها ، بالغا في ذلك نهر الفرات

العظيم ، وصار اسمه وحده كافيا لـبب الرعب في ذلك الاقليم
وما حوله ، وبلغ الخوف في نفوس الاعداء منه حدا غادروا معه قلاعهم
من تلقاء أنفسهم ، وهاموا على وجوههم ، على الرغم من انه لم يرسل
رجلا واحدا من رجاله لقتالهم .

وكان مجرد حضور بلدوين قد بب الشجاعة والقة في
قلوب المخلصين الذين رحبوا به ، وتمت كلمات النبي (١) : « كبف
يطرد واحد ألفا ، ويهزم اثنان ربوة » .

لم يكن العامة وحدهم هم الذين نعلقوا ببلدوين ، بل حاله
ايضا امراء تلك النواحي المسيحيون وأخلصوا الية في مصادقته ،
وآزرّوه فما يفعله ، وامدّوه بالجند ، وبدلوا له الطاعة الصادقة .

- ٢ -

على أنه لم تمض بضعة أيام حتى كان اسم هذا الرجل العظيم
يجرى على كل لسان ، وحتى كاتب أعماله الجلييلة مسهورة في كل
مكان ، واستساع خبرها في كل الولايات المجاورة ، وراح الجميع
يسون على بطولته ، ويمتدحون احلاصه ، ويشيدون بسجاعته ، وملأ
صوته الافاق ، فلم يبق أحد من أهل الرها الا وقد سمع به ، وسرعان
ما راحت المدينة بنحدث بأن قائدا باسلا من الجيش الصليبي ، قادر
على تحريرهم تماما من رق العبودية وردهم الى الحرية ، ونرتب على
ذلك أن جاءه وفادة ممن كان بيدهم أمر حراسة المدينة وكانوا من
أصحاب النفوذ فيها ، يدعونه دعوة صادقة - بالكلمه المنطوفة
والمكسوبة - أن يأبى الهم .

(١) تثنية ، ٣٢ ، ٣٠ .

وأوديسا هي إحدى مدن العراق الشهيرة أيضا باسم الرها وهي المدينة التي أرسل إليها نوبيب الكبير ولده نوبيب الساب . ليطلب من مربيه « جابيلوس » عسرة مكابيل من العصاة كان الأب قد اعاره إياها وهو طفل .

وكان أهالي الرها قد اعتنقوا المذهب المعلق بالحللص المسيحى على يد الرسول «تاديوس» ، وذلك فى أعقاب أسبوع الآلام ، والحق أنهم كانوا من كل النواحي أهلا لما ينقو مع ما بسر به ذلك الرسول العظيم وبرساله محلصا الى كسبها الى ملكهم « إيجار » ، وعدا ما نطالعه فى الفصل الأول من التاريخ الكسى الذى كسبه يوسيبوس القيصرى ، وقد ظل القوم محلصين فى تمسكهم بهذه العقيدة منذ إيمانهم بها لأول مرة فى زمن الرسل ، ثم قدر لهم أن يفعلوا تحت بر حصوم ملهم الذين أرغموهم على دفع الضرائب والاناوات سنويا ، كما اغتصبوا منهم عبوة كل ما فى أيديهم من بسانين الكروم والمزارع ، فلم يعد أحد يجروء على العيش داخل المدينة سوى من ملأ الإيمان قلبه ، فكانت مدينة الرها - دون غيرها من جميع مدن الناحية - هى التى احتفظت بحريتها الأصيلة ولم تلونها بالجاهلية . ومع ان العدو كان قد استولى منذ أمد بعيد على جميع النواحي التى حولها الا أنها ظلت بمنأى عن الحصوع له ، ولم تأذن لأى صاحب عقيدة أخرى أن يعيش فى رحابها .

ولقد كابد أهل الرها الأمرين من أولئك الذين يعيسون فى المدن والقلاع المجاورة لهم ، الذين لم يكونوا يأذنون لمواطني الرها بمغادرتها أو القيام بعمل خارجها .

كانت أمور المدينة بيد حاكم من بلاد الاغريق ، أرسله ليدير شئونها ويتولى الأمر فيها ، ومنذ أن أصبحت البلاد كلها تابعة لامبراطور القسطنطينة ، وكان هذا الوالى شسحا طاعنا فى السن .

واهن العوى ، ليس له من صلبه ولد ولا بنت ، ولما كان الترك قد وصلوا الى هناك قبل انتهاء فترة حكمه فقد اضطرنهم الضرورة لابقائه حيث هو ، فظلت له الحكومة فى البلد ، وربما كان ذلك راجعا اما لعجزه عن الرجوع الى بلده ، أو لأن الناس لم يرغبوه على التخلي عن السلطة ، ومن ثم كان بلا نفع ولا جدوى ، عاجزا عن حمايه رعيه من الضرر يزل بهم ، أو دفع الشر عنهم أو يخفيف ما يلقيه من الصيق .

ولقد وفد على بلدوين - كما قلنا - مبعوثون من قبل المواطنين وبرضاء هذا الحاكم يلتمسون منه القدوم عليهم وبخفيف مصائبهم .

فلما سمع بلدوين الى الناس العامة والخاصة ، أجمع عزمه على استجابة رجائهم بعد أن شاور أصدفائه فى هذا الأمر ، فاعد العدة اذ داك للسير اليهم ، وخرج غير مستصحب معه سوى نمامين فارسا ، عبر بهم نهر الفرات ، ومخلعا بعية ألباعه وراءه للقيام بحراسة القلاع والمدن الواقعة على ذلك الجانب من النهر ، وللمحافظة على الاملاك التى منحها الرب له ، فلما علم الاتراك الذين يعيسود على الجانب البعيد من النهر بخبر سيره اليهم نصبوا له الكمائن فى طريقه الذى كانت به احدى المدن الحصينة وعليها وال أرمى . فانحاز اليها بلدوين تجنبيا للكمائن التى رصدوها له فى الطريق فلما بلغها استعبله حاكمها اسنقبالا كريما وأحسن استصافته ، فافام بها يومين لم يجرؤ خلاهما على السير فدما ، مما سرب الملل الى نفوس الترك الذين كانوا قد اعدوا له كمينا ، وضاقوا ذراعا من طول انتظارهم اياه ، فرفعوا بارقهم وظهروا فجأة فى حشد كئيف دوى أمام الناحية التى هو فيها وراحوا يسوقون أمامهم قطعان الماشية من المراعى المجاورة ، ولما لم يكن المسيحيون مكافئين لخصومهم فى البأس ولا فى العدد فانهم لم يخاطروا بالخروج اليهم بل أقاموا فى القلعة حيث هم ، حتى اذا كان اليوم الثالث رحل الأتراك .

حينذاك تابع سيره المتقطع الى مدينة الرها حيب اسقمله
حاكمها بالعظيم عند وصوله اليها ، وساركة الرحيب به جميع من
فيها ، كما خف لاسفباله رجال الدين والناس عامة وقد ساروا أمامه
مسدين الاهازيج والراسل الديينة على وقع الدفوف ودق الطبول .

- ٣ -

على أن الحاكم الذى كان السبب فى استدعاء بلدوين ، سرعان
ما سر بعصه الغيرة بنهس قلبه منه ، فراح يستعرض فيما بينه
وبين نفسه ، ما أظهره الناس من الحفاوة والرحيب بهذا القائد
عند وصوله ، وتمنى لو نقض ما أبرمه معه من اتفاق كان يتضمن
- حين وجه الدعوة اليه - أن ينافسه طول حياته كل ما تملكه المدينة
من البضائع والضرائب وجميع دخلها من الآتاوات ، ثم يؤول كل
شئ . بعد ذلك الى بلدوين .

أما الآن فقد رعب الحاكم فى تقديم عرض مخالف لهذا العرض
يلحص فى ان يبذل بلدوين المساعدة للمدينة ولأهلها ضد استبداد
الترك ، وأن يدفع عنها سرهم ، على أن يعوضه الحاكم ذاته مقابل
ذلك بعويصا ماليا سنويا مجزيا مسرفا ، حسبما يراهى له كرحل
عادل ، لكن بلدوين رفض هذا العرض وازدراه لأنه عَرَضَ ينزله منزله
الجيدى المرتزق ، الذى يتناول أحرار لقاء خدمانه ، لذلك أخذ يعد
العدة للعودة من حسب جاء ، فلما عرف الأهالى بعزمه على الرحيل ،
بادورا بالذهاب الى الحاكم وأصروا على الا يأذن بأى حال من الأحوال
برحل زعيم جبل القدر كهذا الزعيم عنهم ، فهو رجل لاغناء لهم
عه لتحقيق حريتهم ، وطالبوه أن يضم بلدوين اليه وفقا لسروط

الانصاف ، حتى ينعيم هو والمدينة كلها بالسلام الذى هو عايه
ما ينسدون .

واراء هذه المطالب المجمع عليها- من عامه الناس وخاصيم .
وازاء المحبة العميقة التى بها بلدوين فى نفوسهم شعر الحاكم بمدى
الخطر الذى يهدده ان لم يستجيب لرجائهم هذا ، ومن ثم رصخ لهم
على مضض وأجابهم الى كل ما طلبوه منه ، وكان ذلك على كره منه ،
وزاد على ذلك فعند الى تحسين مسلكه السابق بأن يبنى بلدوين فى
حصرة أهل البلد ، واعلن فى احوال مهيب يلاءم مع جلال الحدب
بأنه يأذن له أن يباصفه كل شئ فى حياته فان ما كان هو الحاكم
من بعده ، فعربدت الفرحة فى قلوب الناس أجمعين لانهم كانوا يرون
أن بلدوين هو معقد آمالهم فى النجاة ، وأخذوا منذ هذه اللحظة فى
الاقدام على كل عمل يطلب الجرأة ، واطمئننا منهم الى حمايه سيدهم
الجديد لهم ، ولما راحوا يسترجعون ما نالهم من وصب على يد حاكمهم
فقد شرعوا يخططون للانتقام منه ، متى يسمح الزمان والمكان بذلك،
وهذا مما انضح من مجرى الاحداث .

- ٤ -

وكانت تقع على مقربة من الرها مدينة سميساط الموغلة فى
القدم والشهيرة باستحكاماتها الحصينة ، يحكمها تركى كافر اسمه
بلدوك ، وهو محارب مقدم ، ولكنه محادع لئيم ، وقد ابرل
كثيرا من المصائب بأهل الرها ، فضاغف عليهم الخراج والصرائب
التى فرضها على مزارعهم ، وأثقل كاهلهم بما كلفهم به من الأعمال .
وجرت عادته على أخذ أطفالهم رهائن لديه ، ضمانا للوفاء بهذه

الامور ، وكان هؤلاء الرهائن يرفعون سحب ظروف بالعه القسوه على العمل فى خدمه كرفيق يحملون الطين والآجر ، ومن هم فقد ركع كافة السكان عند قدمي بلودين بعيون باكية يسعظونه أن يعمل على حمايتهم من ظلم الطاغية ، وأن يعيد اليهم أبائهم الدين فى جيسه فأصعى بلدوين باهمام الى أول رجاء لسعبه ، أملا منه فى اكساب ودهم ، فدعاهم جميعا اليه ، ورودهم بالسلاح ، وخرج بطائعه منهم راحما على سميساط .

وظل بلدوين بضعه أيام يراوح المدينة ويعاديه بالهجمات المسالیه ، لكنه صادف معاومه شرسه من جانب من فيها من الترك ، به منهم فى استحكامها القويه ، وسرعان ما ادرك بلدوين أنه غير مدرك منها أربه ولا بالغ منها غاية ، فانقلب راجعا الى الرها ، باركا وراءه على مقربة من سميساط وفى مكان حصين ملائم — جماعه من العرسان ، أمرهم بمداومة الاغارة عليها ، وألا يذيقوا أهلها طعم الراحة .

سرعان ما تبين لمواطني الرها ما عليه بلدوين من الشطاط . وما يلفاه من النجاح فى كل ما ينهض به . وأدركوا ظلم الاجراء الذى حاف بمحرر المدينة وبمرسى دعائم السلام بها ، حين ساووه برجل لا انتفاع منه أبدا للمدينة ، وأيقنوا أن بلدوين هذا فمين بأن يملك كل شئ ، وان ينخلص مما لا ينفق وهواه ، ومن ثم استدعوا واحدا من أشراهم يدعى فسطنطين ، وكان واسع النفوذ وصاحب عدة فلاع شديدة المنعة ، وافعة على جبل قريب منهم وافترحوا باجماع منهم أن يفتكوا بحاكمهم ، ويحلوا بلدوين مكانه ، ليكون وحده صاحب الأمر والنهى ، وقد دعاهم الى ذلك ما كانوا يضمرونه لحاكمهم من كراهية هو أهل لها ، فقد قيل انه سلبهم ما عندهم من الذهب والفضه وعبر ذلك من كل غال وثمين ، وظلمهم ظلما فاحسا ، وكان

أدما حاول أحد مقاومه آثار عداوه الترك صدهم بما يصلهم به
من الرشاوى ، حتى يصبح الرجل النعيس منهم لا يخاف فحسب
قطع كرومه وافساد حقوله ومزروعاته وسلب قطعانه واعنامه ، بل
إن حماه دانها يصبح فى خطر .

- ٥ -

أدرك مواطنو الرها الدين كات فعال حاكمهم السريه ماله
على الدوام فى ادهانهم ان قد واسهم العرصه ليل حريهم المنسوده
مد رمس طويل على يد هذا الصيف ، ومن ثم فانهم - وفقا للحطط
الذى تم اتفاقهم عليها - اسرعوا لحمل السلاح وهاجموا البرج الذى
ابحده حاكمهم مسعرا له هجوما عنيفا محاولين هدمه بعزم لا يسى ،
فاسند خوف الوالى على حياته بسبب عصب الأهالى وسخطهم الذى
هو أهل له والذى له ما يبرره ، فاستدعى اليه بلدوين ، وسر امامه
كل الأموال ، ونوسل اليه أن يكون واسطه له عند الناس .

وعلى الرغم من أن بلدوين سعى سعيا صادقا الى حمايه الحاكم ،
وصرف كل أدى ينزل به على أيدي المواطنين ، ورغم أنه بدل فصارى
حيده لنبهم عما اعزموه الا أنه سرعان ما نبين له فسل محاولانه
ودهابها أدراج الرياح ، لأن غضبهم على واليهم كان يرداد عنفا وحده
سيئا بعد سىء ، وحينذاك انكأ بلدوين الى الحاكم ، ومحضه المصيحه
أن يتخذ من الاجراءات ما شاء لتأمين حياته وسلامها ، فلما أعيب
الحاكم كل السبل فى التماس علاج للأمر تعلق بحبل دلاه من احدى
النوافذ ببده أنه هلك قبل أن يبلغ الأرض ، اذ ساوشه ألف سهم
من سهام القوم الذين سحبوه الى القصر جثمانا هامدا وقطعوا رأسه ،
لكن ذلك كله لم يسف لهم غليلا .

فلما كان اليوم التالي نصبوا بلدوين حاكما عليهم رغم اعتراضاته ، وقطعوا له يمين الولاء ثم طلعوا به في موكب بهي مهيب الى قلعة المدينة ، وأعطوه كل ما اكسره واليهم السابق طوال سبب عدة من الأموال والبروات الكبيره ، ومن ثم عاد الهدوء يعرف على المدينة .

ولما رأى « بلدوك » الذى كان كما فلما حاكم سميساط - نجاح بلدوين نجاحا لا جدال فيه ، وأنه محصن كل الأقاليم ، فقد عرض عليه أن يبيعه مدينته بعشره آلاف قطعة ذهبية ، واد كان بلدوين يدرك أن أخذ سميساط بالقوة ليس بالأمر اليسير فحصل بحصيناها ، فقد دفع بعد مداولات طويلة - المبلغ الصخم الذى طلبه صاحبها ، وتسلم البلدة ، واسترد رهائن الرها ، مما زاد في عيده في العيون زيادة كبيرة .

ولما قدر له انجاز هذه المأثره مند اللحظة الأولى من حكمه . فقد اكسب حب أهالى الرها العظيم ، الذين اعتبروه مند هذه اللحظة واليا عليهم وأبا لهم أيضا ، وكانوا على أتم أهبة لبذل أرواحهم دفاعا عن كل ما فيه صالحه ومجده .

- ٦ -

كان يوجد في نفس الولاية قرب الرها مدينة يقال لها «سروح» كانت هي الأخرى عاضبة بمن ليسوا على الملة ، وعليها نائب تركي اسمه « بلاس » قد دأب على مضايقة الرها ، ومستنها منه البلايا الضارة ، مما جعل بلدوين يستجيب لتوسلات الأهالى اليه ، فجمع جيشا لغزو سروح ، حتى اذا وافى السوم الموعود زحف عليها وحاصرها نزولا على رعية سبعة ، وضرب أولا معسكره حولها ووضع

آلاته على اكمل صورته واحسن هئته . سرخ في مهاجمتها في عصف
ب الحوف في نفوس أهلها حين رأوا عرمة المطبق على بحمق هدده ،
في الوقت الذي كادوا يسكون فيه في مبلغ قوتهم الدانية فأبلاوا أن
يسلموه المدينة ان صمم لهم حياتهم وسلامهم ، فلما وافق على هذه
السروط أسلموه المكان فأقام من رجاله جماعة رابطت بالمدينة لحايتها ،
وجعل القادة فيهم لواحد من الدين ساركوا في المفاوضات ، وفرص
على أهل سروج جريه سنوية ، ثم رجع الى الرها موحا بالفخر .
ولقد أدى احتلال الصليبيين لسروج الى حرية الاتصال بين أنطاكية
والرها ، اد كان وقوعها في منتصف الطريق بين الرها والفرات
يعسر عقبه كآداء أمام الذين يودون الغدو والرواح بينهما .

والآن وقد قدمنا هذه البيانات عن عمل بلدوين فيها بنا نعود
الى قصة الجيش [الصليبي] الأصلي .

- ٧ -

بيما كان بلدوين مسعلا اسعالا كبيرا في اقليم الرها فبما
وراء الفرات ، كان الجيش الرئيسي قد وصل الى مرعس ، بعد أن
اجتاز - كما قلنا - جبالا شديدة الانحدار ، وأودية منعرجه ، وكان
سكان هذه المدينة - الا القليل منهم - نصارى ، وكاتب فلعبها في
يد الترك الذين يحكمون كنفما شاءوا في الأهالي ، ولم يكد الترك
يعلمون أن جيشا آخذ في الانتراب منهم حتى فروا خفة وفي ذعر
شديد ، تاركين البلد كله في قبضة المؤمنين .

ولما بلغ الجيش الخارج في سبيل الرب هذا المكان ، عسكر
أمام أسوار المدينة في المراعى الخضراء ، وصدرت الأوامر الى المعسكر

ان يجلبوا العنف مع اهل البلد ، كما انعقد فى هذا المكان سوى
حاولة . ثم جاء الى الصليبين رهط من نواب اهل البلد ، يجبروهم
أن فى يد الترك مدينه أخرى فى ذلك الاقليم يسمى «أرباخ» . ونفع
فى اقليم اكبر حصبا ويعص بالنعم الوفيره ، فابقى الرأى على ان
يخرج فى الحال روبرت كونت فلاندر الىها على رأس ألف فارس
عليهم ررد الحديد ، وصحبهم جماعة من الاشراف ، منهم روبرت
دى رورير ، وجوسيلون س كوتون كوت موساح ، وما كادوا يبلغون
بلك الساحبه حتى سرع روبرت فى اعداد برسياب الحصار ، فعادر
الترك المدينه واريدوا الى القلعه لئقنهم فى منعها .

وما كاد الأرمن وغيرهم من المؤمنين الصادقين البارليين أرباخ
يعلمون أن هؤلاء المحاربين - بأسلحتهم البرافه - قد جاءوا من
الجيس الذى طال انتظارهم اياه وسوفوا اليه ، حتى اسعس الامل
بالحرکه فى صدورهم فهبوا الى أسلحتهم وانقلبوا على الترك الذين
احلوهما رمنا طويلا فرصوا عليهم خلاله حكمهم القاسى ، وأعملوا
فيهم القمل دون براح ، فادفين برؤوسهم فيما وراء الأسوار ، كما
فتحوا الابواب على مصاريعها ، ودعوا فى اخلاص دبى القوم الواقفين
خارجها الى الدحول ، وسألوهما أن يصريرا مخمباهم بها ، أصف الى
ذلك أنهم أوفوا بسروط الصافه ، فوفروا لهؤلاء المحاربين وجادهم
على السواء ما يحاحونه .



وتعرف ارباخ أيضا باسم « سالسيس » وهى مثل مرعش الى
أشرنا اليها من قبل فى ايها تمل احدى المدن الاسقفه التابعة لكرسى
بطركه أنطاكية التى تبعد عنها خمسة عشر ميلا .

ولقد انتشر نبأ هذا الحادث فى كل مكان فحرك ساكن اهل
أنطاكية الذين تدافعوا متحمسين لنسليح أنفسهم ، واستعدوا للفك

بالعراة الذين جعلوا من أنفسهم سادة لارواح بديهم مواطنيها ،
واد داك تم اسفاء عسره آلاف ممن تجمعوا في انطاكية للدفاع عنها ،
وجيهم سراما الى مدينة أرنج ، فلما صاروا على مقربة منها أرسلوا
أمامهم ربيثة منهم قوامها ثلاثون فارسا من حملة الأسلحة الخفيفة
وراكبي جياد الحرب الخفيفة ، أما بقية الفوة فقد كسب في ناحيه
من الغابه .

وأما الطليعة التي كانت تقوم بحراسة من في الكمين ، فقد طلب
على ظهور جيادها ، روح وغدو أمام المدينه حتى ليحسبها الرائي
أنها خرجت في طلب بعض الأسلاب والعائم ، فيغير اد داك
المسجون ، ويدفعهم الطيس الى مهاجمها دون بصر .

ولعد أدت سلاطة هذه الطليعه في عدوها ورواحها الى أن وعد
المؤمنون الذين كانوا داخل الأسوار صبرهم ، فهبوا سراما الى
سلاحهم ، واطلقوا في أثر العدو دون أن يأخذوا حذرهم ، وأوعلوا
فطلعت عليهم الكمائن التي وضعها الأعداء لهم ، وخرجوا من مخابئهم
في الحال ، ووثبوا عليهم وفاموا بمحاولات يائسه لقطع طريق العوده
على الصليبيين الذين لو قدر لهم النجاح في الوصول الى المدينه
لوجدوا فيها ملجأ يفيهم من القوات الكثره التي كانت قادمة في
اعقابهم ، الا أن رجالا استطاعوا بفصل من الله أن يعسدوا عليهم
حلبهم ، مما مكهم من الارنداد بمن معهم سالمين .

حينذاك ادرك العدو أن الاسنيلاء على المدينه ليس بالامر الهين ،
ومن ثم شرع في حصارها ، وظل يواليها بالرمي على مدى يوم كامل
دون أن ينال منها شيئا ، بينما قام المسيحيون الذين بداخلها في
الدفاع المجيد عنها ، ولما جاء الأخبار باسراب حسننا الرئيسي
أدرك العدو ما وراء اسمراره في البقاء من خطر عليه وأصاخ للنصيحة
الملي ، وعاد الى أنطاكية تاركا طائفة من الجند لحراسة الجسر

الموصل بين المدينتين ، وهكذا صلتان الكونف وأصغابيه بنأسيم
المدييه الى وهبها الرب لهم ، وحافظوا عليها الى حين وصول الحرس
الرئيسى .

وفى خلال هذا الوقت مرض « جوسلون » الشاب الموهوب بن
كونون كونف موباج الذى تكلمت عنه آنفا مرضا عضالا - اودى
بحياته ، فدفن فى ذلك المكان بكل ما يلقى به من مظاهر الاحترام .

- ٨ -

ما كاد الترك القادمون من أنطاكيه يعادرون أرنج عند اسلاح
البهار ، حتى جاء الخبر بأن الجيش الصليبي قد أصبح على مسارف
المدييه ، وأنه قد نصب مخيمه على مفربه منها ، واصصاع رعاء
الجيش للصبح فارسلوا خمسة عشر ألف فارس مدججين بالسلاح
لمساعدة من فى « أرنج » من اخوانهم الذين جاءت الأنباء بما يعاوبه
من أهوال الحصار المفروضة عليهم ، وكانت الأوامر سلخص فى أنه
إذا وقع الحصار وأصبح الوصول الى المدينه أمرا ميسورا ، عاد
كونت فلاندرز وبقيه الكبار الذين بصحبته الى الجيش ، بعد أن يكلوا
حراسة المكان الى حاميه كافيه ، كما صدرت مثل هذه التعليمات
الى نانكريد الذى كان قد رجع لتوه من قسليميا ، بعد ان صار الاعليم
كله ملك يمسه فعادوا ، وعاد جميع القادة الآخرين الذين كانوا قد
خرجوا الى نواح مخلقة حسبا أملت عليهم مصالحهم ، ولم يكن
ينقصهم سوى بلدوين الذى كان سلطانه فيما حول الرها يزداد
بمشيئة الرب قوة يوما بعد يوم ، وهكذا تجمعت فرق الجيش المخلقة ،
وماسكت قواته مره أخرى ، واذاك نودى فى الجميع الا ينقص
أحد ما عن الجنس الرئيسى الا بأمر يصدر اليه .

حينذاك نقصوا حيامهم ، وأخذوا في الزحف على أطاكيه من أقصر الطرق الموصله اليها ، واعرضهم في منتصف طريقهم نهر أقيم عليه جسر عرف بأنه منيع الحصين ، فرغب القوم في إزالة كل عقبة في هذه الساحة يمكن أن تعرقل الجيش ، فقدموا أمامهم روبرت كونت نورماندى على رأس رجاله ، وكلفوه بكشف الطريق ، فان توقع أية صعوبة أفضى بها الى الكتيبة الى حلقه ، وسرح لقادها الأمر تفصيلا ، وكان على رأس هذه الكتيبة الوجيهان افوار دى بويسيه وروجر دى بارنفيل البارعان فى استعمال السلاح ، وقد سرا أعلامهما .

ولما انفصل الكونت وأتباعه من الجيش الأصلي تقدموه حتى بلغوا الجسر المشار اليه وكان بناء حجريا شديدا الضخامة ، يقوم على كل من طرفيه برج من الحصانة من نفس الحجر الصلد ، وكان فى كل برج مائة من المحاربين الأقوياء الشجعان البارعين فى الرمي بالنشاب وحسن استعمال الأقواس ، قد وكل اليهم حماية البرجين ومنع أى أحد من الاقتراب منهما عن طريق مخاضات النهر ، كما وصل من أنطاكية سعمائة فارس رابطوا على الشاطئ البعيد ، وسيطروا على المخاضات ليحولوا - تحت أى ظرف من الظروف - بين رجالنا وبين عبور هذا النهر المسمى بـنهر العاص ، ويطلق عليه الناس اسم النهر « الفاصى » وهو ينطلق من هذا الجسر ويرل الى البحر مرورا بأنطاكية ، ويظن البعض أنه هو نهر دمشق المعروف باسم « فرقر » ، ولكن تأكد لدينا بما لا يخفى النقض خطأ أصحاب هذا القول ، ذلك أن نهرى فرقر والبانة ينبعان من حال لبنان ، وبعد أن يشقنا الاقليم الذى به مدينة دمشق ويجاوزانها - ينطلقان بسرعة ناحية الشرق ، حتى لخيّل للمرء أنهما ضاعا فى الصحراء .

أما نهر العاصى فعلى العكس من هذين النهرين يسبح من افلم

هليوبوليس ، المسمى أيضا ببعلبك ، ويجاز سيزر وأنطاكية حيث
يصب في البحر الأبيض المتوسط .

★★★

ولما بلغ كونت برمدى بقواته هذا الجسر تكافى على الحيلولة
بينه وبين عبوره حراس برجى الجسر ، والمدافعون الذين وقفوا على
الساطىء الآخر من النهر ، وترتب على ذلك قتال شديد الصراوه فى
هذه الناحية بين الفريقين ، يريد من عنده أن رجالا كانوا مسبيين
فى شق طريق لهم بالقوة وسط وابل هتاء من السهام أمطرهم بها
العدو الذى راح يبذل أقصى طاقته لمنعهم من الوصول ، ودفعهم
بعيدا عن المحاضات .

فى هذه الأثناء التى كان كل من الجانبين فيها يجهد نفسه
عاية الاجهاد من أجل عايته كان الجيش الرئيسى يدو شيئا فشيئا ،
ذلك لأنه لما شاع أن الكونت وحرس المقدمة قد ردوا على اعمابهم
من جزاء القتال عند الجسر ، يادر العسكر [الصليبيى] الى الاسراع
لمساعدة اخوانهم المحاربين ، فلما رأوا اربداد العدو راودهم الأمل
فى فتح الطريق ، عسى أن يتمكن الجيش من العبور من غير تأخير .

ولما تكامل وصول جميع الكائب دوف الطبول ، وبودى
بحمل السلاح ، فاستجاب الجند للنداء بكل ما بهم من نأس ،
وسيطروا على الجسر بالقوة ، وأرغموا العدو على الفرار ، أما
الصليبيون الذين لم سعهفهم الظروف بوجود موضع لهم على الجسر
يحاربون منه ، فقد أنهوا أن يظلوا فى أماكنهم بلا قتال ولكهم
مصوا فاكسفوا المخاضة ، وعبروا الى الجانب الآخر ، ونجحوا فى
رحضة الأعداء من أماكنهم مما جعلهم لا يضادفون بعد ذلك أية
مقاومة فى احتلال الضفة الاخرى من النهر ، واد تم عبور كل الجيش

بعربانه الحربيه ومركبانه وما معهم من سنى صوف الماع . نصبوا
معسكرهم فى مراغ فسيحه حصراء على بعد حمسه أو سته أميال من
المدينه ، حتى اذا كان اليوم التالى تابعوا رجعتهم فى الطريق الرئيسى
الكبير الواقع بين النهر والجبال . فلما صاروا على بعد ميل واحد من
اسوار المدينه نصبوا خيامهم .

- ٩ -

وأطباكيه مدينه عظيمه مجيده ، ينبؤا المربه التالیه ان لم
يكن البانيه بعد رومه دانيا (فم اختلاف كبير تجاه هذه المسأله) ،
وهى نقف على رأس الجميع ، ولها الصداره على كل مطقة المرفى
وكانت تدعى فى الأرمه العديمه «رييلانا» وهما كان فد جىء بصدويا
ملك يهوذا مع أبنايه فى حضرة نابخذا بصر ملك بابل الذى أمر بقتل
الابناء أمام ابيهم ، ثم سملت عيننا الأب دانه بعدئذ ، ولما ماب
الاسكندر المقدونى حلقه فى حكم جره من هذا الافليم « اسيوخس »
فاحاط المدينه بأبراج على سور سديد الارضاع ، حتى صارت
المدينه بفضل « اننيوكس » فى حال أحسن مما كانت عليه من قبل ،
وأمرو أن يسمى بأطباكية اشتقاقا من اسمه ، وانخذها عاصمه
لمملكه ، وقرر أن تكون المقر الملكى له ولخلفائه على مدى العصور ،
وكان فى هذه المدينه أبرشيه كهويه لكبير الحواريين الذى كان أول
من تبوأ وظيفه الأسقف هناك ، لأن الموقر بوفيلوس أحد مواطنى
أطباكية وذوى النفوذ القوى - كان قد أقام كنيسه فى بيته ، وهو
الذى كسب له لوبا ابيجيله وأعمال الرسل ، وكان هو الآخر من أهل
أطباكية كما أنه خلف بطرس الطوبانى فى نفس الكنيسه . وكان
رببه السابع فى ثب من بولوا أسقفيتها .

وقد عقد في هذه المدينة أول مجمع للمؤمنين الذين اصططح على سمينهم بالمسيحيين ، استعافا من كلمة المسيح . ولقد رحب هذه المدينة عن طواعيه وسوى بعالم هذا الحوارى واهندب كلها. مره واحده الى العميده المسيحية ، وكانت هى أول مدينه راحت بيسر بالاسم الذى كان كالعطر الطيب فاح سداه فعطر جميع الأرحاء ، ما قرب منها وما بعد ، ومن ثم اختير لها اسم جديد وسبب « نويبوليس » وهكذا فان المدينه التى كان يطلق عليها من قبل اسم رجل سرير كافر عادت ومحبها السيد مسحة طيبه هى أهل لها ، وأصبح يعرف بأبها مدينه وموطن الذى دعاها للإيمان ، لانه كان لهذه المدينه فى أيام خطئها السالعه السيطره على كبر من الافاليم الخاصه لها ، حتى اذا نعدم الرمن عاشب حناه ظاهره بره ، مسعه طريق المسح ، واسبقت نفس الأساقفه .

ويقال انه كان يحب امره بطرك هذه المدينه - الحبيب الى الله - عسرون ولاية ، كان لاربع عسره منها أسافقنها وكهننتها ، أما السب الباقباب فلها أسافقنها المعروفون بالجاليق ، وكان احدهم يحص بأبى ، والآحر بهريوبوليس أو بغداد ولكل منهم فساوسه . وسدرج كل هذه الولايات يحب اسم واحد هو المشرق الذى ورد فى تهرير مجمع القسطنطينية حب نقرأ فيه « فليكن لأسافقه المشرق اداره المشرق وحده ، ولكن شرف النقدمه لكنسه أنطاكه حسبما هو وارد فى قوانين مجمع بيقية المقدس » .

نمار مدينة اطاكية بموقعها الرائع في ولاية كوليسيريا التي هي جزء من سوريه الكبرى ، وهي تمتد عبر واد فريد في بساتنه وحصب تربيته ومرارعه التي تسقى كلها في الواقع بالروافد والفتواف المائية ، ويقع هذا الوادى وسط جبال تنحدر ناحيه المغرب كما يمتد فراه اربعين ميلا طولا ، وأما عرصه فيسراوح بين اربعة وسه اممال حسب الناحيه التي هو بها ، وتوجد في القسم العلوى منه بحيره تكونت من تدفق المياه من الينابيع المجاوره التي تجمع كلها هنا . كما يوجد على مسيره مثل منها النهر الذى يجرى عبر الوادى ثم يحاور المدينه الى البحر .

وينبى كذلك من البحيره جدول صغير يصب في نفس النهر في انحداره قرب المدينه ، وعلى الرعم من سنده ارتفاع الجبال التي تكشف المدينه من جانبيها . الا أنه يخرج منها مجرى ماء عذب يسير معرجا ، كما أن جوابها المنحدره حتى العمه صالحه تماما للزراعه ، ويعرف الجبل الواقع في الجنوب باسم العاصى (اورسس) كاسم النهر الذى يشق المدينه . ويقول جيروم ان اطاكية تقع بين العاصى وبين الجبل الذى يحمل نفس الاسم وينحدر من هذا الجبل الذى يسير على طول البحر ثم يرتفع ارتفاعا شاهقا ويمرر بسميه خاصه به ذات دلالة معينه ، اذ يعرف عادة بجبل «بارليه» ، ويظن بعض النعاب أنه هو جبل «برناسس» المكرس لباخوس وأبولو، ويبدو ان هذه الفكرة قائمه على وجود البع المعروف ببع «دافى» القريب منه ، ويرى البعض أنه هو البع القسالى المذكور فى الأساطير القديمه ، والذي كان مكرسا لآلهه الفنون والسعر والغناء ، الكثره الورود فى كتابات الفلاسفه ، ويقال انه يتبع من الناحيه التي تعرف بمدرجات بوهيموند قرب المدينه الموجوده فى سفح جبل العاصى ،

غير أن هذه الفكرة بعيدة جدا عن الواقع ، اذ المؤكد ان جبل برناسس يقع فى اقليم بويبىا الذى هو جزء من « ساليا » وقد وضعه «أوفيد» فى القسم الاول من كتابه « مبامورفيورس » فقال بأن أرض فوكيس تفصل الحقول البويبىة عن حقول أنيكا . وهى اقليم خصب عندما تجف الأرض ، ولكن حدث أن ندفقت المياه فجاء بغزارة فى ذلك الوقت البعيد ، كما يوجد هناك جبل يرتفع الى عنان السماء العالية المعروفة باسم بارناسس والى سدو سامخة كما تخترق السحاب .

ويسمى سولسوس فى الفصل الحادى والأربعين من كتابه « بولى هسور » التاريخ العام هذا الجبل بجبل كاسيوس حيث يقول « وعلى معربه من أنطاكية وفى ملاصقة سلوقيا ، يوجد جبل كاسيوس الذى يمكن أن يرى المرء من قممه قرص الشمس حتى الساعة الرابعة من الليل ، فاذا استندار المرء قليلا - حين يبدد الضوء الظلام - أمكه أن يرى على هذا الجبل الليل ويرى من الجانب الآخر النهار » .

★★★

وحى لا يقع القارىء فى حيرة من كلمة سلوقيا الغامضة فيجب احباره انه توجد مدينتان بهذا الاسم أولاها هى عاصمه ايسوريا ، وبعده عن أنطاكية مسيره تزيد على خمسة أميال .

أما الأخرى مجاوره لها ، ولا تبعد احدهما عن الأخرى أكثر من عشرة أميال ، وهى تقع قرب منبع نهر العاصى ، وتسمى هذه المدينه الآن بمياء القديس سمعان ، أما النبع المذكور آنفا فيعرف بسع « دافن » أو النبع القسالى ، ويقال انه كان فى هذا المكان قديما معبد لابلول كان أقوام فى عقيدتهم الخرافية يقصدونه لسؤاله فما استخلق عليهم ادراكه ، وحدث أن اسقرها قرب

أنطاكية - فترة من الوقت - المارون جوليان بعد انفصاله من المسيح وردده عن تعاليم الدين الحق ، وكان في أثناء اعداده الحملة على الفرس يكرر من الترداد على معبد ابولو ، يفسسره فيما هو قادم عليه ، ويسير بودوريس الى هذه الحققة في الفصل الحادى والثلاثين من كتابه « التاريخ الثلاثى » بقوله :

« لما راح جوليان يلتبس جوابا من الهيكل البييسى فى دافى حول مدى النجاح المحمل لحربه ضد الفرس ادا بالكاهن يهره لأن جمان الشهيد بابيلاس كان مدفونا على مقربة من هناك واد داك أمر حولان بعقله » .

وبرد الاشارة الى نفس الحادت - ولكن فى تفصيل أكر - فى الكتاب العاشر من التاريخ الدينى حيث جاء فيه ان جوليان قدم دليلا آخر على حماقته ورعونه ، حين راح يسرصى أبولو فى غابه دافى القريبه من البع القستالى بضاحية من ضواحي أنطاكية ، فلم يستطع الحصول على رد على سؤاله فتساءل ما الذى يعنيه هذا الصمت ، فأجابه كهنة الشيطان ان قبر الشهيد بابيلاس قريب من هناك . ومن ثم فانه لا يمكن الاجابه على سؤاله .



وعلى الرغم من أن هذا النبع معروف بالنبع القستالى . الا انه يجب الا يحتلط فى الأذهان بالنبع القستالى الآخر الذى يسمى أيضا بنبع بيغاسوس ، أو رافد هيبوكرين وأجانب ، اذ ان هذا الآخر موجود فى بونتيا بناء على ما يقوله سولنوس الذى يكسب قفول . « ويوجد قرب طيبة جبل هليكون وغابه كسرون وبهر اسمساس ، كنا يوجد هنا أيضا ياببع اريوسا وهيوديا وسالماس وديرسى ، وان كان أهمها حمبعا ينبوع أجانب وهيوكرين » .

ولما كان ديموس مندع الحروف هو أول من عر على هذه
البنابيع أناء بجواله فى المنطه بها عن موضع يسفر فيه فان
حال السعراء القوى أدى الى ظهور اسطوريين يقول احدهما ان البيع
يدفن من حفر حصاه ، وأن السرب منه كان ملهمه للفنون .

ويوجد فى الشمال من أنطاكية حصبه يعرف عاده باسم « الجبل
الأسود » بكر بها الينابيع وسقى من الرواد ، وكاب ماره على
سكان المنطه جمه ، ممثله فى العباب والمراعى ، ويقال ان هذه
الباحيه كانت نحر فى قديم الزمن بكير من الاديره ، بل سومر بها
فى وقتنا الحاضر أماكن طاهره كثيره ، مليئه بالمحبه وهى مساكن
أولئك الدين وهبوا أنسهم لخدمه الرب .

ويجى وسط هذا الوادى النهر الذى يصب فى البحر . والدى
ذكرناه آنفا ، وقد سيدت المدينه على أقرب وأعق متحدر للجبل
ناحه الجنوب بينه وبين النهر ، كما يبدأ السور من قمة المرتفع
ويسير على طول السفح متحدرا الى النهر ، وكنف محطها أرض
ساسة الاتساع تمتد من جانب الجبل والسهل .

ويوجد وراء السور أيضا قمان ناطحات السحاب ، ونفع
قلعة أنطاكية على ذروة أعلى هاتين القمتين ، وهى بناء شديد الحصانة
يعودونه موضعا لا يمكن افتتاحه ، ويفصل هاتين القمتين بعضهما عن
بعض هو ضيق يحدر عبرها تيار جارف منصب من الجبل ، كما
يجرى وسط المدينه هذا النهر الذى له أباد جمه على السكان ، كذلك
توجد عدة ينابيع أخرى بالمدينه أهمها بالباب السرى المعروف بباب

القدبس بولس ، أما بيع دافسي الذي يبعد حوالى ثلاثة أو اربعة أميال،
فقد تم حفره عن طريق افامه مجرى فوق المناظر ونصبوا فاحمالوا
حتى جعلوا الماء يندفق الى أماكن مخلعة كبره فى أبواب معسه .

ويحيط بالمدينه من أعاليها ومنحدراتها وسهلها أسوار من الحجر
الأصم ، السديد الضحامة ، العظم الارهاق ، ويطل على كل هذا
كبر من الأبراج المي أعدت للدفاع أحسن اعداد ، وهى على ابعاد
مساويه بعضها من بعض . ويجرى النهر الى الغرب فى الناحية
السفلى التى هى أحدث جزء من المدينه ، ويقرب مجراه كل الافراد
من الاسوار ومن الجبل الذى يعبر بكلمة لسور المدينه وبوابتها
ويقول بعض البقات ان المدينه تمتد مسافة مبلين طولا ، ويقول آخرون
بل ثلاثة ، وهى بعد عن البحر مسافة اتنى عشر ميلا .

- ١١ -

كان حاكم هذه المدينه الذائعه الصيب رجلا بركى الاسم
يدعى ياعى سيبان ، وهو من اتباع عاهل عظيم سديد الباس اسمه
ملكساه هو سلطان فارس الذى أسرا البه من قبل ، وقد استطاع
الأمير [ملكساه] بقوة السلاح أن يضم الى ساطانه جميع هذه
الولايات وأن يدخلها تحت حكمه ، ثم رأى أخيرا أن يعود الى وطنه
بعد ان دانت له كل السعوب والقبائل . فعاد ووزع فواحته بين أولاد
أخيه وآساعه . اعتادا منه أنهم كلما تذكروا مآثره الحمه عليهم
اسد ارباطهم به واخلاصهم له ، فكانت نقيصة وما جاورها من
الولايات . من نصيب قلع ارسلان فى هذا المقسم ، كما أسرا
آنفسا .

أما دهمسقى وما يتبعها من المدن التى بدع لها الجزية وكذلك
الاوليم الذى هو حولها ، فكانت من نصيب ابن أخ آخر له اسمه
دقاق .

وحلج ملكساه على هذين العاهلين مربية السلطة ولقبها ، ولما
كانت مملكه فليح ارسلان وافعة على حدود اليونان فقد كانت فى
نزاع دائم مع امبراطوريه القسطنطينية .

أما دقاق - فكان بسبب ماملك - فى حروب لا يحمد أوارها
مع المصريين ، والذى راح [ملك شاه] ينظر اليهم بعين الريبة الكره
لزيادة المطرده فى قونهم وبطشهم .

أما السابغ الآخر من اتباع السلطان واسمه آى سنمر - وهو
والد [عماد الدين] زنكى ، وجد نور الدين [محمود] فكانت حلب
السهيرة من نصبه .

وأعدف ملكساه فيض كرمه أيضا على باغى سيان الذى تكلم
الآن عنه ، فوصله بمنل ما وصل به هدين الرجلين ، اذ اقطعه أنطاكيه
مع اوليم صغير ، وقد حملة على هذا ما كان من احتلال خلعته مصر
كل البلاد حتى اللادقية بالسام .

ولما علم باغى سيان أن جيشا كبيرا بقيادة قادة صليبيين فى
طريقه اليه أنفذ كيرا من الرسائل - شفاها وكتابه - الى جمع
أمراء الشرق كله ، يطلب منهم مساعدته ، لاسبما خليفه بغداد
وسلطان فارس العظيم ، وهو أقوى الحكام جميعا الذين استجابوا
لطلبه فى يسر ، ولبوا نداءه على عجل ، وكان الحامل لهم على ذلك
ما برامى الى أسماعهم منذ وقت بعيد من خبر تقدمنا ، وما يحمله

هذا الزحف من خطر حسيب عليهم . ولما كان الب ارسلان يعام بحمره وكشاهد عيان بما علمه هذه الجيوش الصليبية من كره العدد والبطولة التي لا تفهر ، فقد بعث الى هدين العاهلين بتفصيل دقبي عن هذه الجيوش .

وقد أرتب في هدين السلطانين التماسانه الحاره ودموعه المسكوبة ، فاستجابا له بارسال الجده اليه ، وكان الساع لأحدهما على هذه الجدة رعبه في الكفير عن نصيره ، وأما الآخر فكانت استجابته ناجمة عن رعبه في ضمان سلامة بلده من عزواب الصليبيين . وحماية نفسه في الوقت ذاته من بطشهم .

وبعهد الملكا بارسال القواب المطلوبه اليه ومده بالمساعدة المنشودة ، وقد برهنت النتيجة فيما بعد على انها صدقا فيما عاهدوا ، وأوفيا بما وعدا .

كان القلق الشديد من مجيء الصليبيين مسببا بباغي سيان . ومن ثم دأب على حشد العسكر من الولايات والمدن المجاورة ، واد كان يوقع الحصار بين لحظه وأخرى فانه لم يدحر وسعا في جمع الكير من الميرة والسلاح ، وفي شجيع أهل المدن وحهم على جلب كل ما يحتاجه صنع الآلات من الحديد والصلب وغير ذلك من المواد الأخرى التي لا غنى عنها في العادة في مثل هذه الظروف ، كما ان الأهالي أنفسهم كانوا منحمسين غاية الحماسه في الحفاظ على سلامة المدينة وأمنها ، وبذلوا كل ما في طايفهم لجلب كل ما يعنهم ان هم حوصروا ، فلم يدعوا ناحية من نواحي الاقليم الا جابوها وبهوا كل ما حاورهم ، وعادوا محملين بالجبوب والتبيذ والزيب وشتى مستلزمات الحياة ، وساقوا أمامهم قطعان الماسية والأعنام ، حتى املاّت المدينة بكل ما هو ضروري من المره ، ومن ثم استطاعوا

- بعد نظرهم وجهودهم الكبيرة - أن يدعموا مركزهم أمام صراوة
الجنس الصليبي القادم عليهم .

أما البلاد التي مر بها الجنس الصليبي فقد هرب منها الى
أنطاكية كيرون من ذوى المكانه والبأس ، فرارا من وجه ذوابنا
دون أن يدعوهم أحد لذلك ، وأما فعلوا هذا خوفا على سلامتهم
ورأوا في تحصينات مدينة أنطاكية وقونها ما يستحيل معه
اصحامها . ومن ثم راد عدد سكانها ريادة عظمى بهؤلاء الوائدين ،
ويقال انه كان من بين الأهالي وجمعات المرتزقة حوالى سته أو
سبعة آلاف فارس ، وأكثر من خمسة عشر ألف أو عشرين الفا
من المساه المدحجين بالسلاح نأهبها للحرب .

- ١٢ -

حين رأى رجالنا أنهم قد صاروا فاب فوسس أو أدنى من
أنطاكية ، اجمعوا للنساءور فيما بينهم ، واقتراح بعض الرعماء
- بطرا لهرب دحول النساء - أن يؤحوا حصار المدينة حتى يمتاع
الربيع ويرروا هذا الأحيل بأنه سيكون من أصعب الأمور بجمع
العسكر قبل ذلك الوقت ، نظرا لتسبب الجند في الوقت الحالى
فى المدن والقلاع المختلفة ، وزادوا على ذلك أنه يجب عليهم انتظار
ما اعنزمه امبراطور القسطنطينية من ارسال فرقة كبيرة من فوائه ،
كما أنه كان فى الطريق اليهم كتائب جديدة قادمة من البلاد الواقعة
فيما وراء الألب ، وأن الحكمة نصضبهم انتظار وصول هذه الجيوس
الى سوف يؤدى الى رياده العسكر ريادة هائلة بمكهم - كما
قالوا - من يحقق هدفهم المنشود فى يسر أكثر .

أما في المعركة التي لا تبارس فيها هذه القوات الحرب فانه
يمكن تقسيمها أقساما يذهب كل واحد منها بمفرده دون الآخر
لفضاء السماء فيما حاوره من المناطق التي هي أول تعرضا للهجوم ،
حتى اذا ما وافى الربع عاد الجيش واصم بعصه الى بعض مرة
أخرى ، ويكون رحاله قد اسردوا بساطيم ، وناعبوا للقيام بالأعمال
التي لابد لهم من القيام بها ، كما أن الحول سيكون أوفر فوه بسبب
العلم وما نعمت به من الراحة أثناء فصل السماء .

على أن عبرهم رأوا ان هناك ما هو أجدر من ذلك . ألا رهو
الإحداق بالمدينة في الحال في حركه مفاجئه وعلى غير توقع منها .
وقالوا انه اذا أتيح للأهالي فترة من النقاط الانعاس فسوف يوفر
لهم ووب أطول يصرفون فيه لدعم وسائل دفاعهم . وجميع الكائب
الكثيره التي استدعوها لمعونتهم .

ولقد غلب في هذا الاجتماع اليام رأى الفريق الثائل بوجرب
انذاره الى حصار المدينة وأن الخطر في ارجاء الفال ، وأن القوات
التي ترسل للاستكشاف لا ينبغي ان تفصل بعيدا عن دس ،
وذلكما اهتم الآراء جميعا على الرجوع على المدينة والدخول في عمليات
الحصار في التو واللحظه .

ومن ثم فقد فوصدوا حمانهم يوم ١٨ أكتوبر ورحلوا سطر
مدينة أنطاكية حتى صاروا أمامها ، وعلى الرغم مما قيل من أن
القوات الصليبية التي كانت بحسن استعمال السيف كانت تباع
ثلاثة آلاف شخص ليس بينهم امرأة ولا طفل . الا أنه كان من
المستحيل على الجيش أن يحيط بالمدينة احاطه كامله . ذلك لأنه
بالاضافة الى قمم الجبال التي قلنا انها تقع في منطقة الأسوار والتي
لم يزل أنة محاولة لطويقها ، فان هذا الجزء من المدينة مصد من

سفع الجبل الى الهر - وهو جزء أكر انبساطا - لم يكن فى
الامكان الاحداق به بحصار مسنمر .

ولقد صحب وصول الجيش الصليبيى والعمل فى امامه
المعسكر كبير من الجلبة ، وكان يخبل للسامع أن نفخ الأبواى ،
وصهبل الخيل ، فعقعة السلاح ، وهى مخلطه بصحات الرجال ،
فد بلغ عنان السماء ، ومع ذلك فقد ساد المدينة صمت مطبق
خلال ذلك اليوم بطوله والأبام النالبة لوصول حبشسا ، ولم يردد
فيها صوت أو سسمع نامة من أى نوع ، حى لقد كان يخبل للمرء
أن المدينة خلت تماما من كل مدافع عنها ، رغم أنه كان يقوم على
حراستها أعداد كبيرة من الحرس ، ولديها الكبير من الميرة والمثونة .

- ١٣ -

كان فى هذا القسم من أنطاكه - الواقع فى السهل - خمس
بوابات ، واحدة منها فى الموضع الأعلى من الناحية الشرقية - وتعرف
الآن ببوابة القديس بولس ، نسبة الى أنه يوجد فى المنحدر
الذى فى أعلاها دير مكرس للحوارى المسمى بهذا الاسم . كما يوجد
أمامها مباشرة بوابة أخرى تعرف بالبوابة الغربية ويفصلها عنها
منطقة تمتد بطول المدينة ، وهى المعروفة الآن ببوابة القديس جورج
والتي هى على مقربة من موضع كنيسة هذا الشهيد .

أما من الجانب الشمالى فكانت هناك ثلاثة أبواب بطل جمعها
على النهر ، وتعرف العليا منها بباب الكلب ، ويوجد أمامها مباشرة
جسر يجتاز المشى ويكمل السور ، وأما الثانى فيعرف الآن بباب

الدوق وبيعدان قدر ميل عن النهر ، ويطلق على البالي اسم باب
الجسر اد يوجد هنا الجسر الذي يعلو النهر ، وذلك لأن مياه النهر
تلطم الأسوار ولا تريد عن المدينة فيما بين بوابة الدوق المسار إليها
حالا الواقعة في المصنف ، وبين آخر بوابة في هذا الجانب .

ولما كان من المسحيل على الجيش الوصول الى هذه البوابة
أو بوابة القديس جورج الا عبر النهر فلم يصرب الحصار على هدير
البابيين وان أحيط بالأبواب الأخر العلوية ، فقام بوهيموند ومن
انضموا الى معسكره منذ البداية بمحاصرة أعلى هذه البوابات .

وكان حوله - وان كان اسفل منه - عسكر روبرت دوق
نوماندي ، وروبرت كوت فلاندرز ، وسبعين كوت بلوا ، وهيح
العظيم ، وقد اسنم هؤلاء القادة بمن معهم من جماعاتهم النورماندية
والفرنجية والبريطانية في حصار الناحية الممتدة من معسكر
بوهيموند الى باب الكلب الذي أحرق به ريموند كوت بولور
وأسقف بوي وغيرهما من النبلاء الذين ساروا تحت فيادهم مع
حشد كبير من الجاسكوس والبروفنساليين والبرجنديين ، وكانت
جموعهم تشغل كافة المطعة حتى البوابة السابعة .

وقد أقام الدوق حودفروى معسكره في تلك الناحية الأخيرة ،
وكان معه أخوه أسباس ، وبلدوين دي هيبولت وريبارد دي نول .
وكونون دي موناچ ، وكلهم من الكونتات والمحاربين ذوي الشهرة
المدوية ، بالإضافة الى غيرهم من النبلاء الذين انخرطوا تحت راية
الدوق منذ البداية ، فسنغلوا بمن معهم من عساكرهم اللوبارجسين
والفريزيين والسوابيين والسكون والفرنجة والبافارين كل ما بقى
من الناحية تقريبا حتى باب الجسر ، وقد وضع هذه القواب على
هبة ملب ، تمتد رؤوسه بين المدينة وبين النهر الذي يغسل

أسوارها ، وبين معسكر العواد الآخرين ، وكانت توجد في هذه
الناحية الأخرى التي أحسها حششا عن آخرها وأخذ مما حصل
عالمه منها ما ريس بحميه ويحمى حموله .

★ ★ ★

كان أهل البلد يطلعون من خلال الفحات الموحدة في الأبراج
والاسوار الى المعسكر ، فأدهشهم برقى أسلحتهم الذي يخطف الأبطال
وأدهلهم نشاطهم في عملهم ساطا لا يعرف الكلل ، وطريقة اسكانهم
من معهم ، وبربيتهم خيام المعسكر ، كما امتلأت بقوسهم خوفا مما
ساهدوه من كسرة الجنود وقوتهم ، ولما راحوا بفارغون حاضرم
بما صدمهم ، والاختار الذي يهددهم حاليا بما كانوا يعملون به من
استتباب الأمن نملكهم الفزع على نساءهم وأولادهم وبيوتهم التي
درحوا فيها ، وعلى حريتهم وهي أعلى ما يملكه الانسان ، ورأوا أن
من أخطفهم الموت أسعد حظا منهم لأنهم لم يكابدوا الحظر الشديد
الذي يكابدونه هم من وحودهم في عمرة هذه المصائب ، وهكذا باتوا
يرقبون بين يوم وآخر سقوط المدينة وهلاك أهلها ، وذلك لاعتمادهم
الحارم أن حصارا كهذا الحصار الشديد ، يصحبه مثل هذه الشدة
والرحم ، لا يمكن أن يسهر بهايه الا عن دمار المدينة وضباة
حربها .

- ١٤ -

كانت الحاجة الى حصول من في المعسكر على العلف لخيولهم
والبزة اللازمة لأنفسهم حاملة اياهم على الفيام بطلعات متعددة وراء
النهر ، وقد ذهب بهم السير في بعضها الى مسافات قاصبة ، وكانوا

يرجعون بعد كل خروج سالىم عامين . بسبب استمرار بقاء الاعمالى داخل المدينة دون أن يجسروا على التجوال فيما حوينا ، حتى ألف العسكر العبور عدة مرات فى اليوم الواحد رغم أنه لم يكن من المستنطاع القيام بهذا العبور الا سباحه . وسرعان ما يجلب هذه الحقيقة للمحصورين ، فشرعوا من جانبهم فى عبور النهر من فوق الجسر ، ناره جهرا ونازه حلسه ، مما أدى الى قدرتهم فى احيان كثيرة الى قتل عدد قليل من رجالنا . أو احابهم بالجراح ، لأنهم اعتادوا التجول هنا وهناك دون ان يأخذوا حذرهم ، وكانوا يحرقون فى أفراد قليل بحا عما يحتاجونه ، وقد اسعد العدو فائده قصوى من أن النهر كان يعف حجر عره كبرى فى طريق عودة الصليبيين ، كما أن هذه الصعوبة دأبها هى التى كانت تمنع أهل المعسكر من معاونة أصحابهم وهم برونهم بفعلون فى يد العدو ، وأراد العادة التغلب على هذا الموقف فرأوا الخير فى بناء برج من أى مادة سوف عندهم . لأنه ان بين مثل هذا البرج نكن مساعدتهم أكثر فعالية فى القضاء على أحابيل العدو ، كما انه يساعد العسكر على النجاح فى العودة الى مجسماعهم ، دون أن يكبدوا الا خسائر طعيفة ، يضاف الى ذلك أنه يفتح طريقا آمنا ملائما للمشاة اذا ما دعاهم داع الى الخروج لأمر عاجل ، لاسيما ما يتطلب منهم النرول الى الساحل .

كان عناك عدد من المراكب راسيا فى النهر وعلى سطح البحيرة التى فوقهم ، فربطوا هذه القوارب بعضها الى بعض ربطا محكما ، ثم يسطوا عليها ألواحا سميكة ، ومواد خشبيه أخرى يصلح لهذا الغرض ، وأحكموا شدها بعضها الى بعض احكاما كبيرا بجبال مجدولة من الصفصاف ، وبذلك وجد جسر قوى كاف باما لأن يسع

فى المره الواحده عدة أسحاص يعبروه جببا الى جبب ، فكان هذا البناء الخشبى ملائما كل الملاءمة لرحالنا ، وكان منصوبا قرب معسكر الدوق فى مواجهة البوابة البى خصصت له للمراقبة ، وعلى مسافه غرب من ميل من الجسر الحجرى المتصل بالمدينه ، ولا نزال هذه البوابة التى ذكرناها حالا تسمى ببوابة الدوق لارتباطه بها . اذ كان معسكره يشغل كل الناحية الواقعه بينها وبين الجسر الحديث البناء ، ولم يكن يشاركه فى هذا الموضع مشارك .

لم يكن الخطر يهدد الصليبيين من هذا الجسر وحده أو من ناحيه البوابة المنصبة به وحسب ، بل كانت البوابة العليا التى كانت السالبة فيما وراء ذلك ، والمعروفة اليوم بباب الكلب ، بعد مصدر خطر حسم يهدد فواننا ، لأنه كان فى هذا الموضع - كما فلما - جسر صخرى يمتد فوق مسننec ويخرج من المدينه ، وقد تكون هذا المسننec من المياه المتدفقة بلا انقطاع من المنبع الموجود عند البوابة السرفسة ، أو بوابة القديس بولس ، وكذلك من المياه الواصلة على الدوام من الروافد الأخرى ، وكثيرا ما جاء عن طريق هذا الجسر غارات جمه فى منتصف الليل ، وأخرى فعائيه بالنهار ، وكلها تسنهدف معسكر كونت تولوز الموكل اليه حراسه ذلك البوابة ، وكان من عادة العدو أن تقحم البوابة ويصب وابلا من السهام نتهاولى كالطر الدفاق ، مما يؤدى الى مصرع الكثير من رجال الكونت واصابتهم بالجراح ، وكان حل اعتماد الخصم على هذا النوع من الهجوم لأنه يمكنه خير تمكين من النجاة سالما عن الجسر الى المدينه بعد اتمام غارته ، وقتله من قتل ، بينما لا يستطع الصليبيون مطاردته الا من هذا الطريق ، ومن ثم فقد كانت الجياد والبغال البى فقدها كونت تولوز وأسقف بوى وغرهما من الانلاء المرباطين فى تلك الناحية تجاوز كثيرا ما فقده عسكر القادة الآخريين .

أدت الحسائر السى وقعت فى صفوف المحاربين الناجمه عن هذا الوضع الى استيلاء الهم المقيم على الكونت والأسقف المعظم ، ومن ثم فقد استدعيا رجالهما ، ووجهاهم للحصول على مجنات وآلات حديدية ، وتوحيد جهدهم لتحطيم الجسر ، فلما كان اليوم المحدد لذلك الأمر قدم الفرسان وعليهم رردياهم ودروعهم ، وقد عطوا رؤوسهم بالمعافر ، وتجمعوا عند الجسر ، وحاولوا هدمه بكل ما فى طوقهم من قدره لكن هذا البناء الأصم كان أقوى من كل حديد ، فقاومهم واسعصى عليهم . كما راح الأهالى يعرفلون جهد العسكر اد يرموهم بالحجارة ويمطرونهم بوابل من السهام والشباب . فلما رأى الصليبيون فشل أنفسهم فى محاولتهم هذه سحلوا عنها الى أخرى مخرقة لها ، ففروا اقامة آلة حربية فى مواجهة الجسر مع وضع حراسة مسمرة من رجال مسلحين ، لس لهم من عمل سوى صد الهجمات السى يسنها المحاصرون . وجمعوا اد داك كل ما تحتاجه هذه الحطة . كما جاءوا بالعمال ، ولم نكد تنقضى غير أيام فلائل حى كان العمل قد أنجز ساما على أحسن ما يكون الانجار ، فقد بدل العمال جهدا سافا ، وواجهوا الأخطار فى حرهم الآلة الى موضعها حتى قامت أمام الجسر كالصرح المرد ، وعهد بها الى حماية الكونت وملاحظته .

فلما رأى البلديون الآله منصوبه الى الاسوار . لم يحجموا عن المخاطره فصبوا آلات رميهم اليها ، وحاولوا اضعاف آلسا النى راحوا يصبون عليها وابلا غير مقطوع من فداثهم الحجرية الضخمة ، كما شرع الذين فوق الاسوار والأبراج يعوفون ببالهم وسواها من أنواع السهام ، ويرمون بها رميا سديدا يبتغون بها من هم حول الآلة لردوهم عن الجسر .

وهكذا استمر المدافعون، الواقفون على الأسوار في سن عارابهم من كل ناحية . وفي صبح وابل من السهام والصخور يأخذ بعضهم بحجر البعص الآخر أملا منهم في رد الصائسين الى الورا، ولو قليلا ، على حين اندفع غيرهم لفتح البوابة في كرة غنيقه اسولوا فيها على الحرس عموه ، وسفوا طريقتهم الى الآلة يقاقلون من بعرضهم . وسبقوهم مسرعه في أيديهم ، وهزحزين من وكلب الهم حمايتها . ثم أسعلوا النار فيها حتى أقالوها رمادا ، حينذاك أدرك رجالنا أنهم لن يقدروا على التقدم ان هم انبعوا هذه الخطه في مواحيه المناعب التي تصادفهم عند الدرج ، ولذلك وما كاد اليوم التالي يطلع حتى كانوا قد اقاموا بلب آلات ، وراحوا يصبون منها وابلا موصولا من العدائف . مؤملين من وراء ذلك أن يضعفوا على الأقل الأسوار والبوابه لمنعوا الأهالي من سن عارابهم العدوايه ، وحسب لا يجرؤ أحد منهم على الخروج من تلك البوابه طالما أن الآلات مستمره في عملها ، ولكن لم تكن هذه العمليات لتهدأ قليلا حتى يعاود المحصورون هجماتهم ، ويسببون كثيرا من الأذى لمن اقرب منهم من أهل المعسكر .

غير أن هذه الخطه برهت هي الأخرى على عدم جدواها ، فعمد الصليبيون الى اتباع طريقة اقترحها عليهم واحد منهم ، ألا وهي أحد الاحجار الكبيرة وجدوع الاسجار الصلحه التي يعجز المائله من الرجال عن زحزحتها الا بسقى النفس وراحوا يدرجونها ناحيه البناية . وقام بهذا العمل ألف فارس مدرعين تحت الجيش بأجمعه . حيث حملوا هذه الأشياء فوق الجسر ، وجعلوها كومة كبيرة أمام البناية ، فباعت اذ ذاك جميع محاولات الأهالي في دفعها بالنسل الذريع وقضت هذه الخطط على كل هجوم فجائي يسنه العدو من هذه البوابة .

وحدث في أحد تلك الأيام أن خرج طائفة من المشاة والفرسان من حينسما ، سلع اللامساته عدا ، وجاورت الجسر الى ما وراءه النمسا للعلف ، ونفروا حربا على عادتهم في ربوع تلك الناحية بحثا عن الأشياء الضرورية ، وكانت حاجتهم الملحة في البعش عن الطعام يضطرهم الى سلوك هذا الطريق الذي اعادوه ، وعادوا سالمين من عدوانهم التي خرجوا فيها يبحثون عن الميرة حتى وهم محملون بأحمال تقال مما يحاحونه ، ومن ثم اعمدوا ان الحظ سوف يمشى في ركبهم على الدوام ، ولم يحظر على بالهم أبدا امكان وقوع حادث لهم ، كذلك الأحداث التي بصاحب الخروج في طلب العلف زمن الحرب ، فحاسبوا الحذر والاسباه الواجبين .

فلما رأى المواطنون هذه الجماعة أرسلوا منهم حشدا كبيرا لمباغتها ، حتى اذا ما عبر الجسر الصحري اطلقوا بكل ما أوتوا من قوه سطر الصليبين الذين كانوا يحولون هناك دون أن يأخذوا حذرهم ، فأغاروا عليهم ، وقتلوا أكثرهم ، وأما من قدرت لهم النجاة فعد لاذوا بأذيال الفرار .

هرب الصليبون الى الجسر المصنوع من القوارب رحاء الوصول الى المعسكر ، ولكن الجسر كان مزدحما بمن سبغهم اليه ، واذ ذاك حاول أكثرهم عبوره عن طريق المخاضة ، فابلعهم الموح وكان نصيبهم الموت بعد أن كان يراودهم الأمل في النجاة ، وأما من سواهم فقد ندافعت حشودهم الكسفة وبراحموا فسقطوا من أعلى الجسر في النهر ، فصرعتهم الأمواج ، وقذفت بهم الى الأعماق التي فغرت لهم فاما وأبت أن تردهم .

حين سمع الجيش خبر هذه الكبة هب آلاف من الفرسان الى
أسلحهم وعبروا النهر ، فاعرضهم العدو وهو عائد بعد فله
الصلبيين فرحا بما وقع في يده من العنائم ، فهاجمه رجالها في
الحال ، وراحوا يعصون آثاره في عزم لا يلين ، حتى بلغوا بوابة
المدينة ، وكان الحطب حسما . وحين رأى أهل البلد اخوانهم
الموطس في هذا الخطر الباعث على الأسى وهم يروحون ما بين قتل
وجريح تحركت قلوبهم عطفًا عليهم ففتحوا الباب ، وجمعوا عبر
الجسر الحجري ، في جموع كيفة لمد يد المعونة الى أصدقائهم ، وشنوا
هجومًا سديدًا - لم يؤلف منهم من قبل - على فواننا التي قاومت
في بداية الأمر مقاومته شديدة ، لكن ما لبث ان تعلبت عليها الجموع
الكبيرة ، فولوا على أدبارهم هاربين ، وجد الخصوم في اثرهم حتى
بلغوا الجسر المصنوع من القوارب ، ومات في هذا القتال كبير من
مشائنا بحد السيف ، وابتلعت لجة النهر العديد غيرهم ، كما
اضطربت صفوف الفرسان وهم يهربون من العدو وراح بعضهم
بزاحم بعضا ، فسمطوا هم أيضا في النهر ، وقد أنفلتهم الدروع
والزرديات والخوذات التي عليهم ، فابلعهم اليهم هم وخبيلهم ، ولم
يعودوا قط للظهور .

وهكذا كابد رجالنا من الحصار أهوالا لا نقل عما كان يكابده
من كانوا وراء الأسوار ، ولم يعودوا قادرين على التخفي في خروجهم
الى النواحي التي حولهم بل أصبح أمرهم مكشوفًا لأهل البلد الذين
بذلوا من جانبهم كل محاولة لصدهم ، وحدث في نفس الوقت ان
أخذت قوات معادية أخرى تنربص بهم في الغابات وتترصدهم في
الحقول ، وتنصب لنصيدهم الكمائن التي كثيرا ما صادفت النجاح .
ونرتب على ذلك أن فقد رجالنا الجرأة على الخروج من معسكرهم ،
أو الذهاب بعيدا في طلب الطعام كما لم يعد المعسكر ذاته مكانا

أما لأن الجمع صاروا في فرغ من ان ناعيم على عره القوه الضحمة - التي قبل أن العدو قد أحد في جمعها من نواح معدده .

هنا قد يسأل الرجل العاقل : أى الحال كان أحسن من غيرها ، وأيها كان مبعث فرغ « حاله الجنس المحاصر أم أولئك الدس كان المفروض فيهم أن يكونوا محاصرين ؟ » .

- ١٧ -

لو حاول ان أذكر بالتفصيل الاحوال التي كانت تقع عاليا كل يوم في الأماكن المختلفة بسبب هذا الحصار العنيف الطويل الأمد لكان أمرا يطول شرحه وليس موضعه في هذا الموحر البارحي الذي أحاول أن أبجزه بكل الدقة ، فلنجاوز الأحداث الخاصة وسأبج مجرى الحوادث العامة .

حينما دخل الحصار شهره السالب مع قلب الحطوط في هذه الحرب المستمرة أخذ الطعام في النقص في المعسكر وعانى الجيش الأمرين من فله المثونة .

في البدء كانت هناك وفرة بالغه الضخامة في كل سىء تمس الحاجة اليه من طعام الانسان وعلف الجياد ، ونوهم الناس - حريا على عادة الجهال - أنهم سوف يظلون ناعمين بهذا الوضع السوى . غير متوقعين أى عناء قد يلزم بهم ، ومن ثم لم يحسنوا الصرف فيما بين أيديهم من خيرات ، مما تربى عليه ان أبوا في وف وحير على ما لديهم من طعام كان المفروض فيه أن تكفيهم أناما طوالا لو أنهم ألزموا الاعتدال في استهلاكه ، لكن لم يكن هناك حد لاسراف

الجند ، ولم يلزموا القصد الذى هو سمه العلاء ، بل كان ثم بدح
سببه فى كل ناحيه ، بعدى ضرورات عيش الأسان الى علف الجياد
ودواب النقل ، ولم يعرفوا الوسط فى أى شئ مما نجم عنه أن أصبح
الجيش بأجمعه موشكا على الفناء ، وذلك بسبب ما تربع على اسنار
المجاعة من صاؤل عدد المحاربين ، وحيداك نودى فى الناس بعقد
مجلس عام يصممهم جميعا ، وفرروا بنسب كل الغنائم التى يقع فى
أيديهم فسمه عادله ، وأكدوا فرارهم هذا باليمن فطعوها على
أنفسهم ، وكونت لذلك عده كتاب فوام كل منها ثلاثمائة أو أربعمائه
رحل ، خرجوا معا وراحوا يدرعون الناحه بأكملها فى محاوله منهم
للحصول على الطعام بأى وسيله يقدرون عليها .

واعناد هؤلاء الباحثون عن الطعام ان يعودوا وفد فاضت أيديهم
بالأسلاب الكبيره ، والغنائم الوفيره ، والمثونه الضخمه ، وكان ذلك
فل أن يأخذ أهل البلد أنفسهم بمهاجمه هذه الجماعات ووضح
الكائن لها ، وأيضا ابان الوقت الذى كان فيه الاقليم الذى حولهم
لا يزال غاصا بقطعان الماشيه والأغنام وأحمال الجبوب والشراة
وغير ذلك من العلات ، وكان هذا هو السبب فيما أشربا اله من
قبل من وفرة المثونه فى المعسكر ، أما الآن فقد غاضت موارد الأراضى
المجاورة ، ونقصت غلاتها ، أضف الى ذلك أن الترك الذين كانت
شوكتهم قد ضعفت من جراء ما اسنولى عليهم من خوف أذل نفوسهم
عادوا فاستردوا بأسهم وشجاعتهم فى الدفاع عما يملكون ، وأصبح
العلافون يعودون [للمعسكر] صفر الأيدى ، وكثيرا ما كان يحدث
أن يقتل الخارجون عن بكرة أبيهم فلا يبقى منهم أحد يحدث عما
كان مصيرهم .

أخذت الذخائر تقل يوما بعد يوم ، وعمت المجاعة حتى لم
يعد من البسير الحصول بشلنين على الخبز الذى يكفى لوجبة الشخص

فى يوم واحد ، وأصبح ثمن الفره أو العجلة ماركين بعد أن كانت
بباع من قبل بحمسة شلنات ، ولا تكاد السامنة شلنات تكفى لشراء
علف وجبة واحدة للحصان فى ليله واحده ، وكان الجيش قد جلب
معه أكثر من سبعين ألف حصان لم يبق منها فى المعسكر سوى
ألفين أو أقل ، أما البقية فقد هلك بربدا ، ونفعت جوعا ، أما ما لا زال
منها حيا فقد أخذ عدده فى النناقص شئنا فشيئا . وأصابها الهزال
بسبب الجوع والبرد المهلك .

يضاف الى ذلك سرب الرطوبة والعفن الى الفساطيط والحم
حتى لقد هلك الكيرون ممن كانت لا يرال عندهم الأطعمة ، لأنهم
لم يعودوا قادرين على تحمل البرد الشديد ، وليس عندهم من غطاء
يدفع عنهم رمهريه ، وهطلت الأمطار الغريره فأفسدت الطعام ،
وبعفت الملابس ، ولم يعد ثمة مكان يستطيع الحجاج ان يسندوا
رؤوسهم اليه أو يكوموا حاجاتهم فيه .

وقد رتب على هذه الظروف ان نقى الوباء فى كسائب
العسكر ، وكان وباء فائلا لم يحدوا معه مكانا يوارون فيه حفر
مواهم ، ولم يستطيعوا اقامة الشعائر الحنثرية لهم .

أما الدين كانت دلائل الصحة لا يرال بادية عليهم فقد فروا
خفة حتى لا يفعلوا فريسة لهذا الطاعون المهلك ، فهرب بعضهم الى
لورد بلدوين فى الرها ، وبعضهم الآخر الى فليقيا عند حكام مدينها ،
ومضى آخرون غير هؤلاء وهؤلاء الى الواحي البى كانت قد آلت الى
حكم الصليبيين ، ونجم عن رحيل هؤلاء ، وهلاك من قبله الجوع
وأفناهم المرض ، ومن قتلوا بالسيف ان نضائل الحيس الى الحد
الذى فل معه عدد الأحناء منهم عن نصف ما كانوا عليه .

تدبر فادة الرب المخلصون ماران على الناس من الحزن ، وفكروا فيما شاهدوه من الأهوال التي ألت بهم ، ففاضت نفوسهم حسره ، وتشفعت أكبادهم أسي على هذا الجيش المنكوب . فاجتمعوا كدأبهم للنشاور في إيجاد علاج يدفع هذه المصائب المهلكة واسعروضوا مختلف الاقتراحات ، حتى استقر الرأي بهم أخيرا على خروج أعظم قادتهم بطائفة من الجند لشن حملته على أرض العدو ، بسولون فيها على الماسية ، ويهبون ما يقدرون عليه من الطعام اللارم ، على أن يعيم النقيه البافيه من الرجال في المعسكر أساء عياب هؤلاء الرجال ، وان تبدل هذه البعنة الناقسه عايه الجهد في حمايه الجيش ، وانفقوا على أن يكلوا مهمه حلب المثونه الى بوهيموند وكونت فلاندرز ، وأن يبقى كونت بولوز وأسقف بوى لحراسة المعسكر ، وكان كونت نورماندى غائبا اذ ذاك ، كما كان جود فروى دوق اللورين ملارما للفراس لاصابه بمرض شديد ، فاستصحب الفائدان معهما طائفة كاسية من الفرسان والجود المشاه بقدر ما استطاع الجيش المنهوك امدادهما به ، ودخلوا أرض العدو .

ما كاد المحصورون يعلمون برحيل بوهيموند وكونت فلاندرز ، وبغياب كونت نورماندى ، وبمرض الدوق حتى دبّت فيهم الشجاعة على غير عادتهم ، واغتنموا الفرصة لمهاجمة معسكرنا ، يعيا منهم جميعا بأن نخب هؤلاء القادة انما هو فرصة لا يجوز أن نغلب من أيديهم ، فاستدعوا من المدينة حشدا كبيرا من شسى صنوف الناس واطنموا كلهم عند الجسر وكان مدخله مفضوحا . فراح كل واحد منهم يزاحم الآخر ويدافعون في اجتياز النهر : البعض منهم عن طريق الجسر ، والبعض الآخر عن طريق المخاضة السفلى في محاولة

منهم لمهاجمة معسكرنا ، ولكن الكونت تصدى لهم بكيفية من
الفرسان ، فاصطبرهم الى الاربداد الى المدينة وقد قعدوا رجلين من
رجالهم .

وحدث في أثناء هذا الخروج أن حاول بعض فرسان الاسملاء
على جواد كبا براكيه فسقط عنه ، فلما رأى الحشد العيس - الذى
لم يعد يحسن التفكير - هذا المظر خيل الوهم لهم أن الفرسان قد
فروا خوفا ، ومن ثم قعد لادوا هم أبصا بأذيال الفرار ، وزاحم
بعضهم بعضا عن كسب ، فكان في ذلك هلاكهم بأيديهم ، وسرعان
ما أدرك المواطنون أن الحجاج يولون الادبار دون أن يدفعهم أحد ،
فاندفعوا مره أخرى فوق الحسر ، وهاحموا الثاريين بسيوفهم ،
وبلاحموا واياهم ، ففروا منهم فنقبوهم من الحسر الصخرى حتى
بلعوا حسر المراكب ، وهنا كان الخطب جسيما ، فقد اندفع رجالنا
وزاحم بعضهم بعضا حتى سدوا الطريق على أنفسهم ، فهلك منهم
حمسة عشر فارسا وعشرون من الجند المشاة ، قد هبرت بعضهم
السبوف فمانوا بجدها ، وغرق البعض الآخر في النهر ، فملأ
الفرجة الكرى قلوب الأعداء بهذا النصر فانكأوا الى المدينة فـ
أسكرهم النصر .

- ١٩ -

فى هذه الاناء خرج بوهيموند وكونت فلاندر بموافقة الجمع
على رأس طائفة من الجند ، فى حملة لجلب الطعام ، مؤملين أن
يعودوا بوفرة ضخمة من المثونة حتى يبدوا ما نزل بالمعسكر من
الضيق ، وقد أدت غدواهم الحسنة الطالع فى أرض العدو لقليل
نكباتنا ، لأنهم اسولوا على منزل للعدو راخر تماما بكل ما هو ناعم .

وأرسل بوهميوند جماعة من الكشافه الى مختلف النواحي ،
لمقصى أخبار الساحية ، ثم الرجوع اليه بالغنيمة ان نهيأ لها العنور
على عبيمة ، فلما رحعوا اليه أبأه بعضهم أن عددا كبيرا من الأبراك
قد نصبوا خيامهم في تلك الضاحية ، فما كاد يسمع ذلك حتى بادر
فأرسل ضدهم كونت فلايدرز مع حرس قوي ، ثم ما لبث أن مضى
هو ذاته في أثرهم على رأس الجيش الأصلي لمساعدتهم ان كانت
ثمة حاجة الى مثل هذه المساعدة ، ولكن لما كان الكونب رجلا شجاعا
ومحاربا عظيما ، فقد استبسل في مهاجمة الأعداء ، ولم يعد الى
بوهميوند حتى كان قد أفنى من الكفار مائة ، فلدت بفيهم بأذيال
الفرار ، وبينما كان راجعا الى الجيش الكبير مجللا بالنصر ، جاءه
الكشافه الآخرون وأخبروه أن حوه من العدو نزيد عن سابقنها في
لمقصى أخبار الساحية ، ثم الرجوع اليه بالغنيمة ان نهيأ لها العنور على
العدد والبأس نقدم من ناحية أخرى ، فبعث لصددهم طائفة مع
الكونت ، ثم مضى هو ببقية عسكره وراءه ليكون على أهبة لبعده
ان اسئلزم الأمر النجده ، وشاء رحمة الرب التي كاتب هدى
لفواننا - أن يتردى العدو في بعض الشعاب الصيقة فانكفا راجعا
هاربا ، اد أدرك ان لن يجدى الأفواس ولا السهام نفعا في هذا
العتال ، ولكن سيكون السيف هو الفصيل في هذا الصراع وجها
لوجه ، وهو نوع من القتال لبس بالمألوف عند العدو الذي ولى حنذاك
على ادباره فارا فجد الصليبيون في تعقبه مسافة ميلين ، وأوردوا
الكثيرين من رجاله حنقهم ، ثم عاد رجالنا الى معسكرهم سالمين
عانمين ، وجاءوا معهم - كرمز لانتصارهم - بالكثير من الجبال والبلغال
وغيرها من الأسلاب ، ومجمل الفول أنهم عادوا بكل ضروب الغنائم
الى استولوا عليها من شتى نواحي الاقليم المحيط بهم .

ولقد بث نجاحهم الفرحة العظمى في نفوس اخوانهم الحجاج ،
وأناح لهم الفرصة للاستجمام وان كانت قصيره يسنريحون فيها من

بعضهم ، على أن الغنمه - مع هذا كله لم يكن صخمة جدا - بد
أنها كانت على أنه حال كافة لموس حموعهم ولو لصعه أيام
ولائل ، ومن ثم فانه لم يهنا للجش أن يحصل تماما من معاينه .

- ٢٠ -

وحاء في هذا الوقب من أرض رومانيا (١) حبر محزون ملؤه السحو
والعزع ، فسب الذعر في أفئدة الجميع وزاد من قسوة وصعهم
الباعث على البأس .

لقد كان الحبر الذي ثبتت صحته كما يل : -

كان هناك رجل شديد السطوة ربيع المكانة في قومه يدعى
رفين (وهو ابن ملك الدنمركين) ، قد جمع الى كرم الحسب حسن
الحلق ، وبهاء الطلعة ، لكنه ، كان يتحرق شوقا للقيام بنفس هذا
الحج ، فأسرع ليساعد في حصار أبطاكة على رأس ألف وحسمائه
شاب من نفس الأمة خرجوا وعليهم من السلاح أحسنه ، واذ كانت
مغادرته مملكة أبيه بعد فترة من خروج الآخرين فقد راح يسرع
الخطى ما وسعه الاسراع ، عساه يمكن هو ومن معه من الانضمام
الى الكنائب التي سبقه ، غير أنه اشغل بأمور خاصة به عاقت
خطاه وعجز عن مغالبتها ، وكان أملها ان يغلب عليها فأخر ، فسار
وحده على رأس قواته الخاصة من غير حراسة من أى احد من القادة
الآخرين ، واقتفى أثر من سبقوه ، فبلغ القسطنطينة التي رحب

(١) لعل يقصد به حراما آسيا الصغرى .

به امبراطورها أعظم ترحيب ، ثم تابع سيره حتى بلغ بيفيه سالما ،
ثم أعذ المسير نحو الجيش فدخل أرض آسيا الصغرى فى جميع
خاصته ، وعسكر دون أن يأخذ حدره - بين مدينتى «فيليو ميلنام»
و «يرما» ، فخرج عليه قوة كبيرة من الأتراك ليلا وباعسه فحاه ،
وأحده على عره فمسله فى فسطاطه ، واسيعظ جماعته للأسف
متأخرين على جلبه العدو المغرب ، فهبوا لحمل سلاحهم ولكن كاه
الوقت قد فاب اذ هاجمهم العدو قبل ان يأخذوا أهبتهم نماما لصدده
وفك بهم جمبعا وان كانوا رغم ذلك قاوموه مقاومه بطولية طويلة ،
وأحرز العدو النصر ، ولكنه نصر ملطخ بالدماء ، وبذلك لم يضح
رجال [رفين] بأرواحهم هباء •

- ٢١ -

كان الامبراطور كما قلنا من قبل عين نانكيوس نائبا عنه ،
ومرسدا للحجاج أساء رحفهم ، فطل حتى هذه اللحظة مصاحبا
للعسكر الحجاج ، أما الآن وقد رأى المصاعب المحدقة بهم فقد
ساوره الخوف - لجبن طبع عليه - ألا يستمر القادة فى حجهم •

وتوقع يوما يهلك فيه الجيش كله بسيوف الأعداء ، ومن ثم
جاء الى مجلس اجتمع فيه القادة ، واجتهد غايه الاجتهاد لبحمانه
على النخلي عن الحصار ، ونوجيه الجيش كله الى المدن والقلاع القريبة
منهم لأنهم واجدون فيها المثونة بوفرة رائدة كما انهم يستطيعون
هنا ان يسمروا فى مضايقة أهل أنطاكية لأن الامبراطور كان قد
جمع لمساعدتهم حشودا من أمم شتى بلغت آلاف لا يحصيها العد
وأعدها كى تصلهم مع مطلع الربيع ، وأضاف تاتيكىوس الى ذلك

أنه لما كان قد عزم منذ البدايه على أن يشاطرهم مساعيهم ، وأن يكون معهم فى السراء والضراء ، وفى العسر واليسر فانه يريد أن يقوم بمهمة أكبر مما عهد العيام بها ، وبسهدف الصالح العام ، فذكر لهم أن قصده هو أن يذهب لحطه الى الامبراطور لحت الجيش الامبراطورى على الاسراع ، وان يعد المثونه اللارمة من الطعام ليحملها معه من الباحية التى على هذا الجانب من المدينه فلم يعارضه أحد من قادسا ولم يرفضوا اقتراحه ، رغم أنهم كانوا يدركون مد الوهلة الأولى مكر نابيكبوس وخياسه التى حاول سترها بما زعمه لهم من دعوى بحملهم على تصديقه ذلك أنه نرك معسكره وجاسا عير صئيل من أتباعه لم يئصصحبهم معه ، والحق أنه لم يفعل ذلك الا لأنه لم يكن نعبأ بما فيه سلامتهم أو ربما لانه أوغز اليهم سرا أن يرحلوا فى أثره ، وحعل بننه وبينهم موعدا يوما يلقاهم فبه عند مكان حدده لهم .

ورحل نابيكبوس مدعيا أنه عائد اليهم عن قريب ، لكنه لم يأت بعد ذلك أبدا ، فدل ذلك على لؤم نفسه ، وخب طوييه ، وبكه لعده وأنه بذلك يستحق الموت الأبدى .

لعد كان رحيله سابقه مؤذيه فلم يعد القادرون على السئلى خلسه من المعسكر يعبأون بما قطعوه على أنفسهم من الإيمان ولا بكرنون بالعهود الفويه النى أخذوها على أنفسهم منذ البدايه .

وكانت المجاعة فى نفس الوقت تزداد افحاشا وبفسيا ، وعجر القاده عن ايجاد حل بات ينفذهم من هذا السر المستطير ، فنحروا من بسهم جماعة افغوا على أن يحرح منهم كل اثنين معا مرة بعد الأخرى بقوات كبيره الى أرض العدو ، وغالبا كانوا يعودون الى قومهم منصرين ، وان لم يغموا شئنا وليس معهم شئ من الميرة التى كانت حاجتهم الها ملحة بل يعودون صغر الأيدي ، ذلك أنه كان قد نرد

بين العدو نبأ اعتباد خروج الصليبيين وشبههم الهجمات ، فبادر الأعداء
لنقل قطعانهم ومواشيهم وغيرها مما يملكون من صوف الحبان الى
الجلال التي لم يكن ثم سبلية لافنحامها ، ولم يكن الصليبيون فادريين
على التوغل في تلك النوحى البعيدة التي اعصم خصومهم بها ، وحى
لو قدر لهم أن يجحوا في الوصول اليها فانه لم يكن من الهين أن
يغنموا شيئا •

- ٢٢ -

كانت المجاعة اذ ذاك تزداد تفشيا وشدة في الجيش يوما بعد
يوم مما نجم عنها انتشار الطاعون وكثير من الأمراض الأخرى ،
ونسب أصحاب السن الكبيرة وأهل الحبرة الواسعة هذه الأحوال
الى خطايا الناس ، وان الرب استنشاط غضبا منهم ، وحق له أن
يفضب ، فصب سوط عذابه على أطفاله المارقين لذلك احنموا
فبما بينهم للساور فيما يفعلون ، وخافوا الله كأنه أمامهم يروه
رؤيا العين ، وشرعوا يتحاورون فيما يجب عليهم ، فرأوا أن يبادروا
بالتكفير عن آثامهم واعلان بوبتهم الصدوق ، ولارحوع عن أخطاء
الماضى ، وتجنب الوقوع في مثلها في المستقبل ، مؤملين من وراء
ذلك أن يفتأوا عصب الرب • واذا ذاك فام صاحب الشرع فهم أسف
بوى نائب الكنيسة الرسولية وسواه من كبار رجال الدين أحباب
الرب ، وأجمعوا الرأى على مطالبة الجيش كله وأمراة العلماسين
بصيام ثلاثة أيام عسى أن يكون تعذيبهم الجسد مؤديا الى شس
عرائهم ، فلما فعلا ذلك مخلصين صموا على تطهير المعسكر من
كل عاهرة وامرأة كريهة السمعة ، وجعلوا الاعدام عقوبة للفحشاء
والفجور بنسبى أنواعه ، وصدر قرار الحرمان على المجان والسكيرين ،

ووقع تحت طائلة هذا العقاب شتى أنواع ألعاب العمار والعسم
بالأيمان الكاذبة والتطفيف في الكيل والعش في المفايس ، وكل
صروب الاحسال من سرقة العير ، وبهيبهم ، وسلهم .

ولما تقررب هذه المواعد ووفى عليها بالاجماع عينوا فصاه
وكلوا اليهم مراقبه هذه الآنام ، ومحوهم كل السلطة في الكشف
عن أصحابها ، وابرال العقاب بهم مما لبسوا أن وجدوا بعد قليل
جماعة شحبت هذه القواين ، فلما قامت البينة على هؤلاء الخطاه
سهر بهم شهيرا قاسيا ، وأدانهم الفضاة ، وحكموا عليهم بأقصى
ما يقصى به القانون تنعا لنوع الجريمة التي اركبها الواحد منهم .
فاردع سواهم وكفوا عن اصراف جرائم كهذه الحرائم .

وهكذا عاد الناس بروضان الله ورحمه يجنون ثمار الحياه
الطاهره وهدأ عصب الرب عليهم ، وبجلى هذا في أن أحد اللورد
حود فروي - الذي كان وحده أشبه بدعامة الجيش كله - في البعاة
واسرداد صحبه ماما ، وبعاى من وعكه الحاده التي آدته طويلا
بسبب الجرح الذي أصابه من الدب في بسنديا من صواحي
أنطاكية ، وكان شفاؤه عزاء كبير للمحاربين في محنتهم .

- ٢٣ -

ترددت في هذه الأثناء اشاعات وأخبار رن صداها قويا في
كافة أنحاء المشرق ، وجاورنه حتى بلغت ممالك الجنوب والشعوب
الأخرى الخارجة مفادها أن قوات كبيرة من الصليبيين زحف حمر
بلغت أبواب أنطاكية وأنهم كانوا يدا واحدة في حصارهم اياها

فخاف كل حاكم على بلده ، وباروا ، فاندس الجواسيس يسملون الى جيشا الوافد للوقوف على التفاصيل الدقيقة حول أسلوب هذا مزودين بالفراير عن أحوال المعسكر الصليبي الى من دسوهم علينا ، ثم يحل سواهم مكانهم لنفس العرض ، ولم يكن دون أن يتعرف عليهم أحد لأنهم كانوا ينفون عنه لغات ، فرغم البعض منهم أنهم اغريق ويزعم سواهم أنهم سريان ، ويدعى غيرهم أنهم من الأرمن ، ويصطنع جميعهم في يسر وسهولة ما لهذه الأمم من خصائص في لهجتها وعاداتها وزيتها .

لذلك اجتمع القادة للنظر فيما ينبغي عليهم اتخاذه لتأمين السلامة العامة من هذه الناحية ، ولم يكن من اليسر اخراج هؤلاء الجواسيس من المعسكر لأنهم كانوا قل ان يختلفوا - الا نادرا - عن أهل هذه الأمم النى ذكرناها : لغة وعادات وتقاليده ، فرأى القادة أن يوقعوا ما يرون من عقاب على أفراد فلائيل فقط ، حتى يدفعوا تماما على الاجراءات التى يتم اتخاذاها ضدهم جميعا .

كان هناك ما يدعو هؤلاء الزعماء الى النحوف من مغبة معرفه الكيريين بأخبارنا ، والى ما ينخدونه حيال هؤلاء الناس فبنسابع بما اتخدوا من يفلونه الى العدو رعبه فى الأضرار بالصليبيين ، واذ بدا للزعماء صعوبة الوصول الى ما يمنع هذه المكائد منعا بانا فقد قام بوهيموند - ذو الذهن الباقب والفكر الوفاة خطيبا فى الزعماء قائلا لهم : -

« سادتى وأختى : خلوا مسئولية هذا الموضوع كلها على عاتقى ، وكلوها الى فانى بعون الله واجده لها العلاج الباجع » .

فوافقوه على ما سألهم وانفض سامرهم ، وعاد كل واحد منهم الى معسكره ، وما كاد الليل يرخى سدوله على المعسكر ويستعدون

لإعداد العشاء ، حتى قام بوهيموند - وهو ذاكر ما قطعه على نفسه من عهد - وأمر بإحضار بعض الأسرى من الترك إلى مجلسه هذا ، وأسلمهم إلى الجلاد أمرا إياه بشنعهم ، ثم أوفد نارا عظيمه كما لو كان يهيئ العشاء ، وأمر بغسل هذه الأجساد ثم سبها على النار ، وألقى بعلمانه إلى رجاله أن لو سألهم سائل عن معنى الذى يرون أجابوه بأن الأمراء فرروا من الآن فصاعدا أن نرود موائد القادة بلحوم جمیع الأعداء والحواسيس ، بعد طهيها على هذه الصورة •

وانتشرت في جميع أرجاء الجيش أخبار هذه الإحراء إلى اتخذها بوهيموند في معسكره فسابقى الجميع إلى فسطاطه في في دهشه ليشاهدوا هذه الحطة الجديدة ، وبملك الفرع من كان بالمعسكر من الجواسيس ، وأيقنوا أن ما ظنوه أساعه صار واقعاً ، وأدركوا ما سوف يؤول إليه مصيرهم فعادروا المعسكر في لحطهم هذه ، وعادوا إلى بلادهم من حيب أنوا وأجبروا سادتهم الذين كانوا قد بعوا بهم أن لىس لأمة [الفرنجة] مبل في الوحسة بين الأمم بل ولا بين الحيوانات المفترسة ، فهم قوم لا يقنعون بإحلال مدر عدوهم وفلاعه ، ولا يكفهم أن يعنموا سسى أنواع المباح والرمي بخصوصهم فى السجون أو نعديبهم أو قتلهم ، بل أن هؤلاء الصليبيين يسعون كذلك ملء بطونهم بلحم عدوهم ، ولحق شحمه •

وانتشرت هذه الشائعات وأمالها ، وتوغلح حتى أقصى بلاد المشرق ، فدب الذعر فى نفوس جميع الأمم ، يسنوى فى ذلك من قرب منها ومن بعد ، كما استولى الخوف على كل مدينة أنطاكية وارتعدت أوصالها فرقا وفزعاً من وحشية هذه الإجراء ، وهكذا أدت إحراءات بوهيموند إلى التخلص من شر الحواسيس الذين كانوا طاعونا ، وأصبحت خططنا مصونة قل أن يعرف العدو شئنا عنها •

بصاف الى ذلك أن خليفة مصر - وهو أقوى السلاطين المارفين بسبب كثره ما لديه من المال والرجال - كان قد أرسل رسله الى قانا ، وبلخص أسباب بعثه اياهم الى وجود عداوة متأصلة وعميقة الجذور منذ سنوات طويلة بين أهل المشرق والمصريين ، وهى عداوة ناجمة عن اختلاف معتقدايهم الدينية بعضها عن بعض ، ومناييه مذهب الواحد منهم للمذهب الآخر ، وطلب هذه الكراهية دون اعطاع حتى يوما هذا ، ومن ثم طلت هاتان المملكتان بحارب كل منهما الأخرى حربا لا هوادة فيها ، وطلب المنافسة بينهما موصولة فكاتب كل منهما نفسه الى مد حدودها على حساب الأخرى ، كما بنا ذلك بدقة فى الكتاب الأول من هذا التاريخ ، ونأرجحت السادة بينهما على مدى الأيام ، فمكون تارة لهذه وتارة لئلك ، ونكون السجدة أن ما يرداد فى روعة أملاك واحده منهما ببعض مله من أراضي الأخرى .

أما الآن فقد كانت جميع البلاد الممتدة من مصر الى اللاديه الشام (ونقدر بمسيرة ثلاثين يوما) تحب حكم خليفة مصر ، ولكن حدث قبل ذلك أن قام سلطان فارس - كما ذكرنا آنفا - واسسولى قبل مقدم الصليبيين على أنطاكية المناخمة لحدود المملكة المصرية - كما احمل البلاد الممتدة حتى مضيق البسفور ، وكان حاكم مصر ينظر بعين الريبة الى كل توسع من جانب الفرس أو الترك على السواء ومن ثم كانت فرجه بالغة حين جاءه الأخبار بضياغ نقمة من يد قلعج أرسلان ، وبهزيمة جيشه فيها ، وأثلج صدره ما علمه من قيام الصليبيين بحصار أنطاكية ، وعد كل خسارة تصيب الأنراك مكسبا له ، ورأى أن المصائب التى تلم بهم نعمل على استنقرار أمه وأمن رعاياه ، وخاف أن تؤدى أهوال طول الحصار الى فنل

رجالها ، ومن ثم بعث بسفرائه ورجال من حاشيته الى رعمائنا ، يحملون اليهم رجاءه فى أن يستمروا فى حصارهم الذى فرضوه على أنطاكية ، وعهد الى مندوبيه أن يؤكدوا للصليبيين أن مولاهم السلطان سوف يعينهم بالجند والذخيرة . كما حاول هؤلاء السعراء أيضا كسب الزعماء وحملهم على عقد معاهدة صداقة بين الطرفين .

وأطاع الرسل أمر مولاهم طاعة صادقة وركبوا البحر فوصلوا الى المعسكر الصليبي . وهم أحرص ما يكونون على أداء الميزة التى حملوها ، فنلقاهم زعماء جيشنا بما يليق بهم من الحفاوة والتبجيل ، وعقدوا معهم عدة اجتماعات ، ليسيحوا لهم الفرصة لابلاغ رسالهم . وأعجب المعوثون بما رأوه من رجالنا وكسرة عددهم ووفره سلاحهم وقوة صبرهم على تحمل الشدائد . كما املأت قلوبهم حزنا من هذا الجيش ذى القوة المتين . لما أحسوه فى فراءة أنفسهم بما يمكن ان يحدث فى المستقبل مما قد يعرض له مولاهم من تجربة مريرة وهو يحاول سرا نزع قوة واحلال أخرى مكانها .

ومجمل القول أنه بعد أن تمكن الصليبيون بفضل الله القدير من فتح أنطاكية ، وردّها الى العقيدة المسيحية وحريتها الأولى أن تحررت كل البلاد الممتدة من تلك المدينة حتى حدود مصر القريبة من غزة ، وهى بلاد تقدر مساحتها بمسيرة خمسة عشر يوما ، وقد أصبحت الآن فى أيدي الشعب المؤمن .

هنا ينتهى الكتاب الرابع

الكتاب الخامس

حصار أنطاكية واحتلالها

فصول الكتاب الخامس

- ١ - أهل أنطاكية يطلبون من جيرانهم مساعدتهم
فيسنجدون لندائهم ويعسكرون حول حارم .
- ٢ - فاده جيشا يركون الرجاله وراءهم لحماية
المعسكر ويزحفون بالخالة ضد العدو
ويعودون منصرين .
- ٣ - ألفزع الأكبر يستولى على المواطنين لسماعهم
بنكبة حلفائهم .
- ٤ - زعماؤنا يشيدون حصنا لهم ، ويصل الى
الميناء سفن من جنسوة ، فيسرع الناس الى

الشاطئ فيقع بعضهم في كمين من الكمان
ويهلكون .

٥ - خطة رائعة للدوق ثارا لهذه النكبة العادحة .

٦ - العدو يعود مكلا بالصر ولكن سيوف
الصليبيين بنوشه عند مدخل المدينة ويهلك
الغان من رجاله ويوسط الدوق فارسا كافرا .

٧ - رجالنا يقيمون منراسا على رأس الجسر
ويرسلون الى السفن [الجنوية] ما يدل على
انتصارهم .

٨ - احاطة المدينة بقلعة جديدة أقيمت في مواجهة
الباب الغربى .

٩ - العسكر الذين كانوا قد تشرّدوا هنا وهناك
يعودون الى الجيش ، ويرسل بلدوين الهدايا
من الرها الى كل واحد من الزعماء .

١٠ - عندما ينشر في المعسكر خبر اقتراب جيش
العدو يدعى سيفن كونت بلوا المرض ويمضى
الى الميناء معزما عدم العودة .

١١ - وصف حال أنطاكية ، ووصف الصداقه التي
قامت بين بوهيموند وبين [فيروز] أحد
مسيحيى المدينة .

١٢ - المؤامرة التي تمت على يد الرسل بين بوهيموند
وبين ذلك الرجل الوفى [فيروز] .

١٣ - بوهيموند يبدل جهودا سامة ليتسلم وحده المدينة حين استسلامها فيوافق الزعماء باستثناء كوت بولور .

١٤ - الحلفاء [المسلمون] يحاصرون الرها اساء زحفهم لنجده أنطاكية لكنهم يضطرون اذا- مقاومة بلدوين الشديدة الى الارتداد عبر العلوات دون ان يكسب لهم النجاح .

١٥ - المسيحيون يسعرون بالفرح الشديد بسبب اقرباب العدو ويرسلون الكشافة للاستطلاع .

١٦ - الزعماء يجتمعون لبادل الرأي فيما بينهم وبوهيموند يعلن السر الذي اسودعه اياه صديقه فيروز .

١٧ - الزعماء يسألون عن المدينة لبوهيموند عن طيب خاطر فيقوم هو بمفاوضة صديقه [فيروز] في السر بشأن تسليمها اليه .

١٨ - الاهالي يشكون في فيروز فيعلن براءه ساحته أمام والى المدينة .

١٩ - وصف ما كان يكابده مسيحيو أنطاكية من الارهاب في القيام بأعمال كبره يسوء بها كاهلهم وكيف فشلت المذبحة التى دبرت للقضاء عليهم .

٢٠ - الجنود [الصليبيون] يغادر معسكرهم تنفيذا لخطة فيروز مع عزيمهم على العودة ليلا .

٢١ - بوهيموند يوسسل الى صديقه كى يسم ما بدأه
فيعد فيروز الى قتل أخيه لمخالفه اياه ويدخل
الصلبيين الى المدينة بواسطة سلم من الجبال .

٢٢ - المهاجمون يسولون على أحد المداحل ويفتحون
الأبواب ، ويندفع العسكر الذين شاركوا في
هذه الحطة الى داخل المدينة ، ويسم الاسلاء
على أنطاكية عنوه .

٢٣ - الأهالى يريدون الى القلعة اما ياعى سيان فيلافي
مصرعه خارج الأسوار أثناء محاوله الهرب
وهلاك الكيريين لسقوطهم من الجبل .

★★★

هنا يبدأ الكتاب الخامس حصار أنطاكية واحتلالها

- ٩ -

في نفس هذا الوقت كان أهل أنطاكية وواليتهم في اقصى حالات الدعر بسبب الظروف التي يعيشون فيها . ولم يقنعهم سده سجر الحجاج من المشقة التي يحملوها . دح مايرتهم على ما يبدتهم من عمل ، وعدم انصرافهم عن مسروعاتهم رغم وطأة الظروف القاسية من الجوع والبرد القارس ، بل لقد جرى العكس من ذلك اذ ظل هؤلاء الصليبيون - رغم ما عبتهم الجملة - مايرين على السر قدما معزم ثابت نحو تحقيق الهدف الذي وضعوه نصب أعينهم .

وراح المواطنون - نظرا لما هم فيه من الشدة - سعون بالكذب والرسائل . واحدة نلو الاخرى الى من حاورهم من الأمراء ، يسألونهم المسادره الى بجدة احوانهم . ويدلوهم على أجدى السبل لأداء هذه المساعدة ألا وهى أن يدعوا حلفاءهم يوجهون الى المدينة ويستخفون هم في كمين حتى ششيك المواطنون - كعادتهم - في قتال العدو عند الجسر ثم يسركوبهم منصرفين الى القتال في هذا المكان ، وحين يكون من بداخل أنطاكية مسفرقين تماما في تلك المواجهة . يخرج أهل الكمائ من كمائهم ويبيعون الصليبيين الذين بكونون من عر حرس بحرسهم ، فيقعون تحت وطأة الهجوم

عليهم من الأمام والحلف في آن واحد ، فلا ينسى لأحد منهم النجاة من الموت .

ولبى هذه الاستغاثة جيش كيف من أهل حلب وتسير وحماه وحمص وهنبج وغيرها من المدن المجاورة ، وخرجوا في سكون بالغ وصمت مطلق - حسب الأوامر التي صدرت اليهم - حتى فاربوا مدينته « حارم » التي لا تبعد عن أنطاكية بأكثر من أربعة عسر ميلا وضربوا معسكرانهم أنباء اشعالهم بالهجوم على المدينة ، غير أن المحلصين من سكان الناحية ، والذين طالما ساعدوا شعبها ، أحبروا القادة بافتراب هذا العسكر ، وشرحوا لهم أوضاعه ، فلما بلغهم التدبير اجمعوا للنساور فيما يفعلون في هذا الوضع ، فانفق الرأي منهم أخيرا على أن يغتنموا فرصة دخول الليل فيسطلق سرا كل من بالجيش من الفرسان أصحاب الجياد الصالحة للخدمة . وبربون صغورهم للفعال خلف أعلام قادتهم ، على أن يبقى الرجال في الوقت ذاته لحماية المعسكر حتى يعود رؤسائهم الذين حرحوا امتثالا لأمر الرب .

- ٢ -

لم يكد الليل يسدل طنبه على الكون حتى غادر الزعماء المدينة حسب الاتفاق ، فساروا على الجسر المصنوع من القوارب ، ومعهم سبعمائة فارس ، حتى صاروا قرب مكان ببعد ميلا من هنا ، وهو واقع بين نهر العاص والبحيرة التي أشرت إليها في وصفي المدينة ، فأقام الجند هنا هذه الليلة مستجيبين ، دون أن يعلم العدو بخبر تقدمنا هذا ، ولكن رجاله عبروا النهر هم أيضا في نفس الليلة عن طريق الحسر الأعلى .

على أنه لم نكد طلّاع نهار اليوم السالى يظهر فى الافق حتى أعد الصليبيون أسلحتهم وفسموا كنائسهم سب فروع جعلوا كل واحده منها تحت قيادة رئيس معين كانوا قد انفقوا عليه من فل . وأما الترك فقد اتحدوا مكانهم فى ناحية من الصحابه ، لأنهم علموا من كسافهم أن جماعتنا راحقه عليهم ، وقد أرسلوا أمامهم فرسين من العسكر حرسا للجيش الرئيسى الذى كان يتبعهم .

لم يكن مع الصليبيين - كما ولنا - الا فراه سعمائه رجل ونساء الاراده الالهيه أن يقسم هؤلاء أنفسهم الى كئائب حسب ما يقضيه أصول الحرب ، فكان يحيل لرائسهم أنهم آلاف مؤلعه من فواب اضافيه قد بعننها لهم السجاء .

ولما أخذ عسكر العدو فى القدم والرحف حماعه بلو حناعه ، شرع من كانوا فى الصفوف الاماميه فى سس هجوم عسف على خطوطنا ، وراحوا يرمونها بوابل هبان من السهام ، ثم يردون فى الحال . فلم يعبأ حدودنا بهجومهم . بل رجعوا عليهم . واضربوا منهم كل الاقتراب ، وكروا عليهم مسرعين بسوفهم وشجاعهم ، فسعوا لأنفسهم طريقا الى عدو عقيدتهم ، والسوف مسرعه فى أيديهم فاصطربت صفوفهم ودافع بعضهم بعضا ، واحلط حاملهم ببابلهم وأحبط بهم فى بعة كات البحيره فيها على أحد حاسهم . والنهر على الحاب الآخر ، وفقد الترك حريه الحرك فعجروا عن استعمال فنوبهم المألوفه من الرسق بالسهم فالاربداد لكنهم نجعوا خوفا من أن تنوشهم السوف ولم يعودوا قادرين على تحمل الضغط الذى مارسه الصليبيون عليهم . وسرعان ما أبغوا أن أملهم الوحيد فى السلامه اما نكون فى فرائهم . فانقلبوا على أعقابهم هاربين ، فجد رجالنا فى بعفهم وقد ملكهم الحماسه ، حتى بلغوا مدينه « حارم » النى كات تعد عن سباحه المعركة عشرة أميال ، واستمر القتل فى العدو أثناء إزئاده .

ولما رأى أهل البلد أن الدائرة قد دارت على عسكرهم الذى هلك معظمه بسوف الصليبيين المنصرين ، خافوا البقاء فى القلعة بعد هذه الكبة التى ألبت بأصدفائهم ، فأشعلوا النار فى المكان ، ولادوا فرارا .

غير أن الأرمن سكان هذه المنطقة ، وعيرهم من البصارى الذين كان الكبرون منهم يهبطون تلك الناحية ، استولوا على المكان ، وأسلموه فى الحال الى فادننا قبل عودتهم الى المعسكر . ولقد هلك فى هذا اليوم قرابة ألف من رجال العدو ، فكاتب بشوه الصليبيين عظيمه بما جرى ، وفرحتهم ظاهرة بما وقع من النصر المزدوج ، الذى بب فيه الشجاعة ، وحمدوا الله على ما أناهم من فضله ، ثم عادوا الى محبتابهم حاملين معهم حمسمائة رأس من قبلى العدو ، وكميات ضخمة من الأسلاب ، من بينها ألف من الجناد القويه ، كانت ذاب جدوى عظيمه لنا .

- ٣ -

ظل أهالى أبطاكيه ذلك الليل فى انتظار الساعة المربعة ، وراحوا يسعجلون فى لهقه سروو الفجر بطلعا لهجوم من الخارج يقوم به حلفاؤهم على بصارى المدينه ، فان نم ذلك خرجوا هم من المدينه ملصصين وباعصوا الصليبيين على غفلة منهم ، وكانوا يؤملون أن يؤدى عصر المساعنة التى لم يستعد لها الصليبيون الى دمارهم .

وجاءت الساعة الأخيرة من الليل وقد أخذت السماء شرو بصوء دون أن يظهر أى شىء يدل على تقدم حلفائهم ، ومع ذلك

فقد ذكر كتبناهم أن بعض الرعماء الصليبيين خرجوا كما لو كانوا
ماصين لمواجهتهم ، ومن ثم جمع المواطنون قواهم ، واندفعوا
اندفاعا عسفا من الابواب ، وطلبوا معظم هذا اليوم في مصادمات
سديدة مع هؤلاء الصليبيين وأحرقوا أقدامهم حراسهم الذين كانوا
في مواضع عالية بالمدينة أن هناك جيسا آحد في الاقتراب ، ومن
ثم اريدوا الى ما وراء الأسوار ، ورابطوا في الأبراج خلف المناريس
في النواحي المرتفعة من البلدة في انتظار الجماعات القادمة ، لأنهم
كانوا لا يدرون ان كان هؤلاء القادمون من الأعداء أم من الحلفاء ،
فلما دنا العسكر من المحاصرين رأوا ملابسهم الحربية وما معهم من
الغنائم والاسلاب وعرفوا حقيقهم ، فاستد بهم القرع منهم فقد
أدركوا أنها القوات الصليبية عاتده بعد انصارها على الحلفاء
الذين كان المحاصرون يرقبون حصورهم في لهفة ، فأسلموا
أنفسهم للبيداء ، فقد تلاشت آمالهم الحسام ، وبعد حداثا من
المدينة ، واطلقوا الى المعسكر ، ثم أمروا بطرح رؤوس مائتين من
الأتراك قبل ان الآلات قذفت بها الى داخل المدينة ، لكي تكون
شاهدا على ما أحرزوا من نصر ، وليرد في مصاعفة آلام العدو
المبرحة .

أما بقية رؤوس القلى فقد رفعت على ساريات صبوها أمام
المدينة رامين من وراء ذلك أن تكون هذه المناظر المفجعة قذى في
عمون المحصورين فنضاعف همومهم البقلة ، وعرف من روايه
الأسرى الدفقة أن الحلفاء الذين كانوا يزعمون الحصور
لمساعدة أنطاكية قاربوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل .

وقد جرى هذا الأمر في اليوم السابع من فراير عام ١٠٩٧
من مولد السيد المسيح .

فى هذه الأثناء صدق عزم فادننا على تشييد حصص مبع .
أقاموه على راسة مسرفة على معسكر بوهيموند ، راجين من وراء.
ذلك أن يفف هذا الحصص الحديد سبدا أمام الترك لو راودتهم
بعوسهم بالاعاره على فوانا مى ساءوا ، فلما فرغ رعمائنا من
تشبيده أقاموا به حامية يفظة تمام اليفظة ، فاطمأنت جوانح العسكر
كلهم ، وأحسوا كأنهم داخل مدينة منبعة ، ذات قلعة تكفل أسوارها
لهم الحماية ، وتقهم عادية الهجوم عليهم .

كان هذا المعقل يعف شرفى القلعه التى شيدت منذ أمد قريب .
كذلك كان يوجد الى الجنوب سور يجاوره مسنفع ، على حين
كان الى الغرب والشمال النهر الذى يجرى معرعا حول أنطاكيه .

وبعد خمسة أشهر من هذا الحصار دخل مصب النهر من
ناحية البحر سبع فادمه من جموة ، محملة بالحجاج والمثونه ،
فلما أرسى حيب وصلب أقامت ، ثم بعى جماعة منها الى المعسكر .
سأل مجيء بعض الزعماء الى الحنوية لقودوهم فى أمان الى
المعسكر .

وكان العدو يعرف أن فومنا اعتادوا الخروج الى الشاطئ غير
حذرين ، كما كان يدرك ما عليه البحارة من لهفه سديدة للذهاب
الى المعسكر ، فسد رجاله عليهم جميع الطرق والمسالك ، ونصبوا
الكمان لنصده السابلة الذين لم يحاطوا لأنفسهم ، مما أدى الى
مصرع الكثيرين منهم ، حتى لم يعد أحد يجرؤ بعدئذ على الذهاب
الى المعسكر الا أن يكون فى حراسة مشددة .

وصمم الزعماء فى هذا الوقت ذاته على اقامه حصص عند رأس
الجسر . مكان مسجد كان لخصومهم ، راجين أن بسد هذا الحصص
!لطريق فى وجه العدو بعض الشيء ان أراد الوصول الى الحسر .

وحدث أن أعدادا كبيره من الصليبيين كانوا قد برلوا ناحية
الشاطيء لانجار بعض الأعمال الى كانت لهم هناك ، فلما فرعوا
منها عادوا الى مواضعهم .

وكان الاحييار قد وقع على كل من بوهيموند وكوب تولور
ومعهما لورد ايفراردى بويسيه وكوب جاربييه دى جراى من
الزعماء لمرافقة السفارة المصرية حى الساحل . على أن يقوموا فى
عودتهم بحراسة الحاج(١) الذين وفدوا منذ قريب ، والحفاظ على من
خرجوا من معسكرنا ، فلما علم أهل أنطاكية بنزول هؤلاء السراه
من القوم الى الشاطيء بعوا ضدهم أربعة آلاف فارس مدحجين
بالأسلحة الحففة وعهدوا اليهم بنصب الكمائن ، فاذا خاطر
الصليبيون بالعودة ولم يأخذوا الاحياطاب اللازمة كر عليهم هؤلاء
الفرسان كرة ضارية .

وحدث فى اليوم الرابع أن كان الحراس عائدين مسرعين
معهم عددا كبيرا من الناس ، وكثيرا من دواب الحمل عليها شتى
أنواع الدخيرة دون أن يكون معهم سلاح ، فلم يشعروا الا والعدو
يباغتهم فى بعض الشعاب الضيقة ويسدها عليهم ، وكان
كونت تولوز يسير فى المقدمة مع حرس الطليعة ، أما المؤخرة فقد
وكلت حمايتها الى لورد بوهيموند .

(١) المصود بهؤلاء الحاج و الحوية .

وعلى الرغم من بسالة هؤلاء العاده الجديرين بكل احرام ،
 الا أنهم لم يستطيعوا - كما أرادوا - السيطرة على من معهم من
 جموع راح بعضا يزاحم بعضا ، كما عجزوا عن مد يد المعونة لهم
 لكن ذلك لم يمنعهم من الصمود طويلا حفاظا على شرفهم وحمايه
 لرفاقهم ، فلما نبين لهم أحيرا عدم جدوى أى مجهود يبذلونه فى
 هذا السبيل وأن هلاك أرواحهم انما يكمن فى ابطائهم تخلوا - بدافع
 من حرصهم على سلامتهم - عن هذا الصراع الذى هو بين طرفين عر
 مكافئين ، وانقلبوا الى المعسكر بمن اسنطاع اللحاق بهم ، واذا ذاك
 نخل الناس عن دوابهم ومناعمهم وفروا على وجوههم الى نواح
 مختلفه ، فانطلق بعضهم الى الغابات ، وهرب البعض الآخر الى
 السلال أما من لم يسعفهم الفرار فقد ساوسهم صفوف
 العدو ، فكانت النكبة التى حلت بعواننا فى هذا الموضع حسيمة ،
 وفد وصلتني معلومات شتى عن عدد من هلكوا فى هذا الحادث ،
 وان قالت الأغلبية انهم كانوا قرابة ثلاثمائة من الجسسين ومن
 مختلف الأعمار .

- ٥ -

فى هذه الاثناء وصل الخبر الى المعسكر بأن العوم الذين كانوا
 راجعين من ناحية البحر قد وقعوا فى كمين نصبه العدو لهم ،
 وأنهم قتلوا جميعا عن بكرة أبيهم فى هجمه لم يكونوا يوقعونها ،
 ولم يستطع أحد ما أن يخبر عما اذا كان العاده مازلوا أحياء أم أنهم
 صاروا فى عداد الهلكى .

واذا كان الدوى جود فروى رجلا جم النشاط ، سريع المبادرة
 الى حمل السلاح ، فقد تفجرت نفسه عطفًا على شعب الرب ،

ونفطر قلبه رحمة بهم حتى لكأنهم أولاد صغار له ، ومن ثم استدعى الرعاء والجند وأمرهم بحمل السلاح في لحظتهم هذه ، ثم بعث المادى ينادى في الناس الا يعيب أحد عن هذا الموقف الخطير والا استحق الموت . بل يحتم على الجميع ان يهبوا لأسلحتهم انفعاما لدماء احوانهم ، فيجمع كافة الجند وكأنهم رجل واحد ، ولم يوانوا عن عبور الجسر المصنوع من القوارب ، ثم قسمهم الدوف الى مجموعات . ورأس عليهم جمعا روبرت كوت نورماندى وكوت فلاندرز ، وهيج الكبير ، وأحاه اساس . وحدد لكل طائفة مكانا لا يشاركها فيه غيرها ، ولا نعددها هي الى سواء ، وأمر أن تقف كل جماعة بقياده قائدها .

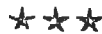
ثم أخذ الدوف بشرح لهم الوضع بأعمارهم رجالا مدركين لمسئوليتهم ، وأثار حبيبهم بكلماته الملهمة اد قال لهم : « لو صح ما نهل اليها من أن أعداء النصرانية . اسما وععبدا . قد أظهرهم الرب على سادتنا واحونا بسبب آثامنا ، فالراى عندي أيها الرجال الأمجاد أنه لم يبق لنا الا أن نمحو العار الكبير الذى ألحقوه بسببنا المسيح . أو نهلك مع من هلكوا . وصدقنى أن لسبب الحياه ولا السلامه أحلى مدافا من الموت او أى ألم من الآلام ان نذهب دم هؤلاء السادة هدرنا فى السرى . ومحال أن يمر هذه المدحه المروعة التى جرت على شعب وهب نفسه للرب دون أن نواجه بانقمام عاجل . ويبعدو لى أن أعداء الملة سوف يبطروهم انتصارهم فلا يحتاطون لانفسهم كما حرت عاديتهم ، لذلك فابهم لن يترددوا - اعمادا منهم على بأسهم - فى أن يشفوا طريقهم بين صفوفنا أثناء عودتهم بالاسلاب والغنائم ، واعلموا أن ما نحن فيه من موقف محزن دام حرى بأن يحملنا على مزيد من الحذر . أما المكاسل فبغرى صاحبه بالاهمال .

« فان رأيهم الصواب فيما أقول فهذا بنا نسعد لهم ، وطالما
كما على حق فاننا نطمح ان نحرر النصر بواسطة الواحد القوى الذى
نؤمن به ، و نحارب فى سبيله ، فاداً تراهى للعدو أن يعود فيقتحم
صفوفنا فلنتقابله سطبي سبوقنا ، ولتكن ذكرى ما صبه علينا من
المصائب مذكية وما ما كان عليه آباؤنا من الشجاعة » .



ووقع خطبه [الدوى حودفروى] هذه موقع الرضا من
بعوسهم واسنصوبوها كلهم ، وبينما هم يتدارسون كلامه هذا اذا
ببوهبمونند يطالعهم عائدا من الشاطئ الى معسكره ، وفى ابره
الكونت لم يغب دونه الا قليلا .

ورحب الناس برعيهم برحيا صادقا لم يسطعوا سعه أن
يحبسوا دموعهم من الانهمار ، اذ أدركوا أنهم كانوا على وشك أن
يفقدوا هؤلاء القادة ، ولم يكذ الزعماء يعلمون بخطة الدوق حتى
واقعه على فكره وصرخوا بوحوب نفعدها .



كان ياعى سبان فى هذه الأناء - رعم علمه بانصار قواه -
مشغول الخاطر ، فلق المال بشأن سلامة عودتهم ، لاسيما منذ أن
عرف أن الجند الدين تركوا المعسكر كانوا أكر عددا مما جرت
العادة به ، ومن ثم نودى فى الناس جميعا أن يخرج فى الحال من
فى المدينة من أهل الخبرة بالحرب والقادرين على حمل السلاح ،
وأن يجتمعوا عند البوابة القائمة عند الحسر لنجدة أهل البلد
العائدين ، ان دعت الضرورة الى مل هذه التجدة .

كما أن قوادبا بعوا من ناحيتهم كشافة سفقذ الطريق الذى
يحمل أن يسلكه العدو فى اياه ، ايماناً من هؤلاء النواد بأن الرب
لاذ أن بمحهم النصر .

- ٦ -

لم يونان الصليبيون لحظه فى سظيم صفوفهم ورفع أعلامهم ،
وسما هم يرقبون طلائع الجسس الركى اذا برسليم قد جاءوهم
مسرعين ، ينبؤونهم بأن العدو قد رابط على مقربه منهم ، فعالت
صرخاتهم المجونة نحب ناسنا على حمل السلاح والرحف لصدده ،
ومن ثم تقدمت الكنايب ما وسعها التقدم ضارعة الى السماء أن
بعبها ، وراح كل واحد منهم يشجع رفيقه ، وقام الصليبون - وفى
ذهنهم شهره بطولهم - بهزون الرماح فى أيديهم ، وكروا على
حصصهم كرة رحل واحد وكفوا ضغطهم عليه - كئأوف عادتهم -
يعالوبه بالسيف وجها لوجه ، دون أن يسعوا له فرصة يلفظ
فيها أنفاسه انغاما للمصائب التى أنزلها بهم والى لا رالت عاقته
بأذهانهم ، فما لب العدو أن دارومه سجاعه ، وطار قلبه سعاعا ،
وأدبر موليا وجهه سطر الجسر المؤدى الى المدينة ، يسابق كل واحد
من رجاله الآخر فى الهروب .

على أن دوق اللورين كان قد جابه كثيرا من أمال هذه الأرماب ،
وكان عسكره قد احلوا موقعا أمام الجسر يقوم بجاهه ربوة عالية
بعض الشىء ، وكان الترك فى فرارهم أمام زعمائنا الموقرين أحد
رجلين : اما رجل يتعبر فيسقط وهو يحاول بلوع الجسر الماسا
لملجأ له هناك ، واما رجل لامحصى له من العودة الى موب مؤكد
يلقاه فى ساحة المعركة التى كان قد لاذ منها فرارا .

(الحروب الصليبية ح ١) - ٣٢١

واذ كان كونت فلاندر محاربا صديدا ، بارعا كل البراعه
فى استعمال السلاح ، فقد خرج بعسكره مصعبا أبر الأعداء فى عزم
لأنل شبابه ، ففرق صفوفهم ، وأنزل بهم من الأحوال مبل الذى
أبرلوه من قبل بعسكرنا ، ولم يكن كونت نورماندى أقل سجاة من
آبائه ، فأبلى البلاء الحسن فى هذه الموقعة .

وكان هنا كونت تولوز المحمس لربه ، والى جانبه هيح
العظيم الفخور بما يجرى فى عروقه من دم ملكى ، والذى لم يشن
نسب أسره المريق بأى شين ، وكذلك كونت اوسماس أحو
الدوق ، وبلدوين كونت هيولت ، وهيح كونت سب بول ،
وغيرهم من أهل المكاة - فحملوا جميعهم على العدو حملة صدق ،
وأظهروا من أعمال البطولة ما أرقق قوة المعادين ، فدبحوهم دبج
الحراف ، وكان باغى سبان لما أرسل قواه للحرب أمر باغلاق
أبواب المدينه من خلفهم ، ليقطع عليهم كل خطة للارتداد ، ساعيا
من وراء ذلك الى مصاعفة ضراوتهم ، وحملهم على المزيد من السند
فى القتال ، معصدا أنه بذلك يسلك أحسن المسالك وأجداها ،
عر أن الخانمه حاءت على غير ما كان يرحوه ، فقد هلك رجاله
الدين لما رأوا احداقنا بهم لم تعد لهم قدرة على صد هجومتنا ،
أو الفكك من ضغط رجالنا عليهم ، فالتمسوا خلاصهم فى الفرار الذى
لا خلاص لهم سواه ، ولكن خانهم هذا الأمل اذ كان الموت لهم
المرصاد ، فتناوشب سيوفنا القادين منهم ، وفرفتهم شر ممزق .

وتردد فى أنحاء المعسكر فرع الأسلحه ، وقعقة السبوف
البراقه ، وصهيل الحمل ، وصراخ الرجال ، واختلط الحابل بالبابل ،
ولولا اخلاف سلاح كل فريق عن الآخر لكانت اتمه غلطة مؤدية
الى الخطر الداهم الذى يحمل فى طياته الهلاك .

ويجمع على أسوار انطاكية وتوق أراجيسا ، سناء المدينة
وبابن وصغارى وسبوح البلد ، وكل من لس عله مدره على
الدفاع عن نفسه ، شساعدون - من مكاييم الذى يقعون فيه -
المدبحة الى بحرى من بحيم ، رعلا بكاؤهم وراحوا نندبون هشارع
أصحابهم ولسان حالهم يقول « ما أسعد من رفق نيم الموب نمنص
أرواحهم قبل أن نمنهم هذه الخطوب » .

أما الأمهات اللابى كن يفاخرن بكره أولادهن ، فعد أصح
موضع الرناء وصارت العافر مهن أسعد من كل داب ولد .

ولما رأى ياعى سبان أن الداتره ند دارب على نومه ، وأن
البقية الباقية منهم لابد سالته فى هذه المدبحة الى بترى -لى
قرب منه ، أمر بسرعة فصح الأبواب حى يمكن البافون من جيسه
من دخول المدينة سالمين ، لكنهم تراحموا على الأبواب الى أزيلت
متاريسها تراحما شديدا . رتعالى ضحجتهم وصراخهم ، ذلك لأن
الفارين الذين كان الحصم يمتهم حاولوا تمور الجسر ، نكابر
جموعهم ، وندافعوا فزعين يدفع بعضهم بعضا مما أدى الى سقوط
الكربين منهم فى البهر فثرقوا فى لجنه .

ولقد صال دوق الناورين أبداع صوله فى هذا الاسك
فبره على أنه مسعر حرب وخراض غمرات ، وشاعده المساء
اذ اقترب وهو يشاتل حول الجسر ، وفد جاء بالدليل البين على
بأسه الذى ميزه عن سواه ، ركان ما قام به من العمل أورا بأعرا
خالدا ، ومأثرة زادنه اجلالا فى بطر الجيش كله ، اد اندفع بما
طبع عليه من جرأه فكان يصرب الضربه الواحده يقطع بها رؤوس
أكثر من فارس مدرع ، ثم قص بشجاعة فارسا آخر لم يمنعه
ما عليه من زرد الحديد من أن يصبه بضربة قطه نصفن ،
فتدحرج أعلاهما على الأرض ، وأما أسفلهما فقد دمعوا به الى المدسة

محمولا على فرسه ، فبث هذا المنظر العجيب الخوف والدهشة في نفوس كل من شاهدوه ، ولم يعد خبر هذا الأمر العجيب حافيا على أحد ما ، وناقله الألسن ، فشرى وعرب .

ويعال ان خساره العدو يومذاك فاربت ألقى رجل : ولولا دخول الليل الذى حسدنا على أمجادنا وانتصارنا لانتهى حصار أنطاكية من غير شك فى هذا الوقت ، وكانت آثار المذبحة واصحه كل الوضوح حول الجسر والنهر الذى تبدل لون مائه ، وراح يصب فى البحر سيلا جارفا من الدماء . ولقد فل ان انتى عسر من الحكام الأتراك لموا مصرعهم فى هذا القتال ، فكابوا خساره نلمدبه لا تعوض ، وأكد هذا الخبر فيما بعد تأكيداً قاطعا المواطنين المسيحيون الدين قدموا من أنطاكية الى معسكرنا .

- V -

حين طلع النهار على الدنيا عاود القادة اجتماعهم ، ساكرين الله العدى على ما آتاهم من النصر ، ثم عقدوا - فيما بينهم - مجلسا لمنافسة الوضع فانفقوا بلا استثناء على تنفيذ خطتهم الأصلية بحذافيرها ، ألا وهى اقامة حصن على رأس الجسر لمنع المواطنين من مغادرة المدينة ، ولييسر فى الوقت ذاته على رجالنا حركتهم ويزيد من سلامتهم اذا ما رغبوا فى النحوال هبا وهباك .

وكان فى ذلك المكان - كما قلنا سابقا - مسرح يؤدى الترك فيه شعائرهم الدينية ، وقد جعلوا ناحية منه موزعا لدفن موتاهم . فلما كانت الليلة السالفة ، وصدر من اليوم النالى ظلوا ينقلون

جئث موتاهم الى ذلك الموضع ، فلما تأكد رجالنا من صدق هذا الخبر ، اندفعوا اندفاعا شديدا الى ذلك المكان ، يحدوهم الأذل في العثور به على غنائم تكون مدفونة مع الموتى ، فنبسوا الصور وأخرجوا الجثث ، ولم يقتصروا على أخذ ما وجدوه من الذهب والفضة والأفضة الغالية بل امتدت أيديهم حتى الى الجب دابها فصعوا بها .

ولما فشا هذا الخبر أيقن الجمع مدى ما أصاب العذر من خسائر كانت في بادئ الأمر موضع شك ، لان القتال استمر املا ، فاعبط الصليسون بهذا النبأ عبطة حاوز عبطهم بالصر الذي أحرزوه في يومهم السابق ، ولقد وحدوا في تلك المثرة أمما وخمسائة جنة سوى من ابلعهم النهر في مرات كثيرة حافت فيها الخسارة بهم ، وسوى الذين قبروا في المدينة اضافة الى من أنعمهم حراحتهم القائلة فصاروا معها على شفا الموت ، وأرسل الصليسون ما يقرب من ثلاثمائة رأس من رؤوس القتلى الى من كانوا موجودين بالمياء ، فنضاعف سرور رجالنا الذين كانوا قد ذهبوا الى هناك بعد معركة اليوم السالف ، وكان هذا تحذيرا نافعا للسفراء المصريين الذين كانوا لا يزالون في المناء ولم يغادروه .



كان الصليبسون الكثيرون الذين فروا من أخطار اليوم الغابر مختفين في كهوف الجبال وأعماق الغابات ، فلما سمعوا بخبر انتصارنا بادروا في الحال الى الرجوع الى المعسكر ، وهكذا شاء ارادة الرب أن يعود الى الحش كثر من الجند الذين اعقد الناس أنهم هلكوا في المعركة ، لكن ها هم الآن يعودون الى الجيش سالمين ، معافين من كل أذى بفضل الرب .

لم يكد يرجع هؤلاء الذين كانوا قد فروا الى مختلف الجهات حتى أقيم على رأس الجسر متراس من الأحجار النى حملوها من

المغابر ، وأخذ العموم يتبارون في مساعدته بعضهم البعض ومعاونه كل منهم زميله في تشبيد المعقل الذى حصن بسور قوى وأحيط بخندق عميق .

ثم أخذ الزعماء بعد ذلك فى النشاور عمن يقوم بحراسة هذا المكان ، ولم يكن أى واحد منهم مستعدا لحمل مسئولية ثقلة كونه المسئولة ، وراح كل منهم يقدم هذا العذر أو ذاك ، غير أن كونت بولوز - وهو المرضى عنه من الله - نطوع لحمل المسئولة ، ويعهد من أحل الصالح العام أن يقوم بحراسة هذا البناء الجديد ، فاستعاد ناما حب كل رجال الحملة له ، وهو حب كان قد فعهده مدة عام لوقوعه فريسة لمرض عطله عن الحركة والفتالة على مدى الصنف الماضى وطول الشتاء التالى له ، ففى الوقت الذى كان نقة النداء ابدانه ينحملون مسئولية الجبش بعزيمة لا تقهر كان هو د، نهم كأنما لا يضنه من الأمر شيء ، وكانت تنقصه البشاشة ، ولم يظهر الود تحاه كائن من كان ، وتجلى هذا واضحا غاية الوضوح لكل ذى عينين، فعزوا ذلك الى أنه كان أكثر القوم مالا وأعظمهم ثروة بصورة ينوقون معها أن تحمله على بذل الكثر من أجلهم ، ولقد أراد أن يعوض ما كان من تراخيه وعدم اكترائه فقام من نلقاء دانه وتحمل عبء هذه المهمة ، وقبل أيضا انه وضع نحت تصرف أسعف بوى وبعض النبلاء الآخرين خمسمائة مارك فضة وزنا ، تعويضا لأصحابها عن الخبل الننى هلكت لهم فى هذه المعركة .

فلما عرف أتباعه أنهم عوضوا خيرا عن جيادهم التى فقدوها أظهروا من ضروب الشجاعة والتفغن فى محاربة العدو ما لم يظهروه من قبل فهذأت حدة الشعور ضد الكونت ، وسماه الجبع بأبى الجيش وراعه .

لقد سدت بوابة الجسر بالقلعة الجديدة الى اقام بها الكوب
حمسمائة من الرجال الأشداء ، مما جعل مرور المواطنين من خلالها
لا يسسى الا بشق النفس وبالعرض للخطر البالغ ، لكنها من ناحيه
أخرى جعلت قومنا أكر قدره على الخروج من أجل فضاء مصالحهم
الضرورية ، أما العدو فلم يعد قادرا على مغادرة أنطاكية الا عن طريق
البوابة الغربية الواقعة بين سفح الجبل والبير ، ويظهر أن تمنع
العدو بالقدرة على الخروج من تلك البوابة لم يحرص قوائنا لكبر من
الخطر ، اذ كانت جميع خيامنا منصوبة على الحجاب الآخر من النهر ،
ومع ذلك فقد شعر الكل أن المحصورين كانوا محاصرين ، وكسر من
الحرية في الحجال ، لأن حاجات المدونة الضرورية كانت لا يزال تمر
بهذا الطريق ، لذلك عقد القادة المشجعون الحالي الذكر مرة أخرى
مؤتمرا من بينهم للتداول في شأن هذه المشكلة التي رأوا دواجيبها
نافذة بعض التحصينات في موضع ملائم على الحجاب الآخر من البير ،
وقرروا أن يقسم بها بعض هؤلاء الزعماء ، لرصدوا العدو ان أراد
الخروج منها أو الدخول اليها فحولون بنه وبين ما يريد ، وعلى
الرغم من انعقاد اجماعهم على وحب تسيد ذلك الحصن ، الا انه
لم يتقدم قط أحد منهم فتنطوع وتنهض بحراسه ، وترددوا كايه
تحاه هذه الصعوبة ، ولم يدروا أى سبيل يسلكونه فيها ، وطال
برددهم ، ثم استقر الراى منهم فى النهاية على اختبار تانكريد الحم
النشاط لأداء هذه المهمة ، وكان على وشك الاعتذار عنها لقله ما سده
من المال ، لولا أن نهض كوست تولوز وقدم اليه مائة مارك من الفضة
لتسند الحصن ، ضاف الى ذلك تخصيص مبلغ مناسب قدره أربعون
ماركا شهريا يقطع من المال العام يدفع للذين سوف يعملون مع
تانكريد .

ولقد ترتب على كل ذلك أن شيد حصن ملاصق لملك البوابة
يفوم على أحد اللال ، حيب كان موضعه فى السابق أحد الأديرة ،
وعهد بحراسته الى رهط من أهل الحجى الأشداء فبقي هذا الحصن
سليما حى نهاية الحصار بفصل جهود نانكريد الناجحة .

وكان يوجد على بعد ثلاثة أميال أو أربعة تحت أبطاكيه ، وعلى
امداد بهر العاصى مكان للتعبد ، يتمتع بموقع رائع بين الجبال وس
النهر ، حب كانت قطعان الأغنام سرح هناك فى المراعى الحضرء
الغنية ، السى كان العدو قد نقل إليها معطم جناده لقله ما قى المدسه
من العلف ، فما كاد الصلسيون يسيون هذه الحقبعة حى جمعوا
فى هدوء بضع سرايا من الفرسان الذين أسرعوا الى تلك البقعة ،
وسلكوا إليها طرفاً بهجوره حى لا ينكشف أمرهم ، فلما صاروا
هناك وثبوا على رهط من الفرسان القوامين بحراسة المناسبة ،
ومادوهم ، واسنولوا على ألقى حصان من الحمل الصافنات ، ناهيك
عما أخذوه من البقال واناها ، وعادوا بكل ذلك الى المعسكر ، ولم
يكن ثم عنائهم من أى نوع أكثر أهمية من هذه الخنائم عند الصلبيين
فى ذلك الحين ، لأن جميع حيادهم كانت قد هلكت تقريباً فى
المعركة ، أو نفقت من الجوع أو البرد أو غير ذلك من الكوارث .

- ٩ -

أحيط بالمدينة من كل جانب ، وعجز سكانها عن محاولة
أسوارها لمزاولة أعمالهم ، وهكذا أهدقت بهم الصعاب الجمة من كل
ناحية ، كما بدأ يهددهم أيضاً مسكلات أخرى كنقص الطعام الذى

واحبهم نجاه وأصبح سمحه بحشتم بصوره لعب النباح السديد في
حلوب المراطيين ، كما أصبح العلف نادرا بدره نالمة ، وهراب
الخنول ، وعجزب عن القنام بما كانت تقوم به من فعل .

أما رجالنا فقد أصبحوا أكثر حرية في الذهاب الى سطاىء
البحر ، أو حينما ندعوهم الضروره الملحة ، وراى الى حد بعد
ما كان يكابده الجيس كله خلال الساء من هم مقم بسبب قلة
المثوبة ، فعد ولى الساء ، وجاء الربع الطاق ، وهذا البحر ، ولم
يعد الأسفلول الراسى بالمياء يلقي مسفة فى الدخول أو الحروح دى
شاء ، عدا الى جانب أن الطرق غدت سهلة المسالك بمصل الدفء
المزايد . فاستطاع كل ذى مصلحة أن يخرج لانجاز مصلحه من
غير عسر .

كذلك رجع الى الجيس الصلسون الذين كانوا مصوا لفضاء
وقمهم فى القلاع والمدن المجاورة ، فرارا من شطف الحما وقسوبا
فى المعسكر ، وحجزوا أسلحتهم وقويت عزائمهم ، وأعدوا عديهم
للقال .



على أنه فى هذا الوقت بالدات جاءب الأحبار الى بلدوين - أخى
الدوق - بأن الجيس فى صراع مرير ضد المجاعة ، فتفطر وابه
بالأسى الصادق ، وعزم على امدادهم بضرورات العيس من فائض
أمواله الخاصة التى أنعم الله بها عليه ، فكانت عطايا السخية من
الذهب والفضة والاعمسة الحربية والحياد الصافيات رغير ذلك من
كل غال وثمان بلسما داوى ظروف كل زعم ، ولم يعصر كرمه على
كبارهم فحسب ، بل تعداهم الى الكثير من عامة الناس ، مما أكسبه
ميل الجميع اليه وحبهم اياه ، وزيادة على ذلك فان سخاءه لم يقل

عن هذا بجاء مولاه وأخيه الأكبر ، فأمر بأن يحول الى حودفروى
جميع ما تملكه الاملاكه الخاصة الواقعة على ذلك الجانب من نهر الفرات
حول بل باشر والافليم المجاور له ، فأمره بالحبوب والسعير والزيت
والنسذ ، الى حاب خمسين ألف قطعة ذهبية وصله بها .



كان هناك عظم من عطاء الأرمى شديد البأس اسمه
« نيكوسيسوس » تربطه ببلدوين وشائج المودة الصادقة ، وقد قام
من بلقاء ذاته وبدافع من تقديره لبلدوين ، بإرسال طائفة من رجاله
يحملون الى الدوى فسطاطا كبير الحجم ، بديع التصنع هديه منه
اليه ، الا أن باكراد نصب كمينا لاصطاد الحدم الموكل بالنهم حراسه
هذه الهدية ، وأمر باغتنصاب هذا الفسطاط ، وأن يحمل الى
بوهمود ، كأنه هديه منه هو ذاته اليه ، فوصل الى سمع الدوى
بأ هذا العمل السخس مع تفصيل شامل للحادث كما رواه خدم
نيكوسيسوس ، وحنداك خرج جودفروى مسسحبا معه كوت
فلاندرز الذى نوبس بسه وبسه وشائج الصداقه الصمفة طوال
الرحلة وذهب الى بوهمود طالبا اليه أن يرد عليه الهدية التى
كانت مرسله اليه هو ذاته ، ولكنه اغتصبها لنفسه ، غير أن
بوهمود ادعى أنها مهداة اليه هو ذاته من النبيل «باكراد» ، وزعم أن
من حقه السرعى الاحتفاظ لنفسه بما يطلبه منه الدوق ، فلما خيف
أخرا من وقوع شقاق فى صفوف الناس ، أو حدوث نزاع بين
القادة ، استجاب [بوهمود] لالتماسات الزعماء ورد الى
[حودفروى] الفسطاط الذى كان مهدى اليه ، ومن ثم عادت المياه
الى مجاريها مرة أخرى بين القائدين ، على أحسن ما تكون العلاقات .

ويخل الى أنه من المستغرب جدا أن يصبر رجل كالدوق يماز
بدمانة الخلق وحسن الطبع هذا الاصرار الشديد على المطالبة بشيء

ناوه غير هام كهذا السيء ، ولا أستطيع حيال ذلك الا أن أقول ما جاء
في المل « ومن ذا الذي يرضيك سجاياه كلها » وما جاء في مل
آخر « لكل جواد كبوه » ، كما ان هناك ملا غير هدين يقول « يجوز
للمرء في المهمة السافرة أن يفتخر لحظة » . ذلك لأنه كثيرا ما يرى
في أنفسنا انحرافا عن حادة الصراخ يقضى به قوانين الطبيعة
البشرية .

- ١٥ -

سرب في حذاء الآونة سائنه عمت كل البراحي بدول أن أحد
أمراء الفرس الأقوياء استجاب لمطالب الأبطالين الخاصه - ولالاح
تومه المسنمر ، فأمر بحشد الصكر من كافة أرجاء مملكته ، وارسالهم
بحدة الى المدينة ، وقد أداع مرسوما تالبا يأمر فيه بزحف حسن
بركي قوى على بلاد السام ، اصطفى لقادته جماعة خاصة من الأمراء
وكل البهيم هذه المهجة ، ولم سر هذه السائفة في العالم الخارجي
وحده فحسب ، ولا عرفت هناك فقط ، بل لقد تحذب بها أيضا جمع
اللاجئين من المدينة الذين فروا الى معسكرنا وأكدوا صدقها الذي
أخذ نداد يوما بعد يوم ، حتى قيل ان هذا الجيش أصبح على أبواب
المدينة ، فاستبد الذعر بجيشنا واستولى عليه القزع .

في هذه الأزمة قام ستيفن كونت شارترز ، وهو رجل نسل
واسع النفوذ ، نصبه الزعماء رئيسا لمجالسهم يستشيرونه ، وينزلونه
منزلة الوالد لرجاحة عقله التي لا تجارى ، وحسن حكمه على
الأمر ، أقول قام هذا الكونت يسأل اخوانه أن يأذنوا له - وقد تعلل
بالمريض - أن يفارقه ليذهب الى الساحل ، مستصحباً معه خدمه
وأتباعه وكل ما يملك ، وكان ما أخذه معه شيئا كثيرا للغاية ، أما

عذره الذى قدمه بين أيديهم نهر رغبته فى الإقامة بعض الوقت فى الاسكندرية حتى يسرد صدحه ويدهن شاحه يسه على العوده اليهم .

وقع الاسكندرونه على شاطئ البحر ، ولا بعد كيرا عن المناء ، وعبر المداخل الى صليها .

وصحب [سبتى] فى معاديه هذه أربعة آلاف رجل كانوا قد جاءوا فى معيته ، فلما بلغ الساحل مضى الى الاسكندرونه فى انتظار ما تتمخض عنه الأحداث ، ورسم خطله على أن يعود الى الحس ان أحرزت فوانا النصر الذى يسده بحجة أنه نقه بما من وعكه ، أما ان حرت الأحداث على العكس من ذلك فسوف يرجع الى مقاطعه الخاصة فى السفن النى كان قد جهزها ليكون على أهبة الاستعداد لذلك ، فانطوى هذا المسلك من جانبه على العار المقم وضماح حسه الى الأبد .

ولقد أزعج فعله المشين هذا الفاده الذين خلفهم فى المعسكر ، ورأوا - وكان حقا ما رأوا - أن ما فعله ان هو الا سبة لا يمحي عارها ، ولا يذهب شئها ، وأحسوا فى الوقت ذاته بحزن تنفطر له المرائر على هذا الرجل النابه الذكر ، الذى لطخ بمسلكه هذا سرف بسه وحط من شهره ، فراحوا يننافسون - وكلهم فزع - كبف يواجهون هذا الحادث الذى لم يكن موقعا قط ، لما يحمل فى طابه من خطر يتمثل فى أن قد يقنفى خطاه سواء ممن لا زالوا معهم فى المعسكر فيجروون على القيام بمثل ما قام به ، ومن ثم انفقوا أخبارا على أمر لم يشذ عنه أحد منهم الا وهو أن يبعثوا من ينادى بمنع أى شخص كائنا من كان هذا الشخص من مغادرة المدينة ، فان ترك أحد ما المعسكر خلصة من غير اذن الزعماء ، لم تشفع له قط وظففته الرسمية ، ولا خدماته التى يكون قد أداها ، من أن يصدر ضده قرار

الحرمان ، وأن يحكم عليه بالجار الأبدي ، كما لو كان قد فعل نفسا من غير دنس ، أو أندس قدس دسما ، هذا الى جانب ابرال أقسى أنواع العقاب به ، ويرتب على هذا الفرار بما تضمنه من الزجر والحوث من العقوبة أن امسح الكل منذ ذلك الحين عن برك المعسكر ، حتى ولو لفرة وحيزة ، وأطاع كل واحد منهم القرار كما لو كان هذا الواحد دبريا يستحب للأمر طوعية ومن غير معارضة •

- ٩٩ -

اعتنقت أنطاكية - مدينة الله الحبيبة - مله المسيح زمن الحواريين ، حين بسر بها أميرهم - كما فلنا - وظلت وفية لها ماهرة بها حتى وفتنا الحاضر •

وسنما كانت أفالم السرق كله ندخل تحب حكم خلفاء محمد [صلى الله عليه وسلم] ، وتنتشر فيها عقيدتهم ، أبت هذه المدينة أن تسيطر عليها أنه أدب بعض من ما يصنع هي ، وعلى الرغم من سيطر سيطره [المسلمين] كل جميع البلاد الممتدة من الخليج الفارسي حتى السفور ، ومن الهند الى أرض الأسمان الا أن مدسه أنطاكية هذه انفردت دون غيرها من المدن والمحافظة على إيمانها سليما غير مغمور ، وحرصت على حرسها وهي بسس وسط أم محالعه لها •

غير أن ما كابده [المدينة] من كرة الحصار على مدى أرمه طوية فل في ساعد مواطنيها الفضلاء ، كما أرهقهم هجمات العدو التي لم تعد محملة ، فما لبثوا - قبل أربعة عشر عاما من الوقت الذي نكلم عنه الآن - أن تلاشى صمودهم ، واضطروا لتسليم بلدهم

أنطاكيه الى عدوهم ، وحدث أنه لما بليت جيوسنا أسوارها كان جل سكانها من المؤمنين الصادقين ، ولكن لم يكن لهم أى حول أو قوة فى المدينة ، وقد احترف متطلبهم التجاره ، واشبعوا بالحرف البدويه أجراء عند عيهم ، ولم يكن مسموحا لهم ولا لأهل المال الأخرى غير الترك بمزاولة الأعمال الحربية أو شغل الوظائف الهامة .

وحرّم على الصليبيين احرار السلاح ، أو ممارسة أى سىء بمب بأى صلة لسنون الحرب ، لذلك ما كاد الحبر بافتراب الحجاج القادمين من الغرب يصل الى مسمع كبار رجال أنطاكية ، حتى ازدادت ريبتهم فى المؤمنين(١) عن ذى قبل ، ومنعهم - لاسيما بعد حصار المدينة - من مغادرة بيوتهم ، فكانوا لا يخرجون منها الا فى ساعات فرضوها لهم .



كان بين أهل المدينة بعض أسرات معسة شريفة الأصل كريمة المحتد ، توارثت المجد القديم عن الفضلاء ، وكان من بينها أسرة بارزة بسبب أصلها العريق تدعى بسى «زردة» ، التى تعنى فى اللغة اللاسية أبناء صناع الزرديات ، ولهذا سمى بنوها بهذا الاسم ، وربما كان ذلك نسبة الى اشتغال جدهم الأكبر بهذه الحرفة ، أو لأنهم هم أنفسهم استمروا فيها ، ومن المحتمل أن بعض رجال من هذه الأسرة كانوا لا يزالون هذه الصنعة ، ويعملون فى هذا الفن الذى ظل على مدى أحوال متعاقبة وفقا عليهم ، حتى أورنهم هذا اللقب .

(١) يعنى المؤلف بهم المسيحيين من سكان أنطاكية .

وكان هناك برج يعرفه الناس ببرج الأحيين يقع في الجانب العربي من المدينة ، ومجاورا للبوابة التي تعرف اليوم باسم سبت جورج ، وقد خصص هذا البرج لملك العائلة حتى يمكنهم مراقبة عملهم في طمانينة في هذه الحرفة التي كانت ذات أهمية قصوى لكل من المدينة وواليتها .

وكان من هذه الأسرة شقيقان يدعى أكبرهما بفروز ، وهو رجل قوى النفوذ ، عظيم الجاه ، الى جانب أنه كان كبير عسيره وأسرته ، وكانت تربطه أواصر صداقة مينة العري بوالى أنطاكية [باغى سيان المسلم] الذى أعقد عليه نكاحا كبيرا سرفه بيا ، وكان فروز كاتب السر فى القصر ، الى جانب تقلده غير ذلك من الوظائف السامية .

وسمع فيروز بأن « بوهيموند » أمير كبير دائع الصب ، رله صلح بارز فى كل ما هو جار فى الخارج ، ومن ثم ما كاد الحصار يبدأ حتى نجح فيروز فى كسب ود بوهيموند بواسطة الحوادث المترددة بينهما ، كما ظل فروز طوال اسمرار الحصار حريصا على هذه الصداقة ، فلا ينقصى يوم حتى يوافق بوهيموند بتمثيل ما يجرى بالمدينة ، ويبحث اليه بخطط ياغى سبان ، واذ كان فيروز رجلا داهية ، فطما ، يقظ الفؤاد ، فقد حرص كل الحرص على أن يظل خبر اتصاله بوهيموند سرا مكشوما بينهما ، ونجح فى ذلك غاية النجاح ، لانه كان يخاف أن يحدق الخطر الكبير به هو وأسرته من كل جانب ، ان وقف سواهما على هذا السر .

وكان بوهيموند هو الآخر شديد الكتمان لما بينه وبين هذا الرجل من صداقة فطواها فى أعماق قلعه ، ولم يعلم أحد بشئ قط عن صلة الواحد منهما بالآخر ، ولا بالرسل المستمرة بينهما ، بل لقد خفى أمر ذلك عن الجميع ، حتى عن خدمهما وأهل بيتهما .

اسمى التفاهم السرى بين هذين الرجلين - والذى أسرنا اليه حالا - قرابة سبعة أشهر ، زخرت بالابصال الودى بينهما بسأى الطريقة التى يمكن أن يتم بها اعادة المدينة الى المسيحيين ، وطالما ذكر بوهيموند فيروز بهذه المسألة حتى انتهى الأمر أخيرا بفيروز - كما قبل - بأن يعث اليه بالرد التالى على يد ولده الذى كان يحمل الرسائل المتبادلة بينهما :

« اعلم يا أحسن الرجال ، ويا من هو أغلى على من الحماة دانياء ، أننى قد أحببتك حبا حالصا منذ اللحظة التى ساءت فيها اراده الله أن تقوم بيننا هذه الرابطة من الصداقة المتبادلة ، ودعنى أذكرك أكر من هذا أننى وجدت فى كلمتك صادق العزم الذى لا سوفر الا فى الرجل الصالح ، ومن ثم فإن حبك أخذ بزداد رسوحا فى فؤادى يوما بعد يوم ويعظم قدرك عندى . أما عن الأمر الذى كبر نذكرك لى به فقد أمعنت فيه النظر مليا ، وعنبت ببجحه مرارا ، وقلبت على شتى جوانبه ، فأيقنت يفينا جازما أننى اذا استطعت أن أعيد بلدى الى حريته السالفة ، وطردت هذه الكلاب القذرة التى تعاني تحكمها فبنا ، وأحللت بدلا منها شعبا يعبد الله ، فإن بضيع أخرى يوم الحساب ، وسوف أنعم بصحبة القديسين المماركن الى الأبد .

« ومن ناحية أخرى ، فلو قمت أنا بهذه المهمة الشاقة الخطرة ، ولم يكسب لى النجاح فيها ، فلن يسك أحد فى أن سيكون ذلك بئانه بيتى وانهار سمعة عشيرتى الطيبة تمام الانهيار ، ولن يجرى على اللسان اسمنا أبدا ، غير أن الأمل فى النصر لا يزال يراود النفس فى القيام بهذه المخاطرة ، ومع ذلك فأننى مستعد للنهوض بهذا العمل ان وافق رفاقك على أن تؤول اليك أنت وحدك دون سواك

عده المدينة حين اسمسلاهما بعصل خيودي القويه ، وبعون الرب
الذى ربط بيننا برباط الصداقة الوثيق ، وسأقوم بالمهمة مهما كانت
صعوبها ، وسيكون قيامى بها بسبب حنى لصعارى الذين أرجو
لهم ولك كل الخير » .

« وسأسلم اليك من غير عائق هذا البرج السديد الحصانه ،
الذى يعرف أنه فى حوزتى ، وحينذاك نستطيع أب ومن معك دخول
المدينة آمين سألين » .

« أما ان رأيت انكم جميعا مساوون فما سكم ورأيت أب
أن نقسم وإياهم المدينة حين نؤخذ على هذه الصورة فاسى لى أرج
بنعسى فى هذا المأزق الخطير ، ومن أجل خاطر قوم ليس لى هوى
فيهم » .

« وانه لينحتم عليك - من أجل الصالح العام وسلامة الجمع -
أن نبذل قصارى جهدك للحصول على هذه الموافقة من القادة المرتبطين
بك ، وكن واثقا كل الثقة أننى حالما أتسلم منك الخبر البين بأنكم
وفيم بهذا العهد ، فلن أنواى فى فتح باب المدينة لكم لدخلوها ،
وهذه هى الغاية التى تلج على من أحلها » .

« وأزيدك علما بأنك ان لم تتحرك بأسرع ما يمكن ، فلن
تدخلوها بعد ذلك أبدا ، لان حاكم هذه المدينة تصله الرسائل ،
وتنوالى عليه الكتب كل يوم ، مشيرة الى أن الامدادات التى تجمع
من كافة أرحاء الشرق لمساعدته قد عسكرت حول نهر الفرات ، فى
قوة بلغت مائتى ألف فارس ، فاذا وحدتكم هذه الجيوش لا زلن
خارج المدينة فلن تكونوا قادرين بعد ذلك أبدا على مقاومة قوة الأهالى
وحوش حلفائهم القادمة » .

شرح بوهيموند مد تلك اللحظة في بذل أقصى جهده لاسسكاه مساعر كل شخص من القادة ، ومعرفة ما يدور بفكر كل منهم على حدة ، والوقوف على الخطأ المنفع اتخاذها بشأن المدينة المحاصرة حين يتم الاستيلاء عليها ، وبرع كل البراعة في اخفاء مسروعه . الا عمن اعتقد أنهم موافقوه على رعبانه ، وكان اذا رأى الأمل صعبا في نجاحه لدى بعض القادة أرجأ الموضوع الى وقت آخر يكون اكبر ملائمة . ومع ذلك فقد وافقه على مطالبه كل من دوف حودفروى . وكونب بورماندى ، وكونب فلاندرز ، وهبيج العظم ، وصارحوه بآييدهم لما يريد ، واسصوبوا سر الرجل النبيل [فروز] وأنوا على فطنته ، وكنموا عزمه فى صدورهم كمنهم لأمر لا سعى أن يعلم به أحد قط .

أما كونب بولوز فكان الوحيد الذى شذ عنهم فيما يتعلق بهذا الموضوع . وترنّب على موقفه هذا ارجاء المسألة ارجاء كاد أن يدمر ما اتفق عليه ، لان صديق بوهيموند الحمم [أعنى فيروز] ، كان رافضا كل الرفض أن يقوم بعمل فيه كثير من الخطر عليه من أجل خاطر الآخرين ، كما ان بوهيموند لم يكن بالشخص الذى يجهد نفسه فى عمل للصالح العام ان لم يعد عليه بالجدوى ، لكنه اسمر مع ذلك فى الحفاظ على مودته الصداقة مع فروز فحافظ على الدوام بهداياه وملاطفاته ، كما ظلت الرسائل موصولة ومتراقة سنهما ، وأخذ كل منهما يرمى ما بيده وبين صاحبه من الصداقة ونمها .

عاد في هذه الأثناء الى أنطاكية المبعوثون الذين كان باعى سيان وأهل أنطاكية قد أرسلوهم الى فارس بغية اسجداء العور ، وقد نجحوا في انجار سفاريهم ، وبحققت مطالبهم ، ذلك لان أمير فارس العظيم كان قد سمع بما تلفاه أنطاكية من الأهوال فتحرك فله عطفها عليها ، وكان من صالحه صد محاولات الصليبيين والعمل على سل فويهم حتى لا يتطلعوا لفسح بعض أجراء من مملكه بحد السف « ومن ثم بعث الى بلاد الشام حشودا لا يحصيها العد من الفرس والبرك والأكراد ، بقيادة واحد من أصدقائه المقربين ، كان يستطيع أن يعتمد على شجاعته واخلاصه وهمه كل الاعتماد ، وألقى اليه بالقيادة ، وجعل تحت امرته أمراء سنين وفودا وأمراء خمسين وصاطا آخرين دونهم مرتبة ، يطعون أمره وينفذون كل ما يقضى به ، كما روده نكتب لها قوة القانون وجهها الى ولاية جميع الأقاليم التابعة له ، والخاضعة لسلطانه متضمنة أمره الى كافة الناس والأمم والقبايل والشعوب على اختلاف ألسنتها ، أن ينبعوا - من غير تردد - ابنه المحبوب «كربوغا» الذي وكل اليه قيادة جيوشه بسبب خدماته ، وأمرهم بالامتثال لسلطان هذا الرجل ، وألزمهم بطاعته في كل ما يأمرهم به ، وأن يكونوا وفق مشيئته فلا يعارضه فيها معارض .

رأس كربوغا - بأمر مولاه - الجيوش التي ذكرناها حالا ، وزادها عددا بمن ضمه اليهم من العسكر الذين جمعهم خلال زحفه في البلاد ، فدخل العراق بمائتي ألف رجل ، وعسكر في ناحيته الرها ، حيث حادته الأخبار المختلفة وهو بها بوقوع هذه المدينة وكل الاقليم المحيط بها في قبضة أحد قادة الفرنجة الذي كان زاحفا ضده فأجمع النية اذ ذاك على مهاجمة هذه المدينة - قبل عبوره الفرات - وعزم على الاستلاء عليها قسرا .

ببد أن بلدوين كان قد علم بتقديم [ياغى سيان] فجلب أناسا سجعانا من كل النواحي الى حول [الرها] لمساعدته ، كما عسى بتوفير كل ما يحتاجه مدينته من الطعام والسلاح ، لذلك لم يزعيجه كثيرا تهديدات كربوغا السديده له ، حين أمر الأخير أن يبادى المنادون بأن الجيوش موشكة أن نغير على الرها ، وأن تضرب الحصار عليها بكل ما أوتيت من قوه ، ولكن المدينة فاومتها فى عناد . وسرعان ما نحلى للعسا انه لى 'جسى كثيرا من هذه المحاولة ، ولن يكون مقدمه فيها ملحوظا ، مما حمل فى النهاية جماعة من أهل الحجى على الذهاب الى قائدهم ، وطال بينه وبينهم الجدل ، حتى اسهى به الأمر الى نبذ هذه المحاولة وعدوها محاولة عارضة ، انصرف ياغى سنان اثرها لمتابعة خطته الأصلية ، التى تنلخص فى عبور الفرات والاسراع لنجسة أنطاكية ، وهو الهدف الذى جاء من أجله ، وذكر له هؤلاء الرجال أن أخذه الرها وأسره بلدوين لن يستغرق منه أكثر من يوم واحد ، وذلك فى طريق عودته من أنطاكية بعد رفعه الحصار عنها .



ظل كربوغا محاصرا الرها ثلثه أسابيع (١) ، أضاع فيها وقته سدى وبدد جهوده عبثا ، ثم بدا له أن يأمر فوانه بعد ذلك بعبور البهر فأمرها فاجنارته فسار خلفها محم الحطى فى همة كبيرة الى هدفه الذى خرج من أجله ، وكان توقف جسس الأعداء أمام الرها ، هو السبب فى عدم استطاعة بلدوين أن يكون حاضرا أثناء حصار أنطاكية ، كما كان السبب فى خلاص قوما الذين كان لابد أن يتخرج موقفهم - كما تنبأ فيروز صديق بوهيموند - لو أن كربوغا زحف مباشرة على أنطاكية ، وأخذها قبل اسنلاء الصليبيين عليها ولكن شامت نعمة الرب أن تقع أنطاكية قبل وصول المارفين ، والا كان من الصعب على الصليبيين أن يقفوا فى طريق كربوغا .

(١) ذكرت الترجمة الاصلية انها من ٤ حى ٢٥ مايو .

عمت السائعه أرجاء المعسكر في نفس الوقت بتقدم هذه
الحشود الكثيفة وأكد الكثيرون صدق هذا الجبر ، فأيقن العسكر
أن العدو قد وصل الى اطراف أنطاكية ، فأسبى الدعر بهم استبدادا
كبيرا ، واذا ذاك قام القادة فبعثوا في اتجاهات مخلفة رجالا من
دوى الخبرة لا يسك أحد أبدا في اخلاصهم وسياطهم ، وطلبوا اليهم
أن يقاتلوا وجهها لوجه أناسا لا يغمر ولاؤهم حتى يمكن الحكم الصحيح
عن مدى صدق ما أذيع من الأنباء ، وقد اخبر لهذه المهمة محاربون
سجعان من ذوى الرتب العالية هم « دروحو دى سرل » و « كلاربولد
دى مديل » و « جيرارد دى سيريزى » ، و « رينالد كونت بول »
وغيرهم ممن عاب عما أسماؤهم فأنسروا مع أبايعهم في بواح محلقة.
وبدلوا همهم في التقصى الدقيق فأرسلوا من قبلهم وبدورهم
الكسافه الى النواحي القاصية ، فصارت بين أيديهم بهذه الطرقة
أخبار موثوق بها تؤكد بجميع العسكر [الاسلامى] من سسى النواحي
وانصمامهم بعضهم الى بعض في جيش واحد ، كأنهم الأنهار نجمع
لتصب في البحر ، فلما فرغ الزعماء من ذلك عادوا مؤكدين للعاده
الدين كانوا قد بعثوا بهم أنه لا موضع للشك في الأنباء التى بلعهم .
وبذلك أخذ كبار قادة الجسس الصلبى حذرهم قبل سبعة أيام
من وصول كربوعا بعواته أمام أنطاكية . فأوصوا الحواسس أن
بعملوا جهدهم على بقاء هذا الحبر طى الكتمان ، فلا يسمع به أحد
من الناس ، خوفا من استنبلاء الذعر على جموع العامة التى أضاعها
الجوع . وأرهمها التصدائد التى أسنمرت طويلا مما قد يدفعها الى
تدبير خطة للهرب الذى كان طريقا سلكه فى الواقع منذ وقت قريب
بعض الزعماء الكبار .

وحينئذ نجمع الزعماء لنبادل الرأي حول الموقف الذى أصبح يكره الحمله بأجمعها ، ويهدد بمأزق يذهب ريجها ، فسرعوا بروح مواضعه وفلوب - سعه بدبرون الاحراء الى بيعى علمهم اتحاذها فى مثل هذه الحال الطارئة ، فافرح بعضهم أن نرح كل القوة المشتركة فى الحصار ، فنصدى للجموع القادمة على بعد مئس أو ثلاثة أميال من المدينة ، وهناك - بعد رفعهم أكف الصراعة الى السماء أن نمدهم بالهون - يحاولون مقابلة ذلك القائد المتغطرس ، المسفحة أوداحه بما يمن معه من الألوف المؤلمه .

على أن فريقا منهم فضلوا أن يخلعوا وراءهم فى المعسكر فسمما من الجيس ، لمنع الأهالى من التسلل والانضمام الى العسكر الوافد اليهم ، وأما ذلك القسم من الجيش الصليبي الذى يسأو هؤلاء فوه وكان أخبر منهم بفن الحرب فعلنه - حسب الاقتراح الأول - الخروج لصد الكفار على بعد مبلين ، فان رضى الله التقدير بما فعلوا فابلوهم بعون منه .

وبينما كانوا يناقشون هذا الموضوع مناقشته دقيقه ، ويبادلون الرأي فيما بينهم تبادلا حرا ، نسلل بوهيموند فى هدوء وانسجى جانبا بطائفة من كبار القادة هم : جودفروى ، وروبرت كوت فلاندرز ، وروبرت كوت نورماندى ، وريموند كوت نولوز ، حتى اذا أصبحوا وحدهم فى ناحية منعزلة ، وعلى مبعده من الآخرين خاطبهم قائلا :

« اسى أرى أنها الاحوه الأحياء العاملون فى خدمة الرب ، انكم قد انزعجتم فرعا من دنو هذا الزعم ، والذى يقال انه أصبح قريبا منكم كل القرب ، ولقد كاني لكل منكم - أثناء المؤتمر الذى انعقد

مد قليل - رأيه الذي يحالف رأى سواء ، والذي يصدر عن رعائه الخاصة . ومع ذلك فلس نم افراح مس الموضوع من حدوده . مسوا- حرحا حمة معا كما افرح بعضكم ، او افام فريى من الجند فى المعسكر ، فالواصح أن حىودنا الكثرة مهما طال اسمرارها ، لن بجدى فسلا ولن يؤبى ثمرينا . ذلك لأن فى حروحا حمة معا نهاية للحصار . وفصاء على أهدافنا . اد يعود المواطنون احرارا لس عليهم رصب ، وحسذاك فد يصمون الى العدر أو بدخلون عسكر حلقائهم الى المدينة .

» كما أنه لا محيص من حدود نفس السبيجة لو بقى قسم من الجنود فى المعسكر ، ذلك لان جميع قواتنا المتحدة حنى الآن لن تكون قادرة على كبح جماح المواطنين رغم ما هم فيه من ضيق يعب على البأس ، ورغم أنهم لا ياملون قط فى بجده نأبيهم فعيهم ، فكيف ينسى اذن لجزء ضئيل من جيسنا أن يلزمهم بالبقاء داخل الأسوار ان وصل حلفاؤهم ؟ ويبدو لى انهم اذ ذاك سفعلون واحدا من اثنين : اما أن ينصموا الى حلقائهم وحينذاك سسد شوكة فوائيم المتحدة فى الهجوم علبنا بأعداد نفوق أعدادنا . واما أن يحالوا بطريقة أو أخرى لادخال جند الحلفاء المدينة ، مع بذلهم الجهد فى ررود أبطاكنه بالسلاح والمبره مما يسد من ساعدها . وفى هذه الحالة لن يكون عددا ما يؤكد لنا التغلب على المدينة حنى واو أعاننا الله فهزمتنا العدو خارجها ، لذلك يبدو لى أيبا الساده العظام الموقرون أن الواجب يفرض علنا أن نسعى السعى كله للاسملاء على أبطاكنة قبل وصول هذا القائد الكبير ، فان سألهمونى وما وسيلتك الى ذلك ، وكف يمكن بطسق خطة كهذه الخطة . فابى أقرر لكم - حنى لا أبدو وكأنى أقترح عليكم مشروعا بسحل انجازها - أننى قادر على أن أفصح لكم طريقا ، نستطيع مه أن نحقق هدفنا المنشود نحققا سربعا وسهلا . ذلك أن لى نانطاكنة صديقا

صدوقا ، عافلا كل العقل ، بعدر ما برى عين الانسان الغفل ، وأعمد
أننى فد بينت للبعض منكم منذ قليل أن تحت امرة هذا الرجل برحا
منيعا شديد الحصانة ، وأنه قد رضى عن طيب خاطر أن يسامه
لى تحت شروط خاصة ، وكنت قد التمسيت منه مرارا أن يفعل ذلك
فاسسحاب لى بعد الحاح طويل ، والتزمت له - ردا لهذا الحميل -
أن أصله بقدر كبير من المال ، وأن أصح له ولذريته من بعده أملاكا
شاسعة ، وامبازات سسى نمنا يكافىء ما قام به ، ان جرت الأمور
وفى ما بهوى

» فان رصيم أيها الساده الأعزاء أن تصبح مدييه أنطاكيه
بحب حكى - ان تم الاسبلاء عليها بجهودي الكبيرة - وفلم أن
يكون ورائه فى ييسى الى الأبد ، فأنسى مسعد حينذاك أن أخرج
الى حير الوجود ما اتفقت عليه أنا وصديقى (١) هذا ، أما اذا أبسم
ذلك ، فلتحاول كل واحد منكم أن يلتمس طريقا أحسن مما ذكره ،
يمكنه من الاسبلاء على المدييه بنفسه ، فان يحج فى ذلك كاتب
ملكا خالصا له لا يسافقه فيها أحد ولا ينازعه ملكيها منار ،
وسوف أذعن أنا لما فيه صالحه ، كما أننى مسعد لأن أتنازل له
عن أى نصيب يكون لى فى الأمور الحالية .

- ١٧ -

أصغى الزعماء جميعا للكلمات بوهيموند هذه بقلوب بعمرها
الفرحة ، واستجابوا لرجائه ، معترفين بجميله ، ولم يشذ عنهم
سوى كويت نولوز ، الذى أعلن فى اصرار أنه لن يسخلى عن نصحه

(١) المقصود به « فيرور » .

كائن من كان ، على حين قطع الآخرون على أنفسهم العهد ان يمحوا
المدن بملحقاتها ليوهموند . لسكون وراثة في بسه الى الأند .
وأقسم كل رجل منهم - وقد بسط بدهاء - أن يبقى الأمر سرا
مكوما لا يحتر به احدا قط . ثم أخذوا كلهم في الوقت ذاته بلحون
على الأمير بوهيموند أن سادر لحسم هذا الموضوع بما عهد منه من
النشاط . حتى لا يؤدي الإبطاء الى حدوث خطر ما . ثم انص
الاجتماع . فقام بوهيموند بما أثر عنه من طبع لا يعرف الإبطاء وهو
بمحرق لتسعد مشروعه . فاتصل في لحظة بصدقه فيرور بواسطه
الرسول الذي اعاد أن يكون الواسطه بينهما . واحتره أن الزعماء
سمحوا له بكل ما سألهم اياه ، وراح يلح على فيرور ، وسجله
بما بسهما من الايمان الصادق ، أن يقوم في اللله الماله عون
الله بسعيد الحطة التي اتفقا عليها . فابلح ذلك الحر نفس سامعه
الوفى . وغلبت عليه نشوه السرور فوق كل ما يصور .

★★★

على أنه جرت حادثة قرب هذا الوقت سدد من عزم [فيروز]
على السير فلما في المؤامره التي دبرها ، ذلك أنه بينما كان مسعولا
أشد الاسعال بأداء ما بفرصه عليه واحسانه الكيرة التي
يفتصيحها وضعه في بيت مولا . بل وفي البلد كله ، اذا تأمر عاجل
لا ندرية يجد أثر ارساله ولده الشاب الى داره ، اد ما كان الفني
يلفها حتى طالع منطرا مشييا فاضحا ، حين ساهد أمه بين ذراعي
أحد كبار الأتراك في وضع مزر أسطحه غايه السطح . وارتعدت
منه أوصاله فرعا . وتغزرت له نفسه . فانكفا سرعا الى أبه
وأخبره بالفصحة . فحق فيروز حين الزوج المعلوم في سرفه ،
المهان في كرامته ، وقيل انه قال في مرارة ، ألم تكف هذه الكلاب
القدره أبها بعرض علينا رقتها الظالم ، وتهب أملاكنا بما ستزده منا

بوما بعد يوم حتى تسهين بالنفـالـد الأسـريـه ، ونفـطـع الروابط
الزوجيه ٩ ٠٠٠٠ والله لأضعى - ان، عسب - نهايه لهذا العجور .
ولأحارسهم بعون الرب الجزاء الأوفى الذى هم أهل له « .

قال فرور هذه الكلمات وقد كم حوارحه على ما يحسه من
شعور بالاهانة التى لحقت به ، ثم أرسل الى بوهيموند - كما جرب
العادة - ولده الذى بشاركه أسرارته ، والذى كان هذا الانم الذى
نزل بأمه فد اسورى غضبه ، وأضرم غيظه ، وأمره أبوه - اد
بعه الى القائد بيهمود - أن يطلب اله أن يسعد لكل سىء
يستلزمه العمل الذى بين أيديهم اسعدادا دفقا ، وان يخبره أنه
لن يقصر فى سىء من جانبه ، بلى انه موف بما عاهده به ، وموعدهما
اللما التالية .

كما أشار عليه أن يفاد الزعماء جميعا المعسكر
ووراء كل منهم أتباعه ، وأن نكون مغادرتهم المعسكر قرب الساعة
الساغة ، حتى لحسبهم الرائي وكأنهم قاصدون الزحف على
عدوهم . فاذا قرب موعد الحراسة الليلية الأولى عادوا سرا وفى
سكون مطبق ، ونهاؤا قرب منتصف الليل للعمل حسب تعليماته ،
فاستصحب بوهيموند هذا الشاب فى السر الى القواد العالمن
ببخبر المؤامرة ، وذكر لهم كل تفاصيل ما رتب حسبما اتفق عليه
مع فيروز بمساعدة ولده ، فتملك العجب نفوسهم جميعا من خطة
الرجل وصادق اخلاصه ، وأقروا ما رسمه ، واتفقوا على تنفيذه
حسبما رتب .

عبر أنه كبيرا ما يجد حذب من الاحداث لم يكن متوفعا فمعصر
مساريع لها مثل هذه الخطوره ، اد ساورت الربيه - الى يعورها
البريهان - نفوس مواطني أنطاكية لاسبما من يقع على أكفاهم
المستولية المباهرة عن آمن المدينة . واحبك الشك في نفوسهم اكبر
من اليقين بأن هناك مفاوضات تجري في الجفاء دمرى الى تسليم
أنطاكية ، وما لبث هذا الشك أن أصبح موضوعا عاما بلوكة جميع
الألسنة . مما دفع كبار المواطنين للاجتماع . وساروا الى الوالى
للتشاور معه فى حبر هذا الحالج الذى يصطرب به نفوسهم ، والذى
بدى محتملا كل الاحتمال ، ويقوم الدلائل الكبره على ترجحه .

وكان بأنطاكية - كما قلنا - رجيل كبير من المسيحيين نحوم
حولهم الريب رغم براءتهم براءة نامة من هذه المؤامرة ، وكان من
بسهم ذلك الرجل النبيل الذى نتحدث عنه الآن ، والذى رغم اعتماده
ياعى سبان على احلاصه الصادق اعتمادا كبيرا ، الا أن الرجال
الباررين الآخرين كانوا يربابون فيه أكبر من عمره ريبة لم يجعله
موضع ثقهم .

لذلك عقد اجتماع منير بشأن هذا الموضوع فى حصره ياعى
سبان ، تردد فى أثنائه اسم « فيروز » مع أسماء بصعه أفراد آخرين
كانوا مسار التشكك ، وكان هناك على ما يبدو كثير من الأسباب
التي تحمل على عدم تصديق ما انهم به ، لأنه كان رجلا جم النشاط
وصاحب نفوذ فى المدينة يفوق نفوذ سواء من المسحجين . وأخيرا
رضح ياعى سبان لالحاح مستشاريه فأمر باحضار فيروز ، فأحصروه .
ويعمد الموجودون اثاره نفس الموضوع فى وجوده ليسمعوا ماذا يكون
قوله ، لكونوا فادرين على أن يقرروا - بناء على ما يقوله - اذا كان
ما يثار حوله من شك حقيقة أو منيا .

ولكن فرور كان رجلا شديد الذكاء حاضر البديهة فأدرك في لحظته ان هذا الاجتماع انما عقد من أجله هو وحده ، وانه هو ذاته موضع الاتهام ، ولذلك أخذ يراوغهم في اخفاء سره ، واطهار براءته أمامهم ، ويقال انه رد على أولئك الذين اجتمعوا لنقصي أمره بقوله « ان شكككم أيها الرجال المحترمون ، وأنتم كبار رجال هدد المدينة وسراتها ، لأمر يستحق أعظم النناء ، ولا يوفر مثله الا عند دوى العطف ، لأنه من الحكمة الحدس بما يمكن وقوعه ، كما ان شدة الخذر في الأمر الجليل ليس بضاره ، لذلك يجبل الى انكم قد صدرتم عن وافع ليس بالبافه في أمر يتعلق بحياتكم وحريةكم ونسائكم وأبنائكم ، ومع ذلك فان قبلتم نصحتي فان هناك طريقه عادله عاجلة تؤدي الى العلاج الساجع والشفاء الفعال لهذا البلاء الذي يهددكم ، فالخيانة الملعونة التي يبيعكم بعد نظركم على الخوف منها لا يفتد لها النجاح الا بواسطة الموكول اليهم حراسة الأبراج والأسوار والعمامين على حفظ الأبواب ، فان ظلم ظن السوء بولاء هؤلاء الناس فاعمدوا الى مداومة اسئدالهم بغيرهم ، حتى لا يطل الواحد منهم أمدا طويلا في مكان واحد ، يمكنه من أن يوثق مع العدو وسائج صداقه مدمرة ، لأنه ليس من السهل اعداد مؤامره من هذا القسل في سرعه ، بل يحتاج في الواقع الى زمن طويل ، كما أنه لا ييسى لشخص ما بمفرده أن ينجز عملا خطرا كهذا العمل الذي لا بد ان يساهم فيه معه مواطنون يسعلون ماصب رفيعة قد أفسدتهم الرشوه حتى صاروا شركاء في الجريمة ، لكن اذا عمدتم الى القيام بتغذرات فجائية لهؤلاء الناس على غير توقع منهم لها تكونون قد قضينم على كل فرصة لمفاوضات مهلكة من هذا انفسل » ، ثم أمسك فيروز عن الكلام عندما بلغ هذا الحد من القول . وكان ملاحظاته وفعها الطيب في نفوس الذين سمعوها فاستصوبوها ، واتضح لهم انه قدم الدليل القاطع والبرهان الجلي على براءته ، وأنه قضى الى حد بعد على ما خامرهم من السك في أمره .

وكان من الممكن ان يبادروا فى لحظتهم هذه بسعيد ما أوصى به ، لولا أن النهار كان موشكا على الابصار ، واللبل موشكك على الدخول ، مما يسحيل معه القيام - فى ساعه متأخرة كهذه الساعة - بإجراء مثل هذا التعيير الرئيسى فى حراسة المدينه ، لكن الذى استطاعوا عمله هو اصدارهم الأوامر بشديد الحراسه . شددوا صارما لحماية البلد ، غير أنهم كانوا جميعا فى جهل بما دبره ذلك الرجل من تدابير فى الحفاء ، واذ كان على بيته من أن الموقف سيبديل حالا ببدلا كبيرا ، فقد بذل عايه حينه فى السر فدما بمؤامرنه . وفى عجلة قبل وقوع أى شىء بحول دون تنفيذه .

- ١٩ -

ما كاد حسنا يعف أمام أسوار مدينه أبطاكة ، ويعرض عليها الحصار ، حتى ساور الشك الأهالى فى الاعريق والسرطان والأرمن وغيرهم من معنقى المسيحية ، دون النظر الى الجنس الذى يتمون اليه ، ومن ثم أخرجوا منها جميع المعزة . ومن لا يملكون المواد الضرورية لاعالة أنفسهم وأسرهم الصغيرة ، وقد فعل الأهالى ذلك حتى لا يكون هؤلاء عبئا بنقل كاهل المدسه الى لم يؤذن للبقاء فيها الا الأبرياء ، ومن اصلات محاربتهم بالثونة ووسائل العيش الكبيرة التى توفر الحياة لهم ولذويهم ، وان كان هؤلاء لم سلموا من ارغامهم على أداء خدمات كبيرة فرضت عليهم فرضا . الى جانب ما يكلفون به من أعمال جرت العاده على بكليفتهم بها . وكان ذلك سيئا ثقلا بدا معه أن المنفى الذبن أخرجوا من المدينه كانوا أسعد طالعا ممن أذن لهم بالبقاء فيها ، فقد ضوعف عليهم الغرامات المقدية التى أخذت منهم اغتصابا حتى لم يبق فى أيديهم

من المال سوى النزر اليسير الذى لم يسلم هو أيضا من استعمال السدة فى ابتزازه منهم .

ولم يكثر أولو الأمر باحتياجات هؤلاء ، اذ فرصوا عليهم العظام بارذل الأعمال واشقها فى المدينة ، فاذا أريد تشييد الآلات ، أو نقل خدوع الشجر الضخمة البهيلة ، كلفوهم بذلك فى لحظهم ، كما أجبروا البعض منهم على حمل الحجارة والأسمنت وكل مواد البناء ، وألزموا سواهم بجلب الأحجار الكبيرة التى اعتادوا دائما وضعها وراء الأسوار بالآلات وربطها بالحبال التى سد بها ، وما كان لهؤلاء الناس الا الامسال وطاعة رؤساء الفعلة الذين ام يكونوا يسمحون لهم بقسط من الراحة ، ثم بلغت هذه الشدة الفظيعة ذروتها حين عقد مضطهدوهم اجتماعا سرىا قبل ثمانية أيام من الجلسة التى استدعوا اليها فيروز المشكوك فى ولائه وفرروا من هذا الاجتماع الفتك سرا - وتحت جبح الظلام - بجمع المسيحيين الذين يعيشون فى أنطاكية . على أنه كان بالمدينة زعيم عاقل قوى النفوذ ، لا يكف عن اظهار صداقته للمسيحيين فى كل الأحوال ، فسعى سعيًا حثيثًا حتى يمكن - بعد لئى ورغم معارضة الآخرين له - من أن يؤجل تنفيذ القرار العاصى بقتلهم مدة ثمانية أيام ، ولولا منحهم هذه المهلة لكان من المؤكد ارسال الجلادين لتنفيذ هذا الحكم الفظ ، ولهلك المسيحيون عن بكرة أبيهم بالسيف فى تلك الليلة ذاتها .

كان الغرض من السماح بهذه الأيام الثمانية أن يثبت عندهم باليقين الجازم عما اذا كان فى الامكان رفع الحصار عن المدينة ، فان تأكد لديهم عزم رجالنا على الاستمرار فى الحصار فتكروا بالمسيحيين ذبحا ، أما ان ثبت عكس ذلك مواء بالحياة على الأهالي الذين سبقوا أن قضوا عليهم بالموت .

فلما انتهت فتره تأجل الحكم ، وحانت الليلة الأخيرة منه
صدر الأمر سرا بجمع ما فصولا به ، وكانت المدينة على وشك أن
سم في نفس الليلة التي حدها زعماءنا لتنفيذ الحطة التي رماها
بوهيموند وفيروز منذ أمد طويل . والتي سمع بعون الرب . اذلك
فعى اللحظة التي شرع الصليبيون فيها في احلال المدينة لم يشعر
كبارها بالحدف من الصحة التي سمعوها ، فقد ذهب بهم الطل
الى أن ما سمعوه لا يعدو أن يكون السروع في بطس الأوامر التي
فصولا سمعها في مواطنهم البصاري .

لذلك فانه حين سم لرجالنا الاسلاء على المدينة بلك الطريقة ،
عترفوا في دور بصارها على كبر من حصوم ملهم الذين كانوا
حاهوا مأمورين بالفتك بالمؤمنين الصادقين .

- ٢٠ -

ولما كانت الساعة الباسعة سمع صوب المادى ينادى في تنى
أرجاء المعسكر بخروج جميع كئاب الفرسان في كامل عديهم وراء
فوادهم ، وألا يوانوا عن تنفيذ الأوامر التي سوف تلقى الهم . ولم
تكن العامة هي وحدها التي بجهل جهلا ناما بما دب في الخفاء ،
اذ الواقع أنه لم يكن يعرف السر سوى ثلة ضئيلة من كبار الرعاء .

ومن ثم فانه تمعا لبربيبات فيروز الحكيمه ، عاارب كئاب
الفرسان بأجمعها المعسكر ، ومنست كل كتيبة منها وراء علم قائدها
وساروا حتى ليطنهم الناظر الهم أنهم ماضون لجهة بعيدة . لكن

الحقيقة هى أنهم كانوا يسطرون أن يسدل الليل سدوله على الكون
ويظلم الدنيا فيعودون الى المعسكر فى صمت تام .

★★★

كان لغيرور - رجل الرب هذا - الذى أدى للمسيحيين هذه
الخدمة الجلى الجليلة - أقول كان له أح يخلف عنه كل الاخلاف ،
سواء فى مساعره أو عرضه . ومن ثم لم يكن فرور يسو فى اخلاص
هذا الأخ ولذلك لم يفض اليه بالسر لعدم ائمانه عنه . بل انه
بدل عنه جهده لاحياء حططه عنه اخفاء داما .

وحدث فى الساعة التاسعة من نفس ذلك اليوم ، وقد أحدث
كنايسا فى معادره المعسكر أن وقف الشهبان معا على احدى شرفات
البرج . يطلان على المعسكر ، فشاهدوا الجند يغادرونه .

وأراد الأخ الاكبر أن يسبر عور آخيه ، ويعرف ما يدور فى
باله ، فحاطبه فائلا . -

« لكم أربى دا آخى لهذا السعب الذى بدين بنفس العفيدة
الى بدين بها أنا وأنت ، وكم تحزنى الميه الى سوف يلهاها
عاجلا . فها هم عسكره يغادرون مخيمانهم فى نقة وسكبة ،
لا يخافون سنا كان أوصاعهم آمه ، لكنهم لو عرفوا ما نصب لهم
من السراك وما يسطرهم من الدمار السامل ، فلربما اتخذوا اجراءات
أخرى تضمن لهم السلامة » .

فأجابه أخوه : « انه لحقى منك أن تحمّل نفسك هما لا مبرر له ،
فانه لا محل لعطفك عليهم ، الا لبتهم جميعا هلكوا بسوف الدرك
منذ أول يوم مست أقدام الترك هذه الأرض اذن لما

ازدادت أحوالنا سوءاً ، وما كان من المستطاع أن تكافأ الفوائد التي
نحنها من جهودهم مع المساوئ التي يحملناها بسببهم » .



لم يكن فيروز حتى هذه اللحظة قد فرر ما اذا كان يفشى
بهذه الى أخيه أم يكنه عنه ، غير أنه لما سمع هذه الكلمات التي
فاه بها شقيقه ، فزع فرغ الشخص من الطاعون ، وراح يلعه في
سره . ويدبر حطة للقضاء عليه حتى لا تقف أعماله عمة في طريق
طاعة المسيح ، وهكذا وضع فيروز سلامة المسيحيين فوق عاطفة
الاخوة .

- ٢١ -

في هذه الأثناء راح بوهيموند يذل عايه وسعه لاحتاج
مشروعه ، وبلوغ غايته التي يسعى اليها سعياً حثيثاً ، وكذلك خوفه
من أن يؤخرها أى تراخ من جانبه . . . أقول دفعه ذلك الى زيارة
الزعماء : فردا فردا ، راجيا منهم أن يكونوا متاهبين للعمل .

وكان يحمل في يده سلماً مجدولاً على أحسن ما تكون الصنعة
من حبال القنب ليعلقه بأعلى جدران السور ، وليثبتته من أدناه
بكلايب حديدية .

وما كاد الليل يؤذن بالانصاف حتى كان جميع سكان المدينة
قد هجعوا للراحة وعطوا في سبات عميق بسبب سهرهم المستمر ،

ومواصلتهم العمل ، وحيداك بعث بوهميوند الى فيروز بواحد من
أصدقائه من خاصة حاشيته وأخلص الناس اليه ، وعهد الى هذا
المرجع أن يسئوثق من فيروز تمام الاسيياى عما اذا كان الوقت
ملائما لينعدم رفاق مولاه .

فلما وصل الرسول الى فيروز وجده يطل من كوه صغيره فى
السور . يرقب منها ما بجرى وراءه ، فأقصى اليه فى صوب حافت
برسالة سنده ، فقال له فيروز احلس مكانك ساكنا ، ولد
بالصمت حتى يمر من هنا كبير الحراس الذى هو فى جولانه المعناد،
وفى صحننه طائفة كبيرة من أساعه ، وفى أيديهم المشاعل المضيئة .

ذلك أن نقاليد المدينة حرب - بالاصافة الى الحرس الموجودين
فى كل برج - أن يدور كبر الحراس كل ليلة ثلاث مرات أو أربعا
بالسور ، ويدور معه فى كل دورة نلة كبيرة من العسس يحملون
المشاعل المضيئة ، فان صادف أحدا فد عليه النوم ، أو مراخيا فى
أداء واجبه ، أنزل به القصاص الجدير به .

وسرعان ما وصل الصابط المكلف بهذه المهمة . فألقى فيروز
براقب الأمور ويؤدى واجبه بمأم الأداء ، فأثنى على نشاطه ، وانصرف
مطمئنا البال هادىء الخاطر .

حينذاك رأى فيروز أن قد حلب اللحظة الملائمة للعمل ، فجاء
الى رسول بوهميوند الذى كان مواريا حتى الآن حتى لا يراه أحد
وقال له : « ها محل بالذهاب الى مولاك واطلب اليه الحضور برحاله
المخارين على جناح السرعة » ، فأنكفأ الرسول عجلان الى سنده ،
فوجده على أتم أهبة ، فاستدعى بوهميوند اليه القادة الآخرين سرا ،
فاستجابوا له سراعا ، ثم انطلق كل واحد منهم بمن ينبعه
من رحاله حسبما اتفقوا عليه ، وما انقضت لحظات قلائل حتى

كانوا جميعا واقعين اسفل البرج وفعه رجل واحد ، دون أن يسمع
أحد لقدومهم صوبا ، أو يحدبوا جللة .



فى خلال تلك العره القصيره كان فيروز قد دخل البرج ،
فوجد أحاه يغط مى نومه ، ولما كان قد نأكد لديه حقيقه مشاعره
وانها ضد المشروع الذى دبره واسعد لتنفيذه ، وقد خشى أن يقوم
شقيقه هذا بما من شأنه عرفلة بحقيقه ، بعد أن أوسك على
احراحه ، ومن ثم طعنه بسيغه طعنه نافذه ، فكانت ضربه طيبة
ودنيئة فى الوقت ذاته . ثم عاد فأطل من الكوة الموحودة بالأسوار ،
فطالع بحها حلقاه ، فحبا كل منهما الآخر رجبة فيها الرخاء سلامه
كل حانب ، ثم دلى فيروز حبلا حذب به السلم من أسفل السور .

لكن على الرغم مم رفع السلم وتسيهه تببببا محكما من ناحيسى
العمه والقاع الا أن الجراه لم نوات أحدا على سلقه ، ولم يوجد
من يخاطر بحياته فيسلقه . نزولا على أمر رئيسه ، أو حسى
انصاعا لأمر بوهيموند نفسه الذى لم يكده يبين ذلك الاحجام منهم
حنى بادر وأقدم هو ذاته على ارتقاء السلم غير هباب ولا وجل .
فلما بلغ القمة وعلق بحدار الشرفه امندب يد فيروز من الداخل
وأمسكت باليد المعلقة بالسور ، فلما عرف فيروز فيها يد بوهيموند
نفسه ، قيل انه هتف « عشتَ يدا ، وسلمت » .

وأراد فيروز أن يرفع قدره فى نظر بوهيموند وفى عون
المسيحيين الآخرين حين يعلمون بما حرى من اغياله شقيقه الذى
لن يقبل مشاركته فى عمل مقدس كهذا العمل ، فأخذ بيد
بوهيموند القائد ، وسار به داخل البرج ، وأراه جة أخيه
الهامة غارقة فى دمها ، فما كان من بوهيموند الا أن احتضن

هذا الرجل الصادق في اخلاصه ، والنايب على عهده ، وقد فاض قلبه بالحب ، ثم عاد الى الشرفة مطلا برأسه قليلا من خلال احدى الفتحات ، ونادى برجاله في صوت هامس آمرا اياهم بالصعود ، لكنهم كانوا مترددين اد لم يجرؤ أحدهم على تلبية أمره ، لأنهم كانوا لا يزالون في شك فيما سمعوه من الشرفة ، فلما أدرك بوهيموند ذلك الأمر من أصحابه نزل اليهم عن طريق السلم ، فكان ذلك برهانا لا ريب فيه على سلامه ، وسرعان ما أخذ كل واحد منهم يزاحم رفيقه ويدافعه بغية الوصول الى السور ، حتى اذا تكامل جمعهم لم يستولوا على ذلك البرج وحده ، بل وفعت في أيديهم أيضا أبراج كثيرة غيره على كلا جانبيه ، ولقد سمعنا أنه كان من بين الذين تسلقوا السور ، كوث فلاندرز ولورد تانكريد .
اصفى غيرهما أثرهما .

- ٢٢ -

لما رأى الزعماء الآخرون وصول الرجال الأنداء الى سرفاب الأسوار في أعداد كبيرة مما أدى الى فتح أكثر من بوابة لهم ، عادوا سراعا الى المعسكر ليستعد أتباعهم لتلبية الإشارة باقحام المدينة حين يرسلها لهم رفاقهم الموحودون بها ، وأحس الذين تسلقوا الأسوار كأنما سرت فيهم حماسة علوية ، فقادهم فيروز بنفسه الى داخل المدينة ، فاستولوا على عشرة أبراج في ضواحيها ، بعد أن فكوا بحراسها ، وقد سم ذلك كله والمدينة يلفها السكون المطبق ، فلم يسمع أحد لهم صوتا .

كان فى ناحيه السور الذى صعد منه الصليبون باب سرى
فترلوا اليه ، وخطبوا قصائده ، وفصوا آفقاله ، وفسحروه وأدحلوا
من خلاله العسكر المسطر فى الخارج ، وأرداد عدد المياحمس خلف
الأسوار زياده صخمه ، وأندفع هؤلاء وهؤلاء جمعا الى المكان المعروف
بباب الحسر ، وأعملوا الذبح فى الحراس فى هجوم سرس عليهم .
ففتحوا هذا المدخل أيضا .

فى هذه الأناء حمل بعض ألباع يوهيمويد رايه الى بل
مسرف على المدينة ، وركروها فى مكان بارز للعدا على مرفع قرب
القلعة العليا .

ثم بالآلات السماء مؤدبه بطلوع الشمس . فسبح فى الأبواق
لنكون اشارة لرجالنا الدين أحدثوا ضجة صاحبة عند مدخل المدينة
ولسحملوا الجند الذين لا زالوا فى المعسكر على التحرك ، فلما فهم
الزعماء معنى هذه الاشارة - النى كان ميققا عليها من قبل - هدر
الى سوفهم وأسرعوا يأخذون فرهم كلها ، وانظلموا على عجل الى
المدينة ، واستولوا على منافذها وأبوابها .

وحيداك تحرك العامة [اللادين] الذين ظلوا حى هذه الساءه
على جهل بما دبر من خطط فى الخفاء ، فلما أدركوا أن المعسكر
تسبه خال قد غادره جل من كانوا فيه انطلقوا هم أيضا فى أعقاب
الآخرين وشقوا طريقهم - وقد تملكتهم الحماسة - الى داخل المدينة
الى اسسقط أهلها على الضحة العالة ، ولم يستطيعوا أن يبينوا
نادى دى بدء حبة هذا الصاح العالى الذى لم يألوه من قبل .
لكهم طالعوا مطر العرسان العريب وهم فى دروعهم وزرديانهم
سدافعون خلال المدينة ، كما شاهدوا آثار الدمار فى كل ركن وناحية
فى السوارع والمادين ، حينذاك أدركوا حقيقة الأمر ، ففروا من
بيوتهم وهاموا على وحوهم ، محاولين الهرب بسائهم وأبنائهم .

وابطلعوا على عبر هدى قد ضل صوابهم ، فى محاولات مجنونه
للخلاص من عصابات الجند المسلحين ، بحثا عن مكان آمن يلوذون
به ، فاندفعوا وهم لا يدرون أس بمضون ووقعوا فى طريق المحاربين
الآخريين .

أما من كان يسكن المدينه من المسيحيين والسريان والأرمن
ومؤمنى الشعوب الأخرى فقد جاورت فرحهم كل فرحة لما جرى ،
وبادروا الى امتشاق السلاح وانصموا الى الجيش ، واذ كانوا على
دراية نامة بكل ركن فى المدينه فقد كانوا نعم المرشدين لغيرهم عبر
مسالك البلد المتشابكة المعوجة ، وكانوا اذا وجدوا بوابة لازالت
مغلقة ونسوا على حراسها وفنكوا بهم ، وشقوا الطريق بكسر الأقفال ،
ثم أدخلوا رفاقهم ، وخيل اليهم أن هذا السغير المدهش قد جاء
من الرب .



أما أولئك الذين كانوا يفاسون سدة نير الرق من تلك الكلاب
النجسة ، والذين كابدوا وطأة ثقل الخدمات والبغذيب دون أن
يرحمهم أحد فقد أصبحوا قادرين على أن يصبوا على أعدائهم مثل
الذى صبوه عليهم من الأهوال ويعملوا على تدميرهم .

فى هذه الأثناء تمكن جيشنا كله من دخول المدينه بعد أن
اسبولى على أبوابها وأبراجها وأسوارها من غير مشقة ولا كلفة ،
وأخذت رايات الزعماء ورنوكهم المعروفة للججمع بحقق من أعلى
الأماكى رمزا للنصر الذى أحرزوه . فانى ألنفت قسم مذبحه وآلام
مبرحة وعمويل نساء ، وأرباب بيوت يجرى عليهم القتل هم وأهلهم ،
وراح الصليبيون يشقون طريقهم الى البيوت ، محطمين كل الأدوات
المنزلة ، وصارب جمع حاحات العدو بها مسنحا لأول من
يسعه حظه أن يصل إليها ، وحاس المسكرون حنما شاءوا .

فاصحموه الاهاكن الى كان دحوليم اليها محرما عليهم . وطلعى عليهم
حنون العسل والنهب فلم يراعوا ذكرا ولا أنسى . ولم يوفروا كبرا
لسنه ثم راحوا يستفسرون من كل عابر لسوارع المدينة ومنايينها
أين يكون يموت سراة الأهالى وأس يسكن أثرهم . وكونوا من بسيم
المحاذع . وتعمل السيوف فى الأمهات وأطفال البلاء . ثم راحوا
يتقاسمون فيما بينهم ما بالبيوت من أثاث وذهب وفصة وثياب
غالية .

ويقال انه قتل ذبحا فى هذا اليوم ما ربو على عشرة آلاف
من الأهالى . واكسظت الشوارع فى كل مكان بحف القلى الى لم
تجد أحدا يوارىها ، فبقيت حب هي .

- ٢٣ -

حين رأى عاى سنان أن المدينة قد استسلمت لحصمه الذى
تملك جميع أبراجها وحصونها ، وحين شاهد اللاحين من الهلاك
يريدون الى الفلعة على عجل . بدأ الخوف يسرب الى نفسه من أن
ينعمه المسيحيون الى حب هو وافف . ويحدفوا به هو أيضا .
فاندفع - كأنما قد أصابه مس من الحن - نحو بوابة حلقه .
وهرب وحده من غير رفيق ، ولم يكن يعنه سوى الانقاء على
مهجنه . وببما كان يخطبها وهناك فى حرع قابل ويهم على
وجهه من غير هدف واضح اذا بطائفة من الأرمن يصادفونه فعرفوه
فى لحظتهم ، فاقربوا منه حتى لكأنهم يهمون بعطسه ، فأذن لهم
بالدنو منه وهو جزع ، فلما بينوه وحده عرفوا أنه هارب ، وأدركوا

فى ساعهم أن المدييه فد سفتب ووبوا عليه وطرحوه أرضا فى غلظة ، وأخذوا سيفه وقطعوا به رأسه وحملوها الى المدينة ، ودموها هديه الى العاده وعلى مرأى من الناس جميعا .

وجدوا أيضا بمدية أنطاكية جماعة من الأشراف كادوا فد وفدوا اليها من أماكن قاصبة لنجدتها ولاظهار جرأهم ، فلما بببوا سفوطها فى أيدي المسيحين أجمعوا العزم على الاربداد الى القلعه العليا دون معرفتهم بالذاحيه ، واسمبب بهم الذعر والخوف على أنفسهم فانطلقوا هائمس على وحوهم ، لائذين بأذيال الفرار ، لكنهم وحدوا أنفسهم وفد آحدى بهم فى مكان سدند الصبى أعجزهم النزول فه لئند انحدار الل تحتهم ، و لايسطيعون الصعود الى أعلى لتكاثر رجالنا عليهم هناك ، وبينما هم يلمسون فى يأس أى سبيل للنجاه اذا بلانمائه واحد منهم على جباههم يسقطون من أعلى الد ومعه رنوكهم الى تمبر الواحد منهم عن الآخر ، فدقت أعناقهم ، وبهشمت عظامهم ، حتى لم يكذببقى منهم شئ يدل عليهم .

أما الذين يسكنون المدينة وما حاورها ويلمون بدروبها وشعابها فكانوا أسعد حظا من هؤلاء ، اذ ما كادوا يعلمون بخبر سفوط أنطاكية حتى نجمعوا وانطلقوا مع الفجر الوليد هاربين الى التلال من خلال أبواب أنطاكية النى بدأت تغلق من جديد . لكن فواتنا تعقبتهم ، فردت البعض منهم ، وأمسكت بهم وقيدتهم بالسلاسل ، أما من أسعفهم حسادهم بالوصول الى التلال فقد اجدوا من الاجراءات ما حفظ عليهم حياتهم ، وضمن لهم السلامة .

واذ بلغت الساعة الخامسة عادت قواتنا المطاردة ، فلما نجع كل من كانوا فد انشروا فى المدييه أجرى استقصاء دفنى دل على أنه لم بعد بها شئ من المثوبة ، ولم يكن ذلك بالأمر المسنغرب لأن الحصار ظل مسمرا بغير انقطاع ما بمر من سبعة شهور متتاليه .

علما أنه وجدت كميات ضخمة من الذهب والعصه الحراهر
والأواني النمنبة والسط والأقمشه الحراره فاسدولى عنيا الناس ،
وفاضب بها أبدى من كانوا حتى الآن حاسا مسولن فاثروا فحاه
وصارت لدهم وفره من كل شىء •

على أنه لم يوجد فى كافه ارجاء المديه أكبر من جسمائه
حصان من جيااد الحرب ، ولكنها كات حمولا ضامره عزياه نكاد
بموت جوعا •

وكان الاسيلاء على مديه أنطاكنه فى اليوم الثالث من شهر
يونيو من سنة ١٠٩٨ من ميلاد المسيح •

هنا ينتهى الكتاب الخامس

★★★

هنا يبدأ الكتاب السادس

محاصرة الصليبيين : النصر المعجزة

فصول الكتاب السادس :

١ - وصف الجبل المشرف على المدينة والذي لا يزال
بعضه في يد العدو الذي أقام حراسا هناك ،
وارسال رسل الى الساحل الشامى وبحصن
المدينة نحصننا فويا .

٢ - مقدمة من حش كربوعا فوامها ثلاثمائة رجل
حظر أمام المدينة ويحرج لقالها روجردى بار
نفيل غر أنه يلقي مصرعه مدبوحا .

٣ - الأمير الكبير يتقدم الى الأمام ويصرب معدة على

المرفعات المسرفة على الفلعه ، والتغلب على الدوق
عند الباب الشرقي وهلاك مائتين من رجالنا .

٤ - الصليبيون يحرقون خندقا داخل المدينة يمتد
على طول سفح النل ، وهناك تنسب معركة بدور
الدائرة فيها على العدو الذى ينزل قائده من الجبل
ويحاصر القسم الأسفل من المدينة .

٥ - الصليبيون بأبطاكه يكابدون مرارة الجوع
فيسلّل بعض السبلاء خلسة ، وتوضع القيادة
العليا في يد بوهيموند .

٦ - كوب فلاندرز يصرم النار من نلقاء داته في
الحصن المواجه لباب الجسر حين يجد نفسه
عاجزا عن استخلاصه ثم يفادره ، كما أنّ القائد
العام لقوات العدو يبعث الى فارس رهطا من
أسراه الصليبيين .

٧ - اضطراب الشعب لآكل الطعام القذر - وانه كان
على مضض - أمام استنفحال المجاعة .

٨ - العدو يكاد أن يستولى خلسة على أحد الأبراج ،
لكن هنرى دسّ نفاومه مفاومة بأسلة وينجح
بعد قتله لكثير من الأتراك - فى الاستحواذ على
البرج بقوة السلاح .

٩ - العدو ينزل الى الساحل ويحرق المراكب ويقتل
الكثيرين من رجالنا على طول الطريق .

١٠ - سنيين كوت سارنر يرور امبراطور
القسطنطينية .

١١ - حديث سيفن الكاذب الى الامبراطور مما يعود
بأوخم العواقب على الصليبيين .

١٢ - الامبراطور يعود الى بلاده ثمه منه في كلام الكوت
ثقة حملته على وقف الحملة التي كان قد أعدها
لمساعدتها .

١٣ - أنباء اسحاب الامبراطور سجع العدو على
كثيف صعطة على الصليبيين الذين يحملهم اليأس
على رفض القيام بواجبهم ، فيضرم بوهيموند النار
في المدينة ليحملهم على الخروج من مخائهم
ويدبر الزعماء خطة للهرب ، ولكن الدوق يفسد
عليهم خططهم .

١٤ - الرؤيا التي رآها سحس اسمه بطرس [بارليميو]
والكشف عن حرية المسيح وعودة السكينة الى
نفوس الناس من حديد .

١٥ - الزعماء يجمعون الرأي على بعث بطرس الناسك
رسولا من قبلهم الى العدو فمضى ويؤدي
السفارة بشجاعة .

١٦ - بطرس الناسك يعود الى الزعماء ويصطل هم
الحبر عن وجهة نظر العدو المعجرفة ، فتعلن
الحرب .

١٧ - الصليبيون يعادرون أنطاكيه بعد اعداد صفوفهم للقتال ويتركون كونت تولوز لحراسة المدينة .

١٨ - كربوعا يسعد المسح الصليبيين من معادرة المدينة ، ولكن رجالا يسفون لهم طريقا بالقوة .

١٩ - بينما الصليبيون يعدمون أخذت السماء تساقط عليهم الندى فنزلت السكينة عليهم جميعا .

٢٠ - كربوعا يربب عسكره للحرب ويشمب القتال في الأحباء المجاوره ، كما يسس فلج أرسلان الهجوم على الصليبيين الموجودين في المؤخرة ويكتف الصغط على صفوف بلدوين فيسرع الزعماء الآخرون لسجده وبعلبون الترك الذين يضرمون النار لكويس سائر دخاني .

٢١ - فائد قوات العدو يمر ويهلك عسكره ، أما الذين فدرت لهم النجاه فيلودون بأذيال القرار .

٢٢ - بعد أن يفرع رجالا من فكهم في العدو يعودون الى المعسكر محملين بكميات وفيرة من الأسلاب .

٢٣ - الهدوء والنظام يعودان الى أنطاكية ، ويأخذ الصليبيون في نظيف الكنائس وترميمها ، ويعود رجال الدين للاشراف عليها .

هنا يبدأ
الكتاب السادس
محاصرة الصليبيين : النصر المعجزه

- ٩ -

هدأت الجلبه أخيرا ، واستعادت المدينه هدوءها ، وكلت سبوف
العاليين التي اربوب بالدماء من المداخل التي لا نهايه لها . واذ ذاك
الغى الرعاء للساور فيما بينهم . ادراكا منهم أنه لارال هناك
عمل كبير أمامهم حتى يكمل الفتح . لذلك أقاموا حراسا على الابواب
والأسوار وعزموا على ارفعاء الجبل ومهاجمه القلعة ، وبعثوا المادى
يأمر جميع القتالى العسكريه بصعود التل المسار الته . فلما صاروا
على المرتفعات اصبح لهم صعوبه اصطحاب القلعه بسبب حصانها ،
وانه لا سبيل الى الاسسلاء عليها الا ان احاعوها . واذ كان هذا
الأمر سطلت اناما طولته فقد أدرك الرعاء صباع كل ما سدلونه
من الجهود . وأنه لابد لهم من سلوك سبل أخرى غير هذه .

كان الجبل المتشرف على المدينه يسعه من وسطه واد عميق .
له حابيان شديدا الانحدار ، وكان انحداره المواحه للسرو أعمى
المحدريين ولكنه يبسط من اعلاه لسهى الى سهل فسح راحر
ببساتين العنب وبالمراوع . وكانت المسافه بين سفى هذا الوادى
العميق شديده الاسماع حتى لتخلل للناظر أن هناك حبلن وليس
جبل واحد مشطورا الى سطرين .

أما المنحدر المواجه للعرب فكان أعلى من الآخر ، وهو يصرب
بعمته في العلاء حتى تكاد الجوراء ، كما يقوم القلعة على أعلى نقطة
فيه ، وهي محصنة بالأسوار العوية والأبراج الضخمة .

وبعد من السرى الى العرب هو سحيقه العمق مما يستحيل
معها بصور مدى الخطر الذى يتعرض له من يحاول الوصول الى
القلعة من أحد هذين الجانبين .

كما توجد الى العرب بل أقل ارتفاعا ، ويفصل بينه وبين
القلعة واد متوسط الاسماع ، وان كان أمبل الى الضيق ، وبحفه
منحدرات يسيره . ويشقه طريق واحد يخرج من القلعة وينحدر الى
المدينة . وهو طريق يميل فى دانه حطوره حتى ولو لم يكن هناك من
يهاجمها . ورأى فوادنا أن الحكمة تقتضيهم الاستيلاء على هذا الل ،
حتى لا تمنح للعدو فرصة الوصول الى المدينة ان خرج من باب القلعة
لمهاجمة قوائنا . ولذلك تم وضع طائفة من الرجال الشجعان فى ذلك
المكان ، وزودوا بما يلزمهم من الطعام والسلاح . كما تم بناء سور
به مناريس حجرية ، تم نصب فوق هذا كله الآلات وأعدت فى
وضع اسرانهجى لرد العدو على أعقابيه .



ونزل الرؤساء مرة أخرى الى المدينة للتشاور فى أمور أهم مما
سبق لهم التشاور فيها ، وعقدوا العزم على الرجوع حالما يفرغون
من بحثها . وكانوا قد أزمعوا على البقاء جميعا - ما عدا الدوق - فى
هذه الناحية حتى يتم الاسيلاء على القلعة .

كما انفق اجمعهم على أن يقوم جودفروى بحراسته الباب الشرقى
والطابية الواقعة خارج المدينة ، وذلك لما عهده فيه من علو الهمة ،
وكانت هذه الطابية فى أول انساها موكولة الى بوهيموند .

وحاقب الاحبار الى القاده ان كربوعا الرعم الكبير المسار
ربه سابقا سوف يصل قريبا جدا ، اد أنه دخل أرض أنطاكية وبعث
بالألوف المؤلفة من عسكره في البلاد ، وكان حير ما يسمى عمله في
هذا الطرف هو ارسال أحد زعمائنا الى جهة الساحل ، لاستدعاء
الاحوه الدس ذهبوا الى هناك لحب المؤنه اللازمه التي يمكن العور
عليها هناك .

وفي حلال اليومين السابقين لوصول جيش كربوعا الكبير ،
لم يترك الصليبيون سيرا من الارض المحيطة بالبلد الا ذرعوه
وفسوه بميثنا دقيقا ، ثم عادوا بكل ما صادفهم من طعام وعلف
أيا كان مصدره ، وبذلوا جهودا مصنية لتموين المدينه ، كما أن
الاهالي والفلاحين الذين يعيشون في ريف البلاد جاءوا بكل ما استطاعوه
من طعام حين أدركوا استسلام أنطاكية للصليبيين ، بيد أن كل
ما جرى به من شنى الواحي لم يكن شيئا مدكورا ، ان لم يكن
شيئا أبدا يكفى ما تربى على الحصار الطويل الذى استنزف فى
مدى شهوره التسعة المسالية موارد الاقليم بأجمعها ، ولم يحلف
شيئا يمكن الاعتماد به لمساعدة رجالها حتى ولو بضعة أيام .

- ٢ -

فلما كان اليوم السالى للاستيلاء على أنطاكية وبما كان
الصليبيون باذلين غاية الهمه فى حراسه المدينه وزويدها بالمؤنه .
اذا بلائمائة من فارس جيش كربوعا مدججين بالسلاح من فمه

(الحروب الصليبية ج ١) - ٣٦٩

رؤوسهم الى أخمص أقدامهم قد امطوا الجناد الصافيات واحفروا في
 كمين قريب من المدينة ، وكانوا قد جاءوا طليعة لأمر عاجل هو
 القبض على أى جماعه من رجالنا تكون قد عادت موضع حراسها
 خارج الاسوار ثم بعد بها السير دون أن سجد الحيطه لحمايه نفسها ،
 وكان نلابون من هؤلاء البلائمة على حيول سريعه الركض قد أخذوا
 بروحون وبخشون امام المدببه مطهرين بعدم الاكراب بأى خطر
 بداهمهم ، فلما رأهم المسحون الذين وراء الأسوار بخون يده
 الصورة نفجر مرجل غضبهم عليهم ، أو لعلهم أحسوا العار الشديد
 ان هم كفوا عن مهاجمهم ، واد داك نحرك « روجر دى بارنفل » وهو
 من أساع روبر كروب نورماندى ، وكان محاربا بأسلا أبجز كبرا
 من الأعمال الباهره فى هذه الحمله ، وأسرع بامطاء فرسه وخرج
 من الوابه واطلق يبعى مهاجمهم ، واستصحب معه ثله قوامها
 حمسه عشر رجلا من أساعه ، وعزم على أن يبحر - كدابه - عملا
 من أعمال البطوله . وعدا عدوا سريعا مهاجما هؤلاء القوم بسحاعه
 عظيمه ، فبطأهروا بالفرار هربا منه ، وظلوا ممعين فى الراحه
 حتى نلعوا الموضع الذى يحفى فيه رفاقهم الذين برروا من مكهم .
 ورايدت أعدادهم بكنره ، وانضم بعضهم الى بعض فى مهاجمه
 « بارنفل » ورهطه هجوما عسفا لم يجدوا ازاءه بدا من الهرب . وام
 يكن روجر ورجاله فى جمعهم يعادلون العدو فى جمعه وبأسه .
 لذلك حاولوا الرجوع الى المدينه ، غير أنه حال بينهم وبين ما تشدونه
 سرعه عدو حباد الحصم الذى رمى روجر بسهم قاتل أصاب قلبه ،
 فأوقعه من على طهر حواده وأرداه قسلا ، فحزن عليه رفاقه أشد
 الحزن ، لأنه كان قد أخلص النة ، فأحز أهداف الحجاج
 الصليين .

ونجح رفاقه فى الوصول الى المدينه ، أما هو - وهو الرجل
 البارز - فقد حز الأعداء رأسه على مرآى جميع من على الأسوار.

والأبراج العاجرين - واسعاه - عن اسعافه ، ورجع العدو لم يلحظه أدى .

لم يكد [المهاجمون] يعودون من حيث جاءوا حتى خرج الصليبيون يدرعون الدرع السحين على روجر وببكونه ، وحملوا جثمانه الى المدينة في احنفال يلحق به ، ثم أقاموا المراسم الاخيره للميت الراحل في حضره القاده والناس أجمعين ، ووسدوه البرى في احنفال رائع أقسم في ظله كسسه أمير الرسل [القديس بطرس] .

- ٣ -

ما كاد يطلع فجر اليوم التالي ، وهو الثالث بعد اسحلاص المدينة ، ثم ما كاذب الشمس بدر هربنا حتى كان اقوى الامراء الذى أسرنا اليه مرارا قد احتل القطر بأجمعه الى آخر ما يمكن أن يراه عن المطل من القسم الأعلى بالمدينه ، واسطع بجموعه العفيره - التى تربد ربابه أكثر مما يذكره الأحبار - أن يعبر الحسر العلوى ، ويصرب محمه فيما بين البحيره والهـر ، وكان كل منهما يبعد عن الآخر مسافة مبل واحد ، وكانت حملته سعل مساحه كبيرة وعسكره كبيرين جدا حتى ضاق بهم السهل الفسبح الذى يقع فيه أنطاكية ، فنصبت مخيمات أخرى غطت اللال المجاورة .

٣١٩

ولما كان اليوم الثالث من نصبه معسكره أمام أنطاكية نبين له شدة بعده عن المدينة ، فبحث الأمر مع رجاله ، وسن لنيم أنه يريد أن يكون على مقربة ممن يحتلون القلعة ، لسنظيم نحدثه ان

٣٧١

سعت الضرورة الى الجرده ، كما أنه أراد أن يدخل قواه الى أنطاكه عبر البوابة الموحودة أسفل القلعه ، ومن ثم فوض معسكره ، وارضى المرتفعات ، واحدى بكل الجانب الجنوبي الشرقى للمدينه ، محلاً المطقة الواصلة بين البوابين السرفيه والغربيه .

كانت هناك طائيفه أقيمت فى البدايه لحماية القلعه . وهى واقعته على تل مرتفع بعض السىء قرب الباب السرفى ، وقد عهد بهذا المكان أولاً الى رعايه بوهيموند الذى شرع - بعد أن تم الاسيلاء على أنطاكه - فى نصريف الاداره العامه للمدينه ، كما عهد بالطائيفه المسار البها والبوابه الغربيه منها الى الدوق ليعوم بحراسهها . وكان الأعداء قد صربوا أحد معسكراتهم حول هذه الطائيفه ، ودأبوا من هناك على سس هجماتهم الموصوله على من بداخلها ، وسرعان ما ضاق الدوق درعا بعربدهم السى استحال عليه بحملها أكثر من ذلك ، ومن ثم كر عليهم برجاله لاسعاف المدافعين عن الحصص ، الذين كانوا على وسك الاسنسلام . كما راوده الأمل فى أن يتمكن من اللعب على المعسكر المصروب أمام البوابه ، لكنه بينما كان ماضياً لجده رجاله ، اذا بعسكر من الانراك يهاجمونه ، وكانوا أشد منه بأساً وأكثر عدداً ، فادرك عجزه التام عن الصمود أمامهم ، ونجح بعد لئى فى النجاه من سيوفهم ، فانقلب على عقبه مرثداً الى المدينه ، ومضى الترك فى اتره يطاردونه بعزم كبير ، غير أن العوغاء من الحجاج الذين لا يعرفون النظام نكاثروا وراح بعضهم يزاحم بعضاً فى هروبهم البائس ، فسند المدخل وحال كل واحد منهم بين صاحبه وبين الدحول ، مما أدى الى سقوط الكثيرين ، فوطأتهم أقدام الآخرين ، وأنتخب بعضهم جراحهم ، وأسر سسواهم ، وقد قدر عدد القتلى منهم بمائتى فيل هلكوا عن بكره أيهم .

كان الابرار يعدون الدوى الرعيم الاكبر للجبس الصليبي .
وفد أدخلت هزيمته الفرحة فى قلوبهم حتى انهم طمعوا فى القيام
بأعمال أكثر جرأة ، لذلك نزلوا الى المدينة عبر باب القلعة الأعلى ،
سالكن طرفاً حاسمه معروفاً لهنّ تمام المعرفة . وباغوا رجالها
بالهجوم عليهم ، وأدركوهم وليس عندهم حراسه . فمكوا بالكبيرين
منهم صرباً بالسيوف ورمياً بالسهام ، ومع ذلك فانه لما حاول
الصليبيون مطاردتهم ارتدوا سريعاً الى الواحى المربعه . واسولوا
على القلعة هناك ، لأنه كانت لديهم طرق أكثر من تلك الطرق التي
كانت بالسل ، والسى كان رجالها قد اسولوا عليها وأحسوا
بحصيتها .

وتكرر حصول هذا الأمر ، وهلك الكيرون من أهل المدينه من
حراء هذه المناورات المحيرة ، حتى أدب بالزعماء الى اجمعهم الامر
على وجوب ايجاد علاج لهذا الشر المستطير ، فانفقوا برصاء نام على
قيام بوهيموند وكونت تولور بحفر خندق عميق عظم الانساع ،
يكون عند سفح اسل بأسفل المدينه . مما لاند أن يؤدى الى الحد
من عاراب البرك المسالنه فى برولهم من أعلى المدينه ، ولقد ترنّب
على حفر هذا الخندق أن نعم أهل البلد بمقره من الهدوء .

كذلك رأى الصليبيون أن يشبّدوا هناك أيضاً طائيه لرداد
فعالبه هذا العمل فى حماية الأهالى ، وشارك فى بناء هذه الطائبة
جميع القوات مساركة صادقة مخلصه ، كأنما يهبونها من أجل
سلامتهم هم انفسهم . أما البرك - سواء من كان منهم بالقلعه فى
تلك الساحية أو من كان منهم يحاصر المدينه من الخارج - فقد
اسمروا ينزلون من خلال البوابة العليا . عن طريق ممراب سرية ،

واكثروا من هجماتهم على هذا العمل الجديد بعنه بدميره . محدثين
من أحل ذلك سسى الوسائل المباحه لهم .

ثم جاء يوم من الأيام خرجت فيه طائفة من الترك أكبر مما
جرت العاده به كل مرة ، وكروا عبر المسالك المعروفة لهم ، ثم
اندفعوا نحو هذه القلعة الحديثة البناء ، وسرعوا يهاجمون من
بداخلها هجومًا عسفاً ، مما كان لابد أن يؤدي إلى وقوع من كانوا
في تلك الطائفة اسرى في أيدي الترك ، لولا أن هب ليجدهم القادة
الذين كان قد وكل اليهم الدفاع عن نواح أخرى من المدينة إلى جانب
كل دسهم المبعثرين في انطاكية ، وكان هؤلاء القادة هم . بوهيموند ،
وانقرار دى بوبسسه ، ورالف دى موسى ، ورسالد كرينون ،
وبطرس بن حسنا ، والبريكوس ، وايغو .

ولقد كره الدوق وكونت فلاندرز وأمير نورماندى كره صادفه على
بلك الساحية مما أدى إلى فشل محاولات العدو ، وهلاك الكبريين من
الأتراك ذبحاً ، ووقوع بعضهم في الأسر ، أما البقية فقد حملها
فزعتها على الهرب ، لس من الطايفة وحدها ، بل من المدينة كلها .

وانقلب هؤلاء الفارون إلى مولاهم وهم معجبون بسدة بأس
الصلبيين ، وألسهم بسدة سجعهم العجيبة ، كأنما قد تمت
فيهم النبوءة القائلة . « ارجع لكى يصبع رحلك بالدم . ألس كلابك
من الأعداء تصيبهم » ، لأن الجميع - حتى من اضطهدوهم - كانوا
للسان مدح وتناء على هذا السعب المخلص .

أقام كربوعاً أربعة أيام في الجبال كما فلنا ، حتى اذا فقد كل
أمل له فى النجاح ، وأدرك أيضاً أن علف حوله قد نفذ أو كاد
فوض معسكره ، وبرز إلى السهل مرة أخرى بكل جسمه عابراً بهم
النهر من مخاضه عند فاة موجودة هناك ، وعهد إلى فواده بجنده

الدين ربهم على شكل دائره وجعلهم على مسافات متساوية ، ثم راح
يحاصر أنطاكية .

فلما كان البرم التالي انفصل بعض الأبرك عن بقية الجيش ،
وراحوا يحرقون زنايا للرجال ، ويرحلوا عن حيدهم ، واستند
حرأبهم في الهجوم على المدافعين المرحودين على السور حرافة اخضت الى
هلاك بعضهم ، ذلك لأن نائكريند قام بهجوم فجائي عند الباب السرفى
وباغى البرك وهم على هذا الوضع الذى لم يستطيعوا معه معاودة
امطاء حناهم ، فدخل منهم سبعة ولاذ الباقون نادال الفرار ثم أمر
بقطع رؤوس ضحاياه وحملها الى المدينة عراء لأهلها وسلوى لهم .
ومسحا للحنن الممض الذى كان يقطع بساط قلوب المؤمنين لمصرح
« روجرى دى باريفلى » الذى قتل هناك .



فى هذه الأساء كان السعب الصليبى الذى قام بحصار
أنطاكية والاستلاء عليها عبوة وبقوة السلاح قبل ذلك بوقت قصير
- قد أصبح الآن يعانى سده الحصار ، وهو يعر كبر الحدود فى
حياء الانسان ، وريادة على ذلك فقد أنهك الصعاب الصليبين انباكا
لم يعد معه فى مقدورهم احتمالها ، كما كانداوا سطف العسس بسبب
المحاعة التى حاوزت كل حد ، وهكذا وقعوا من حطس السف فم
الحارج ، والفرز فى الداخل ، ثم انه كان من الطبعى أن يسند بهم
الخوف من حسود العسكر الكيرين المحاصرين للمدينة من الحارج
هذا بالاضافة الى أن الأنراك كانوا لايرالون يحكمون قبضتهم على
القلعة ، حتى راحوا يسبون منها - كما قلنا - هجماهم الإخذ بعضنا

بحجز البعض الآخر ، فلم يعد المؤمنون يعرفون معنى للراحة ، وبناك الناس الكثرين منهم عدنا لهم على خطاياهم ، حتى أن معظمهم ساسوا مهمتهم والعهد الحمه التي قطعوها على أنفسهم فانفصلوا عن رفاقهم ، وبرلوا نلسه من الأسوار مسعين بالسلاسل والحبال . منجمعين وحدهم هربا ناحية الساحل ، وسقط بعض هؤلاء في أيدي العدو فضرب عليهم الرق الدائم ، أما الذين نجحوا في الوصول الى البحر فقد أزعموأ أهل السفن الراسية هناك على قطع حبالها والابحار في لخطهم هذه ، وصاحوا فيهم « ان هذا الأمير الكبير [يعنى كربوعا] الذى جاء بعسكره الدين لا يحصيهـم العد ، قد اسولى بالقوه على المدينة التى كانت منذ قليل فى أيدينا ، ولم يسج من فكه أحد من رجالنا ، ودبح فوادنا ، ولكن شاءت ارادة الرب أن ننجو وحدنا دونهم ... فهما أسرعوا لفك الحبال والابحار قبل أن يبلغنا [كربوعا] ويلحق بنا عند الشاطئ» ويصيبكم ما أصاب قومنا » .

ثم اعلوا سطح السفن مع من كانوا عليها ، ولادوا بأذيال الفرار المسيين ، الذى لم يقتصر على الغوغاء وحدهم ، ولا على طعام الناس منهم فحسب ، بل كان بين الهاربين رجال بارزون ، من دوى المرائب الساميه ، واظهرهم « ولم دى جراند مسنيل » وهو من وجوه أهل « أبوليا » المعروفين ، زوج أحت بوهيموند ، وأخوه « ألبريكرس » ووليم الجار ، وجى دى بروسيل ، ولا مبرت الفقير وغيرهم ممن لا يذكر اسماءهم التى لا ينبغى أن يتصمها هذا الكتاب ، منذ أن محيت هذه الأسماء من كتاب الحياة .

وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء جماعات قد أزعجها التفكير فى الأخطار الجسمة ، وعجرت عن تحمل المجاعة والمصائب . فلجأت الى العدو ، وكان ذلك من حنبتهم أكسر ما اركبوه من المونقات ، لأنهم بذلك أنكروا فى لؤم نعاليم المسيح وعقده ، فكان هؤلاء المردون

يعملون الى السرك احوال الجيس الصليبي ، مما أدى الى وصع الصليبيين فى أسد المآزى خطوره ، كما أن الكيريين ممن طلوا مقيمين بالمدينه كانت براودهم سرا الآمال فى أن يعرفوا هم أيضا ، وبوسع أسقف بوى الموفر والعائد العظيم بوهموند هذه المحاولات من جانب هؤلاء ، ومن ثم جاءوا الى رجال من أهل العطفه الذين دلت التجربة على أحلاصهم ، والموثوق بهم ، وعهد اليهم بحفظ الأبواب ، كما عهد بحراسه الابراج الى رعاء لم يفصروا فى رعايتها بلا كلل : ليلا أو نهارا ، ومن ثم لم يعد أحد ما - بارعا كان أم مراوعا - بقادر على الهرب ، وأراد القوم أن يكون لهؤلاء الحراس - صغيرهم وكبيرهم على السواء - حق ممارسة السلطة الكاملة فجعلوهم يقطعون اليمين على أن يطيعوا أوامر بوهموند بكل الصدق والوفاء حتى ينتهى حصار أنطاكية ، وحتى تقع المعركة التى كانوا فى انتظارها ، ولما أصبح بوهموند محاطا ، بباعه وحواسه وأصدقائه ، وكل من له ثقة بامة فيهم أحد غاية الحذر ، فلم يحظ قط - ليلا أو نهارا - بقسط من الراحة ، اذ كان يستغل وقته بالسجول فى السوارع والميادين ، والفينيتس على الابراج والحصون ، لتطمئن نفسه ويهدأ باله من أنه ليس هناك من أحد منهاونا فى مهمه ، ولسأكد من عدم وجود أى فرصة للعدو لدخول المدينه عن طريق الحناة .

وكانت هناك أربع فلاع نتطلب حراسها رعايه خاصة تلك هى الطايبه العلنا التى شددت فى مواجهة القلعة العلنا مباشرة ثم تلها ثانه نفع دونها داخل المدينه ووراء الخندق الذى حفر لصد الهجمات الى نأى من بوابة المعسكر العالم .

وأما نالسا فكانت خارج الباب السرفى ، وكانت قد أقيمت لحماية المعسكر قبل احلال المدينه .

وأما رابع هذه الطوابي فسمع على رأس الجسر وهي التي
تمكن الصليبيون بفضلها مند فريب من مهاجمة بوابه الجسر ، وقد
عهد في بدايه الأمر بحراسة هذا الحصن الأخير الى كوت بولوز ،
لكنه تحلى عن هذه الحراسة حين سم الاسبيلاء على أنطاكيه ، ودخل
المدينة مع الآخرين .

وحدث بعد الاسبيلاء على أنطاكية أن قام كوت فلاندر مع
خمسائه من الأبطال الأساوس بحراسه هذه القلعة وكف من
استعداداتها الدفاعيه ، محافة الا يستطيع سعبا الرواح والمجىء
عن طريق الجسر ان سقطت القلعة في يد العدو ، الأمر الذي لابد
أن يؤدى الى وصع أسد سوءا .

- ٦ -

لاحظ كروبغا أن رجالبا أصبحوا الآن أكثر حريه في القدره
على الحروح والرحوع دون عائق ، كما رأى أن الحصن القائم عند
الجسر يمثل عقبه كداء أمام خططه ، لذلك أصدر أمره - في يوم
من الأيام - الى كنبه مؤلفه من ألفين من الفرسان المدرعين أن يحمل
السلاح وتشن هجوما عنيفا على ذلك الموضع ، فأطاعوه في لحظتهم ،
وحيروا لأنفسهم مواقع حصينة حول حائط الطابية النى أسرنا إليها
حالا ، وفسموا أنفسهم جماعات راحب تتناوب فيما بينها فدف الطابية
يسبل لا ينقطع من السهام ، مند الساعة الأولى من النهار ، حتى
الحادية عشرة منه ، ولكن الكونت ورجاله استنبسلوا في صدهم ، ولم
يدحروا وسعا في الدفاع عن المكان الذي عهد الى الكونت بحمايه .

ولما فاربت الشمس العروب ، وأخذ الليل يسر علائله على الكون ،
بين للمهاجرين أنهم لم يقدموا الا قليلا ، فحلوا عن هجومهم وعادوا
الى معسكرهم ، غير أن الكوب حتى أن يعاود الاعداء الكره فى اليوم
التالى بقوات أضخم من قواه التى يحب يده الآن ، فلا يعود فى
استطاعته أبدا حماية القلعه ضد حسود العدو الكبيعه . لذلك دم
فى سكون الليل وأصرم النار فى هذا الموضع وبركها برعى كل
ما به ، ثم انكأ الى المدينة من خرجوا معه سعياً وراء هذا الامل
الصانع .

ولما أسرف الصباح رجع عسكر الأمس المهاجمون يعاودون
هجومهم مرة أخرى ، وقد اصم اليهم ألغان ، فما بلعوا هذه الناحة
حتى وجدوها خاوية على عروشها ، وقد بهدم أكرها ، فاضطروا
للمعودة من حب حاءوا دون أن ينجزوا مهمهم .

وفى حلال هذه الأيام التى كانت قوات العدو فيها بهاجمها
جلسة ، حدث أن صادفوا بعض الصليبيين من القراء المدعين الذين
خرجوا دون أن يأخذوا حذرهم . فأمسكهم وساروا بهم الى اميرهم ،
هدية منهم اليه كأول عبيد أسعر عنها بجاحهم ، غير أن سلاح الأسرى
الضعيف ، وما عليهم من رب الثياب أنار اسمتزاز الأمير ، اذ لم
يكس معهم سوى أقواس حسنة ، وسبوف باليه علاها الصدا . كما
سننر أجسامهم ملابس مرفه من حراء عملهم الدائم وبسبب قدم
هذه الثياب لأنه لم يكن لدى قراء الحجاج ما سدرون به غير
هذه الأسمال ، ويعال انه ما كاد هذا الأمير يفرسهم حتى صاح
فائلا : « أبمل هؤلاء الناس يدب الدعر فى قلوب الأمم الأجبية ؟ وهل
يحق لقوم كهؤلاء أن يعسبروا أنفسهم أنرياء وما هم الا كأفقر المرتفعة
يحود الناس عليهم بلعمة الحنز ؟ » ألا فاضطروا الى ما يمين أسراف
أهل السرى من سلاح ٠٠٠ أما هؤلاء فان الصربه من سلاحهم ظل أن

تؤدى عصعورا أو سسقطه على الأرض ، وعلكبم أن يوبعوا هؤلاء
الرجال ، وسوفوهم مكبلين بالأصفاد ومعهم أسلحتهم هذه ، وعليهم
نبايهم المهلهلة ، وبمخدوهم الى مولاي الذى أرسلنى فيعرف من مطهر
هؤلاء الأسفء أن العلبه على رجال كهؤلاء الرجال لا سسعرى من
الوقت الا قليلا ٠٠٠ ودعوه يفكر : أى صيت لمل هذا السعب
النفس فى نفاخره بما يفتح !! واطلبوا اليه أن ينام فرير العين
ويلقى بالسبعة على أنا وحدى ، لأنه لن يمسى وف فصير حى
لا يكون نم وجود لهذه الكلاب القذرة ، ولن يحسب لهم حساس
بعد ذلك بين الأمم » .

وأمرهم بهذه الكلمات أن يسلموهم الى رجال عسّتهم لهم ، كى
يسوفوهم الى الساظان فارس ، وأن يفصوا اليه بما فاله هو الآن ،
ذلك لأنه كان على نعه نامه من قدره فى يسر على فهر رجال هؤلاء
الرحل وان لم يحرب بأسهم بعد ، غير عالم بأن هذه الكلمات التى ظن
أنه يحط بها من هذا السعب عبد مولاه ، وأنها تجلب له المجد ،
سوف يكون فى النهاية سببا لتكبته ، ولأنه حين تحقيق به الهزيمة
الكرء ، ويفوص فى حماً الفوصى على يد هذا السعب الحفير ، فان
العار الذى يلحق به اذ ذاك سوف يكون أشنع عار ، ذلك لان القاعدة
العامة هى ان الهزيمة تكون أيسر احتمالا ان لقيها المعلوم من رجال
سجعان أفوياء ، أما اذا أحرز النصر عليه قوم لا اعتداد بهم ، ولا سطوة
لهم فان شار الهزيمة يكون أبلغ ، وعارها أفدح عليه .

أصبحت المدينة الآن محاصره من كل جانب ، وقد نعام وضع الصليبيين سوءاً لأنهم أصبحوا عاجزين عن مآرجها لقضاء مآلهم من أعمال حآرجها ، كما سدت المسآلك آمامهم فى دحولها . مما رب علىه عدم فدربهم على جلب الطعام إليها ، فعص الجوع ببآه أكرهم . وآحدث الموت شى السآفص وانعدم توفر مصآب الحياه الضرورية مما حمل الجوعى على سلوك سبل محجلة لسد هذا الفص ، ولم يعد بم مجال لآختيار نوع الطعام حى عند أكبر القوم نآفا فى آمورهم ، ولم يعودوا يآبهون بنطافه اللحم الذى يجدونه أو قذاره ، ولا كيف جىء به ، سواء آكان مسنرى أم مسروفا ، ذلك لأن المعده الحآويه تصرخ عآليا فى طلب أى نوع من الطعام يسد جوعها .

كذلك فارق البلاء وفآرهم ، ولم يردد الآحرار فى فرض أنفسهم على مآئد من لا يعرفونهم ، من غير دعوة تكون قد وجهت البهم ، ونآهفوا على الصدفة وجود غيرهم بها عليهم ، ولا يكفون عن الآلآح فى اسجداثها من ايدى غربآء لا يعرفونهم ، وكان هذا الفعل أمراً مرفوضاً عندهم من قبل .

كما تخلت العقائل عما كن عليه من الحسمة التى كن قد طبعن عليها ، أما العذارى فم عدس يآبهن بالجل الذى كان سمة لهن ، ونسبن أنوثتهن ، وطلعن بوجوه عليها غبرة ، وآصواب حرية تحرك أفسى القلوب ، ورحن يللمسن الطعام أى وجدنه لا يسمعن خوف من أن يراهن أحد .

لكن كان هآك آخرون لم تستطع المجاعة حملهم على التحل عن وفآرهم ، فآكفؤوا بوجوه حآمدة الى جهآ قآصبة ، يمشهم الآسى ،

لأنهم كانوا يؤثرون الموت على المسمى بين الناس يسألونهم لعمدة نعمهم
أودهم .

أما الرجال الذين كانوا من قبل أسداء العزم ، أصحاب البسمة ،
دوى ، بأس سديد ، والذين لم يكن أحد يجهل قدرهم فقد بدوا وكأنهم
أنصاف موبى ، يوكأون فى ضعف على عصيهم ، ويجرون أنفسهم
فى السوارع والمبادين جرا ، وعلى الرغم من أنهم لم يصرحوا بكلمة
الا ان وجوههم المكتئبة كانت تعصح عن أنهم يلتمسون احسانا وجود
به عليهم العابرون .

كما أن الأبطال الباكين ، والرصع على أنداء أمهاتهم كنت تراهم
فى كل مكان وفى معرق الطرق ، يلتمسون اللعنة سيد رمقهم ورقم
من جاءوا بهم الى هذه الدنيا ، لكن يعجزهم الحصول على الفدر اليسير
من الطعام لأنفسهم ولا يقول لأمهاتهم .

وفى خضم هذا الزحام الكبير فل أن وجد أحد عنده من
الطعام ما يمكن أن يكفه هو وحده ، اذ نضب فى الواقع جميع
الموارد ، فلم يعد أحد الا وهو يسجدى الآخرين ، وادا شاء الصدفة
أن يكون هناك فرد كان قد بلغ من الرء مبلغا كبيرا وبقي عنده
من هذا المال الحاص شيء ، فما كان لهذا المال أن ينفعه فتيلة ،
اد لم يعد يكفه لسراء ضرورات الحياة التى لم تعد متوفرة .

- كما أن الأشخاص الذين كانوا معدودين أسحى الناس يدا
وأكرمهم ضيافة ، أصبحوا الآن يلتمسون الأماكن النائية التى فل
أن يغشاها أحد فلتقطن منها ما يقبضون به أودهم ، ويكالبون فى
نهم على الطعام - أيا كان هذا الطعام - الذى استطاعوا الحصول
عليه من مصادر مختلفة ، ثم يأبون أن يكون لهم فيه شريك .
... أثرى من الضرورى أن أقول أكر من هذا ؟

لقد أصبح لحم الجمال والحمر والابل والبغال وغيرها من الحيوانات
الدنيا وكأنها اسبي ما يكون ان وجدوها ، وانه لمى المؤسى ان يقول
ابهم كانوا يبتسون الأرض ويخرجون منها حنف الحيوانات المحنوه
أو النى ماتت بالطاعون وىقبلون على النهاميا .

هكذا كانت أنواع الاطعمة النى راخوا يدرءون نيا عن انفسهم
عائلة الجوع المذض وىطلون حنانهم العسة قدر طافهم .

لم نضب سده الكرنه الرهنه - واعنى بنا المجاءه - العامه
وصغار الناس وحدهم فحسب ، بل جاورنهم أهوالها فمسب كمار
الرعماء الدين عدوها حطبا لا يُمْكنهم احناله ، اد كانوا أكر من
سواهم اعاله للكيرين من الناس ، ولا يسطعون أن يكفوا رفدهم
عمى جاءهم يلنمسه منهم .

وان ابناء هده الحفبه من الرمن لا نرال محفوره فى ادهان
السيوخ والكهول وىحاح الى مؤلف خاص يروى ما جرى لكل واحد
من هؤلاء الرعماء ، وىضم أخبار العمة والصعاب النى عمل فيها
هؤلاء العاده الانعاء من أجل خاطر المسيح ، على أنه يملك القول
ان رجالا كهؤلاء الرجال العظام وجيسا كبرا كهذا الجيس ، انما
يحملو ذلك كله صابرين غير مندمرين .

- ٨ -

كان من جراء ما أيداه كربوعا وسبعيه من حماسه فويه أن
أصبح أنطاكية محاطة من كل نواحيها بصورة لم يسطع الصليبيون
المحصورون داخل أسوارها مفادريها ، كما أعجرت من كان جارحيا

عن دخولها والوصول اليهم ، أصف الى ذلك ان الانسباكات
الموصولة - داخلها وخارجها - قد أنهكت قوى الصليبيين انها كما فاق
كل احتمال ، هذا الى جانب أن المصائب الهجمة التي نزلت بشعبنا ،
وما ابلى به من ساءه المجاعة قد عملت كلها على قل عزيمته ، فأظهر
النراخي في حراسته .

اما الذين لم يعد يسغل بالهم سوى البحر عن كسره البحر
يمسكون بها رمعهم فقد كانوا أكررهاونا بالنسبة للأمور الأخرى .
مما سج عنه بجاح العدو في دخول المدينة في أحد الأيام ، وذلك
بسبب عدم توفر الحراسة لبرج كان مجاورا للبرج الذي اضمح منه
الصليبيون المدينة .

وكان بعض الأتراك قد طمعوا في املاك هذا البرج ، معتمين
سكون الليل ، فعلقوا السلالم الى الأسوار ، وفكروا في النزل بعدئذ
الى المدينة كما فعلنا من قبل ، فلما بسط الليل طنبه ، وسكت كل
أأمة في الكون ، أقدم ما يقرب من ثلاثين رجلا وسلعوا السلم واعلوا
السور ، مستهدفين الاستيلاء على البرج الذي وجدوه خالبا من كل
مدافع عنه ، وبينما كانوا منهمكين في عملهم هذا اذا برئيس العسس
يصل الى المكان الذي كانوا يعملون به ، وكان هذا الرجل يقوم اد
ذاك بها اعتاده من المرور حول السور ، فاكشف المؤامرة ، فأخذ
يصيح محذرا من بالأبراج المجاورة ويعلن النهم أن العدو قد استولى
بالحديقة على البرج ، فأيقظ صاحبه جمع الحراس في تلك الناحية
من المدينة ، وكان بينهم الشجاع المرموق « هنرى ديش » فاسرع لتوه
الى تلك الجهة مع فارسين آخرين ، هما « فرانكو » و « زيجمار » ،
وكانا من ذوى قرباء ومن أهل البلدة المسماة « مالين » الواقعة على نهر
« الموز » ، وخاف ثلاثتهم أن تكون الرشوة قد استغوت البعض
فاستسلموا للخيانة وغدروا بالمدينة .

كذلك عىب لمساعدته جماعات من الابراج المجاوره ، فباحم بهم
العدو فى عىف كدأبه السىط ، فأبدى الترك مقاومه سديده . لكن
هسرى دس ما لبث الا فاملا حتى بىتح فى طردهم من المرح ، وسىل
مىم أربعة أنفس ، أما البقىة - وكانوا سبه وعسرى رجلا - فقد
القى بهم من الاسوار ، فسقطوا على أم راسىم ، فدمى عظامهم
وساىروا أسلاء ممره .

وكان هؤلاء الرجال اللانوى الدى صعدوا البرج قد عرموا
على ادخال بقىه رفاههم .

ولعد نكب الرعىم البطل [هسرى دىس] فى عدا الصدام ، شد
مديده « رىجمار » الذى احمرطه السىوف فهلك ، كما اصىب
« فرانكو » بجرح قابل حملوه معه الى داره وهو يكاد يلفظ أنفاسه .

- ٩ -

زايىب الحاجة للطعام يوما بعد يوم ، وبرايد معها مصايده
المحصىورى ، كما صاعف المجاعه آلام الصلىبىن . فصحررا من هذه
الاهور العسره زلاىوال الذى سىل بهم كل يوم ، فداحلهم الناس
حتى لم يعودوا حرىصىن على حىاتهم وسلامهم ، فاسلوا من المديده
لا يعلم بهم أحد ، ولم يكنوا بما كان يكنفهم من آلاف الاخطار ،
فراحوا يسفون طريقهم وسط صغوف العدو كى يتسر لهم الوصول
الى السساطىء حىث كانت برسو هناك بعض السفن الموباسه
واللابىيه ، وكانوا يىغون من وراء ذلك شراء الطعام وجلبه الى المديده
عبر أن الطمع فى النجاه من هذه الاخطار الجسىمة حمل بعضىم على

ابرحبل ، عافدين العرم على الا يرجعوا أبدا ، ولم يوفعوا أن قد
ربما يحس موف من حلفوهم وراءهم ، أو أن تناح لهم فرصه
النجاه من سيوف العدو .

في هذه الاساء نكسف للترك أن بعضا من رجالنا يخرجون
جلسه تحت جبح الظلام الى البحر ، ويتجولون هنا وهناك فرب
المدينه سعياء وراء الطعام ، فبعوا في الحال بعضا من رجالهم العارفين
بدروب تلك النواحي وسعابها ليصبوا الكمائن لهؤلاء الناس
ويصلوهم كما فعلوا اخوه لهم من قبل ، فحالف البجاج الترك في
كثير من هذه المحاولات مخالفة حرائهم أخيرا على ارسال ألفين من
فرسانهم المختارين ، وكلفوهم بامساك البحارة والبجار وحرى
السفن ، مؤملين من وراء ذلك استئصال هذا النوع من الجارة
واد داك يحال بين الصليبين وبين كل أنواع المثونه ويعقدون كل
امل في السلامة .

وصح ما بوفعه الترك ، اد نقد فرسانهم الأوامر الصادرة البهم
سعبدا دفعا ، فأضرموا النار في بعض السفن ، وأمسكوا طائفة من
ملاحها الذين خرجوا من عبر حراسة ، ففتكوا بالحارب الأكبر منهم .
مما حمل الباقين على الهروب .

ولما ذاع خبر الكب ، وساخ ببؤها وبجاوز هذه الساحة الى
ما وراءها بيلبل حواطر النجار الدين كانوا يحصرون الى هنا في
رحلات بجاربة من فرص ورودس وغيرهما من الجزر ، كذلك من
سلوقة وابسوريا وبامفيلية ، وسواها من الأقطار البحرية ، وتملكهم
الفزع من هذه الأحوال السائدة حتى انهم خافوا أن يعودوا الى هنا
أو يجلبوا سلعهم ، ولم يجرؤوا على الاقتراب من تلك الناحية ،
ونرنب على ذلك أن الم السلل الكامل بالمتاجرة وتوقف الاستبضاع ،
وتدهور موقف الصليبين تدهورا أخطر مما كان عليه من ذى قبل .-

وعلى الرغم من صآله كعبه السلع الى آحضرها الجار صآله لا تكفى
ابدا لسد احساجاب الناس العديدين ، الا أن بقاء الاتصال البحرى
موصولا أعطى بصصا من الانقاذ للصليبيين .



ولقد صادف العدو فى طريق عودته من ناحية البحر طائفه
من المؤمنين عرضهم جميعا على السيف الا سُردمة قللى غاية القله
تمكوا من السبل عبر الغابات ، والأدغال ولحوا الى الكهوف
واستخفوا بها .

ولقد ادى حمر هذه الطامه الكبرى والمصيه الفاعه الى حرق
فوما حرقنا لا يفل عما أرسله بهم المجاعة القاسية ، ويجدد همهم اد
طرق سمعهم خبر النكبه التى حلب برفافهم وما يتعرض له أصحابهم
كل يوم من هلاك . فنسرب لعوسهم الناس حتى من الحياه ذابها
ولم يعودوا يتسمون بالحرص عليها ، وفل احياطهم على أنفسهم ،
وبصاء لب طاعهم لزعمائهم .



فى هذه الأثناء وصل الى الاسكندرونه « ولم دى حراند ميريل »
ومن فروا معه ، ووجدوا بها ستيفن كونت شاربرر وبلوا الذى كان
الفاده وكل الناس يرحون عودته بين يوم وآخر ، لكنه كان مقبلا
هناك منذرعا بالمرض ، فآحبره ذلك الرهط بكل ما جرى بأنطاكية ،
وحملهم الرعبه فى الا يطهروا أنهم فارفوا رفاعهم جسا سب ناهه
عر ذى موضوع ، فانهم راحوا يبالغون فى وصف الأحوال والسماء ،

'سبشرين هناك ، والحق أن الموقف كان قد بلغ من السوء حدا يفوق الوصف ، غير أنهم بالعوا أسد المبالغة فأظهروه بصورة أسد اسودادا وسمامه وزادوا في ذكر الطروف السيئة السائده . ولم يكن «سمن» في حاحه الى سماع مزيد من مثل هذا الكلام حتى يصاحف جبهه . لانه لم بهجر صحابه ولم يفر عنهم الا لئفس هذه الاسباب ، وان ادعى المرض .

وبعد ان فلبوا الأمر فيما بينهم على سبي وحوهه ركبوا السفن اللى كانت فى الميناء معهده لهم ، وطلوا مبحرين حتى أرسوا احيرا بعد رحله اسعرف بصعه أيام عند احدى المدن الساحله ، حب راحوا بقصون أين يكون الامبراطور وما ينوى أن يعمله ، ولبقوا عندنا من الاجر عن ذلك الأمر - يحلف بعضهم عن بعض فى المسمون المسمون والصدق معادها أنه سد الرجال الى أنطاكه على رأس طائفه كبيره من العسكر اللابن والاعريق لمد يد المعونه الى الصليبيين وفاء منه بانقاه معهم ، وأنه الآن معسكر بمن معه فى « فلو مبنيوم » .

وكان قد انصم الى الامبراطور ما يهرب من أربعين ألف من اللابن ، زياده عن الحبوس اللى جمعها من سبي السعوب وكان رأيه أن يخلعهم وراءه فى بلاده مع الكتائب اللى عنده ، وما كان بركه اباهم الا لفرهم المدفع أو لئفس المرض فيهم ، أو لغير هذا أو ذاك من الاسباب القويه ، اما الآن فقد زال عنهم ما يسكونه من وصب ، واشتد عزائهم بحضور الامبراطور وحشوده الكسفه ، واسردوا بهم فى الزحف ، وأصبخوا يلهفون قلبا وروحا على الانصمام الى رفاههم الحجاج .

حين علم كونت ستيفن والذين فى صحبته بأن الامبراطور مرابط فى تلك الناحية فى انتظار امدادات أخرى كثيرة ، وأنه يقوم

بجعل استعدادات اصفاه للزحف ، أقول انه حين علم بذلك بادرك
فسلك أقصر الطرق المؤدية الى الحيش الامبراطورى ، فلما وصل
الى هناك فوبل بأعظم آيات الرحب المروجه بالدهسة البالغة .
وكان الامبراطور قد عهد اوامر الصداقه مد بداية الحملة مع اسيف
حين جاء مع بقيه الرعماء الآخرين ، ولما راح الامبراطور يستفسر
منه استفسارا دفيعا عن احوال العادة الآخرين وسلامهم وأوصاعهم ،
وعما دعاه لتركهم وراءه ، أجابه ستيفس بقوله :

- ١١ -

« أيها الامبراطور الذى يسير الطفر فى ركابه أبى سار .
ان رعاياك المحلصين الدين أدنت لهم بالمرور عبر امبراطوريك مد
أمد قصير ، وتسلمهم بفيض جودك ، قد اسولوا - أول ما اسولوا -
على بيعه ، ثم وصلوا بعد مسيرة ناجحة الى مدينة أنطاكية فحاصروها
سبعة أشهر سويا ، حصارا لم يرفعوه عنها حتى أحدها عنوة بتوفيق
من الرب ، ولم يعرف عليهم سوى فلعها الى كان اقحامها صربا من
المحال . فاستعصت عليهم بسبب وقوعها على جبل شاهق . وبفصل
أبراجها المشرفة على المدينة التى تبدو وكأنها وكر العقاب ، وكان الطن
عند شعبها أن قد انتهى الحصار ، وانهم بخلصوا من كل خطر بعد
استسلام المدينة ، بيد أنه ظهر أنهم قد نردوا الآن فى خطر أبلع
هولا من سابقه . وأنهم وقعوا لى صعوبه يعوق كل صعوبه واحبوها
من قبل » .

« ذلك انه لم تكد تنقضى غير ثلاثة أيام بعد احتلال المدينة حتى
جاء قائد فارسي شديد المراس اسمه « كربتوتا » على رأس حفاول من

السرق يجاوز عندها كل تقدير ، فاحدق بالمدينه من كل جانب ، ولم يدع مدخلا من مداخلها أو مخرجا من مخرجها الا سده . وحاف المحن بالفادة والعامه على السواء بصورة أيأسهم من كل شئ حتى من حنانهم .

« وفل أن يمكن العفل من تصور ما عليه هذا الجبس المحاصر من كره هائله فى العدد ، وموخر العول ان عامه عسكرهم غطوا كل ما حول المدينه ، وانسروا كأسراب الجراد ، حتى ضاقت الأرض بما رحبت فلم تسع كل خيامهم .

« أما رحالنا فكأن أمرهم على النقص من ذلك ، اد أحدوا بسافصون سافصا مفرعا بسبب الجوع الذى نزل بهم ، ومن جراه البرد والحر اللذين فاسوهما ، وبسبب ما ابتلوا به من قتل وموت ، حتى أن كل ما ينبى بعد ذلك من الجيس فى أنطاكية لم يبعد كافا للدفاع عنها .

« أضف الى هذا أن المعوية التى كانت تجلبها لهم السفن من مملكتكم والمراكب العاديه من الجرر والمدن الساحليه قد انقطع ورودها نهائيا — كما تعلمون — بسبب العسكر الذين أرسلهم العدو ، فلم يدعوا سبرا من الأرض بين أنطاكيه والبحر الا احتلوه ، كما دمروا الاسطول ندميرا يكاد أن يكون تاما ، وحكموا السيف فى البحاره والجار مما حال بالفعل بين شعبنا وبين كل أمل فى شراء الطعام .

« ولعد جاء الخبر بأن الطعام الموجود الآن فى أنطاكية لا يكفى الناس الا يوما واحدا فقط ، ومما يضاعف مناعبهم خلو المدينه من مكان أمين يلجأون اليه لكنرة سسل السرك الى المدينه عبر العلعه الى سرف عليها ، فبسنون هجمائهم على قلب البلد ، ويهاجمون المسيحيين فى الشوارع والميادين ، وهكذا فان ما يفاسيه رجالنا خلف الأسوار لا يقل هولا عما يكابدونه من غارات يواليههم بها العدو من الخارج .

« لذلك فانسى ومن معى الآن من الفاده وسراه القوم - قد
ايضا تمام البقي أن ما يقوم به احواسنا انما هو جهد صانع ، وطالما
مدنا اليهم بسب الامر وسدينا الصبح الاحوى للعمل على ما فيه
سلامهم ، وأن لا يسببوا بأمر يستحيل بحقيقه ، لاسيما وقد تحلب
عنيهم العناية الرباسه ، فلما وجدنا أننا عاجزون عن ربحهم عن
هدفهم رحنا بلمس الوسيلة لما فيه نحاسنا حتى لا يؤدى بنا الطيس
الى الغاء أنفسنا بأيديا الى الهلكه ، ففعل ملما فعلوا .

« والآن فلفعل حلاتكم برون - اسم ومن حولكم من السلاء
المجدين - أن الخير كل الخير فى الرجوع عما كنتم قد اعزمتموه من
الزحف الى أنطاكيه ، حتى لا يحق نفس الاخطار من يعودون من حب جنته
عسكركم المطهر ... وان العقل ليسانسكم ان يعودوا من حب جنته
دون أن يلحم فوانكم بالقوات الكسفة الى بعب بها السرى . وذلك
أمر أجدى عليكم من الاندفاع من غير رويه لتجريب قوتكم مع هذه
الاعداد الضخمة من العسكر الأشداء مادامت السحرة غير مؤكدة
تماما .

« وان هؤلاء الرجال البارزين الموحودين الآن بحضرتكم قد نالهم
نفس هذا الصيب ، ويستطيعون أن يؤكدوا لكم صدق ما أقول .
كما يعرف ذلك أيضا « تاتكبوس » الألعى الحضيف الذى أرسلته
حلالكم معا ، لأنه رأى بعض رأسه مدى ضعف رجالنا . فسار
على هدى العقل فانسحب من العمل معهم ، وانه لقادر أن يحل الموقف
أمام جلالنكم » .

وكان عى حيس الامراطور أح للورد بوهيموند من أبه -
اسمه «جيدو » ، فلما سمع ما قاله « سسفى كوت سارنرز » حى
حونه ، واستخبط فى الكاء حربا على مصر أخيه ورفاقه ، ورغب

في نادى الامر أن يعارض روايه الكوب ، ورمه بالجبن لهوره في
الاستحباب من صفوف هؤلاء الرعاء الأحماء ، ولكن أحدهم واسمه
ولم دى حراند - وكان سرييف المولد لا الحلق - وهو صهي
بوهيموند يمكن من اسكات « جندو » .

- ١٢ -

بعد أن سمع الامبراطور هذه الكلمات . اسدعى اليه جميع
نبلائه للنساور فيما اذا كن يجب عليه الرحف الى أنطاكية ، او
النوف والرجوع الى مملكه ، وبعد أن فلبوا الأمر على سبي وجوهه
انتهوا الى أن الحكمة يعنى العوده بالجيش سالما ، بدلا من اثاره
ممالك السرى كله والتعرض لقلبات الحرب .

لقد ولى الامبراطور كل السعه بكلمات سبعين ، فاعتقد أن
كل شيء سيجرى كما قال اعتقادا جعل الخوف يملك قلبه من كربوعا
الذى زعموا أنه دمر قواتنا ، فخسى الكسيسوس من فنام كربوعا
بمهاجمة الامبراطورية بما يحب يده من الجيوش الكنيفه التى أكدت
الأخبار أنه بهودها فى زحفه ، واذا ذاك بصع من يد الامبراطور مره
نانه نقية وجميع سببا الى اسرديها جهود القادة الصليبين
السيطة ، ورأى - نجنا منه لهذا الخطر - أن بأمر بحرى
ونهب جميع الأراسى الواقعه على طول خط ارناده ، سواء
ما كان منها على يمينه أو على يساره ، بدءا من قونه وانتهاء بنيقية ،
وكان طمع أن نغف هذه الأراسى بعد تخريبها - وقد هجرها أهلها

يرضخ موارد العس فنيا - عائثا في طريق الأعداء ان حملتهم
الظروف على العكس في بوجه فوائهم ضد مملكه .



ولقد أدى مسلك سيمس هذا الى حرمان الصليبيين من
المساعدة التي كانوا في مسس الحاجة اليها والى كان
الامراطور بأهبط لامدادهم بها وفاء بعهده معهم .

وإذا سمع المرء تمعا دقيقا في كلمه الكويت هذه وفي حقائقها
الجوهريه ، تين له أنها عمل لا يمكن عمرانه أبدا ، وأنه صادر عن
برعة سريره ياباها السرف .

عمر أن رعاية الله القادر - ولا قادر سواء - والحكم ولا حكم
غيره - فصب الا أن بجى أحسن النصار من أكبر الأمور سرا ،
وأفصت الى ما فيه مجد شعب الله وقاده ، وواء بحق أولئك الذين
يحملوا حمارة العبط ، وبركوا ساءهم وأطفالهم ، كى يحاربوا
كحجاج للسيد ، رجاء أن يكلل جهودهم بالمجد الدائم مما كان لابد
أن يحرموا منه حرة! ما ناما لو كان الامبراطور حاصرا ، اد أن وحوده
هو وحده حيداك في هذا الموضع كان لاند أن يؤدى - بلا مساحة -
الى أن يصدر أمره برفع الحصار بناء على سلطانه الأعلى وقوانه
الصخمة ، ويكون له السرف كل السرف له وحده دون غيره .

على أنه يجب على المرء أن يؤمن أن السبد بعسه هو الذى جاء
بهذا السرف ، وحاده على من أخلصوا البية في العمل وأدوه بأمانة
وصمدوا تحت الظروف القاسية التي لا يحصنها العد . حتى يجنوا
ثمار بعهم . ونعتقد لهم راية النصر .

انطلق الألسن فى هذه الأثناء سائعه عمت أرجاء المدينة ،
نفول برحوع الامبراطور الى بلاده ، فصاعف هذا السبأ من فطاعة
الأهوال التى يعابها الصليبون ، وملأ قلوبهم بأسا ونقررت
بعوسهم استمئازا من مجرد ذكرهم كونت سبتعن ، ووصموه
بالفجور الأبدى . كما راحوا يلعبون ولسم دى حراند منزل
وكاده من ساركوا نى هذه الحانة الملعونة ، وراحوا يينهلون الى
الرب أن يزح فى النار الأبدية مع يهوذا الخائن كل من انسحبوا من
هذه الأهوال الطامة ، والذين حدعوا سعب الرب فحرموه من
المساعدة الكبرى النى كان الله فد أعدها لهم .



ولما علم كربوغا وكسار حواده - عن طريق جواسيسهم - أن
الامبراطور راحف عليهم اسند اضطرابهم ، وعظم كربهم ، وحق
لهم أن يعزعوا من قواته المؤلفة من زهرة المحاربين فى امبراطوريه .
فلما حاءهم هؤلاء الجواسيس أنفسهم مرة ثانبسة بنخبر تراجع
الاغريق عن زحفهم ، أخذت كربوغا العزة بالاثم فازداد عتوا وبعسا
وحمل اليه أنه قد ضمن النصر وحاره ، فبالغ فى الضسبيق على
رحالها ممالعه سرسه ، واسند فى الاحداق بهم مما نرتب عليه أن
اكتسب العاسه كل المؤمنين الموجودين داخل المدينة ، وخاب كل
أمل لهم فى الجاة . كما ففدوا الرحاء فى أن يصلهم أى نجدة من
أى جهة كانت ، ولف البأس المطلق الناس أجمعين ، وراح الشعور به
برداد يوما بعد يوم .

وألقت المسئولية العامة لكل الجسس على عاتق بوهيموند .
الدى سب له - وهو ندور حول المدبنة - أنه يسحيل عليه باللبن

او السند - ان يحمل ولو فردا واحدا من الناس على الجروح من حب يخبىء ، ولم يعد يوحد ثم رحل واحد يقوم بالحراسه أو بقال العدو داخل البلد أو حرره ، على الرغم من أن الجمع كانوا يصجون من الأهوال الى أنزلها بهم الأعداء .

ثم جاء يوم عاد فيه المادون والعمال منهوكى القوى من محاولاتهم هذه العسلة في استدعاء الناس ، فلما شاهد بوهمود ذلك المنظر أيقن الا حشوى من بدل محاولات جديده لارعامهم على الجروح من مخابئهم ، ومن ثم أمر معاونه بأضرام النار في أماكن معدده من المدينه ، عسى أن تحف السران هؤلاء الذين علط فلوبيهم ورفض الامسال للارادة الربانية ، فحملهم على البروز الى العراء ، ويجب ماوربه هذه وآت أكائها ، فبعد أن كان عاجزا عجزا تاما قبل هذه اللحظه عن أن يجمع الرجال للقيام بواجبات الخدمه العامه ، اذا بهم يقبلون رراوات بفلوب ماؤها الحماس السديد يدافعون لأدائها .

ويقال ايضا ان الناس من الحياه دفع بعضا من رجوه الرجال الى عقد اجتماع خاص ، قرروا فيه أن يعسموا هذه الليلة بالذات للفرار خلسه الى الساطي ، ناركين وراءهم السعب وحيس الحجاج نأكمله ، عر أن حبر يدبرهم هذا بلع سمع الدوى وأسقف بوى الموفر فاستدعبا اليهما هؤلاء المذنبين وأسرفا في نأنيمهم الأنس المر ، ودكراهم أن وصمه العمار الأبدية سسطبعهم هم ودراريمهم بميسمها ، ان هم خرجوا على ما يفرصه عليهم سرفهم وكريم أصولهم ، أو اذا انسحبوا من هذا الحشد الكبير من المؤمن بالمسيح .



فى وسط هذه الصائقة كان هناك نقص بئن فى الطعام بين شعب الله سبب أهوال المحاعه المهلكة ، وما يمارسه العدو من

الضغوط ، سواء من الداخل أو الخارج ، حتى لم يعد ثم علاج لما هم فيه ولا أمل لهم في بجدة تأبهم من أية ناحية ، وعمد البلوى صغيرهم وكبيرهم على السواء ، وعجز كل واحد عن مساعدة الآخر .

وكانوا اذا نذكروا نساءهم وفكروا في صغارهم الذين خلفوهم في بلادهم ، وأملأهم الساسعة التي ورنوها عن أسلافهم ، وكيف هجروها حيا في المسيح ، أسلموهم أنفسهم للتشكوى من عدم مجازاة الرب إياهم . لأنه لم ينظر بعين الشفقة الى المتساقى التي يحملوها ، ولا الى صدق اخلاصهم ، بل ابلاهم بدلا من ذلك بالبلانا كما لو كانوا شعبا عرييا عنه فأسلمهم الى أبدى الأعداء .

- ١٤ -

بنما كان سعب الرب يقاسى النلاء على هذه الصورة ، اذا بالسند سعط عليهم ويسمع الى أسهم ويرسل السلوى من كرسه السماوى ، فيقال ان قسيسا اسمه [بارتلميو] من المقاطعة المعروفة باسم « بروفس » جاء الى أسقف بوى وكوت نولوز زاعما لهما أن الحارارى المارك أندروز كان قد طهر له فى الممام ثلاث أو أربع مرات مسالبة وأمره أن ببادر ما وسعه البدار الى اخبار القادة أن الحربة التى طعن بها سيدنا عيسى المسيح فى جنبه مدفونة فى كنيسة أمر الحواريين ، وعليهم أن ينسبطوا كل النشاط فى النفس عنها فى البقعة التى بنها له الحوارى بعلامات مميزة .

ومن ثم مضى بطرس الى خادمى الرب هذين المحبوبين ، وفصل

ليما الأمر الذي أقسم أنه حمّله . وبين أن الرسول [أندور] ارعته على ذلك مهددا إياه بذكر من الماعب . بد أنه رفض أكثر من مره اداء هذه الرسالة ، لأنه لا يريد عن ان يكون رجلا فقرا جاهلا ، غير أنه لم يستطع في النهاية أن يجيب نقصد أمر الرسول العاقل أكثر من هذا . حتى ولو تعرضت حياته للخطر .

وبوسلوا بالسريه الناء ، في نقل هذا الخبر الى القاده الآخرين ، الذين جيء أمامهم ببطرس [بارنلميو] لسمعوا منه حقيقه الأمر وصوره فصدقوا روايته ، ثم اجتمعوا في المكان الذي سماه لهم في ارباض الكنسه المسار السبي . آتفا . رجعوا الأرض صاك الى عمى معين . فوجدوا الحرية كما قال بطرس [بارنلميو] تماما .

ولما سمع الناس هذا البأ اندفعوا الى الكنسه كأنهم رجل واحد . لأنهم شعروا ان السماء أرسلت لهم العزاء . وانثالت الهدانا والمخ مجحدا لاكساف هذه النعمه العاله . وطرحوا عنهم ما كان بهم من الفزع ، ونفسوا الصعداء ، وأحسنوا أن قد عاودهم ناسهم من حديد لسفد الاوامر المباركه ، وكان هناك البعض الذين ادعوا أنهم رأوا رؤيا العين اسباح الملائكه والرسل الطوبانيين ، وكان ادعاؤهم هذا تعريرا لقوة ايمانهم بحام بطرس فاربععت نفسه الناس القابطه الحائره ارتفاعا عجبنا .

وحينذاك استجاب جميع الزعماء لافراح الرجال الموقرين الذين يخسون الرب وحددوا ايمانهم ، وقطعوا على أنفسهم العهد بأن يحلص كل منهم النية للآخر ، ويعاهدوا - لئى تداركهم رحمة الرب مما هم فيه الآن من وضع حرج . ومحبهم البصر الذى يرحونه وطهرا على عدوهم .. ألا يفارق بعضهم بعضا . حتى يستعدوا بعون الله المدينه المقدسه والقبر المقدس ، ويرودهما للايمان المسيحى وحرتهما القديمة .

ظل الناس يفأسون هذه الظروف غير المحتملة ستة وعشرين يوما مساليه اطمأنبت بعدها فلوبهم بعد طول وجيب ، وراحوا يسمرون عن سواعدهم في سجعاء لم تكن لديهم من قبل ، وأحسوا بالراحة بعد طول عذاب ، وكأنها أمل جاءهم من السماء ، وانفق الجميع صغرتهم وكبيرهم على أن لا بد لكل هذه المساو من نهايه ، وأنه لا بد لهم من يوم قريب جدا يقابلون فيه الحضم وبسططعون صد أعدائهم الذين يعدون كثيرا بعوبهم الكبيرة ، فنحدر يومذاك المدسه السى وهبها الله لهم ، ومن ثم راوا الحر فى الصام بمحاوله حوص الحرب مره اخرى ، بدلا من أن يركوا أنفسهم نهب الصياح يوما بعد يوم ، وهم فى عمره المدعه السى اسمرت طويلا وأنه أجدى عليهم أن يحاولوا الصال بدلا من ان يركوا أنفسهم للنأس ينوء عليهم بكلكله الذى لا نهايه له فيمصهم ارهاقا .

كانت هذه هى آحاسيس الجمع الدين لم يعد ثم مفر أمامهم من الخروح من المدينه لمقاتلة العدو ، ولم يعصر هذه الرعبه على البلاء وحدهم ، بل كانت تلهب فى نفوس العامة أيضا البهابة حملهم على ابهام فادهم بالراخى ، وكرهرا كل نريب من جانبهم .

ورأى القادة أن حماسه الناس اما هى أمر علوى ، فاحمعوا للنساور ، واتفق اجماعهم على أن يرسلوا وفاده الى القائد العام لعسكر العدو بصرح علنه الأخذ بواحد من اثنين :

١ . اما أن يرحل وينترك المدينه للصليبين لتكون ملكا لهم الى الأبد ، وهى المدينه التى عادب الآن البهم باراده الرب ، واما أن يسعد للعسل ، ويكون السبب هو الحكم بين الفريقين .

واحسر لهذه البعته الرجل الطاهر الذيل ، الذى ورد الكثر

عه في الصفحات السابعة ، وأعطى به بطرس الماسك ، وأسروا معه رفيقه العادل الفطن « هيرلويين » (١) الذي كان ملما بعض الامام باللعنة الفارسية وممكنا من لسان البارتيين ، وعيد الغوم ، الى هذين الرجلين بسلبهم العدو الافراح الذي ذكرناه . على انهم اصافوا الى ذلك شرطا آخر هو انه اذا آثر الأمير الحرب فله أن يحسار : اما المباراة الفردية مع أحد الرعاء الصليبين ، أو أن يخرج عدد معين من رجاله ضد عدد مساو لهم من رجالنا ، فينازل بعضهم بعضا . واما أن يلنقى الحسان وحيا لوحه في معركة عامه .

ويهادن الطرفان هدنه امان لارسال الوفاده ، فانطلق الرجلان أسريا اليهما الى معسكر الأمير [كربوغا] مع الحرس الذي حصص مهنما ، فوحدا كربوغا محاطا بكبار رجاله وبوانه .

وعلى الرغم من ان بطرس الماسك كان رجلا فطنا الا انه كان يسمح بروح عالية ، فأدى المهمة التي وكلت اليه في صدق وحماسه ، واستطاع سنوكة الرصين وبما طبع علمه من حراه لا يعرف الخوف ، أن يقرب من البساط الفارسي دون أن يبدى أى حضوع ، وسلم الادرثلا :

« لقد أرسلني مجمع الرعاء المقدس أحباب الله الموحودين في أبطاقة ، يتهون الى سموكم أن تكف عن مصايقتهم . ويرفع الحصار عن المدينة التي أعادتها الرحمة الالهية الى أيديهم . والى طبرشا

(١) يستفاد من هذا أن « هيرلويين » هذا كان يعرف الله - سايي العربي والفارسي الى جانب لغة ذلك العصر وهي اللاتينية ، وربما كان هناك مثله كيرون اصطفيهم الصليبيون ممن يعرفون لغات هذه البلاد الشرقية وان كان عددهم صلا . أو كانوا معدودين دون الصليبيين مكانة لأنهم لم يكونوا محاربين ولكن اذعنهم الاوضاع أن يكونوا في صفوف المقاتلين . انظر الرحمة الانجليزية ، ص ٢٨٢ . حاشية رقم ٨ والمراجع الواردة بها .

من الوسنة بطرس أمير الحواريين العاقل المكمل لايماننا ، والذي
اهتدب أنطاكنه بهديه الى دين المسيح ، وصار حقا لنا بفضل
فوه معجراته وكلماته الكريمة المطوية على الصبح والارصاد ، ثم
فادر ليم ان يغصب مما عدواوا وظلما ، فاعادها البنا السند القوي
ذو البأس السديد .

» وعلى ذلك فان العادة الصليبية بعرضون علمك بما ينص
واحساسهم العميق بالمسئولية الموروثة من آباءنا خدام المسيح
المخلصين ان نحار واحدا من هذه افراحات بصعها آماهاك ، وهي
أن نرفع الحصار ونسحب ونكف عن مضاهة الصليبيين ، فان لم
نعمل أندرياك بحرب بعد ثلاثة أيام نكون الحكم فيها للسيف بسكم
ونبهد ، وربادة على ذلك فان أردب بحب الصدام بعديم عذر
مقبول فانهم يحرونك بين عدة أمور بخار منها واحدا ، وهي اما أن
نلعي بنفسك وحها لوحه مع واحد من فوادنا في مبارزه لا يكون
فيها سواكما ، فان نلعب فيها عليه ملكت كل شيء ، وان هرمك
رحلب ونركنا آمنين ، وأما الافراح الثاني فهو أن يحرح بضعة
من رسايك بعابلون بضعة من فرساننا بماناوبهم عددا بحب نفس
السروط والا بعابل الجيسان بأجمعهما من الجانبين في معركة تفر
المصر » .

لكن الأمير [كربوغا] اذدرى هذه العروض المقدمة اليه ،
وفل انه قل : « ما أظن يا بطرسى العزير أن وصع رعمائك الذين
أرسلوك الى يسمح لهم بافتراح اختيارات يعرضونها علىّ ، أو أن
يعرضوا علىّ اخسارا معينا حسب أهوائهم ، ذلك لأن بسالما
أحربهم على أن يكونوا في حال لا بملكون معها حرية الاختيار ، بل

نعرض عليهم اما أن يغادروا البلاد ، واما أن نخلوا عن رعبانهم بما
يتفق وهوأى أنا •

« فاذهب الآن الى هؤلاء الغداه الأعباء الدين أوفدوك ، - وقد
عم عليهم الآن الوضع الذى هم فيه - وقل لهم انى سوف أستبقى
عندى منهم كل من هم فى رهره السباب من الحسين لكونوا فى
خدمة مولاي [السلطان] ، أما من سواهم فسوف أجعلهم بهب
السيوف كأوراق السحر المسدوظه حتى لا يبقى منهم من يذكر
بهم ، ولولا أنى آرتب أن أنركهم يلافون الموت بالجوع القاسى بدلا
من قتلهم بالسيف لدككت الأسوار عندهم منذ زمن بعيد
ولاسولب على المدينه عيوه ، فيجئون بمره مسلكتهم بحث صربات
السيف المسقم » •

- ١٦ -

بعد أن عرف بطرس غفلة الأمير كربوعا الذى أرساوه الله ،
وأدرك مدى سلوكه المنعطرس الساحم عن اعداده بما لديه من ثروات
لا يمانلها أية ثروات أخرى ، وكف عربه كسره حده ، أقول بعد أن
عرف بطرس ذلك كله اسأذه فى الانصراف وعاد الى جماعه ،
فلما بلغ المدينه أراد أن يقصى الى الرعاء الذين بعوه بالرد الذى
حملة اليهم ، وكانت الجموع كلها من الكمار والسعب نلهمون على
سماع فتوى الرد وسبجه السقاره •

وعزم بطرس [الناسك] على أن يقدم فى حصره الناس جميعا
بفرير مفصلا بكل ما حرى خلال اجتماعه بكربوعا ، وعن مسلك
هذا الأمير المنعطرس ، كما قرر أن يسر الى تهديدانه وكبريائه

(الحروب الصليبية ١-١٠١٤)

وعروره ، لكن جودفروي العظيم حاف أثر ذلك على العامة ان هم
أثثوا بجميع تفاصيل الموضوع ، ذلك أن العامة وفد أنهكتها السدائد
المستمرة ، وضعصع بسببها براكم الأحوال عليها ، ود يسيد بها
الفرع السديد فننكب على وجهها خوفا ، لذلك قام [جودفروي]
فأطفا حماسه بطرس ومعه من الاسنرسال وسرد كل ما عنده ،
وجذبه بعيدا عن الناس الذين براحموا عليه لسماع ما يقول ،
واقترح عليه ألا يفصل كل ماحدث ، بل عليه أن يقتصر على موجز
رد كربوغا ألا وهو تصميم العدو على القتال ، وأنه يسقى على
الصليبين أن صرفوا كل اهتمامهم للاسعداد للحرب .

ومن ثم لم يعرف الناس مما حكاه بطرس الا أن العدو يطلب
الصال ، فاحباح الجمع صعرهم وكبرهم رغبة عارمة ولهفة ملحة
للحرب ، واعبطوا أسد العبطة اذ بلغوا هذا الخبر ، وكانت عله
فرحهم هي ثقتهم بالنصر ، حتى كان يخيل للناظر اليهم أنهم
سوا نماما ما كانوا فيه من الصراع ضد الأحوال التي كانوا
بكابدونها ، وأفصح وحوهم جمعا على انفاق كلمتهم بأن يكونوا
فلما واحدا وفكرا واحدا ، فودى فهم أن المعركة واقعة غدا ،
فعدوا بحواش قد ملأها الفرحة حتى لعد انقصى الليل دون أن
بعض لهم عن ، سوا للمعركة ، وجهزوا أسلحتهم ، وأعدوا
حيادهم ، وراحوا ينظفون صديراتهم الحديدية ومغافهم ، وهأوا
دروعهم ، وشحذوا سيوفهم ، ومن ثم لم يكن عندهم وقت للنوم
أو الركون الى الراحة ، ونادى المبادى بن الجمع أن يخرج كل ذى
سلاح وقادر على القتال عند نباسير الفجر وقبل شروق الشمس
وينصم الى كتبته ويفف خلف راية فائده المعين له ، فلما بزغ فجر
اليوم النالى أقام القسس ورجال الدين الخدمة الدينية فى كل
الكنائس ، وقدموا الفرائين ، ثم دعوا الناس الى الاعتراف بنفس
ملؤها التواضع والمذلة كالعادة وحضوهم على التوبة وتحصين أنفسهم

صد رذائل الدنيا بشناول الغربان الذى هو دم المسيح ولحمه ، فلما عفروا لهم خطاياهم وبعضوها الى نفوسهم وفأصب القلوب بمريد من الحب الصادق ، مضى العموم الى الفصال وهم أكثر ثقة من قبل كلاميذ واباع العائل (١) : « أنا أعطيك أن نجبوا بعضكم بعضا ، كما أحبيكم أنا نجبوا انهم أيضا بعضكم بعضا . بهذا يعرف الجميع أنكم بلامدى ان كان لكم حب بعض لبعض » .

بعد أن تلقى جميع الكنائس الخدمة الدينية ، وغمر الهدوء القلوب ، انهالت عليهم النعمة من السماء ابهالا عجيبا .

كما ان أولئك الذين كانوا بالأمس واليوم الذى قبله مطروحين كأن قد فارضهم الحياه ، وقد بلغ الضعف منهم مبلغا عجزوا معه عن أى شئ حى عن تحريك حقونهم أو رؤوسهم ، وباخت عليهم الفاقة نكلتها ، وأمصهم الجوع . حتى راحوا بلمسون الأماكن الخفية عن عابئين بمكانهم الذى كانوا عليها من قبل ، أقول انهم برزوا فى هذه اللحظة من بلاء أنفسهم للعنان ، وتخلصوا من كل خوف وامشقوا أسلحتهم فى بطوأن كما لو كانت الفوه دب فى أوصالهم من حديد واستردوا اقدامهم الذى اعتادوه وراحوا يستعدون للحرب وكلهم أمل فى النصر ، وقل ان وجد فى هذا الحشد الكثيف شخص أيا كان عمره أو ظروفه لم يهين نفسه للاضطلاع لكل عمل مجيد ، وحملوا كلهم سلاحهم ، وتنأ الجمع بانتصار الصليبيين .

وراح القسيس بطوفون بين صفوف العسكر ، وحيث يتجمع الناس ، وعليهم ثيابهم الكهنوتية حاملين الصلبان وصور القديسين فى أيديهم ، واعدى القوم بفقران الذنوب ومحو جميع آثام الخطاة ان هم استسلوا فى القتال فى المعركة كحماة للعقدة المسيحية التى

(١) يوحنا ، ١٣ . ٣٥ .

ورثوها عن آبائهم ، كما قام الأساقفة نارحاء النصح لأمراء الجيوش
وفواده أفرادا وجماعات ، وحثوهم على النضال ما أسعفتهم البلاغة
التي أعدتها عليهم السماء ، ومحووا الدس تركائهم ، واسودعوهم
فى رعايه الله ، وكن فى مقدمة هؤلاء الأساقفة حادم المسيح الطوباني
أسعف بوى الذى دأب على اسداء النصح والمداومة على الصوم وملازمة
الصلاة ، وبر الجمع كرما فى احراج الصدقات ، وكن مسعدا على
الدوام للصحيه نفسه من أحل حاطر السند .

- ١٧ -

يجمع الجمع كأنهم رجل واحد أمام باب الجسر وذلك ساعه
اسراى صباح الثامن والعشرين من يونه ، بعد أن اسهلوا الى السماء
أن نمدهم بالعون ، وأعدوا صفوفهم للمعركة بعد أن سوا للقيام
بطام السر وأسلوبه ، وذلك قبل مغادرتهم المدينة ، وبولى هبح
العظيم - أخو ملك فرنسا - أمر العلق الأول كفاءد له وحامل
لراينه ، وجعلوا معه أنسلم دى ريمونب الجدير بالبناء على كل
ما يفعل ، وأشركوا معه أشرافا آخرين نعجز عن ذكر أسمائهم
وعدهم .

وعهدوا بالفريق الثانى الى روبرت الملقب بالمرريانى كوت
فلاندر ، ومعه من ضمهم معسكره من البدايه ، أما روبرت دوى
بورماندى فقد وكلوا اليه قيادة العسكر الثالث ، وكان معه ابن أخه
الفاضل سمفن كوت أو مال وغره ممن كانوا فى بطانه من النبلاء .

أما المبجل أدميرال أسقف نوي ، ذو الذكر الغالي ، فقد تاد
المجموعة الرابعة التي كانت تشمل على خاصة أبنائه وأبناء كونت
بولوز ، وكان [أدميرال] يحمل حربة السبع المسح .

وأما رينارد كونت بول فقد كلفوه بأن يعود العيقتين الرابع
والخامس ، وكان معه أخوه بطرس دي سنيناي ، وكونت جارسيه
دي حراي ، وهري دس ، وريولد فون أمررباخ ، ولتر دومندارد

وأمر الزعماء أن يكون على العلق السادس رينبالد كرت
أورانج ، ولدنح دي موسزون ، ولامبرت بن كوبون دي موباج .
أما جودفروي دوق اللورين ذلك الأمر العظيم المبجل ، وأخوه
الموفر لورد اسباس ، فكانا على الكسه السابعة ، التي ربهها وفق
السطم الحربي .

وأما القسم الثامن [من الجنس] فكان بقاءه تاكريد
الفارس المعلم في نمل حلقه وبراعته في استعمال السلاح .

وأما القسم التاسع فكان فيه هيج كونت سب بول ، وابنه
ايجراند ، وبوماس دي لافر ، وبلدوس دي بورج ، وروبرت بن
جيرادر ، ورينو دي بوفيه ، وجالو دي شومونت .

وأما الفيلق العاشر فقد عهدوا به الى روبرو كونت بيرش .
وايجرارد دي بوييسيه ، ودروجو دي مونسى ورايت ابن جودفروي
وكونون روتو .

وقاد الفيلق الحادي عشر كل من ايزورد كونت ديبى ،
وريموند ببلية ، وجاسنون دي بزييه وجيرارد دي روسيلون
ووليم دي مونبليه ووليم أمانجو .

أما الفيلق النابى عشر وهو أكبر الفالق جميعا فبؤلف مؤخره
الجيش ، وقد عهدوا به الى لورد بوهيموند رعيما وقائدا ، ووكلا
اليه أمر هذه المؤخره كى يساعد القواب الأماميه فى اللحظا
الحرجه ، كما عهدوا اليه أن يرعى من فد يشهد عليهم صنف
العدو .

واشبدت وطأة المرض يكويت بولوز فى هذا الوقت ، فخلعوه
وراءهم لحماية المدينة ، اذ لازالت فلعنها فى قبضة الرك الذين
خيف على المدينة منهم أن يظوها بلا مدافع بسبب غياب الزعماء ،
فيحاولون الاعاره عليها ، ومباغنة من بها من الشيوخ العجرة
والساء وغيرهم من أهلها الذين ليس هناك من أحد بحمبهم .

ولقد أقام الصليبيون على النل المواجه للقلعة سورا فويا من
الأسمنت والحجر ، الى جانب اسحكامات اضافيه نصبت عليها
بعض آلات الرمى ، كما تركوا بها مائنين من الشجعان الأشاوس
المدججين بالسلاح للحفاظ عليها .

- ١٨ -

حب رب فواسا نفسها على هذه الصورة وهأوا صفوفهم
للقال ، قرر الزعماء بانفاق الآراء أن يسر أمام الجيش بأجمعه
وينقدمه كل من هيچ العظيم [أخو ملك فرنسا] ، وكونب فلاندر ،
ودوى بورماندى ، أما البقية فعلمهم مراعاة التريب المفق عليه ،
وجاءت المشاة أولا ومن بعدهم مباشره الخباله كحراس لهم ،
وأعلن نداء عام يحذر تحذيرا قاطعا أى شخص من النجرؤ
على مد ناظرية الى الفنائم والاسلاب ، بل يكون الاهتمام منصبا
على كل ما فه تحطيم الأعداء ، حتى اذا ما نم النصر للصليبيين ،

ودارت الدائرة على العدو ، امكنهم العودة نفس راصه لجمع الغنيمه .

توقع كربوعا منذ اللحظة الأولى - لا سيما بعد رياره بطرس [الناسك] له - أن لابد من قيام الصليبيين بسن عاره فحانه على معسكره ، ومن ثم فانه اتفق مع الأتراك الموجودين في القلعة أنه اذا لاحظ أحدهم جماعة الصليبيين وهم يسعدون للحروح من أية ساعه من ساعات يومهم فعلى اهل البلد المبادره بمواعاه معسكره بإشارة اتفق عليها من قبل .

شرح رجالنا منذ أول ساعه من النهار في نظم صغوفهم ، فلما لاحظ أنراك القلعة بحركابهم بادروا فأعطوا الاساره لمى في معسكرهم ، فعزم كربوعا على التقدم والجيلولة دون ما يريده ، وأرسل في الحال نحو ألفى فارس ليصرف نظر فواتنا الموجوده عند الجسر ويمسعا من مفادره المدية ، ثم رجّل هؤلاء الرجال ونزلوا عن ظهور جيادهم ليكون هجومهم اشد عنفا ، ولكى يجدوا مجالا أوسع لاسنعمال أقواسهم ، فأمكنهم الاسيلاء على الطريق البعيد من الجسر ، وأما الصليبيون فعد ربوا صغوفهم . وورعوا رجالهم وفق قواعد علم القتال ، ثم قاموا بعد ذلك بفتح البوابة ، وزحف فبالههم واحدا بعد اخر ، وكاتب لا نزال مرابطه في مواضعنا على نفس المسافات النى بفصل بين بعضها والبعض الآخر .

وبينما كانت كئائب العدو التى قدمت لمنع حماصنا من الهجوم تعجدهم نفسها أشد الاجهاد لبلوع هذه الخسايه ، عمد صبح العظم الذى يبولى - كما قلنا - قيادة العيلق الأول بإرسال كوكبه من المشاة ورماة الأقواس ، فشنت هجوما عنيفا على الترك الذين حاولوا المقاومة فى بداية الأمر ، لكنهم ما لبوا أن عجزوا أخيرا عن صد فواصا ، واضطروا الى الفرار على عر بطام ، فامضى صبح أثرهم فى

عنف لم يستطيعوا معه الوصول الى جسادهم وامتطائها الا بعد
لأى وجهد ، وبسبب كانوا لائذين بأدبال الهرب اسسبسل في
مهاجمهم أسبلم دى ريموب الذائع الصيت الذى كان واقفا في
الصف الأول ، وقدم الدليل الناصع على شجاعه ، واندفع
غير عابئ سلامته حتى صار في وسطهم وفد كسعه من كل
ناحله ولكنه صمد مردبا بعصهم وطعنا بسفه نواب البعض
الآخر ، وأبدى في الفئك بهم كثيرا من البسالة الى دلب على قدره
واسنلعت اليه الأنطار ، وحدث اليه اعجاب جمع المحاربين ،
فحف لججده هبح العظم ، وروبر كوب فلاندر ، وروبر
كوب بوماندى ، وندوين كوب هسول ، واساس أحو الدوق ،
وفد امثال نفوسهم اعجابا بطولسه فضموا قواهم بعصها الى
بعض ، وكروا على العدو كره اسياصلوا بها سافة من لزال هناك
من عسكره ، ثم نابعوا اسفاء أنره الى محييه وكندوا الماربين حساره
بعجر اللسان عن وصعها .

- ١٩ -

سما كانت قوانا بغادر المدينة جرى أمر يسنحق السجمل ،
ذلك أنه فى اللحظة التى أخذوا فيها ينهأون للعمل ، وقد صاروا
بعسكرهم خارج الباب ، اذا ببعض من رجال العدو الذين دبوا
أمر منهم من الخروج يحرون صرعى ، ويلوذ غرهم بالفرار ،
وحدث فى هذه اللحظة بالذات أن أخذ حبسات الندى اللذيذ
تنساقط على الجيش الصليبي ، وكان رذاذا خفيفا لكنه أنعش
رجالنا كل الانعاش ، ونزل عليهم يرذا وسلاما ، حتى لكأن السند
ذاته هو الذى بمنحهم بركاته وعطفه .

وما كان هذا الندى العاوى المعطر نصيب أحدا الا وندب
الفرحة في نديه ، ونسبي روحه ، وسبرد فوه بمام الاسترداد ،
حتى لكأنه لم يشك قط مشقه ولم يابى صعوبه طوال رحاة الحج ،
ولم يقنصر ذلك على الرجال وحدهم ، بل ان الجناد دابها عادت -
بقوه الله - الى ما كانت عليه من النشاط ، على الرعم من انبسا
طلب لبضعة أيام سألعه لهذا الحذب لا يجد علما به ،
ولم يكن لها من طعام سوى وري الأسجار ولحائها ، أما اليوم فقد
حاوزت سرعتها وصبرها سرعه خيل العدو مع أن علف حناده كان
من السعر والنس .

أدى هذا الأمر الى أن باب الأمل في النصر فويا ، وعب هذا
الندى في حودنا قوة احتمال طاغية فكأنه هو المراد بقول الامائل (١)

« اللهم عند حروك ٠٠٠ الأرض اربعه ، السماوات اربعا
فطرت ٠٠٠ مطرا عريرا أنضج يا الله ٠٠٠ مراياك وخر دعي أنت
أصلحه »

والواقع أن حودنا لم نخامرهم أدنى سك في أن الذي نالهم
انما هو رحمة الروح القدس قد برلت عليهم .

★★★

ولما أصبح جمع الكائب خارج المدييه صمم الرعاء على
نشر العسكر خني الجبال التي بعد عن أنطاكية فراه ميلين ،
واحتلال السهل بأكمله مخافة أن يحول العدو - بأعداده الضخمة -
جلسه - او عنوة - بين فوايا وبين المدييه ، فيكون في ذلك الخطر
علنا ، كما أنه يستطيع بهذه الطريقة - كما هي عادته - الاحداث

(١) مراير ، ٦٨ ، ٩ - ١٠ .

رجالنا من كل جانب - فمقطع حط الرحعه على المتسللين الى المدنه . واخذ السامبون يعمدون ببطء حتى لا يحاط صغوفهم بعضها ببعض ، او يخلل نظامها . وقد ساءت الاراده الالهيه أن الصليبيين الذين كان يخيّل لرائيهم - وهم وراء الأسوار - أنهم دون خصمهم عددا ، أو بقول أدق أنهم لا شيء مطلقا بالنسبة إليه - قد صاروا وهم خارجها يوارونه عددا ان لم يكونوا أكثر منه جمعا ، وهكذا فان « الواحد الذى بارك الأرغفه الخمسه فراد في يقابها زياده جمة بعد أن أكل الجميع حتى سبعوا قد جاء بمعجزه ليست دون هذه المعجزه حين راد عدد هؤلاء الناس ، الذين وهبوا أنفسهم للعمل الصالح فى نظره ، وكان ذلك منه بمجندا لاسمه » .

وكان القسيس واللاويون الذين وهبوا أنفسهم للرب يسبرون فى ركب من خرجوا للقتال متسربلين بمسوحهم البيضاء ، ورافعين بأيديهم الصليب المجند ، كما ظل بالمدينه طائفة من الكهنه وكانوا كأعمالهم مدبرين بمسوحهم الكهنونه ، واعلموا الأسوار ورفعوا أيديهم الى السماء لا يكلون عن الابتهال الى السيد بدموعهم وصلواتهم أن يخلص شعبه الوفى ولا يأذن لمنكريه أن يرثوه .

- ٢٠ -

فهم كربوغا من الاشارة التى ظهرت على القلعه ومن مطالعته الهاربين المهزومين من أنطاكية عند زحف رجالنا ان الصليبيين أخذوا فى التقدم ، فدعا الى اجتماع عاجل حضره كبار الرجال فى السن وقواد عسكريه ، للنشاور فى الوضع الذى كان ينظر اليه بازدراء ، ولكنه أصبح يشكل أمرا خطرا حمكه على أن يحوف

من هؤلاء العوم النافهين ، الذين سحر مد فليل جدا من معدائهم
وعدهم الضئيل ، ومن ثم سرع في رسيب فوانه ، ونظم صفوفه
استعدادا للصال ونرولا على بصيحه مسساريه . واحده بجره
الأنطاكيب بعين الاعتبار واستطاع بكبير من انهاره بنظم فوانه
ورسيب صفوفها للصال ، وأقام حدا فاصلا باررا بين القتلى الى
يألف منها حرس مقدمه وبين السائرين خلفهم . وكان من بين
نظمائه الصارمه ما يلي .

هو أنه أرسل ناحيه الساحل كيبه امنازت بكفاءه رجالها
وسجاعتهم ، وقد فعل ذلك قبل أن يشغل الصليبيون كل السهل
الواصل بين المدينة والجبال ، ويقال ان هذه الكتيبة كانت بقيادة
قلج أرسلان أمير نيقية المشهور الذي تردد ذكره كثيرا فيما سبق ،
وكان الهدف من هذه المناورة هو أنه اذا دارت الدائره على سعب
الرب ، واضطروا للهروب ، وجدوا أنفسهم وقد سدت سبل البجاه
من خلفهم وقدامهم ، سواء كانوا يريدون الفرار الى البحر أو الى
المدينة ، وبذلك يقعون بين القوات التي تطاردهم . وبين الذين
يحاولون منعهم من التقدم فنطحهم رعى القتال بين سفنها .

ثم أقام كربوغا بقية عسكره على اليمين وعلى الشمال ، واصعا
كل جماعة تحت قيادة قائدها الخاص . ونادى في عسكره أنهم
ان أرادوا كسب عطفه عليهم ، فعليهم أن يذكروا ما عرفوا به
على الدوام من الشجاعة الفائقة ، وأن يحاربوا خصومهم حربا
لا هوادة فيها ، و لا يلقوا بالا الى مجهودات قوم لا يدرون ما الحرب ،
ولا يزيدون عن أنهم رعا انهمكتهم المجاعة ، واعوزهم السلاح ، وفل
في يدهم المال .

ولما احلب فواسا كل السهل احللا أموا معه أن يحدو بهم أى خطر أمروا بدق الطبول ايذانا بالزحف ، وسرع العسكر فى النقدم شيئا فشيئا نحو صفوف العدو ، بنقدمهم حاملو الرباب ، حتى اذا صاروا فرببين من المارقن قريبا أعجز الأخيرين عن رميهم بالسهم ، اندفعت الى الامام فى آن واحد صفوفنا اللثانه الأولى ، وقابل رجالها العدو بالسوف والرماح فى الأحياء القريبه .
أما مشاننا وهم رماه الأقواس والمجسج ، فقد سفوا كائب الفرسان ، وراح الجمع ينافس بعضهم بعضا ، وسوا من الهجوم أعنفه .

ثم جاء الفرسان فى أعقاب المشاه ، بادلين أفصى الجهد لحماية الطليعه ، وبينما كانت الصفوف الأولى ببذل فصارى جهدها فى القتال ، هب لمعاونتهم من كانوا وراءهم مسيسلين فى الهجوم ، فاناروا الطليعه للقيام بأعمال أكثر شجاعه وأعظم جراه ، وهجمت جميع القواب الصلبة باستثناء المؤخرة - التى بميادة بوهيموند - على العدو وحاربته فى بطولة ، وأسحر الفصل فى كير من الرك ، ودبت الفوضى فى صفوف الباقين فركموا الى الفرار ، وفصى الدوى ووحدته فضاء مبرما على أقرب وحدات العدو اليه ، غر أنه جلب فى هذه اللحظة أن عاد فلج أرسلان بعيلقه الذى كان - كما فلنا من قبل - قد فاده مبعها ناحية الشاطيء وكر به كره عبفه من الخلف على كتيبة بوهيموند ، وراح برشقها بوابل من السهام التى راحت تتسافط مدارا حصى غطتهم جميعا ، ثم نجح قواب قلع أرسلان الأقواس جابيا وبعنت كئسكابها المألوفة ، وهاجم بوهيموند بالهراوات والسيف وكان الكره عليه أضرى ما تكون ، حتى لم نعد صفوفه قادرة على بحمل صغط هذا الهجوم الشرس ، فدب الاضطراب فى صفوف كئيبته على الرغم من صموده للعدو ،

هو وبله صنيّله من رفاهه ، كما أبدى من البسالة العائقه ما هو
ممن به كهائده ، على أنه فى هذه اللحظة الحرجة استجاب الدوق
جودفروى لما نودى عليه ، وأسرع بعوانه لمساعدة بوهيموند ، وكان
ممن جاء مع الدوق من الرجال تنكريد القائد المقدام ، وربى على
مجيء هؤلاء الرجال خير كبير ، سمل فى نوارن فوانهم مع فوات
العدو الذى نلاشى بأسه مما شجع الصليبيين على ملاحقه ، غير
عائثى أن يصابوا فبحرحون أو يصلون ، فلما رأى الحصم أن
فونه لبست معادله لفواننا ، وأدرك أنه لن يستطيع بحمل بأس
حصومه أكثر من هذا عمد عسكره الى حيل أخرى ، وكان منها
رجوعهم الى مألوف عادتهم ، فأصرموا النار فى الروع ، فأنجحت
لوجود كميات وفيره من الحسائش الجافه وأكوام العش التى
سرعان ما أمسكت بها البيران ، وساعدت على انساع مدى الحريق ،
وعلى الرعم من أن اللهيب كان بسيطا الا أنه أسفر عن دحان كيف
حائق ، وحالت هذه القمامة بين جيشنا وبين مطارده العدو بشده ،
ذلك لأن ما أثاره أقدام كثير من الرجال والجسود من العير
والشراب ، أزاغت أبصارهم وكادت ان نعيمها ، حتى لم تكدر ترى
سبيها ، فاعنم العدو وحود هذا الدخان ، وانخذمه سيارا استخدمه
بمهارة فى تحقيق غرضه ، فهاجم فواننا وفك بطائفة من مشاننا ،
غير أن سرعه عدو جباد الفرسان ساعدتهم على تجنب أخطار الدخان
الكثيف ، فكروا عائدين الى ساحه المعركة ، وجاءهم الفوت من
السما ، فاسمروا فى القتال حتى نجحوا آخر الأمر بفضل تجدد
نشاطهم ، فى ارغام العدو المارق على الهروب أمام سبوقهم الظامّة
للانعام ، ولم يكفوا عن مطارده ، حتى حملوه - وفد اضطرت
صفوفه أشد الاضطراب - على الارتداد الى حيب يوجد اخوانهم .

كان على معربه من ساحه المعركة واد صغير ، اذا حل الشناء غمره السيل المتدفق من فمة الجبل العالية ، وقد نمك فوانا من طرد العدو الى ما وراء هذا المجرى المائى ، ولم ينوان رجاله عن بذل أقصى جهدهم فى سبب أقدامهم فوف نل يعلو هذا السهل فليلا ، وراحوا ينفخون فى الأبواق ، ويدقون الطبول فى محاولة منهم لاستدعاء عساكرهم المشتتة هنا وهناك ، ولكن زعماءنا انطلقوا بنعقبونهم دون أن يوقفوا ولو لحظة واحدة ، وسرعان ما أدركوهم ، وبينما كانت المعركة الكبرى دائره اد أببل من المؤخرة الدوى جود هروى وبوهيموند وتانكريد وغيرهم من أشراف الرجال ، وقاتلوا كنائب قليج أرسلان واسنأصلوا سَأفتهم بمعونه الرب .

فى هذه الأناء نمكنت الطليعة المؤلفه من هيج الكبير ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى مع الكثيرين ممن يستحقون الذكر الأبدى ، من حمل العسكر المعادى لهم على الهرب ، فاجتاز هؤلاء المحاربون الوادى ، وأزاحوا العدو عنوة من على الجبل ، وأرغموه مرة أخرى على الفرار ، وقد صربت الفوضى أجرائها عليه ، ولم يعد قادرا على احتمال الضغط الذى مارسته القوات الصليبية عليه .

ظل كربوغا منذ بدء القتال بعيدا عن ساحة المعركة مرابطا على تل معين ، وكانت الرسل موصولة العدو والروح حاملة له أخبار المعركة ، وبينما كان يترقب فى لهفة نتيجة هذا الصراع العام ، اذا به يطالع - فجأة - اختلال نظام قواته وتفرقها ، وفرار عسكره على وجوههم فى شنى النواحي على غير هدى ، وتفرقهم أيدي سبأ ، غمره الحزن الممض حين أدرك مدى النكبة التى حلت بهم فنصحته

أباعه بالعمل بكل الوسائل على ما فيه سلامه ، فغادر المعسكر على عجل لاثذا بأذيال الفرار غير عابئٍ مطلقا برجاله ، ولا مسطرا احدا منهم ، وأحد يتبدل على الدوام الجياد على طول الطريق لستيل هروبه ، حتى بلغ نهر الفرات ، فعبره وهو في حال من الفزع الشديد ، فلما بلغ شاطئه الآخر لم يصدق أنه بلغه سالما .

حين شاهدت فواب العدو تخلي فائدها عنها وحرمانها من مساعدته اياها ، زاليتها شجاعتها وبلاشي عزمها ، فاسولى رجالها على كل ما عسروا عليه من الحبل ، وحدوا حذو كبيرهم فأمعوا في الهروب حتى لا يكونوا طعما لسيوف مطاردتهم .

ولم يكف رجالنا عن مطاردتهم الا لحوقهم من أن سق جباههم بحهم من طول المطاردة ، بيد أن ناكريد وشرمة صئلين معه قصوهم مسافة ثلاثة أو أربعة أميال ، حتى حانت ساعة العروب فرجعوا بعد أن أوقعوا الفزع الأكبر في قلوبهم .

ابتلت العوة الالهية نفوس هؤلاء الفارين بالحواف ، حتى انهم لم يستطيعوا الصمود لهجمات المعدين عليهم ولا صدها . إذ يخالون العشرة من رجالنا آلافا مؤلفه ، كما أنهم لم يجدوا أحدا يهديهم ويأخذ بيدهم أثناء هروبهم أماما ، وتوضح هذه الحقيقة أنه ظهر صدف المل القائل (١) .

« ليس حكمة ولا فطنة ولا مشورة نجاه الرب » .

وظهر جليا في هذه التجربة ذانها أن فوما أهل مربة تكاد المجاعة نقضى عليهم يصبحون ذوى بأس شديد ، فادري بمعونه الرب على هزيمة مل هذا الجيش الكبير من المحاربين الأقوياء وأن

(١) أمثال ، ٢١ ، ٢٠ .

ينحقق لهم فى معركة واحده فوق كل ما كانوا يأملون ، اذ يتمكنون
من دحر جميع قوة المسرف الذى لا يعرف الرب . .

- ٢٢ -

حين فرح رجالها من المعركة ومحتهم السماء النصر ، انفلتوا
الى مخيمات العدو ووجدوها راحه بكل ما هو ضرورى وما لا غنى
لهم عنه ، وعسروا على أحمال كبيره من الأمعه الشرقيه القالبه التى
بلغت من الصحامه فدا كان من المستحيل معه عدها وتقديرها ،
وهى غنائم من الذهب والفضة والجواهر والحريير والملابس الغاليه،
الى جانب الأدوات المرلبة الرائعه الصبغة ، النفيسه الماده ،
كما وجدت هناك أعداد ضخمة من الجياد وفطعان الماشيه وأسراب
الأغنام ، بالإضافة الى مفادير هائله من الأطعمة والجبوب ،
وكان ما عنموه شيئاً عظيم الوفرة ، حتى لقلد بحير من كانوا حتى
الآن مملفين أشد الاملاق ماذا يأخذون وماذا يتركون ، واستولوا
على خيام العدو ومساطيطه السى كانوا فى حاجة ملحة اليها ،
لأن ما كان لديهم منها من قبل قد قدم العهد به ورت ، وأبلاه
هطول المطر الغزير عليه ، مما جعله فى الواقع غير صالح
للاستعمال .

ثم عادوا الى أبطاكية وفد فاضت أيديهم بالغنائم الجمة ،
فكان مما عادوا به ، مما خلفه الأتراك وراءهم حين فرارهم الاماء
والأطفال ، كما استولوا على مخيم القائد السام ، وهو قطعة من
الابداع فى الصبغة فد سجع أغلبه من أحسن أنواع الحريير المتعدد
الألوان ، وكان هذا الغسقاط مؤلفاً من حجرات تمتد الى جهات

بعيدة ، ويفضلها بعضها عن بعض الشوارع ، وفيل ان هذه الحيمة كانت تسبح لالعين من الرجال لايراحم الواحد منهم فيها الآخر ولا يصايمه .

رجع الصليبيون الى المدينة محملين بكل ما أصابوه من الغنائم والأسلاب ، وعدوا يومهم هذا يوم فرحة عامرة بسبب النصر الذي أحرروه ، وعادوا ساكرين من جاذب يده عليهم بالغلبة الى وافيهم بعد طول انتظار ، وبعدما فاسوه من الكوارث ، وما نزل بهم من المصائب العديدة .

أما الترك الذين لازال العلة في أيديهم فقد أدركوا الآن أن فد حاف الهزيمة بحلقائهم ، ودارت عليهم الدائرة ، ففقدوا كل أمل كان براودهم في بجله نأنيهم من أى مصدر ، وحينذاك أسلموا القلعة لقادسا الدين خفف أعلامهم على ساهق أبراجها ، غير أن الترك استرطوا عليهم أن بأذنوا لهم بالخروج سالين ، لايعرض لهم أحد بسوء فى أنفسهم ، ولا فى أولادهم ، ولا فيما ملكت أيديهم .

ومن ثم تم نصر الصليبيين ، واستحوذوا على القلعة برحمة الرب الكبره السامله ، وأصبح من كانوا بالأمس الدابر فى شدة الاملاى والحوغ : أغنياء كل الغنى اليوم بما ملكته أيديهم من كل طيب .

لقد مرت عليهم أيام عجاف صار فيها أصلب الحجاج عودا من أصحاب الأسماء الرنانة وذوى الصبب الذائع - ولا نذكر العامة أقول مرت أيام صار فيها هؤلاء وقد ضاقت بهم الحياة ضيقا اضطروا معه الى الاسنجداء ومد أيديهم بالسؤال ، وحسبنا أن نذكر منهم كونت هارتمان - أحد نبلاء المملكة التيوتونية - فقد صحا ذات يوم ليجد نفسه فى فقر مدفع ، وأصبح هذا النبيل

العظيم يرى الملة الكبرى أن يصمدى عليه الدوى كل يوم بحبر
يجود به عليه من مائدته .

وشابهه أبصا « هنرى ديش » ، وكان رجلا فاضلا مرموقا ،
اذ كاد - من غير مبالغة - أن يهلك جوعا ، لو لم يسنضعه الدوى
على مائدته .

وفى أثناء هذا الحصار كابد الدوى دانه مشقة كبيرة قبل
المعركة لعدم وجود حيل لديه ، لكنه استطاع بعد لآى ومشقه ،
وبعد ان قدم ما قدم من الماساات جمه الى كوت بونور ، أن
يحصل منه على حواد واحد يمضى به الى المعركة ، وكان جود فروى
وسواه من الزعماء الآخرين قد أنفقوا هم أيضا كل ما كانوا قد
حاءوا به من المال ، اذ بذلوه فى أعمال البر والرحمة ، لاسيما
ما كان منها متعلقا بالنفقة العامة .

وهكذا شهدت ساحة المعركة - يوم نشبت المعركة - رجالا
أبطالا دوى حسب يمسون اليها منساة ليس عندهم ظهر يركبونه ،
وبعضهم يمسطى الحير وأمالها من دواب العفل ، ذلك لأنهم كانوا قد
أفنوا كل ما معهم من المال ، وأصبحوا اليوم مملفين لس لديهم
خبل .

غير أن الله كالأهم برحمته قبل غروب شمس ذلك اليوم ،
فأنزل الهزيمة بالاعداء ، وأعدى على أساعه المحتاجين من النروة
فوق الذى يشنهنون وفوى ما يصورون ، ومن الواضح ان هذا كان
تكرارا لقصة السامرة القديمة حين بلغ ثمن بيع المكمل من الدقيق
الطحين والسعبر قطعة واحدة من النقود (١) ، ولكن لم يمس المساء

(١) هذه اشارة الى ما جاء فى التوراه من حبر نوه الشئ بالرحص فى
السامرة ، اذ ورد فى الملوك الثانى ١٧/٧ « وقال الشئ اسمعوا كلام الرب ،
هكذا قال الرب فى مثل هذا الوقت . عدا تكون كيلة الدقيق شافل ، وكيلسا
الشعير بشافل فى باب السامرة » .

على من لم يكن عنده غير ما يمسك رمقه الا وقد يوفر له منه ما راد
عن حاجته وما يكفى أن يقيم أود الكبرين معه .

ولقد وقعت هذه الواقعة في اليوم الثامن والعشرين من شهر
يونيو ١٠٩٨ من ميلاد المسيح .

- ٢٣ -

لم يكن القادة يعودون من ساحه القتال ويسبب شيء من
السلام والنظام حتى اصرفت همه الجميع للعناية بالكنائس . وكان
أشد العوم احساسا بالمسئولية تجاه هذا الأهتمام [أديمار دي موسل]
أسقف بوى المعظم ، باعتباره راعي الجينس ، وعاونه بقيه من في
الجنس من القسس معاونه صادقة مخلصه ، كما أقبل الناس يمدون
بد المساعدة عن طب حاطر ، وبهذا عادت الكنيسة الرئيسة المهداه
الى أمير الحواريين وفيه كنائس أنطاكية الى مكائنها التي كانت
عليها في الاصل ، وأقام فيها المساوسة الذين وهبوا أنفسهم على
الدوام للقيام بالخدمات الدينية .

كان الترك قد دنسوا الأماكن الطاهرة وأخرجوا منها من كان
بها من أهل التقوى ، واستخدموا الكنائس اسجداً سائتاً .
فحولوا بعض هذه الأماكن المقدسه الى اسطبلاب للخيول ولغيرها
من دواب البفل ، وممارسوا في غيرها أعمالاً دسه ، وطمسوا صور
العدسين المبجلين التي كانت على جدران هذه المواضع ، زاروا
الرموز التي كانت نفوم مقام الكسب والقراءة لعباد الرب المستضعفين .
وكان ما طمسوه أشياء نبعت القوى في نفوس البسطاء ، فصب

الترك عصبهم على هذه الانبياء كما لو كانت أحياء يسعسون ، فراحوا يساحون عبوبهم ، ويخدعون أنوفها ، ويطمسوا هذه الصور بالطين. ويلوون بها بالعادورات ، وبهدمون المدايح ، ويدسون هبكل الرب بفصلهم المسكرة ، فاقى الاجماع حسداك على أن يعود رجال الدين في لحظتهم لممارسته الأعمال التي كانت صاغة بهم من قبل في الكنائس ، وأن يجمع المال ليصنوا به المحاربين في سبيل الرب ، وأن يؤجد ما عموما من ذهب العبد وفضنه ويصبغون من ذلك السمادات والصلبان وكؤوس القرايين ، ويرسم عليها صور مسجرة من الكتاب المقدس ، ويستخدم في كل ما هو ضروري ولازم للخدمة في الكنيسة ، كما قدموا الأقمصة الحريرية لصنع الملابس الكهوتية وأغطيه المدايح .

وأعد البطرك «يوحنا» الصادق الإيمان الى أبرسته ، وكان قد كابد من العذاب على أيدي الترك منذ مسمدم الصليبيين ما يعجز اللسان عن وصفه .

أما المدن المجاورة التي كانت تمنع بوجود كنائس كدراثيه بها فقد نصبوا أساقفة يرعونها ، كما وجدوا - من ناحية أخرى - أنه ليس من اللائق اختيار أو رسم بطرك لاسنى في الوب الذي كان ٢٠٠ ساعل هذا المكان الموفر لا يزال على قيد الحياه ، وذلك تحاسنا من وجود انبئ يشغلان نفس الكرسي في وقت واحد ، مما يعتبر مخالفة صريحة لقوانين الآباء المقدسين وفراراهم النظممة . على أنه قبل انقضاء عامين غادر البطرك يوحنا بمحض اراده أنطاكية ، ومضى الى القسطنطينية ، وذلك ادراكا منه أنه لن يكون قادرا - كيوناني - على أن يحكم بفعلته على اللانين ؛ فلما غادرها اجمع رجال الدين والشعب واخباروا بطركا آخر لهم هو دربارد أسقف « أرناح » من أهل فالنسيا وهو الذي صاحب أسقف بوى في هذه الحملة كاشين له .

ثم امنل الجميع للعهد الذى قطعوه على أنفسهم فى البدايه
الا وهو أن تكون السلطة والحكم فى أنطاكيه لبوهيموند ، ففعلوا
ما اتفقوا عليه ، ولم يشدد عليهم سوى كوث بولور ، الذى اجتمع
بالبوابه الملاصقه للجسر وبجميع الأبراج المتصله بها ، وأقام فيها
حاميه من رجاله تتولى أمر حراستها •

على أنه بعد معادرة الكونت لأنطاكية عمد بوهيموند الى طرد
حمد [ريموند] من هناك ، وأحل حاميه من رجاله محلهم لحراستها ،
واسمولى على المكان كما سرى خبر ذلك فما بعد •

ولقد حلق حاصه رجال بوهيموند عليه لقباً معظماً الا وهو
« الأمير » ، الذى أصبح مد هذه اللحظه لقباً لصاحب أنطاكيه
لا يشاركه فيه أحد غيره •



هنا ينتهى الكتاب السادس

● ● بهذا ينتهى الجزء الأول من الترجمة العربيه لكتاب
الأعمال التلى تم انجازها فيما وراء البحار أو تاريخ الحروب
الصليبيه تأليف وليم الصورى ، ويليه الجزء الثانى متضمناً الكتاب
السابع حتى الثانى عشر •

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم
٩	مقدمه المرجم
٢٧	مؤلفات وليم الصورى
٣٣	تاريخه الكبير
٤٥	كامة سكر
٥٧	التمهيد
	الكتاب الأول : المسححة بهب لاسيخلاص بب المقدس .
	وبطرس الماسك بدأ فى الزحف مع جماعات
٥٧	أخرى
	الكتاب الثانى : جهوش الحملة الصليبية الأولى تزحف الى
١٣٩	القسطنطينية
	الكتاب الثالث : الاسيلاء على نيقبه والزحف عبر آسيا
١٩٣	الصغرى
	الكتاب الرابع : اجتياح الصليبيين شمال الشام وتروعهم
٢٤٩	فى حصار أنطاكية
٣٠٧	الكتاب الخامس : حصار أنطاكية واحلالها
٣٦٣	الكتاب السادس : محاصرة الصليبيين . النصر المعجزة .
٤٢٣	

● صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د • عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - توره يولبو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - الناراب الفكرية فى مصر المعاصرة
د • محمد نعمان جلال
- ٥ - عاراب أوربا على الشواطئ المصرية فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١
لمعى الطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبى
د • عبد المنعم ماجد
د • محمد أنيس
- ٨ - رؤيه الجبرى لازمة الحياه الفكرية
د • على بركات
- ٩ - صفحات مطويه من تاريخ الرعيم مصطفى كامل
- ١٠ - نوفق دباب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

- ١١ - مائه شخصه مصره وشخصية
شكري القاضي
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر النوير
د. نبيل راجب
- ١٣ - اكدوبه الاستعمار المصري للسودان
د. عبد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر في عصر الولاة
د. سميرة اسماعيل كاسف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي
د. علي حسن الخربوطي
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر
د. حلمي احمد شلبي
- ١٧ - القضاء السري في مصر في العصر العثماني
د. مهدي نصر فرحات
- ١٨ - الماوري في مجمع الناصر الماوري
د. علي السيد محمود
- ١٩ - مصر الحديثة وفصله بوحدة القطر
د. احمد محمود صابون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فيمي
د. محمد أنيس
- ٢١ - الصوف في مصر ابان العصر العثماني ح ١
توفيق الطويل
- ٢٢ - بطراي في تاريخ مصر
جمال بدوي

- ٢٣ - النصوص في مصر ابان العصر العثماني ج٢
توفيق الطويل
- ٢٤ - الصحافة الوفدية
د . نجوى كامل
- ٢٥ - المجمع الاسلامى
ترجمة : د . عبد الرحيم مصطفى
- ٢٦ - تاريخ الفكر الربوى في مصر الحديثة
د . سعيد اسماعيل على
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج ١
ترجمة : محمد فريد ابو حديد
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : محمد فريد ابو حديد
- ٢٩ - مصر في عصر الاحسيدين
د . سيده اسماعيل كاشف
- ٣ - الموطعون في مصر
د . حلمى احمد شلبى
- ٣١ - خمسون شخصه وشخصه
شكرى القاضى
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٢
لمى الطيعى
- ٣٣ - مصر وصاايا الحروب الافريسي
د . خالد الكومى
- ٣٤ - تاريخ العلامات المصرية المعربية
د . يونان ليبب رزق

- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى
- ٣٦ - المجمع الاسلامى والعرب ح ٢
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - النسخ على يوسف
تأليف : د. سليمان صالح
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى فى
العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميل عبيد
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة
د. عبد المنعم الدسوقي الجهمي
- ٤١ - محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غبريال
- ٤٣ - رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز
- ٤٤ - الأوقاف والحجبة الاقتصادية فى مصر فى العصر
العثمانى
د. محمد عفيفى

هذا الكتاب ، تاريخ الحروب الصليبية ، عمل علمي
كبير لويليم الصوري الذي يعرفه طلاب الدراسات
التاريخية كأحد أعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب ،
وهو يعالج الفترة التي امتدت من عام ١٠٩٤ - ١٩٨٤
والفترة التي تلتها أي على مدى قرن ونصف من الزمان
والتي أخذت تندفق فيها الهجرات الشعبية المسلحة
المتسريفة بمسوح الدين والصليب ، وهي التي عرفت
باسم الحملات الصليبية .

وهذه الترجمة سوف تصدر في أربعة مجلدات - هذا
أولها - أثبت فيها الأستاذ الدكتور حسن حبشي مكانته
العلمية وتفرد بادر عظيم من الدقة التي ترسم للجيل
الجديد من المؤرخين الطريق للوصول إلى الاستاذية
بمعناها الصحيح .

Bibliotheca Alexandrina



0212002

٣٧٥ قرشاً